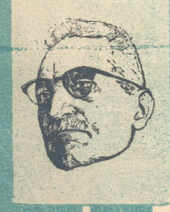



دكتور جمال الدين الرمادي

من
أعلام الأدب المعاصر




دار الفكر العربي









دكتور جمال الدين الرمادي

مِن أعلام الأدب المعاصِر

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر الأدب الحديث ميداناً بكراً من ميادين البحث العلمي ، وقلما نجد أديباً من الأدباء أو باحثاً من الباحثين يهتم بهذا الأدب ويخوض في ميدانه ، فالاهتمام كله الآن منصب على الأدب القديم والعناية كلها متجهة إلى الأدب الجاهلي والأدب الأموي والعباسي وغيرهم من ضروب الأدب القديم . . .

وهذا الكتاب جهد نرجو أن يكون مكللا بالنجاح ، ولعله يكون هدياً لباحث أو نبراساً لدارس .

ولقد قسمنا هذا البحث إلى ثلاثة كتب . . . قسم خصصناه الكتاب وعلى رأسهم الدكتور طه حسين والأستاذ الكبير عباس محمود العقاد . . وقسم ثان خصصناه للقصصيين ومنهم الأساتذة محمود تيمور ويوسف السباعي ونجيب محفوظ ، وقسم أخير خصصناه للشعراء وعلى رأسهم شوقي وحافظ ومطران والبارودي وبشاره الخوري والشابي وغيرهم من شعراء العصر الحديث . . .

وما قصدت سوى ابتغاء وجه الحقيقة العلمية التي تعد من أبرز السمات التي نحرص عليها ونتمسك بها ونتحرى عنها . . .

وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور

جمال الدين الرمادي

الكتّابُ

دار الحمامي للطباعة
شارع الجيش ٢ كنيسة الأرمن

طه حسين

لم يكن شيئاً فكان شيئاً . . . وشيئاً عظيما . . . وكان فى السفح فبلغ القمة وسلك فى طريقه من السفح إلى القمة طريقاً صعباً عسيراً ملأ بالصعاب والعقاب ولكنه كان سهلا يسيراً بالقياس إليه ، تشرق عليه الشمس حيناً وتغيب عنه الشمس حيناً ، وتكتنفه الظلمة المظلمة ويطويه الليل البهيم مرة ويبلله الغيث ويغمره السيل مرة ، غير أنه لا ييأس فى صعوده ، ولا يمل من سيره حتى استوى على القمة فانعكست عليه الأضواء ، وغمرته أكاليل الأنوار ، وصفقت له الجموع وخفقت بحبه القلوب . .

تلك هى حياة طه حسين أديب مصر الأول بل أديب الشرق العربى بأسره . وحياة طه حسين خصبة مترعة ، لا يستطيع القلم أن يتناولها فى صفحات من جميع جوانبها ، ويلم بها فى لحظات من جميع أطرافها ، فهى قصة الكفاح والصبر والجهاد فى سبيل المجد .

وقد رسم لنا طه حسين صورة لهذه الحياة فى كتابه « الأيام » الذى طبقت شهرته الآفاق وترجم إلى شتى اللغات الأجنبية وهو أشبه شىء باعترافات جان جاك روسو وجيته وشاتوبريان بل وتحليلات وتأملات كبار المفكرين والأدباء من أمثال باسكال ومرسيل بروست ، إذ قص لنا فيه صورة صادقة عن حياته الماضية دون تزويق ودون تنميق ودون زيف أو رياء ، وعشنا معه فى جوانب القرية وبين جدران الكتاتيب واستمعنا معه إلى دروس سيدنا وتبركنا بإمام المسجد وصاحب الخطبة والصلاة الذى كان معروفا بالتقى والورع وكان الناس يتبركون به ويلتمسون عنده شفاء حاجاتهم مارغبنا فى ذلك أو استطعنا إليه سبيلا . وأخذنا نتتبع معه صوت سيدنا الشيخ وهو يجلس على الدكة يلقى على أديب مصر دروسه فينسى جلها ويحفظ أقلها .

ولا أستطيع أن أتصور كاتباً بلغ القمة فى الصدق مثلما بلغها طه حسين وهو

— يرتدى قميصه وهو يتبين أثناء عباءته وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ماسقط عليه من الطعام ويصف نعليه الباليتين المرهقتين وينفق الأسبوع والشهر لايعيش إلا على خبز الأزهر الذى يضم ضروبا من القش وألوانا من الحصى وفنونا من الحشرات وهو ينفق الأسبوع والشهر لايغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود ، ثم وهو يسرع مع قائده فى الأزهر لا يختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين .

بلغ طه حسين الذروة فى وصف حياته الأولى فى كتابه (الأيام) فى صدق لم نعهده فى غيره من الكتاب المعاصرين ، وليس من شك فى أن الصدق عنصر هام من عناصر الحياة فى الآدب ، فكلما كان الأدب صادقا كان أقرب إلى الكمال وكلما كان مصوراً لواقع الحياة ، بعيـــداً عن الأوهام ، خالياً من الأكاذيب والترهات كان أدباً ممتازاً يستحق البقاء والخلود .

وقد ظهرت فى كتاب الأيام كما ظهرت فى كتب طه حسين الأخرى ظاهرة التفنن فى وصف الطبيعة ، وتتبع الحركات الإنسانية حركة حركة حتى أن الكاتب لاتفوته نأمة ولا نغمة ، ولا همسة ولا حركة تصدر عن الشخصيات التى يتحدث عنها بل كأنه أوتى من قوة الملاحظة ، وسرعة البديهة ، وحدة الخاطر ، ما يعين غيره من المبصرين .

تأمل حاسته القوية النفاذة وهو يعلل إدراكه للأشياء بحواسه النابضة التى تدرك مالاتدركه العين (وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم فى فجره أو عشائه ويرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى فى ذلك الوقت هواء فيه شىء من البرد الحقيقى الذى لم تذهب ، حرارة الشمس ، ويرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نوراً هادئاً ضعيفاً لطيفاً كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه ثم يرجح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهـــذا الضياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه . . .

فنى هذه الفقرة نستطيع أن ندرك مراحل التفكير فى أدب طه حسين وإنها تدل على تسلسل فى الأفكار ، وترابط فى المعانى ، ونظام فى المقدمات ابتغاء الوصول إلى النتائج .

وكتاب (الأيام) على أية حال هو خير مصور لحياة طه حسين الأولى فى حى القرية إلى أن نزح إلى القاهرة يطلب العلم فى الأزهر ويمتحن بما كان يمتحن به الأزهريون من تجارب فى الحياة ، ونظم فى العيش ، وأساليب فى العلم ، وصنوف من الكتب الصفراء حيناً والمخطوطات حيناً آخر ، وألفية ابن مالك طوراً وشرح الأشمونى طورا آخر.

* * *

تتلمذ طه حسين على الشيخ المرصفى ، وكان أحد أعلام الأدب فى القرن الماضى وكان مكفوف البصر جىء به إلى الأزهر فأخذ العلم عن كبار شيوخه حتى أدرك منه الكفاية وتصدر للتدريس فى الأزهر ، وألف كتاب « الوسيلة الأدبية » فى البلاغة ضمنه شعر الفحول من الشعراء القدماء وشعراء العصر الحديث ، وقد تعلم منه طه حسين فنون الأدب القديم ، ودفعه إلى الانتهال من معين التراث العربى التليد ، ولزمه أربع سنوات ولم يكن ينقطع عن درسه أو يتخلف عن مجلسه ، ولم يقف الأمر بينه وبين أستاذه على ما يكون بين الأستاذ والتلميذ من الصلة بل نشأ بينهما نوع من المحبة قوامها الإجلال والإكبار وإيثار البدوى الجزل من الشعر والنبو عن التكلف والمصانعة . ولم يلبث طه حسين أن هجر التعليم فى الأزهر ، والتمس العلم فى الجامعة المصرية ، فالتحق بكلية الآداب ، وانتظم فى سلك دروسها وأخذ يسعى لسماع دروس الأساتذة المصريين والعلماء المستشرقين فى شغف . وفى الجامعة أتيح لطه حسين أن ينطلق فى تفكيره ، وأن يبدأ فى دراسة الأدب الحديث لأن العكوف على الثقافة العربية فحسب لا يجدى ولا يفيد ، كما بدأ فى تفهم مناهج البحث عند الإفرنج وقراءة ما كتبه الأوربيون فى لغاتهم المختلفة عن العرب من أدب وفلسفة وحضارة ودين . وطفق يدرس علم النفس للأفراد والجماعات حتى يستطيع أن يتعمق فى فهم ما ترك الكاتب أو الشاعر من آثار أدبية .

* * *

وكان طه حسين يولع أشد الولع بأبى العلاء المعرى ويطرب من شعره ، ويجد فيه لوناً من المتاع الذهنى واللذة الروحية ، فعول على كتابة رسالة عنه يقدمها إلى كلية الآداب للحصول على درجة الدكتوراه .

وعكف طه حسين على دراسة شعر أبى العلاء والتمعن فى فهمه وتحليله وتفسيره وتتبع أخبار أبى العلاء نفسه فى كل مصدر سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات

الأوربية ، وأنفق السنوات الطوال فى البحث والدرس حتى استوى بحثه على ساقيه وتقدم به إلى الجامعة المصرية .

وفى يوم الثلاثاء الخامس من مايو عام ١٩١٤ فى الساعة الخامسة مساء اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان رسالة الدكتوراه التى تقدم بها طه حسين من الأستاذ محمد الخضرى رئيساً والأستاذين محمد المهدى ومحمود فهمى ، المدرسين بالجامعة والاستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المندوبين من نظارة المعارف أعضاء ، وكان اجتماعها بهيئة علنية ، وناقشت اللجنة طه حسين فى الرسالة التى قدمها فى تاريخ أبى العلاء المعرى ثم فى العلمين اللذين اختارهما وهما الجغرافيا عند العرب والروح الدينية للخوارج ، واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات فقررت أنه يستحق :

(ا) درجة جيد جداً فى الرسالة .

(ب) درجة فائق فى الجغرافيا عند العرب .

(ﺟ) درجة فائق فى الروح الدينى للخوارج . .

وفى منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور الذى احتشد فى قاعة الامتحان فارتاح مجلس الجامعة لهذه النتيجة وقرر تبليغها الخديوى والتماس تقديم طه حسين إليه ؛ ولما كان الدكتور محمد علوى باشا قد وقف ابتداء عام ١٩١٣ على روح ابنه المرحوم حسين علوى مبلغاً سنويا قدره عشرة جنيهات يصرف لمن ينبغ من طلاب الجامعة المصرية فقد صرفت مكافأة سنتى ١٩١٣ و١٩١٤ إلى الشيخ طه حسين ؛ الذى امتاز بتفوقه فى الدراسة وبنواله أجازة العالمية فى قسم الآداب بدرجات عالية جداً .

ورسالة طه حسين التى تقدم بها إلى كلية الآداب تمثل الأبحاث الجامعية المنظمة التى أخذت الجامعة على عاتقها القيام بها منذ إنشائها حتى اليوم ، ولذلك كانت التجربة الأولى فى هذا الميدان خليقة بكل تقدير وثناء لأنها هى التى رسمت السبيل بعد ذلك لغيرها من الأبحاث ، وقد قسمها طه حسين إلى فصول أو إلى مقالات ، فالمقالة الأولى فى زمان أبى العلاء وشعبه ، ودراسة لعصر القوة والضعف ؛ وللحياة الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والفلسفية وللتاريخ والجغرافيا ، والشعر

والخطابة والرواية والنحو والصرف والعروض والثقافة وغير ذلك ؛ والمقالة الثانية فى قبيلته وأسرته ونشأته وضياع بصره . وتربيته وتعليمه ، وحياته العلمية والأدبية فى بغداد ، وفشله هناك وحزنه لهذا الفشل ، وموت أمه . واعتزال الناس . وفشله فى طلب العزلة . واتهامه بالزندقة . واتصاله بالسياسة . وملكاته وأخلاقه . وشيخوخته ووفاته . والمقالة الثالثة فى أدب أبى العلاء وشعره ودراسة دواوينه مثل سقط الزند الذى يحتوى على شعره أيام الشباب وبعض شعر الشيخوخة ، « والدرعيات » وهو كتاب مستقل ألحق « بسقط الزناد » واللزوميات أو لزوم مالا يلزم وهو أكبر الدواوين الثلاثة وأجلها خطراً . وقد تناول طه حسين فى هذا الفصل النقد والسخرية والخيال ومهارته اللغوية . والمقالة الرابعة فى علم أبى العلاء وفنونه ، وعنايته بآثاره وكتبه . والمقالة الخامسة فى فلسفة أبى العلاء وموضوعات فلسفته وفى الزمان والمكان والخبر والروح والتناسخ ، والبعث والنبوات ، والزواج ، والأخلاق ، والسياسة والاقتصاد ، والحيوان ، والعزلة ، والمرأة والعدم .

وهذه المقالات الخمس هى الخطوط العريضة لرسالته التى حصل بها طه حسين على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، بتقدير جيد جداً وهى تدل على منهج سليم ودراسة علمية واضحة .

وأوفدت الجامعة الدكتور طه حسين عقب ذلك إلى مدينة «مونبليه» فى مايو عام ١٩١٤ لدراسة العلوم التاريخية كما أوفدت فى نفس السنة وفى نفس البعثة محمد سلطان أفندى لدراسة العلوم الجنائية واحرزا الدكتوراه فى العلوم الاقتصادية والسياسية من الجامعة نفسها .

وقد حصل طه حسين على لقب دكتور فى الآداب « قسم التاريخ » من جامعة السوربون وحضر إلى مصر عام ١٩١٩ بعد أن نجح نجاحاً باهراً وعهد إليه فى تدريس مادة التاريخ القديم لقسم الآداب .

وقد كانت باريس وحياً لطه حسين فى قصصه فكتب «صوت باريس» كاصور رحلاته إليها ، وتنقلاته فيها ، والتمثيليات التى قدمت على مسارحها ، ووصف مافيها من خير وشر ، ونقمة ونعمة ، دون قصور أو تقصير .

وفى مدينة مونبلييه فى فرنسا تفتح قلب طه حسين للحب كما تتفتح الزهرة

الغضة لأنفاس الربيع . وكان ذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر مايو عام ١٩١٥ فى وقت بين الساعة السادسة والساعة السابعة ويقع بين عاصفتين عنيفتين من هذه العواصف التى تثور فى بعض المدن الفرنسية حين يتقدم الربيع وتبدو طلائع الصيف ، فيجمع فى السماء سحباً ثقالا كثافا ثم تبعث فى الجو ماشاء الله من برق خاطف ورعد قاصف ، ثم تفتح أفواه القرب فينصب الماء على الأرض صباً ، ثم تصفو السماء وينجلى الجو وتستقر الأشياء ، ويتحدث الناس عن شدة العاصفة وغزارة المطر ويشيرون لعاصفة أخرى شديدة ومطر آخر غزير .

فى ذلك طرقت باب غرفته فتاة تصحبها أمها فسلمت عليه فى استحياء . وكان ينتظر قدومها بين الفينة والفينة ويخاف أن تحول العاصفة بينه وبين سماع دقاتها على بابه ، وأخذا يخوضان فيما التقيا من أجله من حديث ، ولم يكن الحديث متبسطا ولا منوعا ، ولا طلقاً إنما كان مقيداً أشد التقييد ولكن كان حديثا له ما بعده إذ ملأ قلبه غبطة وسروراً ونشوة وحبوراً ، ونظم صاحبنا معها مواعيد يلتقى فيها إذا كان المساء من كل يوم ليقرأ ماشاء الله من أدب وفلسفة وتاريخ ، واتصل لقاؤهما شهرين كاملين فى المساء من كل يوم .

ويقول طه حسين أنه لا يدرى أى الأمرين كان أحب إليه وأحسن موقعاً فى نفسه ، القراءة أم الحديث ، إذ لم ينقض هذان الشهران حتى كان بينه وبين الفتاة ود عقلى خالص قوامه حب هذا الأدب الفرنسى الذى كانا يقرآنه والذى كانت تفسره وتدله على مواضع الحسن فيه .

وتفرق أيدى الزمان بينهما ويعود طه حسين إلى مصر وقد رانت عليه سحابة معتمة من الأسى ، وغيمة من الكآبة شاع أثرها فى أدبه وفيما كان يكتبه من فصول فى هذه الفترة . ثم تتاح له الفرصة بالسفر إلى فرنسا مرة أخرى ولم يكد يصل إلى مدينة نابولى فى إيطاليا حتى تلقى خطابا منها فأخذ صديقه الدكتور أحمد ضيف يقرؤه عليه مرة ومرة ومرة وهو يلتمس منه أن يعاود قراءته حتى ينال منه التعب ، ويأخذه الإرهاق كل مأخذ ، وتسوقه الأشواق إلى باريس سوقا فإذا به يلقى صاحبته هناك ، ولم تكن تضن بوقتها لتثقيفه ، كانت صاحبته أستاذاً له ، عليها تعلم الفرنسية ، وفقه مايستطيع أن يفقه من أدبها ، وعليها تعلم اللاتينية واستطاع أن يجوز فيها امتحان الليسانس ، ومعها درس اليونانية واستطاع أن

يقرأ معها بعض آثار أفلاطون ، ولم يلبث الحب أن وجد سبيله إلى قلبه فإذا به يثير فى نفسه العاطفة ، ويذود عنه النوم ، وينغص عليه الراحة ، ويضيع عليه الدرس ، وإذا به يشغل بصوتها عما كان يحمل من أفكار ، ويشغف بنبراتها أشد مما يشغف بأدب اللاتين واليونان . وغدا طه حسين محباً وامقاً يلوعه الحب ويعذبه الغرام . ولكنه لا يستطيع أن يتزوج من صاحبته إلا بإذن من الجامعة . ولو وصل النبأ إلى الجامعة لظنت به الظنون وحسبت أن حياته فى باريس لون من العبث وضرب من الغواية ونوع من الفساد .

ولم يكن يجد فى نفسه الشجاعة لكى يبوح لصاحبته عما يختلج فى قلبه من مشاعر وما يضطرم فى جوانحه من أحاسيس ولكنه تشجع فى النهاية وكاشفها بحبه وعزمه على الاقتران بها ولكن صاحبته اضطرت إلى الافتراق عنه دون أن تجيبه بلا أو نعم وتركته فى باريس ومضت هى إلى قرية ريفية من قرى الجنوب فى سفح البرانس .

وتتابعت الرسائل بين طه حسين وسوزان . وأخيراً وصله الكتاب الموعود ودعته فيه إلى اللحاق بها حيث تقيم فلم يصدق نفسه وظن أن طائفاً من الخيال قد مسه غير أنه سعى إلى هناك حيث أعلن خطبته عليها فى مساء يوم من الأيام .

وقضى طه حسين وسوزان عامين خطيبين صديقين حتى ظفر ١٩١٧ بالأجازة من جامعة السوربون واستطاع أن يستأذن الجامعة فى الزواج . واستطاعت الجامعة أن تأذن له وفى اليوم التاسع من أغسطس عام ١٩١٧ حين أوشك النهار أن ينتصف اقترن طه حسين بسوزان تلك التى جعلت حياته نوراً بعد ظلمة وأنساً بعد وحشة ونعمة بعد بؤس .

* * *

لم تدفع الحياة فى باريس ، والتعمق فى دراسة الأدب الفرنسى ، والحضارة الأوروبية طه حسين إلى تجاهل الأدب العربى القديم ، وإغفال تراث الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، بل حاول أن يقنع الشباب فى أكثر من مناسبة أن التراث العربى يضم بين أكنافه كثيراً من الروائع ، والأدب القديم أشبه بحديقة طال عليها الزمن وأهملت إهمالا متصلا ولم تنقطع عنها مع ذلك مادة الحياة ، فمضت أشجارها وشجيراتها تنمو من غير نظام وفى إهمال واضطراب حتى أصبح من

العسير على كثير من الناس أن يجدوا فيها النزهة والراحة . ومهمة الشباب الناضج أن يهذب هذه الحديقة ويخلق منها جنة وارفة الظلال ، تسر القلب والعين والنفس جميعاً . وقد حاول طه حسين فى كتابه « حديث الأربعاء » أن يثبت أن هذه الحديقة المهملة لم يميتها الإهمال ولم يذوها طول الزمن ، فسعى فيها يستخرج منها شهى الجنى ويشير إلى ما فيها من مواطن الفتنة والجمال . فأخذ يتنقل بين شعر لبيد وطرفه وزهير فى العصر الجاهلى ، وأبى نواس وبشار فى العصر العباسى ، وعرج على شعراء الحب والغزل فى المدينة فى العصر الأموى وبين أن هناك ثلاثة ألوان من الغزل منها غزل العذريين وهو غــزل الحب الأفلاطونى العنيف كجميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، ومنها غزل الإباحيين أو المحققين الذين كانوا يتفننون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعاً ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة ، والنوع الثالث هو الغزل العادى الذى ليس فى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف فى أيام الجاهليين .

والطريف أنه أنكر فى هذا الكتاب وجود قيس بن الملوح واعتقد أنه شخص من الأشخاص الخياليين الذين تخترعهم الشعوب لتمثيل فكرة خاصة أو نحو خاص من أنحاء الحياة بل ربما لم يكن قيس بن الملوح شخصاً شعبياً (كجحا) وإنما كان شخصاً اخترعه نفر من الرواة وأصحاب القصص ليلهو به أو ليرضوا به حاجة أدبية أو خلقية .

ويقول أن الرواة يختلفون فى وجوده ، أما الثقات منهم فأنكروا وجوده أو تحفظوا فيه وبالغ بعضهم فى إنكار قيس حتى زعموا أن بنى عمار أغلظ أكباداً من أن يعبث بهم الحب إلى هذا الحد وإنما ذلك شأن اليمانية الضعيفة قلوبهم السخيفة عقولهم ، أما النزارية فلا ، وتحدث راوية آخر أنه مر ببنى عامر فطنا بطنا وسألهم عن المجنون فأنكروه ولم يعرفوه وتحدث راوية آخر أنه سأل أعرابياً من بنى عامر عن المجنون فذكر طائفة كثيرة من المجانين وروى لكل واحد منهم شعراً إلا قيس بن الملوح فإنه أنكره ولم يعرفه .

واختلف الرواة الذين آمنوا بوجوده فى تسميته فهو قيس عند بعضهم والمهدى عند بعضهم والأقرع عند فريق والبحترى عند فريق ، واختلفوا فى

أسباب جنونه ، فزعم بعضهم أنه الحب وزعم البعض الآخر لأنه اعترض على قضاء الله فى بيت من الشعر .

وطه حسين فى هذه الآراء يسير وفق مذهب الشك الذى وضعه رينيه ديكارت فى الفكر الفرنسى ، ويحاول تطبيقه على قيس بن الملوح فى الأدب ولكن الذى لاشك فيه أن حديث الراوية عن غلظة أكباد بنى عامر حكم مطلق لا يمكن الاستناد عليه بأى حال من الأحوال لأن الأحكام المطلقة تتنافى مع سلطان العقل، زد على ذلك أن تنوع الأسماء ليست دليلا على تنوع الشخصية ولا سيما بالقياس إلى مجنون ، فربما كان المسمى واحداً . وقد ذكر الأصفهانى فى الأغانى نبذة من شعره ولم يسرف فى الشك فى شخصيته إلى الحد الذى بلغه طه حسين .

* * *

وقد كتب طه حسين « على هامش السيرة » ليثبت للشباب أن التاريخ الإسلامى حافل بكثير من العبر والصور وأن التجديد ليس فى الانصراف عن القديم أو الإزورار عما سطره الأقدمون من كتب ومؤلفات . وقد صور فى هذا الكتاب ما يجده من شعور حين يقرأ هذه الكتب التى لا يعدل بها كتباً اخرى والتى لا يمل قراءتها والأنس بها . وقد وسع على نفسه فى القصص ومنحها الحرية فى رواية الأخبار واختراع الأحاديث مالم يجد فى ذلك بأساً إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى أو بنحو من أنحاء الدين فإنه لا يبيح لنفسه حرية ولا سعة وإنما يلتزم ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين .

وقد بلغ طه حسين الذروة فى هذا الكتاب فى تصوير الخلجات النفسية الإنسانية فى قصصه حفر زمزم ، الحاضنة ، والقضاء ، والبين والإغراء ، والفيلسوف الحائر ، وحديث باخوم ، وصاحب الحان وغيرها ، وقد رسم أمام عيوننا لوحات فنية رائعة تبهر البصر وتسر القلب وتشرح الخاطر كتلك الصورة التى رسمها للحسان وهن يخطرن إلى الشاب الفتى المترف كيمون بن أركتياس فى قصة « البشير » فإنك تسمع فى كلماته عن العذارى وتنشق ريحهن العطرة ، وتستمتع بجمالهن الفتان وسحرهن القاهر .

« أقبلن مع ضوء النهار يسعين سعي النسيم يسبقهن عرف المسك والقرنفل ،

ويحملن من ندى الأزهار ، وشهى الثمار ومن رطب الأغصان ، وجنى الريحان ، مايصور الطبيعة وقد أيقظها برد السحر ، وغناء الطير فجرت فيها رعدة الحياة ، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمة ، مقدمة عليه ، ثم منغمسة فيما تريد أن تعبر مابين ساحله من مطلع الشمس إلى مغيبها ، وكن قاصرات الطرف ، فاترات اللحظ ، ساحرات العين ، وكن واضحات الجباه ، قاتمات النور ، ولكن مشرقات الوجوه ، باسمات الثغور . ولكن أسيلات الخدود ، جميلات القدود ، نحيلات الخصور ، وكن عذاب الأصوات ، ملاح الألفاظ ، فاتنات الألحان » ! .

وقد صور طه حسين كذلك الصراع النفسى والشعور الدرامى فى قصصه أحسن تصوير كقصة حفر زمزم التى حكى لنا فيها قصة حفر ذلك البئر المعروف ، وماكان يلم بعبد المطلب من هواجس بالليل ومن ظلال مضطربة تطوف حوله ، وتقلقه وتؤرقه يقظان ونائماً ، ومن خيالات تنتشر فى الجو ، فمنها مايصعد فى السماء يرعى النجوم ، ومنها ما يهبط إلى الأرض يروع الناس . ولو قص على الناس شر وجومه وحيرته لشاعت بينهم هذه المقالة وضحك منه حرب بن أمية ولداته وتندر عليه فتيان مخزوم .

* * *

وقد ظهر تصوير الصراع النفسى على أشده فى قصة دعاء الكروان التى حكى لنا فيها قصة مهندس شاب نال من خادمته فأخذ شبح الجريمة يلم بها حتى انتهت حياتها ، فلما علمت أختها بمصرعها عملت عند ذلك المهندس ، غير أنها لم تنله منها إنما ظلت تعذبه بسلاح الحرمان .

وقد حكى لنا طه حسين قصة هذه المأساة عندما انطلق صوت الكروان فى الفضاء العريض يملأ الدنيا غناء وبهاء ، وجثم الليل ، وهدأ الكون ، ونامت الدنيا ، وانطلقت الأرواح فى هذا السكون المظلم آمنة لاتخاف ، صامتة لاتسمع .

وأخذ طه حسين يقص على الكروان هذه القصة حتى تكون عظة تعصم النفوس الذكية من أن تزهق الدماء البريئة من أن تراق . فجعلنا تذرف الدموع على تلك الفتاة المسكينة البائسة التى سفك دمها فى هذا الفضاء العريض فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى الأرض وهيل عليه التراب ، وجعلنا بعد ذلك ننظر نظرات العجب والسخرية من نفس هذا الشاب المعتدى وهو يتلطف إلى أختها ويترفق ويستعطف وهو جاث بين يديها كأنه يتقدم

بالصلاة أو باك فى صمت وهو يجهش بالبكاء ... وتضعف ويأخذها الإشفاق ولكنها لا تلبث أن تتمسك بالشمم والآباء .

* * *

وفى قصص « المعذبون فى الأرض » سكب طه حسين منا الدموع وطرق شغاف الصدور ووصل إلى أغوار القلوب وصور الواقع المرير .

وقد استمد طه حسين بعض قصصه من الأدب الفرنسى فعرب بعضها واقتبس البعض الآخر ، وترجم بعض روائع المسرح اليونانى لسوفوكليس وغير سوفوكليس وكتب فى مطلع حياته الأدبية كتاب « قادة الفكر » تحدث فيه عن أعلام الفلاسفة والمفكرين عند اليونان والرومان مثل هوميروس وسقراط وارسطو ، والإسكندر المقدونى ، ويوليوس قيصر وهذا الكتاب مزاج من البحث الفردى والاجتماعى درس فيه شخصية الفلاسفة والمفكرين على أن تكون الشخصية متصلة بالبيئة التى نشأت فيها وتأثرت بها مؤثرة فيهـا ، ولم يكتف بذكر تاريخ الأبطال إنما ذكر الحوادث كذلك . وقد كان لظهور هذا الكتاب أثر كبير فى الفكر العربى فى مصر لأنه نبه الأذهان إلى تراث اليونان والرومان ولم يكن المثقفون فى ذلك الوقت يحرصون على تلوين ثقافتهم بهذه الألوان الجديدة التى لا بد من الأخذ بها لطالب الثقافة فى العصر الحديث .

* * *

وقد استمد طه حسين بعض قصصه من الأدب الشعبى كقصة ألف ليلة وليلة فكتب كتاب (أحلام شهر زاد) الذى صدر به العـدد الأول من سلسلة (اقرأ) وهو لون من الأدب الشعبى الممتاز ، وقد أحسن طه حسين فيه الوصف كما أحسن الحوار ، وجعل شخصيات قصته واضحة لا عوج فى سلوكها ولا تناقض مع ما جبلت عليه من طباع ، وقد استخلص طه حسين هذه القصة مما قرأه فى ألف ليلة وليلة وأضفى عليها خياله وإحساسه ، ومزجها بنفحات من أنفاسه فخرجت مصقولة تبهر العيون وتشرح الصدور ، وجعلنا نشارك شهر زاد فى أحلامها ... وفى حياتها ونزواتها ... وفى نزهاتها فى زورق من هذه الزوارق الرائعة التى تسبح فى الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعاً ، ثم وهى تعود شهريار أن يعود إلى شبابه القديم النقى الذى لا يدنسه إثم ولا تشوبه فتنة ولا تثقله

تجربة ، إنما هو ناصع كضوء الشمس ، رقيق كضوء القمر ، حلو كابتسامة العذراء . ! . .

ولم يقف إنتاج طه حسين على القصة فحسب إنما تعددت دراساته الأدبية عن المتنبي وأبي العلاء والشعر الجاهلي والأدب الجاهلي ، وتناولت المحدثين مثل على محمود طه وابراهيم ناجى ، وايليا أبي ماضي ، وعبد العزيز البشرى . كما تنوعت مقالاته في السياسة ونظم التعليم .

ولما كان طه حسين لا ينسى فضل الأزهر عليه ولا يغفل الأيام التي قضاها بين رحابه فإنه شمل هذا التعليم كما شمل التعليم الأولى والعام والجامعى بقلمه ، وقال إن الإسلام دين التطور والرقى والطموح إلى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعاً ويجب أن يكون رجاله الناشرون له الزائدون عنه ، الداعون إليه ، ملائمين كل الملائمة لتطبيق هذه الشريعة السمحة التى تشجع التطور ولا تمانعه وتؤيد الطموح ولا تأباه وسبيل ذلك ألا تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث .

كما انتقد نظم التعليم العام وقال أن بين الجامعة والتعليم الثانوى صلة طبيعية لا يستطيع باحث فى شئون التعليم أن يهملها أو يتغافل عنها ، لأن الجامعة تستمد طلابها من تلاميذ المدارس الثانوية ، وإذن فمن أهم الأغراض التى ينبغى أن يقصد إليها من تنظيم التعليم الثانوى أن نضع له سياسة ، وأن يكون هذا التعليم بحيث يعد الشباب إعداداً حسناً لدخول الجامعة على اختلاف كلياتها والاستفادة من دراستها العالية .

كما انتقد نظم الامتحان فى التعليم العام والجامعة وذكر أن الامتحان شبح رهيب للطلبة والمدرسين على السواء فيجب التخفف من قيوده ما استطعنا إلى ذلك سبيلا كما يجب العنايه بحال المعلم لأنه أمين على الشعب مسئول عن هذه الأمانة الثقيلة أمام الشعب من جهة وأمام الدولة من جهة أخرى ، فمن حقه على الشعب والدولة أن يجد عندهما المعونة على النهوض بهذه الأمانة الثقيلة الملقاة على عاتقه .

عباس محمود العقاد

أديب عملاق يبدو كأنه البحر الخضم ، من أى النواحي أتيته راعتك عظمته وأدهشك اتساع ذهنه ، وأذهلك جبروته .... ذلكم هو الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد الذى احتفى العالم العربى ببلوغه السبعين منذ شهور .... وأهداه سبعين شمعة يطفىء لهيبها بأنفاسه ، وهو الذى أهدى العالم العربى من قبل ما يزيد على السبعين كتابا .... كل كتاب منها سراج وهاج ...... ونبراس للباحثين والدارسين .....

ولد عباس محمود العقاد فى بلدة نائية من بلدان الصعيد فى الإقليم المصرى وهى أقصى ما يمكن أن ينقل إليها موظف فى الدولة فى أبان العصر الحديث — وهى بلدة « أسوان » ولكن عباس محمود العقاد وجد فى بلدته مسلاه وملهاه فى سنى الطفولة ، ورغم أنها تقع فى أقصى الاقليم الجنوبى فإن الله قدحباها بطبيعة ساحرة ، وهدوء شامل — وجو دفىء فى الشتاء ، وآثار تالدة تحكى عظمة الفراعنة ، ولذلك أحبها العقاد طفلا كما أحبها شابا وكهلا وصارت ملاذه كلما التمس الهدوء أو رغب فى الراحة ، أو أحب الابتعاد عن صخب القاهرة وضوضائها .

وتلقى العقاد تعليمه الابتدائى بمدرسة أسوان الأميرية ثم حصل على الشهادة الابتدائية عام ۱۹۰۳ وكان له من العمر أربعة عشر عاما .

وكان أبوه يصحبه أيام دراسته الأولى إلى مجلس الأستاذ الأديب الشيخ أحمد الجداوى . أحد فضلاء الأزهريين الذين لزموا السيد جمال الدين الأفغانى أثناء إقامته بمصر — فكان يسمع مطارحاته الشعرية ، وقراءاته لمقامات الحريرى — وبعض القصائد المختارة ، ويستظرف ملحه وفكاهاته ونوادره التى

يرويها عن المتقدمين والمتأخرين — فشوقه ذلك إلى مطالعة الكتب الأدبية وذخائر الكتب القديمة .

وكان أول ما وقع من كتب فى يد العقاد كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » للأبشيهى — وديوان البهاء زهير — وقصص ألف ليلة وليلة — ثم مجلد عن دائرة معارف البستانى ثم أعداد مختلفة من صحيفة « الأستاذ — لصاحبها السيد عبد الله النديم — وكان يسمع إسمه كثيراً فى مجلس الأستاذ الجداوى — فأخذ ببراعته الأدبية وأسلوبه الساحر الساخر ، ومن ثم أقبل العقاد بنشاط على المطالعة العربية والأفرنجية ، وكان الله قد حباه بموهبة صافية ، وقريحة نافذة ، وعبقرية خالدة منذ صباه ، فأقبل على نظم الشعر واستيعاب الكتب بكل شغف ونهم ، ودون كلال أو ملال .

ومن الطريف أنه نظم وهو فى العاشرة من عمره أبياتاً صبيانية فى فضل العلم جاء فيها :

علم الحساب له مزايا جمة — وبه المرء يزيد فى العرفان
وكذلك الجغرافيا تهدى الفتى — لمسالك البلدان والوديان
وتعلم القرآن واذكر ربه — فالنفع كل النفع فى القرآن
الخ . . . .

العقاد موظف حكومى

وعندما نقل العقاد إلى الزقازيق وعمل فى القسم المالى بمديرية الشرقية نظم قصيدة على نمط قصيدة أبى العلاء المعرى .

عللانى فإن بيض الأمانى — فنيت والظلام ليس بفان
جاء فيها : ذكرانى نعيما ذكرانى — حبذا لو علمتها ما أعانى ؟
وقال فيها يذكر أسوان — لست أرجو عوداً إلى أسوان !

وكان العقاد يتقاضى من مرتبه فى هذه الآونة خمسة جنيهات ، وكان يدخر من هذه الجنيهات جنيها ثم يجمعها ليصدر صحيفة تباع وتأتى بتكاليفها وقد راقت هذه عن لفيف من أصدقائه فقرروا طبعها وتوزيعها ، ويقول العقاد أن طبعها لم يكلف فى ذلك الوقت غير ثلاثين قرشا !

ولم يكن العقاد يضيق فى أغلب الأحيان بهذه الجنيهات الخمسة ، فقد كانت خمسة مليمات فى ذلك الحين تعطيك مائدة إفطار حسنة فى الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة فى الغذاء أو العشاء .

العقاد يدرس التلغراف

وعندما وصل العقاد إلى القاهرة كان يدرس « التلغراف » فى إحدى مدارس الدمرداش وهى ضاحية فى طريق مصر الجديدة ، وكان مسكنه لا يكلفه أكثر من ثلاثين قرشاً ، وكان عبارة عن حجرة ذات نوافذ مطلة على الطريق ـ وكان كثيراً ما يسير من هذه الضاحية إلى القاهرة مشياً على الأقدام ـ ولم يكن يجد غضاضة فى هذا العمل ، إذ كان لا يعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين أسوان وأبى الريش ، فكيف يعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ويوفر فى سبيل المشى على الأقدام خمسة مليمات أجرة الترام .

واشتغل عباس محمود طه العقاد بالصحافة بعد تركه عدة وظائف حكومية كان يستقيل منها واحدة بعد الأخرى ـ نفوراً من قيودها الثقيله ـ وتكاليفها الغثة ، أو رغبة فى الدعة والعلاج لما ينتابه أحياناً من الضعف والقيام .

العقاد والصحافة

وكان أول عمل صحفى للعقاد فى جريدة الدستور التى أنشأها الأستاذ وجدى ثم كتب فى صحف أخرى هى المؤيد والأهالى والأهرام ـ هذا إذا غضضنا النظر عن هذه المحاولة الأولى التى قام بها العقاد فى إصدار مجلة مخطوطة وهو طالب صغير فى أسوان .

وتفصيل ذلك أن العقاد كان يطلع على مجموعات كبيرة من الصحف والمجلات القديمة الموجودة فى « المنظرة » ، ومن بين هذه المجلات مجلة « التنكيت والتبكيت » ومجلة « الأستاذ » للسيد عبد الله النديم ـ وقد أخذ العقاد بعناوين النديم واعتبره أستاذ العناوين فى كل زمان ـ وكان يقطع الورق قطعا على قدر المجلة ويعمد إلى

مكان العنوان فيها فيكتب بخطه متأنقا « التلميذ » معارضاً كلمة « الأستاذ » أما المقالة الإفتتاحية التى كانت موضوع المعارضة بين العقاد والنديم فكان عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » التى افتتح بهــا الجزء الثانى والعشرين من السنة الأولى - وكتب العقاد مقاله بعنوان « لو كنا مثلكم لما فعلنا فعلكم » .

وأخذ العقاد فى مقاله هذا يعارض كلام النديم - وكان زملاؤه فى المدرسة وأقاربه ، والمتندرون المتفكهون يعجبون أشد الإعجاب بمجلة « التلميذ » التى لم يكن لها من اشتراك غير الفسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن .

بيد أن العقاد كان يختلف اختلافا عظيما عن النديم ، فالنديم كان يميل إلى الدعابة والتهريج - أما العقاد فقد نشأ فى بيت فقــير بين أبوين محافظين أشد المحافظة على سمت الوقار واللياقة ، فنقل هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقله بالقدوة والمحاكاه . زد على ذلك أن العقاد كان يعتقد أن اللغة العاميــة - وكان النديم يستخدمها فى كثير من كتاباته - شيئاً وقتياً ، أما اللغــة الفصحى فللفكر والمعانى الباقية .

وعندما ساهم العقاد فى الصحف السيارة فى مصر كان يوقع مقالاته الأولى باسم . ع . م العقاد ، ومثل هذا التوقيع كان يلاقى من السنة الهازلين فى القفش والتنكيت الشىء الكثير ، ولم يلبث أن أدغم هؤلاء الهازلون الحرفين الأولين من اسم عباس محمود فى كلمة واحدة ، وراحوا يتحــدثون عن « عم العقــاد » ويقولون ماذا قال عم العقاد ، وماذا تقول يا عم ؟ ونحو ذلك من الأساليب الساخرة وقد توهم هؤلاء الهازلون أنهم سوف يرهبون العقاد عن استخدام هذين الحرفين فى التوقيع - ولكنه أصر على استخدامهما مهما لاقى من صنوف السخرية وقابل من ضروب الاستهزاء .

وعندما فرغ العقاد من تحرير « الدستور » باحتجابه اقترح عليه الأستاذ محمد فريد وجدى صاحب دائرة معارف وجدى - وصاحب مجلة الحياه أن يكتب فيها بعض مقامات ومقالات - وكان الأستاذ وجــدى يكتب مقالات خيالية يطلق عليها « الوجديات » ويحررها فى أسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية وتقريب المثل العليا فطلب من العقاد أن يلقى بدلوه فى هذا المضمار ، ويساهم فى تحريرها قائلا « إن الحياة أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية ، وأنك

تستطيع أن تجرب قلمك فى المقامات ، فنظهر الحياه وفيها مقاماتك ومقالاتك إلى جانب الوجديات — ولولا أنى أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر شرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع .

مقامة خطيرة

ومن المقامات التى كان لها دوى عظيم ، وأثر خطير فى الأوساط الأدبيــة والسياسية تلك المقامة التى أطلق عليها « نادى العجول » وأشار بهـا إلى هؤلاء الذين يتصرفون فى أمور الدولة دون أن يكون لهم نصيب من ثقافة أو علم أو خبرة - ودراية ، وكاد العقاد يذهب من جرائها إلى جزيرة مالطة نفياً من البلاد - وجاء فيها ، أيها السادة إن العجل مدنى بالطبع - ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الأجسام ، وصلابة القرون ، وقد غبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيـه بأسنا - ويتمسحون بأذيالنا - حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فعبدونا من فرط الآجال - وسبحوا لنـا بالعشى والآصال - وكانوا يحسدوننا على قروننا - فدعوا أكبر أبطالهم - وأشدهم بأساً - وأرفعهم ذكراً ، أعنى الإسكندر المقدونى بذى القرنين ، وما اسكندرهم هذا وماقرناه ، أن أصغر عجل بيننا ليهشم رأسه إذا ناطحه ، ويجندله إذا واثبه أو صارعه ، فالعجب لك أيتها العجول ، ثم لا تذكرين ذلك المجد الخالد ، فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادى والمعاهد » .

وهكذا أخذ قلم العقاد الساحر الساخر يفرى جلود خصومه - وأصبحت الصحافة ميداناً لصولات قلمه وجولاته - وفى ذلك يقول فى مذكراته التى نشرها منذ سنتين « إننى أعمل فى تحرير الصحف منذ خمسين عاما ، وكنت أكتب لها متطوعا قبـــل ذلك بسنوات قليلة ، وأزيد القارىء فأقول أننى عندما بلغت الطفولة فهمت شيئاً يسمى « المستقبل » لم أعرف لى أملا فى الحياة غير صناعة القلم - ولم يكن أمامى صوت لصناعة القلم فى أول الأمر غير صناعة الصحافة .

وفى أثناء عمل العقاد بالصحافة كان يزاول التدريس تارة بالقاهرة وتارة بأسوان ، والطريف أنه كان يقوم بالتدريس فى بعض فترات حياته نظير تفصيل

إحدى البدل — ويقول أنه اشترى بدلتين قديمتين ، ولكن الجوار الصالح هداه إلى حل مشكلة الملابس — بإعطاء درس خصوصى لتاجر يبيع القماش — ويتولى تفصيله وتسليمه كسوة ثلاثة أشهر — ولم تزد مدة التعليم عن كسوتين لنشاط التلميذ أو براعة الأستاذ أو لرغبة الفريقين فى فسخ العقد بسلام !

قراءته واطلاعاته

وكان العقاد منذ أظافره يميل إلى الاطلاع والقراءة ، وكان ينفق الساعات الطوال فى البحث والتنقيب العلمى — وكان ثمن ديوان البهاء زهير وهو أول ما استرعى انتباهه من دواوين الشعر يباع بقرش واحد ، وبهذا الثمن اشتراه العقاد ، كما اشترى ديوان المتنبى بعشرة قروش والمستطرف فى كل فن مستظرف بعشرين قرشا — وعلى هامشه أوذيله كتابان آخران . ورجع إلى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى — والأمالى للقالى — والكامل للمبرد — وزهر الآداب للحصرى القيروانى والعقد الفريد لابن عبد ربه — والتاريخ للطبرى . وغير ذلك من الكتب ، وقرأها مرة ومرة كما استوعب دواوين الشعراء القدماء الجاهليين — والإسلاميين ، أما فى الأدب الأوربى فكان يدمن قراءة كارليل وماكولى وهازلت ولى هنت ، وأرنولد — وغيرهم من أئمة المقالات فى القرن التاسع عشر .

وكان العقاد يترجم ما يصلح للنشر من هـذه المقالات فى الصحف المصرية وعلى غرارها كان يكتب ما يكتب عن أدباء العرب والفرس ، ووسائل النقد والتعليق .

أما فى الشعر فقد أمعن العقاد فى قراءة شعر لورد بيرون وبيرسى شللى وكيتس — وكولريدج وغيرهم من أعلام المذهب الرومانتيكى فى الشعر الإنجليزى.

وكان أشد ما يعجب به هؤلاء الشعراء الذين جمع لهم « بالجريف » — أشعارهم فى الكنز الذهبى ، ومنهم أخذ العقاد وزميلاه المازنى وعبد الرحمن شكرى فنون الشعر الغربى — وطعموا به الشعر — الشعر الغربى الحديث .

ويقول العقاد عن ثقافة العربية « كنت أقرأ كل ما يقع فى يدى من الكتب الأدبية والدينية — ومعظمها من الطبقات القديمة . وقرأت فى مناقب الصالحين عن الأولياء الذين يمشون فوق الماء والأولياء الذين يسخرون الريح ولا يحترقون

بالنار ، فأردت أن أكون مثلهم ، وترددت على المسجد فى أوقات الصلاة ، وكان مؤذن المسجد القريب من بيتنا رجلا جميل الصوت أسمعه فى الفجر أحياناً وأسمع القصائد التى كان ينشدها ، وكان شعر البرعى لا يعجبنى ، فلماذا لا أنشد مع المؤذن قصيدة من نظمى . . . . ثم يضيف إلى ذلك قوله « لا تزال صناعة القلم عندى شىء من صناعة السيف ، ولا يزال بحث الدين ، وما وراء الطبيعة عندى شاغلا لا يعوقنى عنه شاغل من شئون السياسة أو شئون المعيشة » .

ويقول العقاد عن ثقافته الغربية وعن جيله من الأدباء كالمازنى وعبدالرحمن شكرى «والجيل الناشىء بعد شوقى كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين ماسبقها فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، فهى مدرسة أوغلت فى القراءة الإنجليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسى — كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين فى أواخر القرن الغابر — وهى على إيغالها فى قراءة الأدباء والشعراء — الإنجليز لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان واليونان واللاتين الأقدمين — ولعلها استفادت من النقد الإنجليزى فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، ولا أخطىء إذا قلت أن « هازلت » هو إمام هذه المدرسة كلها فى النقد لأنه هو الذى هداها إلى معانى الشعر والفنون وأغراض الكتابة ، ومواضع المقارنة والاستشهاد ، وهذه المدرسة المصرية ليست مقلدة الأدب الإنجليزى ولكنها مستفيدة منه مهتدية على ضيائه . »

وهكذا قامت القراءة بدور كبير فى حياة العقاد وثقافته ، واتجاهاته فى الأدب والمقالة والشعر — فهو لا يحب الكتب لأنه زاهد فى الحياة — ولكنه يحب الكتب لأن — حياة واحدة لا تكفيه ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة — ومهما يلبس فانه لن يلبس على غير جسد واحد — ومهما ينتقل فى البلاد — فانه لن تستطيع أن يحل فى مكانين ، ولكنه يزيد الفكر والشعور ، والخيال يستطيع أن يجمع الحيوانات فى عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله ، كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل وتتضاعف الصورة بين مرآتين .

وبلغ من شغف العقاد بالقراءة أنه يقرأ كتباً كثيرة لا يقصد الكتابة فى موضوعاتها على الإطلاق — حتى أن أديباً زاره فوجد على مكتبه بعض المجلدات

فى غرائز الحشرات فقال مستغرباً ومالك أنت والحشرات ؟ إنك تكتب فى الأدب وما إليه ؟ ولشد ما ذهل صاحبه عندما علم منه أنه يقرأ ذلك لثقافته العامة حتى ينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى ! ويقيس عليها دنيا الناس والسياسة !

المرأة والزواج فى نظر العقاد

والعقاد عزب لم يتزوج ـ ولعله انصرف عن الزواج لفشله فى حياته العاطفية فى صدر حياته ولعله أغرم بالكاتبة المعروفة « مى زيادة » وكان بينه وبينها لهيب من العاطفة ـ وأتون من الشوق ، ولعلها هى التى رمز إليها بهند فى قصته سارة ، ويفرق العقاد بين هند وسارة فيقول « فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة فى دير من غير حاجة إلى الدير ، تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ثم توشيها بطلاء الذهب وترصعها بفرائد الجوهر ، الحزن الرفيع والألم الغزير شفاعة عند هند مقبولة ، إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة ، أما عند سارة ، فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور ، تلك يومها جمعة الأيام ـ وهذه يومها شم النسيم » .

أما حبه « لسارة » فقد اقتفى آثار حبه القديم ، وصوره فى قصة طويلة تفيض بلواعج الهوى ـ وتتعلق بأفانين الغـــرام ـ وتصور حياته مع صاحبته ، ومنها نستطيع أن نستشف الكثير من طباعه وتقاليد العصر ، إذ كان يلتقى مع صاحبته عند منعطف الطريق عنـد ذهابها إلى دار الصور المتحركة أو السينما ثم يلتقيان هناك عند خروجهما منها ـ وكانا يجلسان إذا دخلا تلك الدار فى مكانين متجاورين ولكنهما لا يدخلان إليها ، ولا يخرجان متجاورين ، بل يرسل هو إلى نافذة التذاكر يبتاع التذكرتين لكرسيين فى مكان قلما يتغير ، ثم يلقاها فى ذلك الشارع ـ فتأخذ إحدى التذكرتين وتسبقه إلى الدار ويظل هو بضعة دقائق فى بعض الأندية العامة ، ثم يلحق بها إلى المكان المعروف .

وكانت تختلف معه إلى كثير من دور السينما ـ ويذكر أنها كتبت إليه عقب مشاهدتها لرواية « المرأة المرتجلة » « هل أعجبتك رواية المرأة المرتجلة ، أما أنا فسأكون لك امرأتك فقط » ، كما يذكر أنها كتبت إليه عقب مشاهدتها لرواية

« المرأة المحتالة » أرجو ألا ترى المرأة المحتالة إلا فى السينما أما فى الحياة ، فحسبك الخلاصة فلانة » .

ويستعرض العقاد فى سارة صوراً رائعة من الحب المتبادل ـ والهوى الراسخ فى القلوب ـ الغائر بين الصدور فيقول « وربما قضت سنة أو سنتان على مشاهدة ـ الرواية ، وهى تذكر كل كلمة قالها فى التعليق عليها أو انتقادها ، واتفق يوماً أنهما حضرا الصور المتحركة ، فى إحدى الملاهى الصيفية ـــ حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة أو سنتين من عرضها فى المسارح الكبيرة ـــ وشهد هناك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض عن فشله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية ، فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة فى اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله ، من جميع الجوانب ، ويظل يتساقط من هنا وهناك ـــ إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظة قصيرة فقال لها : أليس الأحسن والأبرع أن يسقط الطير مشوياً على الأطباق ؟ فضحكت طويلا وقالت : أتذكر ! أنك قلت هذه الكلمة بعينها عندما شهدنا هذه الرواية فى المرة الأولى !

وهكذا كانت دار الصور المتحركة شيئاً أكثر من ملهى الفراغ وموعد اللقاء بين العقاد وصاحبته إذ كانت محور حياتهما الغرامية ، وملتقى الذكريات ووسيلة التقارب والتفاهم ، فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما إلى تلك الدار كانت كل خطوة فى تلك الطريق كأنما تثقل الفتى بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام ـــ وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصداً من الشياطين الثائرة ، والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور ، وأهون المحذورات .

وقد وصف العقاد فى كتابه سارة صاحبته فقال « كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتى لا يطالعنك بمنظر واحد ـــ فى محضرين متواليين ، تراها مرة ، فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئين فى دعة الطفولة ـــ وسذاجة الفطرة ـ بغير كلفة ولا رياء وتراها بعد حين وقد تراها فى يومها ـ فأنت مع عجوز ماكرة أفنت حياتها فى مراسى كيد النساء ، ودهاء الرجال ، وتضحك ضحكة فتعرض لك وجهاً لا يصلح لغير الشهوات وضحكة أخرى قد تكون على أثر الأولى فذلك عقل يضحك ـ ولب يسخر كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين ، وهى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الأمهات ـــ حتى ليوشك أن تسع به أطفال العالمين

وحسبك أن ترسمها ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا إلى جانبها طفلا يدرج لتستحق الصورة عنوان الأمومة ، وهى تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن ، ولا استقرت قط مع عشيق لها صورة إلى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانباً لمثلت لك راهبة خاشعة تهم بالصلاة أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق إلى محراب القربان — ولها صورة على سفح الهرم لو أخفيت منها الهرم لخلتها حورية مخمورة فى أرض يونان القديمة تهم بالرقص فى كروم باخوس » .

وهكذا كانت شخصية سارة متناقضة متغيرة بيدأن العقاد هام بها وإن لم يذكر صراحة أنه بطل هــذه القصة ، ومن ينعم النظر فى قراءتها يلمس شخصيته واضحة جلية لا — تحتاج إلى دليل — ولا يعوزها البرهان . فبطل القصة وقد أطلق عليه العقاد « همام » كان يتنزه مع صاحبته سارة ، فى عربة حنطور بالجزيرة بعد مغيب الشمس — وكان الحوذى قد غفل عن إشعال مصابيحها ، فصدمت واحدة من جماعة رجال الضبط كانت تسير هناك — فجذبوا الحوذى من مقعده وتيارات ألسنتهم وأيديهم فى سبه وضربه فنزل همام ليصلح بينهم حتى لا يقضى الأمر إلى كتابة محضر ، واستدعاء شهود ، وما تتبع ذلك من فضيحة لسارة فعرفه رجالها لفرط شهرته وسامحوا الحوذى من أجله .

وغير خاف أن العقاد يرمز بذلك إلى نفسه إذ كان يتمتع منذ صــدر شبابه بشهرة ذائعة الصيت ونباهة ذكر — وعلو اسم ، حتى كان يشار إليه على حد تعبيرهم بالبنان إذا سار أو جلس فى مجتمع فى الناس !

كما أشار العقاد إلى أن بطل القصــة خطر أن ينشىء حول سارة « رواية مسرحية هى جميع أبطالها وهى البطل الوحيد فيها ويدور حوارها على الوجه التالى :

سارة : إنى لا أرضى أن أصاحبك فى الطريق وأنت فى هذه الثياب الفاضحة .

سارة : وهل تحسبين أنى أسر بمصاحبتك وأنت فى هذه السحنة العامة وهذه المسوح المخزية وهذا الزى الذى يشبه زى الحداد .

سارة : على رسلكما أيتها الصديقتان — لا تتخاصما ، ولا تشرعا فى تمزيق

ما عليكما من ثياب ، أنها تستركما على كل حال ـ وأنتما ضيفتاى غداً ، فهل تحضران إلى وليمتى ، وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها ؟ لا عليكما من المصاحبة فى الطريق ! . . احضرا من طريقين مختلفين ولتكن كل منكما فى الثياب التى تروقها ـ فأنتما تعلمان أنى أحبكما ، ولا أنكر منك ياسارة شغوف الخلاعة ولا منك ياسارة مسرح الرهبانية.

وهذه القدرة الفنية على تأليف الحوار ـ وخلق الشخصيات والرغبة فى المجد الأدبى عن طريق تأليف الروايات تشير بطريق خفى إلى شخصية العقاد .

كتاب الإنسان الثانى

وللعقاد آراء طريفة فى المرأة سجلها فى كتاب أصدره عام ١٩١٢ وأطلق عليه الإنسان الثانى ـ وذكر فيه أننا نعيش فى عصر خليق بأن ندعوه «عصر المرأة » ، فإنك لا ترى إلا أثراً من آثارها حيث ذهبت ـ وقليلا ماتجد عقلا لا يشتغل بأمرها ، أو قلباً لا يشغل بها . حتى لقد بلغ بهذا العصر الظريف أن يرغب الناس بصورها ورسومها فى أوراق التبغ وعلب الثقاب وحلوى الأطفال وإعلانات المتاجر والسلع حتى أصبحوا يضعونها أحبولة يتصيدون بها الناس فى حفلات البر ومجالس الإحسان .

بيد أنه يرى أن المرأة خلقت أسيرة انفعالات نفسها . فما من منقصة أو محمدة فيها إلا وهى بنت الانفعال ـ فهى عقيلة الحب فى صباها ، وأخيذة الدين فى هرمها وليس المرأة فضيلة صادرة عن صدق الفكر وإصالة الرأى ، إذ ليس بين خلالها فيما يعلم الناس أجمل من الشفقة ، وهى راجعة أيضاً إلى التأثر الذى لا فضل لها فيه إلا بالإحساس ، ولولا ذلك لما استطعنا أن نفهم حيث تجتمع شفقة المرأة وأثرتها فى نفس واحدة ، فإنهما خلقان متناقضان ، ـ ولكنهما تردان فى الضعفاء إلى مصدر نفسانى واحد هو الخوف على النفس .

وقد تتصف المرأة بالشجاعة ولكنها لا تأتى بها إلا من جانب الانفعال ، ويضرب مثلا على ذلك « بجان دارك » التى طبقت شهرتها الآفاق فى الشجاعة بين النساء ، فقد تملكها شعور عميق واستولت على مجامع حواسها عقيدة دينية

فتمكنت منها أى تمكن ، واختبلت أعصابها ـ حتى قيل أنها كانت تلمح القديسين الغابرين وتسمعهم يكلمونها ـ فجملت هذه الأوهام تقذف بها فى المهالك وهى غائبة عن وجدانها ، وما كذلك تكون الشجاعة ، وإنما هو هوس يأخذ بالألباب ويتصل بالصواب .

ويرى العقاد أن أكثر الرجال توفيقاً عند النساء أشدهم اغتراراً وزهواً حتى لقد وجد المرأة ترى الجمال فيمن يراه لنفسه ، وإن كان الجمال من الأشياء المحسة بالبصر ، ولكنها لا تستطيع إلا أن تسلم باعتقاد الرجل الذى تمكن من التغلب عليها باعتداده بذاته وقلة اكتراثه لرأيها فيما قد اعتقد لنفسه من المزايا والصفات .

وإذا شاهدت المرأة تصبو إلى بعض المشاهير وأصحاب الصيت البعيد من العلماء والكتاب فلذلك السبب أيضاً ، أى أنها لا رأى لها فى الرجال من تلقاء نفسها ، فإنها تسمع قول الناس فى الرجل فتتخذه رأياً لها ، فهى أما تؤمن باعتقاد الرجل نفسه أو باعتقاد الناس فيه ، ولا ترجع إلى نفسها إلا قليلا ، وأنا لا أعلم مثالا لهذا القليل .

ويرى العقاد فى المرأة من أخلاق الطفل غيرته المضحكة وفرقه السريع ، واستغراقه فى الحاضر الذى بين يديه ، وقصور نظره على الظواهر والقشور ومرحه وغرارته ونفوره ، مما يهم ويصلح ، ومحاكاته لكل ما يراه ، وتعويله فى كافة أموره وأميـــاله على سواه ، وتقلبه وكذبه ، ورياؤه وأثرته ، وولعه باستطلاع المضمرات والأسرار ، وجشعه وطمعه وموجـــدته ، وافتتانه بالثناء والإطراء .

وينقل عن الفيلسوف الألمانى شوبنهور قوله بأن النسوان أبداً صغيرات ، وإن شبت أجسامهن الأعوام ، ولا تزال المرأة طفلة كبيرة الجسم فى كل أدوار حياتها لأنهن كالصغار صبيانيات الأميال ، خفيفات الأحلام ، قصيرات النظر ، وأنهن لاعبات لاهيات .

ويرى العقاد أن هناك رجلا من زمرة يسميها « قرود النساء » لا هو بالفتى الوسيم ولا بالغنى الكريم ولكنه ذو خطورة عند المرأة لأنه سبر طباعها ، وخبر أهواءها ، وعرف ما يضحكها ويعجبها ، وما يسرها ويحببها ، فيتلاعب بعواطفها ، ويأتيها من جانب غرورها اليوم ومن جانب غيرتها غداً ، ومن جانب

مشتهياتها وهواجسها مرة أخرى ـ فتستملح عشرته ، وتستطيب حديثه وما أقرب بين الحب والاستحسان بين قلوب النساء !

وهذه الآراء التى ذكرها العقاد فى المرأة عام ١٩١٢ تحتاج فى أغلب الظن إلى كثير من التأمل والنظر فى عام ١٩٦١ أى بعد صدورها بتسعة وأربعين عاماً ، أى ما يقرب من نصف قرن حدث فيه من التطور والتغير ، ما لم يكن فى الحسبان !

ولعل العقاد حمل هذه الحملة القاسية على المرأة لأنه فشل فى حبه ، وأخفق فى هواه ، ولم يكن يدرى وقتذاك أن هذا الحرمان هو الذى سوف يشعل ناراً وأواراً ، وهو الذى سوف يزيده إنتاجاً وعملاً وهاجاً ، ويسطر اسمه فى سجل الخالدين .

ولكن العقاد مع هذا لا يستنكف من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى ، ويحب المرأة التى تدرك الفكاهة ، ويكره أن تتخذه من فكاهتها صناعة ، ويحب ربة البيت التى تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها .

ويعرف العقاد الحب بقوله « إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب ، وإذا أصبح النساء جميعاً لا يغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة ، فذلك هو الحب ، وإذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء ، ولا لأنها أزكى النساء ، ولا لأنها أوفى النساء ، ولا لأنها أولى النساء بالحب ، ولكن لأنها هى بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب » .

ويستشهد فى موضع آخر بقول اللورد بيرون « من صدر المرأة تستروح أول نسيمات حياتك ـ ومن بين شفتيها تلتقط أحدث ما تتمتم به من حروف كلماتك ، وأنها لتمسح أول ما تندى به عينك من العبرات ، ثم أنها لتلقف آخر ما يصعده الإنسان من الزفرات يوم يزهد فيه الرجل ـ وتعرض عنه الحياة ساعة الأجل » ويقول فى كتابه « فى بيتى » المرأة هى شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها » .

مؤلفات العقاد

وقد ألف العقاد عشرات الكتب فى شتى الموضوعات فكتب فى الدراسات الإسلامية سلسلة عن عباقرة الإسلام ـ استهلها بعبقرية محمد ، فعبقرية الصديق فعبقرية عمر ، فعبقرية خالد ، كما كتب عن الصديقة بنت الصديق ، وعمرو بن العاص وداعى السماء بلال ، وأبى الشهداء الحسن بن على ، والإمام على بن أبى طالب . كما درس الفلسفة القرآنية فى كتاب بين فيه حقائق الإسلام وفند أباطيل خصومه . وتعرض للحكم المطلق فى القرن العشرين . وأثر الحضارة العربية فى فى أوروبا ـ والإسلام فى القرن العشرين . وحاضره ومستقبله وخصص كتابا عن الله سبحانه وتعالى .

وكتب فى الأدب كتاب « الديوان» بالاشتراك مع إبراهيم عبد القادر المازنى وهاجما فيه المنفلوطى وشوقى ـــ وانتقدا كثيراً من أدب المنفلوطى وشعر شوقى وسخفا جمله من آثارهما الأدبية ، وكتب رجعه أبى العلاء ، وابن الرومى وشاعر الغزل عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينه ، وأبا نواس « الحسن ابن هانىء » وكتب مراجعات فى الأدب ، وساعات بين الكتب ومطالعات فى الكتب والحياة ، وفى بيتى ، ويسألونك وتعرض للحياة الأدبية فى القرن التاسع فى كتاب أطلق عليه شعراء مصر وبيئاتهم فى القرن الماضى » وغير ذلك من الكتب الأدبية .

وألف كتاباً بعنوان « تذكار جيتى » وآخر عن « فرنسيس بيكون » وآخر عن «فرانكلين » وآخر عن « غاندى » وسماه « روح عظيم » وغير ذلك من الكتب والمؤلفات ومئات الأبحاث والمقالات فى الصحف والمجلات وقد صدر له أخيراً كتاب بعنوان « التعريف بشكسبير » .

وله فى الشعر دواوين كثيرة منها ديوان العقاد ـــ وعابر سبيل ـــ وبعد الأعاصير وله قصائد مختارة من الشرق والغرب جمعها وترجمها فى كتاب أطلق عليه « عرائس وشياطين » .

عبقرياته الاسلامية

وكتب عن محمد تقديرا لعبقريته على حد تعبيره ، بالمقدار الذى يدين به

كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى . وبالحق الذى ثبت له الحب فى قلب كل إنسان وليس فى قلب المسلم فكفى ، فمحمد عظيم لأنه قدوة المقتدرين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس . والكتاب ليس سيرة نبوية أو حديثا تضاف إلى السير العربية والأفرنجية التى حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن لأنه لم يقصد وقائع السيرة لذاتها على صفحات الكتاب على اعتقاده أن المجال متسع لعشرات من الأسفار لهذا الموضوع ثم لا يقال أنه استنفد كل الاستنفاد ، وليس الكلام شرحا للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو مجادلة لخصومه ، فهذه أغراض مستوفاة فى مواطن شتى بل الكتاب تقدير لعبقرية الرسول وهو بنان يومىء إلى تلك العظمة فى آفاقها .

وكذلك فعل العقاد فى كتابه عن أبى بكر الصديق فلم يكتب ترجمة لحياته ولا تاريخاً لخلافته وحوادث عصره ، إنما قصد أن يرسم صورة نفسية تعرفنا به ، وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين ، فلم تكن تعنيه الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدى أداءها فى هذا المقصد ، وهى قد تكبر أو تصغر ، فلا يهمه منها الكبر أو الصغر الا بمقدار ما يؤدى ذلك إلى النتيجة المقصودة — ولعل حادثاً صغيراً كان يستحق منه التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تجىء عرضا فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ .

وصور العقاد أبا بكر أميناً فى صداقته . أميناً فى حكومته ، أميناً فى سيرته ، أمينا فى ماله ، أمينا فى إيمانه ، ثم هو فى كل ذلك أكثر من الأمين وكل فضيلة وضعها عند أبى بكر هى فضيلة لا نزاع فيها ، وكل عمل استطاعه وصفه بقدرته ، وما من عمل لم يعمله قال أنه قد عمله ولا من قدرة لم تظهر منه جعلها من صنوف قدرته .

أما عمر فقد كانت تلازمه فى نظر العقاد طبيعة الجندى ، وهى ظاهرة باطنة تبادر للقلوب كما تبادر الأنظار وتلازمه كأنها عضو من أعضائه .

وأهم الخصائص التى تشمخ بطبيعة الجندى فى صفتها المثلى هذه الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف ، والنجدة والنخوة — والنظام —

والطاعة - وتقدير الواجب - والإيمان بالحق - وحب الإنجاز فى حدود التبعات أو المسئوليات .

وهذه الخصائص واضحة حتى ليخيل إلينا لو أن أحداً مولعاً بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن السؤال إسم عمر بن الخطاب .

وقد حلل العقاد شخصية عمر بن الخطاب ، ووضح . مفتاح شخصيته، وإسلامه والدولة الإسلامية فى عصره .

وفى عبقرية خالد بن الوليد عقد العقاد مقارنة بين الشخصين . فمفتاح شخصيتهما واحد وهو السليقة الجندية ، فإذا أحضرنا فى أخلادنا كلمة «الجندى» أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا ابن الوليد صفة لا تجيبها هذه الكلمة فى معنى من معانيها وبين الرجلين فارق لإخفاء به فى الخلق والتفكير وكله فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جندى مطبوع على الخلائق الجندية ولكن ابن الخطاب تغلب عليه فى مزاج الجندى ناحية الروحية أو ناحية الضمير أما ابن الوليد فيتغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية التركيب والبنيان .

واضح من هذا كله فى نظر العقاد أن تقول أن عمر كان جنديا فى أخلاقه الوازعة الحاكمة وأن خالدا كان جنديا فى أخلاقه الواقعة الهاجمة وفى الجنود كما لا تخفى هذه الأخلاق وهذه الأخلاق . ولا ريب فى أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو قبل كل شىء فارق بين نفسيته ، أو بين رجلين أو بين شخصين .

أما مفتاح شخصية على بن أبى طالب فى نظر العقاد فهو آداب الفروسية ، وآداب الفروسية هى تلك الآداب التى نلخصها فى كلمة واحدة هى النخوة — وكانت النخوة طبعا — فطرة — وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه وعادة من عادات الفروسية الجميلة التى يعلمها كل فارس شجاع متغلب على الأقران وهكذا كان على بن أبى طالب فى جميع أحواله وأعماله بلغت فيه نخوة الفروسية غايتها المثلى ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء ، فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ولم يساوره الريب قط فى الشرف . كما أنه كان من أزهد الخلفاء فى لذة دنيا أو سبب دولة حتى قال سفيان أن عليا لم يبن آجرة على

أجرة ولا لبنة على لبنة — ولا قصة على قصة ، وقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب .

مفتاح شخصية عمرو بن العاص

أما عمرو بن العاص فقـــد كان فى نظر العقاد من أصحاب القوة الحيوية ويظهر ذلك من احتفاظه بحضور ذهنه — ومضاء عزمه ، إلى تلك السن العالية التى تجاوز بهـا قوم التسعين ولم يهبط بها أحد إلى ما دون السبعين ، فإنه ليجيش به هذا الطبع وقد أناف على الخامسة والأربعين إلى فتح البلاد ، وتقليب الدول وافتتاح المساعى إلى المجـــد والرئاسة . كأنه ناشئ لم يزل فى بادرة الشباب ، ومستهل المغامرات والمجازفات فى سبيل الشهرة والسلطان .

ومن خصائص الطموح الذى لزمه من صباه إلى ختام حياته أنه كان طموحا قائما على مطالب الواقع فى بواعثه ومراميه ، فكانت نظرته إلى الدنيا نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن تلك النظرة الخيالية التى يتسم بهـا أصحاب الحماسة والأحلام من ذوى الطموح . ومناط الرجحان فى تلك النظرة العملية إنما هى الأخذ بالأحوط والانفع فى كل أمر من الامور ما كبر منهـا وما صغر ، حتى ليكاد الاحوط والانفع أن يكون عنده مقياسا للحق أو لصحة الاشياء ، على نحو يشبه مقياس القائلين بفلسفة الذرائع فى عصرنا الحديث .

الدراسات الادبية

هذه لمحات من دراسات العقاد الإسلامية أما دراساته الادبية فيتوجها بحثه عن ابن الرومى . والعقاد يعتز اعتزازا عظيما بشاعرية ابن الرومى ، ويعتبره من أشعر الشعراء فى الشرق والغرب جميعا فله قدرة عجيبة على التصوير والتعبير ، وخلق — الاشكال للمعانى المجردة ، فالشباب روح أو ملك يعيش كا يعيش الرجل وزميله من الجان فى بعض الاساطير والود كائن حى يعاجله الفشل أو يترك إلى الهرم فيموت والموت شرير مارق يهجوه ويسخر منه ، ونحو ذلك .

وأن القدرة التى سبق بها ابن الرومى الشعراء فى الامم كافة هى ملكة التصوير المطبوع وفى ذلك يقول العقاد ، لست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقه ومغاربه

أو يونان أقدمين أو أوربيين محدثين شاعرا واحدا له من الملكة المطبوعة فى التصوير مثل ما كان لابن الرومى فى كل شعر قاله مشبها أو حاكيا على قصد منه أو على غير قصد ، لأنه مصور بالفطرة المهيأة ، لهذه الصناعة ، فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبدا ، وأخذت فى العمل موفقة مجيدة سواء سهر عليها أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عامل فى بعض الأحايين ، وإنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه ، ولكن تمثيل هذه الحركة المستعصية كان أسهل شىء على ابن الرومى وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد وهزل وحزن أو سرور .

ابن الرومى شاعر عالمى

ومن الأمثلة التى ضربها العقاد على قوة ابن الرومى وبراعته فى التصوير صورة الاحدب الذى شبهه بالمصنوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه !

كما أستشهد بهذه الأبيات لتصوير براعته :

وجلس من الكتان أخضر ناعم   توسنه دانى الرباب مطير
إذا درجت فيه الشمال تتابعت   ذوائبه حتى يقال غدير

فليس أصدق على حد تعبيره من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهى تتلاحق مع الريح ثم يتم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الاخضر والملمس الناعم والغيم الذى يسرى على جلس الكتان — مع الليل فى وقت الوسق — ويسف بحواشيه المطيرة على الأرض البليل ، — فالصورة كاملة لا تنقصها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ، ولاحظ من حظوظ العين واللمس والخيال .

ويعتقد العقاد أن عالم ابن الرومى هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة الوادعة أو عالم الائتيفورين — والطفولة الخالدة هى الاحساس الجديد بالالم والاحساس الجديد بالسرور .

ودافع العقاد عن طيرة ابن الرومى وتشاؤمه المعروف حتى قيل ذات يوم أنه خرج عن زيارة صديق لأنه وجد على بابه غصنين متشابكين فى صورة

لا نتطير وأبى أن يدخل داره وقال أن النفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية ، وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة ، ويصاحب الفرح الإقبال والاستبشار والرغبة ، ويصاحب النفور الانكار والتشاؤم والكراهة ، وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة ، إذا رق الحس وغلب عليه الحذر ، وأصبح الانقباض عنده نذيرا بثنيه ، ويقتضب عليه طريق أمله ، ومن أبيات ابن الرومى التى يستجيدها العقاد هذه الأبيات :

أعانقها والنفس بعد مشوقه ⁂ إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كى تموت حرارتى ⁂ فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من جوى ⁂ ليشفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله ⁂ سوى أن يرى الروح تمتزجان!

وهذا الاستحسان ينم عن ذوق جميل ، وحس مرهف ، وشاعرية صادقة تهتز للجمال وتطرب من السحر الشهى الحلال ! فالشعر عند غير ابن الرومى كساء عيد وحلة موسم ، أما عنده فكساء كل يوم وساعة ! وحقا خاض العقاد غمار الشعر فأصدر دواوينه وكان له فى الشعر آراء شتى ومذهباً جديداً ، ومن دواوينه يقظة الصباح ، ووهج الظهيرة ، وأشباح الأصيل ، وأشجان الليل ، ووحى الأربعين ، وعابر سبيل ، — وأعاصير مغرب ، وبعد الأعاصير .

وهو لا يرى الشعر يخالف العلم أو يناقضه ، إلا كما يناقض الطب الهندسة وتناقض الكيمياء الطبيعة ، والرجل الراقى يفترق عن الرجل المنحط بكيفيه التخيل لا بكميته ، فالأول مرتب الخيال بطبعه — والثانى مشوش الخيال كثيفه ، فالعالم لا ينقص خيالا كلما ازداد علما — فإذا تنبأ علماء العصر فليتنبئوا بتحسن الشعر وبارتقائه لا بضعفه وأضماله — والقول بأن الشاعر يغنى محاكاة للطير فى شدوه لا يقل غرابة عند العقاد عن القول بأن الإنسان يطهى الأطعمة محاكاة لأكلة البرسيم ، وتشهد اللحوم من الدواب — أن حاجة الشاعر إلى الغناء كحاجة الطير إلى التغريد فلماذا يكون أحدهما حاكياً ؟ !

الشاعر العظيم عند العقاد

والشاعر العظيم عند العقاد أن تتجلى فى شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها

وجلالها وعلانيتها وأسرارها ، وأن يستخلص من مجموعه كلامه فلسفة للحياة ومذهباً فى حقائقها وفروضها أياً كان هذا المذهب ، وأياً كانت الغاية الملحوظة فيه، فاذا جمع الشاعر بين الأمرين أى إذا رسم لنا صورة كاملة للطبيعة وشرع لنا مذهباً خاصاً للحياة فذلك الشاعر الأعظم الذى ندر أن يجود الزمان بمثله فى الدهور المتطاولة والأجيال المتباعدة ، والذى لا تنطبق على عدد أقرانه فى جميع الأمم أصابع اليدين لأنه يجمع فى نفسه قدرة جسمية نادرة فلا تبذل جزافا ، ولا تفوقها على الإطلاق قدرة إنسان !

والشاعر اسمه بلغتنا يشير إلى تعريفه ، ولعل معجماً من معاجم اللغات لا يتضمن إسماً للشاعر أو على مسماه فى العربية ، وليس الشاعر من يزن التفاعيل فإنه فى هذه الحال ناظم ، وليس الشاعر بصاحب الكلام الضخم واللفظ الجزل ، فقد يكون كاتباً أو خطيباً ، وليس الشاعر من يأتى برائع المجازات وبعيد التصورات .

فذلك رجل ثاقب الذهن ، حديد الخيال ، إنما الشاعر من يشعر ويشعر ولقد ضاع الشعر العربى بين قوم صرفوه فى تجنيس الألفاظ وقوم حرفوه فى تجنيس المعانى فما كان شعراً بالمعنى الحقيقى إلا أيام الجاهليين والمخضرمين على ضيق دائرة المعانى عندهم — وسيعود كذلك فى هذه الأيام على يد أفاضل شعراء العصر .

التجديد فى ديوان عابر السبيل

وقد حاول العقاد فى دواوينه أن يقوم بنصيبه من هذا التجديد ، وهو يعتقد أن الرياض وحدها ، ولا البحار ولا الكواكب هى موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال ، وإنما النفس التى لا تستخرج الشعر إلا من هذه الموضوعات كالجسم الذى لا يستخرج الغذاء إلا من الطعام المتخمر المستحضر أو كالمعدم الذى يظن أن المترفين لا يأكلون إلا العسل والباقلاء . إنما كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخيله بوعينا ، ونبث فيه من هواجسنا ، وأحلامنا ، ومخاوفنا شعر وموضوع للشعر لأنه حياة وموضوع للحياة .

وأن إحساسنا بشيء من الأشياء هو الذي يخلق فيه اللذة ويبث فيه الروح ويجعله معنى شعريا تهتز له النفس ، أو معنى زريا تصدف عنه الأنظار ، وتعرض عنه الأسماع ، وكل شيء فيه شعر — إذا كانت فينا حياة أو كان فينا نحوه شعور .

ومن أجل ذلك حفل ديوان «عابر سبيل» بموضوعات مستمدة من الحياة — كالفنادق ، وبعد صلاة الجمعة ، والدتيار ، ووليمة المأتم ، والمنازل في الشتاء والصيف ، وعصر السرعة ، وكواء الثياب ، وسطح الدكاكين ، ومتسول ، كما حفل بكثير من الربيعيات كرقص الشجر ، وأزهار الذكرى ، وعلى شاطىء البحر وفي القمر والعيش جميل ، والقراء على البحر ، وحفل بكثير من التأملات كحب الإنسانية والتفاؤل ، والعشق والعلم والحياة وما إلى ذلك ، وضم إلى جانب ذلك طائفة من القوميات كيوم الجهاد ودار العمال ، ومشروع القرش ، وعيد بنك مصر وما إلى ذلك ، ومتفرقات كقلم مسروق — وإلى طبيب العيون ، وغير ذلك من القصائد التي تعبر عن واقع الحياة ، وتجعل الشعر يخوض غمارها مادام فينا إحساس ، ومادام لنا شعور .

ومن الموضوعات الطريفة التي ضمها هذا الديوان الحديث عن عسكري المرور وهو حديث قلما نجد نظيره عند غيره من الشعراء .

متحكم في الراكبين ... وما له أبداً ركوبه !
لهم المثوبة من بنا ... نك حين تأمر والعقوبة
مر ما بدا لك في الطريق ... ورض على مهل شعوبه
أنا ثائر أبدا وما ... في ثورتي أبدا صعوبة
أنا راكب رجلي فلا ... أمر على ولا ضريبة
وكذاك راكب رأسه ... في هذه الدنيا العجيبة

* * *

ولعل العقاد يشير في هذه الأبيات إلى حرية السائر في الطريق التي لم يحددها قانون أو تنظمها لائحة ، بيد أن العقاد في أغلب الظن لم يكن عند نظم هذه الأبيات يفكر في تلك القوانين التي فرضتها بعض الدول الأوربية بل الجمهورية العربية المتحدة على مخالفي المرور من السابلة في الطريق .

وكل بيت من البيوت التى تعاقب عليها السكان لو ألقيت عليه طلسم الخيال، وأمرته بالكلام فتكلم انطلقت منه أسرار وأشباح — يزدحم بها فضاء المكان، وسمعت عجباً لا تسمع الآذان أعجب منه، وقد عبر العقاد عن هذا الشعور فى إحدى قصائد ديوانه « عابر سبيل » وعنوانها « بيت يتكلم ».

جميع النـــاس سكانى فهـل تدرون عنوانى
وما للنـــاس من سر عدا آذان حيطـانى
حديـثى عجب فيــه خفايا الإنس والجان
فـكم قضيت أيامى بـأفـراح وأحـزان
وكم آويت من بشر وكم آويت من جـــان

عرائس وشياطين

وقد جمع العقاد بعض الأشعار التى استجادها من الأدب العربى والغربى فى كتاب أطلق عليه « عرائس وشياطين » وهو يرى فى الكتاب ما رآه السعدى الشاعر الفارسى من أن الشيطان نفسه جميل، يغوى القلوب بجماله ولكن بنى آدم مسخوه فى الصور والتماثيل لأنه حرم آدم أباهم من الجنة فحرموه الجمال — فالشيطانات إذن أحق بالجمال وأقرب إلى العرائس، وما هؤلاء وهؤلاء إلا كما قال المعرى قريب حين ننظر من قريب.

وقد اتفقت الأساطير على أن الشعر من وحى العرائس أو من وحى الشياطين فاختار الأوربيون أن يتلقوا وحيهم من عروس واختار العرب أن يتلقوا وحيهم من شيطان، ولا يراهم العقاد اختلفوا كثيراً فى نهاية المطاف، وإن اختلفوا قليلا فى الخطوة الأولى فنهاية العروس أن تعمل بشيطان، ونهاية الشيطان أن يعمل بعروس، وما عملا منفردين فى قلب إنسان؟!

والقصائد التى اختارها العقاد من الشعر العربى والعالمى يكثر فيها الإيجاز ويقل الاسهاب. ويندر فيها المشهور المتكرر على الأسماع — وقد أجاز لنفسه الحذف والتبديل فيها مداراه لإسفاف فى العبارة أو إسفاف فى الذوق والأدب.

ومن الأبيات التى استجادها العقاد نستطيع أن نستشف مزاجـــه الأدبى والفنى ومنها قول الشاعر العربى.

وما ذكرتها النفس إلا تفرقت فريقين منها عاذر لى ولائم
فريق أبى أن يقبل الضيم عنوة وآخر منها قابل الضيم راغم

ومن الأبيات التى استجادها العقاد لوليم بليك وهو شاعر ومصور إنجليزى عاش بين عامى ١٧٥٧ — ١٨٢٧ قوله :

غضبت من صديق وتكلمت فخفى الغضب وانتهى
وغضبت من عدوى ولم أتكلم فخفى ونما ورويت
الغضب بماء المخاوف وسقيت الليل والنهار بالدموع
وشمسته بالبسمات الكواذب وروحت عليه بالحيل المخادعات
وراح ينمو ويتفرع بالليل والنهار ثم حملت شجرته
تفاحة ذات لون بهيج رآها عدوى تبرق فى الضياء ،
وعرف أنها تفاحتى فتسلل إلى الشجرة فى جنح الظلام
وأقبل الصباح بنوره وافرحتاه افاذاهو تحت الشجرة طريح

عظمة شكسبير

وقد نقل العقاد فى كتابه « عرائس وشياطين » كثيراً من الشعر الغربى كما وضح فى كتابه « التعريف لشكسبير » عظمة هذا الكاتب العملاق . واعتقد أنه لو كانت فى القارة الأوربية بلاد تحجب عنها شهرة شكسبير لسبب من الأسباب الدولية لكانت فرنسا وألمانيا وروسيا أحق هذه البلاد لتقف عند حدودها شهرته فلا تعبرها ، فانها الدول الثلاث التى أقامتها الحوادث منذ القرن السابع عشر مقام المنافسة أو المنازعة للدول البريطانية — فى طلب السيادة على القارة وما وراءها ولكن هذه الدول كانت من أسبق الدول الأوربية إلى تعظيم الشاعر الغريب عن القارة وترويج أدبه والتنويه بقدره ، وكان أسبقها فى الزمن وفى التنويه فرنسا التى كانت خلال القرن كله تتلقى زحوف شكسبير زحفاً بعد زحف — وتذود جيوشه فى ميادين القارات الأربع بين العالمين القديم والجديد.

وآية العالمية فى تنويه فرنسا بالشاعر الغريب أن يكون له فيها أنصار يفضلونه على أعلام الشعر والفن فى أمتهم ، من طراز كورنى وراسين وموليير ومن لم يفضله

فى جميع المزايا على اطلاقها فقد فضله فى بعض مزاياه غير متحرج ولا متحفظ ومن هؤلاء من رفعتهم شهرتهم العالمية فى صيتها إلى طبقة كورنى وراسين وموليير وهم هوجو ولامارتين واناتول فرانس ، وأندريه جيد ، ورومان رولان .

الانطوائية والعزلة

والعقاد يميل بطبعه إلى العزلة وفى ذلك يقول فى اعترافاته « وأول ما أعترف به أنى مطبوع على الانطواء ، وإننى مع هذا خال بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من أندادى فى السن ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه ، وقد ورثت طبيعة الانطواء من أبى وأمى فلا أمل فى الوحدة ، وإن طالت بغير قراءة ولا تسلية ، ولا أزال أقضى الأيام على حدة حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات واللحظات » .

وقد يمر على ذلك أسبوع وهو قابع فى داره لا يبرحه . وسألته ذات يوم لماذا كنت قليل التنقل نادر الأسفار ؟ فأجاب لأنى كثير السياحة الفكرية بين الكتب !

وهو من الزاهدين فى البذخ والطعام ولكنه يعترف أنه زهد لا فضل له فيه لأنه يكلفه مشقة المغالبة والمقاومة .

وهو يعتقد أن المطبخ المثالى هو الذى يستخدم للغذاء . وليس المطبخ الذى يستخدم للذة الطعام ، أو لذة النوم . وقد يكون الطعام اللذيذ سماً فى باب الغذاء ، ويكون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة أو لا لذة فيه .

ولا ينكر أحد علينا أننا نحن الشرقيين نميل إلى مطبخ اللذة ، وورثنا فى هذا الفن تركات روما وبيزنطه . ومنف وبغداد وفارس ، والهند والصين ، وعرفنا كيف نطبخ الطبخة التى تمتع والطبخة التى تلذ البطون ـ والطبخة التى تهيج الأكباد والطبخة التى تعين على الشراب ــ وجرب ذلك الغربيون فشهدوا لنا بالسبق فى المجال من نساء ورجال !

والعقاد يميل إلى سماع الموسيقى العربية والغربية غير أنه يرى أن كل موسيقى ليست مفهومة عند كل سامع ، ولو كان السامعون من بلد واحد ــ وليس من اللازم أن يستطيب محب الغناء ولا أن يستطيب محب الشعر كل قصيد ولو كان من نظم أجود الشعراء .

وهو يضرب مثلا على ذلك بأن طبيباً أخذ مريضه الأصم إلى فرقة من الفرق الموسيقية ليشفيه بضجيجها فسمع المريض وصم الطبيب !

رسالة الأديب

هكذا يعيش الأديب الكبير عباس محمود العقاد ، الذى بلغ السبعين من عمره الحافل فى العام الماضى عاملا على تحقيق رسالته الأدبية ، وهى رسالة الأدباء كافة ، رسالة التبشير بدين الحرية . وعجم عود المستبدين ، فما من عداوة للأدب ، ولا من خيانة لأديب أشد من عداوة القوة للفضيلة ، وأخون من خيانة الاستبداد ، والدكتاتورية ترجع إلى تغليب القوة العضلية على القوة الذهنية والقوة النفسية ، فعدو الأدب من يخدم الاستبداد ، ومن يقيد طلاقة الفكر ومن يشوه محاسن الأشياء — وخائن الأمة العربية من يدعو إلى عقيدة غير عقيدة الحرية .

ولا يحرص هذا الأديب الكبير على شىء قدر حرصه على اللغة العربية الفصحى أما اللغة العامية فهى بطبيعتها لغة وقت محدود ووجهة محدودة فهى لا تصلح لبقاء أثر من الآثار التى تستحق البقاء — ولن تكسب شيئاً ولا القراء يكسبون شيئاً بصيانة حديث العامة وإهمال الحديث الذى تحمله المتنبى والمعرى وابن الرومى وشكسبير وهوميروس وسوفوكليس وفرجيل .

والمنكرون للعقائد والأديان يحقدون على اللغة العربية الفصحى لحقدهم على كل امتياز وارتفاع ويودون الانحدار بها إلى لغة الصعاليك ، أما المبشرون فيؤرقهم انتصار لغة القرآن ، ويودون تغليب الكلام المسف المتبذل على الكلام الفصيح المهذب . . . . .

ولذلك جند العقاد قلمه لمحاربة أولئك وهؤلاء . . . ولكنه رغم كفاحه الطويل ، وجهاده فى سبيل خدمة الأدب يعود فيقول « لقد تعبت كثيراً فى تحصيل الأدب والثقافة ولكننى أعترف بعد هذا التعب كله بقصورى عن الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل صباى ، فلم أبلغ بعد غاية الطريق — ولا قريباً من غايته وإذا قدرت ما صبوت إليه بمائة فى المائة فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين . . . .

وهذا هو التواضع العلمى فى أجمل صوره ، وأروع مظاهره ، وأنبل معانيه .

أحمد حسن الزيات

هذا أديب عملاق من عمالقة الأدب فى العصر الحديث، وصاحب مدرسة كبرى ظل ينهل فيها الأدباء والمتأدبون إلى ما بعد منتصف القرن الحالى.

ولد فى مدينة المنصورة عام ١٨٨٥ وأغرم بمناظر الطبيعة الساحرة بين أحضانها ثم رحل إلى القاهرة حيث التحق بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة والأدب بيد أن موهبته الفذة وسليقته الحساسة لتذوق فنون الأدب جعلته يزهد فى نظم التعليم الموجوده فى الأزهر، ويتوق إلى العكوف بمفرده على كنوز الأدب العربى القديم للانتهال من موارده العذبة، والارتواء من منابعه الأولى.

وحمل الزيات مع طه حسين لواء التجديد فى الأزهر، ومضى يدبج ببراعته المقالات تلو المقالات فى الدعوة إلى التحرر من قيود الماضى البغيض والنظم الدراسية العوجاء، ودراسة الأدب العربى دراسة منهجة منظمة، والاطلاع على روائع الأدب الغربى والتمسك بأهداب المدنية الحديثة فى حياتنا العلمية والاجتماعية دون اهدار تراثنا الإسلامى العظيم.

وقد بدأ أحمد حسن الزيات حياته العلمية مدرسا عام ١٩١٧، وكان قبل ذلك يساهم فى تحرير كثير من المجلات والصحف الأدبية الكبرى مثل «الجريدة» التى كان يصدرها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، ومجلة مصر الفتاة التى كان ينشر فيها بعض الابحاث الأدبية مع الدكتور طه حسين. وعندما صدرت مجلة السياسة الأسبوعية لم يضن بقلمه السيال على صفحاتها.

وفى عام ١٩٣٢ أصدر الزيات مجلة «الرسالة»، وقد كانت من المدارس الأدبية الكبرى التى كان لها أثر خطير فى نمو الحياة الفكرية فى الشرق العربى وفتح نوافذ جديدة أمام الأدباء والمتأدبين للاطلاع على الأدب الغربى والتيارات الأدبية المعاصرة. كما كانت مصدرا من مصادر اليقظة الوطنية، والوعى القومى، والدعوة إلى تحرير الأوطان.

وقد قام الزيات بكثير من الأعمال الأدبية الكبرى ، ومن هذه الأعمال ترجمته لقصة الأديب الألماني الكبير جوته التي كتب في سبب الاقبال على ترجمتها « في ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين وأنا شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ، ونمط التربية وطبيعة المجتمع في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده وإحساس مشبوب يتوقد بالجمال ، وقلب غريب يتحرق ظمأ إلى الحب ، فالطبيعة في خيالي شعر وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة ، وكان فهمي لكل شيء ، وحكمي على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائجه المثل الأعلى ، ثم فجر هذه الحال التي وصفت هوى دخيل هادىء ، ولكنه ملح ، فسبحت منه في فيض سماوي من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودي الخالي قد امتلأ — وقلبي الصادي قد ارتوى ، وحسي الغائر قد سكن ، ورحت أسلك هذا الطريق السحري محمولا على جناح الهوى ، حتى ذكرني الزمن الغافل ، فأقام فيه عقبه الخيال بالواقع ، والحبيب بالخاطب أو العاطفة بالمنفعة .

فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ، ورأيت روحا غير هاتيك الأرواح ، واحسست حالا غير تلك الحال ، كنت أقرأ ولا أرى في الحادثة سواى ، وأشعر فلا أشعر الا بهواى ، واندب ولا اندب الا بلواى ! »

وقد صور جوته في هذه القصة العالمية الواقعية عواطف الشاب في وقت نزوعه إلى الحب ، وولوعه بالجمال ، واتحاده مع الطبيعة ، وقد قال عنها لصديقه (اكيرمان) « وكل أمرىء يأتي عليه حين من دهره يظن فية ان « فرتر » انما كتبت له خاصته » .

وترجمة هذه القصة إلى العربية تتفق مع أصلها في قوة الاسلوب ودقته واناقته وجماله ، وهي مثال للترجمة الأمينة التي تنقل الصورة والفكرة وما يقوم بهما من الروح والخيال والعاطفة .

كما ترجم أحمد حسن الزيات قصة « رفائيل » وهي إحدى روائع القصص العالمي الواقعي لشاعر فرنسا الفونس لامارتين وقص فيها بأسلوبه الشعري تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب وهي كآلام فرتر في دقة الترجمة وقوة الأسلوب .

وصور المؤلف فى هذه القصة الحب الدامى الذى شب وترعرع بين رفائيل وجوليا وإلى حبهما الخالد أهدى هذا الكتاب الخالد ، « فان لكما جميل الأثر فى اشراق سطوره ، وانبثاق نوره ، فمن عينيك الساجية يا أختاه فهمت لغة الدموع ومن نفسك الصافية ادركت معنى الحساسة ، ومن قلبك الفياض أحسست طهر المودة ، ومن لسانك العذب اقتبست هذا البيان »

وصور وجوه الشبه بين بطلى القصة فى قوله على لسان البطل « وجدت فى حظها مشابه من حظى ، فكلانا طريد هم ووحيد غربه ، وكلانا نضو سقام ، والسيف وحشه ، وهى مثلى تتجنب الضوضاء ، وتتقى عيون الناس »

وما أروع تصوير المؤلف لبطل القصة ، وما أجمل تعبير المترجم فى العربية « لقد أثرت فى كل قلب ، وامتزجت بكل نفس ، دون أن تتصل بإنسان ، أو تتحدث إلى أحد ، كانت الفكرة فى كل خاطر ، والفتنة فى كل ناظر ، والكلمة فى كل فم والجلال فى كل قلب . ان هذا النوع من الناس ممن يشعون الأنوار ، ويخطفون الأبصار ويجذبون إلى مدارهم من حولهم دون أن يفكروا فى ذلك أو يقصدوا إليه أو يشعروا به لهم ما للشموس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعيهم الأبصار والافكار والنفوس فتتعلق بهم ، وتجرى فى الفضاء على ضوئهم »

والواقع أن الزيات قد أبدع إبداعا معجزا فى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وظهرت فيه براعة الاسلوب بشكل واضح ، وفى صورة ناطقة لا تحتاج إلى دليل ولا يعوزها البرهان وجعلنا نعيش فى أجواء القصة بكل مشاعرنا واحساسينا ، ونتساقى مع العاشقين كئوس الحب مترعة صافية فى ارباض المدينة الجميلة ورياضها الغناء ، حتى اننا شعرنا أن هناك من الأمكنة والاجواء والساعات والفصول والظروف الخارجية ما يتصل سلكه بحبه القلب ومشاعره ، حتى لتخال الطبيعة جزءا من النفس والنفس جزءا من الطبيعة !

ونقلنا الزيات إلى تلك البحيرة الهادئة الوادعة التى تغنى العاشقان على ضفافها أحلى نغمات الهوى ، وترنما بأعذب أغاريد الغرام ، وصور تلك الساعات العذاب التى شرب فيها كئوس الهوى غداقا دهاقا وتلك الساعات التى يبس بينهما فيها الثرى ودبت الجفوة أو القطيعة ومضى العاشق يتقصى وجوه السماء ، فيشعر

بانجذاب أفكاره اليها كما يشعر الواقف على شفا الهاوية بانجذاب جسمه إلى قاعها فكأنما فى السماء قوة تجذب النفوس كما للارض قوة تجذب الجسوم !

وصوره وهو على القرب والبعد والمشهد والمغيب يراها فى نفسه ، يملكها كما تملك العين النور حين ترمقه ، والرئة الهواء حين تستنشقه ، والنفس الفكر حين تعلقه ، وقد غشه ضوؤها وغمره سناها ، فما تعد تستطيع هى استرداد ما ناله من أشعتها وبهائها ، كما لا تستطيع الشمس أن تسترجع ما منحت الطبيعة من حرارتها ولألائها — ويحسب أنه وإن عمرت القرون فانه لا يحس فى قلبه بردا ولا ظلاما لأنها تشع فيه الحرارة والنور على مر الأيام ومر العصور .

وقد ترجم الزيات فى الصفحات الأخيرة من الكتاب قصيدة « البحيرة » للشاعر الفرنسى لامارتين وقصيدة الوحدة ، وهاتان القصيدتان من أشهر وأروع القصائد الرومانيكية فى تاريخ الأدب الفرنسى .

وقد قامت محاولات كثيرة لنظم قصيـــدة البحيرة بالشعر فنظمها شاعر الجندول على محمود طه كما نظمها قبل ذلك الدكتور نيقولا فياض ونشرها فى مجلة الزهور التى كان يصدرها المرحوم أنطون الجميل ، كما ترجمت عدة ترجمات جديدة إلى اللغة العربية بيد أن ترجمه الزيات تحل على رؤوس هذه الترجمات جميعا لما امتازت به من أسلوب جميل وبيان رائع وعبارة أنيقة طليقة تبعث فى النفس سحرا وانجذابا وفى القلب روعة واختلابا .

وللزيات كتاب آخر اسمه « فى أصول الأدب » وهو فى الأدب والنقد ، ويتميز بالبحث العميق ، والتحليل الدقيق والرأى المبتكر ، ومن موضوعاته الأدب وحظ العرب من تاريخه والعوامل المؤثرة فى الأدب ، والنقد عندالعرب وأسباب ضعفهم فيه وتاريخ حياة ألف ليله وليلة وأثر الثقافة العربية فى العلم والعالم ، والرواية المسرحية والملحمة وتاريخهما وقواعدهما وأقسامهما وكل ما يتصل بهما . وهو بحث طريف يكاد يبلغ نصف الكتاب .

وقد كان كتاب الزيات السابق مصدرا من مصادر الدراسة الأدبيـــة فى مدارسنا ، ونواة لكثير من البحوث التى تقدم بها الجامعيون ، كما كان فتحا جديدا فى دراسة الأدب العربى القديم على أصول قويمة ، وقواعد سليمة ، ومنهج

واضح مبين ، مع العناية بآراء المستشرقين وعرضها ونقدها والاستشهاد بالصالح منها ، ورد الطالح عنها . أما كتاب « تاريخ الأدب العربى » فهو كتاب يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ،واستيعاب موجز وتحليل مفصل ، واختيار موفق وموازنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى.

وقد بذل الزيات فى هذا الكتاب جهدا كبيرا فى عرض حالة الأدب العربى فى عصوره المختلفة ، والترجمة لا علامة فى الشعر والنثر ، وقد رجع إلى عشرات الكتب والمؤلفات القديمة ، ودواوين الشعراء لتحليل أدبهم والاستشهاد بشعرهم حتى ظهر الكتاب فى أكثر من خمسمائة صفحة من القطع المتوسط .

ويعرض كتاب « دفاع عن البلاغة » قضية البلاغة العربية أجمل معرض ، ويدافع عنها أبلغ دفاع ، فيذكر أسباب التنكر للبلاغة والعلاقة بين الطبع والصنعة وحد البلاغة وآلة البلاغة الخ .

ومن فصوله المبتكرة الذوق والاسلوب والمذهب الكتابى المعاصر ، وزعماؤه ، واتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزيه ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك ويتضح فى هذا الكتاب حرص الزيات على اللغة العربية الصحيحة ، والدفاع عن الأدب العربى العظيم ، كما يدعو إلى التمسك بأهداب لغة القرآن الكريم حفظا لهذا الكتاب الخالد المبين ، صيانة لتراثنا الأدبى الدفين .

وهو فى دفاعه كالحسام البتار، والسيف حاد النصال، لا يخاف فى سبيل الحق لومة لائم ، أو ثورة مهاجم ! بل يشنها حربا عوانا على انصار العامية فى الأسلوب الكتابى والمجال الأدبى !

وقد نبه الزيات الأذهان إلى أبواب جديدة ، وميادين فسيحة فى النقد الأدبى بما كتبه من فصول ممتعة عن الذوق والأسلوب مما مهد إلى ظهور المدارس النقدية فى الأدب الحديث .

وللزيات كتاب آخر بعنوان « من الأدب الفرنسى » قصائد وأقاصيص، وهو مجموعة من أروع القصص القصيرة ، وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها ، ولا يستطيع ناقد أن ينكر فضل كتاب الزيات هذا فى وضع نماذج رفيعة من القصص الأوربى القصير أمام الطليعة من كتاب القصة من الشباب الذين اكتفوا بالواجبات الجاهزة ، والطعام المعد على المائدة

عن الرجوع إلى الخضروات النيئة لاعدادها للطهى والطعام . فوجدوا أمام عينهم مادة سهلة يسيرة ليس فيها صعوبة أو عسر ، فتناولوا منها وهضموها وتمثلوها ، وشاعت فى أدبهم الجديد وانتاجهم الحديث ، وقد زاد رصيدهم من هذه النماذج عندما أصدر الزيات « الرواية » أخت الرسالة .

كما لا يستطيع ناقد أن ينكر فضل قصائد الزيات المترجمة فى توضيح المذهب الرومانتيكى فى الأدب الفرنسى ، وغيره من المذاهب الأدبيــة ، فوجد فيها الطليعة من الشعراء مصدرا من مصادر وحيهم ، ومنبعا من منابع إلهامهم ، ومضوا ينظمون القصــائد على غرارها — ويحاولون أن ينسجوا القريض على منوالها !

والزيات كتاب ضخم يقع فى عدة أجزاء بعنوان «وحى الرسالة» وهو فصول فى الأدب والنقد والسياسة والاجتماع .

وهى تلك الفصول التى شهدت النور على صفحات الرسالة الغراء ، وكانت معمورة بألوان مختلفة من الفكر النير والرأى السديد ، مغمورة بفيض من الإحساس المتدفق والشعور المتألق ، والحماسة الهادرة !

وقد كانت مقالات الزيات سياط عذاب حينا ، ورسل رحمة حينا آخر ، وعاصفة نكباء طورا ، ونسيما رخى العبير ، رضى الشمائل طورا آخر ، ومن أروع مقالاته التى تصور الثورة على الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، وخراب الذمم والضمائر فى العهد البائد قوله فى أول ديسمبر عام ١٩٤٧ فى مقالة بعنوان « لا إله اليوم الا الهوى » عندما هاجمت الكوليرا البلاد .

« قد يخدعك الغطاء الذهبى على الناب ، والقفاز الحريرى على المخلب فتحسب أن هذا الإنسان الذى هتك بعلمه استار الطبيعة ، وكشف بعقله أسرار الوجود وصقلة التمدن فارتفع من الأرض إلى السماء ، وانتقل من الحيوان إلى الملك ولكن خلافا يشجر بين الأخوة على ميراث ، أو شقاقا ينشأ بين الزعماء على منصب أو نزاعا يحدث بين الدول على بلد يستطيع ان يشق الذهب ، ويمزق الحرير ، فترى الوحش الآدمى على جبلته بادى النواجز متقد العينين ، يتحلب الريق من انيابه ويقطر الدم من أظفاره .

هانحن أولاء كنا نظن لوفرة المساجد فى المدن والقرى ، وكثرة السبح

فى الرقاب والأيدى ، وتنافس الفقراء فى إقامة الصلاة ، وتسابق الأغنياء إلى أداء الحج ، إن الدين قد سيطر على القلوب ، وهيمن على الضمائر ، .... فلما ابتلانا الله بوباء الهيضة الجارف ، ووقع الايمان المزيف تحت المحك ، تمزقت الاغشية عن عفن فى نفوس أكثر الأغنياء ، والأطباء والمسئولين ، كان أزكى روائحه الرشوة والشح والسرقة والتواكل والتخاذل ، والتفريط والقسوة .... وكل هذه الموبقات مشتقات من مصدر واحد هو الأثرة » .

ويصور فى مقال آخر الطابور الخامس الذى يفت فى عضد الدولة عند الازمات والملمات فيقول ، ولكن شهرا يوشك أن ينصرم ، والعدوى السريعة لا تزال تسرى والعلة الثقيلة لا تزال تستشرى ، والموت بمنجلة الحاصد لا يزال يسبق الآجال فى كل بقعة وأكثر هؤلاء الأطباء منهومون بالمال ، يتهالكون على جمعه ، ويتنافسون فى إدخاره ، وهم فى سبيل تحصيله يسفهون الحق ، ويغفلون الواجب ، ويجهلون الرحمة ، وينكرون الحسنى ، ثم يخفون اللقاح عن الفقير ليظهروه بالثمن للغنى ، ويصعبون دخول المستشفى ليسهلوا دخول العيادة . ويكلون بطبيب المرضى لاجلاف الممرضين ، وجفاه الخدم ، ليلعبوا النرد فى القهوة ، أو يلهوا بالورق فى النادى » !

ولكن الزيات لا يمضى فى مقاله على هذا النحو كالبركان الثائر أو البحر الهادر أو الموج الصاخب اللاغب إنما لا يلبث أن يهدأ هدوء النسيم الوادع الرقيق وهو يداعب الاغصان ، ويقبل ثغور الزهور والأقاحى فيقول : «على أن الطب به جزءا من النبوة وشطرا من الحكمة ، وعلى هذا الشطر وذلك الجزء يعول الناس فى إيقاظ الضمير الانسانى فى هؤلاء الأطباء ليعودوا رسل سلامة وملائكة رحمة » .

ولا شك أن هذه الدعوة لتحقيق العدالة الاجتماعية كانت مع اخواتها من الدعوات إرهاصا لما نجده من تنظيم إجتماعى فى العصر الحديث وتحديد للدخول وفرض للضرائب التصاعدية ، وغير ذلك من قوانين اشتراكية تحقق الرفاهية للقطاع العام ، وتعمل على تحقيق الأمل ، وتوفير العدل ، وإتاحة الفرص للجميع.

كما هاجم الزيات فى الرسالة تحكم الأمراء فى الفلاحين ، وأصحاب الضياع فى

المزارعين . ومن أشهر مقالاته تلك المقالات التى نشرها عام ١٩٣٩ ثائرا على الاقطاع وجاء فى إحداها « ليس لأغنيائنا وطن ، إنما لهم قصور لإتلاف النعمة ومزارع لعصر الفلاح ، وبرك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأنديه لقتل الوقت ، ومناره لإظهار الابهة ، وماعدا ذلك من أرض الوطن ، ومعنى الوطن فهم لا يفهمونه ، ولا يفقهونه ، هل سمعت أن غنيا من الأغنياء ، أو أميرا من الأمراء قال أن له وطنا فتبرع له بطائرة للجيش أو بجائزة فى المعارف أو بملجأ فى الاوقاف »

وقد ألهب الزيات الحماسة بين النفوس ودعا إلى توحيد الصفوف لتخليص أرض فلسطين من براثن اليهود فقال عقب التقسيم « ها هى ذى تقسم فلسطين وبها إحدى القبلتين وثانى الحرمين . قسمة ضيزى بين العرب الاصلاء واليهود الدخلاء ، وتحمل الصهيونيين على ضمائرها وبواخرها من أركان الارض إلى فلسطين لينصبوا فيها الصليب للحق كما نصبوه من قبل لعيسى ، ويبذروا فى القدس الشقاق للناس كما بذروه فى يثرب لمحمد . ليت شعرى ! ماجديرة العرب والمسلمين على الأمم الأوربيين والامريكيين ؟ هل جريرتهم عليهم أنهم فتحوا العالم وطهروه وأعلنوا دين الله ونشروه ؟ قد يكون مع الفتح ترة المنصرية . ومع نشر الدين تعصب الكنيسة ولكن ترة المقهور ، وتعصب الكاهن لم يكونا وحدهما السبب فى هذا الاستخفاف الدولى بالاسلام والعروبة ، إنما السبب الاقوى فيما اعتقد أن المسلمين اعتمدوا على الحق دون القوة ، وعولوا على القول لا الفعل واعتقدوا فى الشخص لا فى المبدأ ، ونسوا أن دينهم قرآن وسيف ، وتاريخهم فتح وحضارة ، وشرعهم دين ودنيا ، وحربهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة »

٥

ويدعو الزيات إلى الاهتمام بشئون الجيش فيقول « أن جيشنا باعماله الباهرة يرحض عنا بالفعل عار الكلام ، ويكشف عنا بالقوة ذل الضعف ، ويفاوض خصمنا فى الميدان على استقلالنا التام ، فقدموا العون لمن يبنى لكم المجد ، وابذلوا المال لمن يبذل فى سبيلكم الروح . . »

ويصور خسة اليهود فى مقال آخر فيقول « واليهود منذ فرق شملهم « بختنصر »

وبث حبلهم أدريان أخذت تضعف فيهم غريزة الدفاع عن النفس بالقوة حتى ماتت فى مدى خمسة وعشرين قرنا لم يدافعوا عن حياتهم فيها إلا بخداع الثعلب وتملق الكلب وتلون الحرباء . . . »

وأرجع هزيمة فلسطين إلى عـــدم التعاون بين القوات المتحاربة ومساندة الدول الباغية لاسرائيل فقال « لمن هذه القوة إذن . . . وإن قلت أن القوة التى فى فلسطين لليهود فكأنما قلت أن للارانب دولة فى غاب الاسود ؟ !

إنها للاتحاد الذى جعل النحل تهزم جيشا بأسره ، ومكن للبراغيث أن تخرج النمرود من قصره ، وأنها للعلم الذى ينقل على أجنحة النحل قذائف تدك المدن وينبت فى أفواه البراغيث أنيابا تقتـــل الفيله وأنها للمال الذى يسخر المصانع الامريكية لتسليح اللص ، ويجبر الممالك الأوربية على تأييد الباغى »

وهكذا كانت مقالات الزيات دعوة ثائرة للتحرر من الرق الاجتماعى والاستبداد الإقطاعى ، والتمسك بالاتحاد والوحدة من أجل تحرير الوطن العربى من الدخلاء وإرجاع الأرض المغتصبة إلى أهلها ، والبقاع المسلوبة إلى ذويها .

وفى افتتاحية عدد ٤ اغسطس عام ١٩٥٢ رحب الزيات بالثـورة المباركة ومضى يروى صفحة دامية من صفحـات الماضى البائد فقال « كانت بلية مصر العظمى أن تزعمها نفر من المحامين صناعتهم الجدل وبضاعتهم الوعود . ووسيلتهم الخطب ، وغايتهم المناصب ، أكثرهم يقولون الحق ويفعلون الباطل ، ويذكـرون الأمة ويريدون الغنيمة وأقلهم يطلبون التحرير ، ويرغبون الإصلاح ، ولـكن قصاراهم ان يخطبوا ماأسعفهم الريق ، وأن يكتبوا ماواتاهم المداد وأن يتظاهروا ما أمـكنتهم الفرص وان يهتفوا ما أطاعتهم الحناجر ثم احترف الطاعون فيهم الدفاع عن القضية الـكبرى لأنها أوفر ربحا ، وأيسر كلفة ، فكان من غرضهم أن تعرض ، ومن مصلحتهم أن تطول ! ثم انقلب هؤلاء المحترفون صيادين فى بحـر زاخر بالخلاف والفساد والفوضى ، بعضهم يطمع فى اللآلىء وبعضهم يقنع بالجيف ، والشعب المظلوم المحروم يصارع الأمواج الرعن ويجابه الصخور الصم ، ويستغيث فلا يرى الا الشباك الجارفة تغرق اشـلاءه وتجمع أسلابه ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا — ويجعل كل عامة خاصة ، نشأته جدودنا العواثر تنشئه الوارث العابث المتعطل ، فلم ينل ما يناله الإنسان العادى من التربية والتعليم وإنما

ثقفه الفراغ فى الرأس والنفس والضمير ثقافة الفجار من أمراء بيته ، فصاد الطير وقاد السيارة ولعب الورق واطلق المسدس ! !

هذه هى أفكار الزيات واضحة جلية تبدو خلال عباراته القوية ، واسلوبه الرصين وهى تحمل طابع الثورة على النظم البائدة والتقاليد العتيقة والطموح إلى عالم مثالى يحل فيه التعاطف والتآزر بين الناس فى أرفع موضـــع وأسمى مرتبة وأعلى مكان حتى نجابه الأحداث وحدة لا تتعدد وكلا لا يتجزأ وجمعا لا يتفرق !

لقد كتب الزيات عن لامارتين ذات يوم أنه أبدل آلهه الشعر قيثارتها ذات الأوتار السبعة أعصاب القلب البشرى يحركها مالا عدّ له من خلجات النفس وهزات الطبيعة »

وحرى بنا أن نقول عن الزيات ماقاله عن رفيقه الشاعر فى ميـدان الأدب والكتابة فقد خاض الزيات بقلمه السيال فيما يكون كياننا ، ويقيم بنياننا فى أسلوب سحرى متألق ، وعبارة منضودة جاهرة باهرة !

محمد حسين هيكل

كان أديباً رقيقاً ، باحثاً مطلعاً عميقاً ومؤرخاً مستقصياً مستوعباً ولكن تيار السياسة لم يلبث أن جرفه إليه فخاض غمارها وجال فى مضمارها ، بيد أنه لم ينس الأدب ولم ينس التاريخ فكان يخرج نفثاته الفكرية بين الحين والحين .. ذلكم هو الأديب الكبير والمؤرخ الجليل الدكتور محمد حسين هيكل .

ولن نتحدث فى هذا البحث عن هيكل السياسى فربما يكون لهذا كله موضوع آخر إنما سنتحدث عن هيكل الأديب والمؤرخ الذى كان له أثر أى أثر فى التاريخ الأدبى والدراسات الإسلامية فى العصر الحديث . .

ولد الدكتور محمد حسين هيكل فى (كفر غنام) من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية عام ١٨٨٨ وكان ينحدر من أسرة ريفية على نصيب من الثراء وحظ من الغنى . . وعندما بلغ هيكل الخامسة من عمره التحق (بكتاب) القرية كأقرانه فى هذه الفترة ، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ سوراً من القرآن الكريم ثم انتقل إلى القاهرة فدرس فى مدرسة الجمالية الابتدائية فمدرسة الخديوية الثانوية فكلية الحقوق حيث تخرج فيها عام ١٩٠٩ ولم تنته مطامحه عند التخرج بل اعتبر شهادة ليسانس الحقوق بداية لانهاية ، فسافر إلى باريس لاستكمال دراسته الجامعية وحصل هناك على درجة الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى عام ١٩١٢ وعندما عاد إلى مصر اشتغل بالمحاماة فى مدينة « المنصورة » كما اشترك فى إلقاء بعض المحاضرات فى الجامعة المصرية القديمة . ولما أنشأ حزب الأحرار الدستوريين جريدة السياسة عام ١٩٢٢ تولى هيكل منصب رئيس التحرير . . أخرج هيكل مجموعة من الكتب الأدبية والدراسات الأدبية فى حياته استهلها بقصته المشهورة « زينب » التى كتبها أثناء دراسته فى باريس وعالج فيها قصة حب وسط الريف الهادىء والطبيعة الساحرة والجمال الباهر . . قصة حب دامية بين قلبين فرقت بينهما التقاليد . . ولا تلبث الآلام تعتاد زينب الجميلة بطلة القصة حتى تصاب بذات الرئة ذلك المرض الذى يسلمها إلى الموت . .

جان جاك رسو :

وقد صدرت قصة زينب عام ١٩١٤ ثم أصدر هيكل بعد ذلك بسبع سنوات الجزء الأول من دراسته عن المفكر الفرنسى الكبير « جان جاك رسو » ونشر الجزء الثانى منه عام ١٩٢٤ ويهدف بهذا الكتاب إلى أن يعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب لعل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر الخالص ، لا على مجرد القوة الغاشمة المتحكمة . ولذلك كتب هيكل جان جاك روسو ليزيل شقة الخلاف بين الطرفين . كما أنه قد حببه إلى روسو أمران : الأول : طريقته فى التفكير التى تكاد تكون شرقية ، والثانى شخصية المفكر الذى خلد على الدهر رغم ما كان عليه من فقر واضطراب نفسانى يقارب الجنون وعلل الأمراض ونقائص لاحد لها ولانهاية لها . وفوق هذا وذاك فكرة ثالثة قائمة على أساس متين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل . .

فى أوقات الفراغ :

وفى عام ١٩٢٥ أخرج هيكل كتابه « فى أوقات الفراغ » . وهو مجموعة من المقالات التى كان قد نشرها فى الصحف . . وقد بدأه بالنقد وبما كتبه عن « أناتول فرانس » فى السياسة وفى الاستقلال والسفور كما كتب فصلا عن « بير لوتى » وفصولا عن كتب نشرها جورجى زيدان ومصطفى صادق الرافعى ومحمد السباعى والدكتور طه حسين وغيرهم من رجال القلم ، كما نشر فصولا خاصة بمصر كرسائل « بيبان الملوك » وخلاصة كتاب « مستر كارتر » عن قبر توت عنخ آمون . كما يضم الكتاب قصصاً وأحاديث عن « أبيس وسميراميس » وغيرهما . ومن الشخصيات التى انتقدها هيكل فى كتاب « أوقات الفراغ » الأستاذ أحمد لطفى السيد فى كتاب « علم الأخلاق لأرسطوطاليس » ومحمد فريد وجدى فى دائرة معارف القرن العشرين ورأى هيكل أن كتاب الأخلاق الذى ترجمه لطفى السيد لابد سيثير فى حركة مصر العقلية ثورة كبرى . فإن اللغة التى ترجم لها تجعله أقرب إلى القراء ونظرياته التى أخذت عنها الفلسفة العربية والغربية جميعاً كفيلة بأن

تبعث فى الفكر حياة جديدة . وما أشد حاجتنا لهذا البحث فى عصرنا الحاضر وقد جف معين الفكر المتعمق فى بحث الحقائق الذاهب إلى غور الأشياء . أما رأيه فى دائرة معارف فريد وجدى فهو أنها جهد عظيم فالمؤلف لم يكتف بوضع قواعد البحث ونظامه والإشراف على أبحاث سواه ، بل تفرد بها فلم يستعن بأحـــد ولم يشرك مع مجهوده مجهود غيره ، فهو الذى بحث ونقب وهو الذى نظم ورتب . . وبحسبك هذا لتعرف مشقة العمل وعظم المجهود فأنت إذا رجعت إلى التعريف الذى وضعه تحت عنوان الكتاب ورأيت ما فى دفة هذه المجلدات من قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم العقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها ازددت عرفاناً بما اقتضاه هذا المجهود من وقت ومصابرة ومثابرة . .

تراجم مصرية وغربية

وأخرج الدكتور هيكل بعد ذلك كتاب « عشرة أيام فى السودان » تناول فيه زيارته للســودان وملاحظاته عن نظام الحياة هناك وعن اتصالاته بكبار رجال السودان أثناء هذه الزيارة ثم أخرج عام ١٩٢٩ كتابه « تراجم مصرية وغربية » درس فيه حياة كثير من أعلام التاريخ والفن والأدب مثل كليوباترا وإسماعيل وتوفيق وإسماعيل صبرى وعبد الخالق ثروت كما درس من أعلام الموسيقى بيتهوفن أو باكوس الذى يستصفى للإنسانية الرحيق العذب ويجلى على الناس أقدس ما فى الروح من جلال . وتناول حياته منذ أن خرج من بطن أمه الخادم بنت الطباخ حتى عمل عازفا فى أوركسترا أحد المسارح ثم ارتفع صيته وسما اسمه وانتشر ذكره فى العالمين . إلى أن انتهت المهزلة على حد تعبيره بموته فى ٢٦ مارس عام ١٨٢٧.

درس هيكل شخصية بيتهوفن دراسة مستفيضة وبين عفافه فى الموسيقى حيث كان يعيب على « موزار » تعبيره بالموسيقى عن الحب الذى تشوبه الشهوة فى قطعته « دون جوان » . ودرس هيكل كذلك تين صاحب الفلسفة الوضعية والناقد الأديب وصاحب مؤلفات مذكرات عن باريس ومذكرات عن انجلترا ورسائل فى النقد والتاريخ كما درس شكسبير ودافع عنه واستند إلى رأى « هوجو » و « ملتون » فيه ويظهر من دراسته لشكسبير تأثره بالنقاد الإفرنج مثل برادلى وبرادلى وغيرها ولكن هذا البحث موجز وليس فى استفاضة بحثه عن « شيللى » بيد أنه فى بحثه

الأخير أفاض فى حكاية قصة حبـه إفاضة بالغة استغرقت عشرات الصفحات ولم يتعرض لآثار شيللى نفسه بالتحليل والدراسة مثل مسرحية « بروميثيوس طليقاء » و « الملكة ماب » وغيرها من الآثار الأدبية التى كتبها شيللى والتى خلدت اسمه فى سماء الأدب الإنجليزى .

إلى ولدى

وأخرج هيكل عام ١٩٣١ كتابه « إلى ولدى » وقد كتبه عن رحلاته فى الخارج وأهداه إلى روح ولده ممدوح الذى ولد فى ٦ يونيو عام ١٩١٩ ولاقى ربه فى ١٢ ديسمبر عام ١٩٢٥ وكان والده يحبه حباً جماً ولـكنه مرض مرضاً لم يلق إليه الطب بالا ، ثم لايلبث أن يعلم بعد ذلك أن ابنه أصيب بحمى الدفتريا فانهدت أمه باكية تنتحب وكأنما رأت الموت رأى العين يمد يده إلى صغيرها يختطفه منها ، ثم تنبهت إلى واجبها نحوه فأسرعت ترعاه وتمرضه ولـكن القدر المحتوم كان له بالمرصاد ، وفى اليوم الموعود ذهب هيكل إلى عمله وهو أشد طمأنينة من كل يوم سبقه منذ مرض الطفل ، فلما عاد عند منتصف الليل رأى الأنوار فى مسكنه والباب مفتوحاً فلما دخل قابلته زوجته باكية قائلة « ممدوح مات » وقد أثر موت الطفل فى نفس هيكل تأثيراً كبيراً فسافر مع زوجته فى صيف عام ١٩٢٧ إلى أوربا حتى ينسيا آلامهما بعيداً عن مكان الذكرى الممضة فزار الآستانة وبودابست وفيينا وبراغ وباريس . وفى صيف عام ١٩٢٨ ذهب إلى جنوا وبون وكولونيا وبرلين وميونخ فبادجستين فباريس ففيشى فرسيليا ثم عاد إلى الإسكندرية .

وفى هذا الـكتاب تصوير لهذه الرحلة ومقارنة بين صور الحياة فى تلك المدن منذ سنوات وبين صور الحياة فيها فى الفترة التى زارها عندما كان يطلب العلم فى باريس .

ثورة الأدب

وفى عام ١٩٣٣ أخرج هيكل كتابه « ثورة الأدب » وقد اختار له هذا العنوان بعد أن جال بخلده أن يطلق عليه الأدب القومى ولـكنه عاد وآثر ثورة الأدب لأنه يتحدث عن الثورات التى شهدها نصف القرن الأخير فى شئون الـكتابة

والأدب ويصف الجهود المختلفة التي قام بها أصحاب المذاهب المختلفة فى إقامة الأدب العربى الجديد ، ويضم هذا الكتاب آراء قيمة فى الأدب والفن لها وزنها وخطرها فهو يعتقد أن الأدب العربى أخذ يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العرابية فى مصر ومنذ بدأ الشعور القومى يحرك النفوس ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بجموع الأمة إلى مثل أعلى . ومن يومئذ أخذت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة ، حظيرة الدواوين ومن النطاق المحصور نطاق التعليم لتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ، ولتصور لهم من نواحى الحياة مايريد الكاتب تصويره ويروى أنه لابد أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور لأن لغة الأقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخار ومجد .

بين اللغة والأدب :

ولئن كانت لغتنا اليوم وستبقى أبداً هى العربية وكانت دراستنا إياها أجدى علينا وأحفظ لكياننا إلا أنه يرى أن كثيراً من ألفاظ هذه اللغة قد أصبح بائداً أو فى حكم البائد لأن أطوار الحياة التى مرت بالأمم التى أصبحت العربية لغتها جعلت هذه الألفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعانى التى تداولتها عصور فجر الإسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين والأندلسيين وغيرهم . ومع هذا يرى الدكتور هيكل أن دراسة تلك الألفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بحته وقد تفيد الأديب فى دقة تحديد المعانى التى تعبر عنها ألفاظ أخرى مشتقة منها أو كانت بينها وبينها صلة لغوية من أى نوع من الأنواع .

على أنه يرى أن دراسة اللغة لاتتصل بدراسة الأدب لذاته إلا من حيث أنها كساء الأدب ولغة الأدب إجدرها بالامتزاج بالأدب وماكان شفافا عن المعانى والصور التى يعبر عنها معوانا على زيادة مافى هذه الصورة والمعانى من حياة وموسيقى ، وهى اللغة الشفافة السيالة التى لاتحجب عنك جمالا مما أراد الأديب الموهوب إظهاره ، ولا تقف فى سبيل متابعتك الأديب أثناء تدفقه واندفاعه فى تفكيره أو تصويره أو تغنيه وشدوه .

فاللغة فى نظره كساء للأدب وصحيح أن الكساء كان له فى بعض الأزمان المقام الأول وما تزال طبقات الناس إلى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها ، ولكن صلة اللغة بالأدب فى هذه الناحية تتطور تطور الأزياء بأقدار الناس فى الحياة وصلة الأزياء بالاقدار تتلاشى رويداً رويداً لما تنزع طبقات الجماعة إليه من البساطة فى اللباس بساطة يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب .

دراسات الإسلامية :

وأخرج هيكل بعد ذلك كتابه المشهور « حياة محمد » الذى درس فيه حياة النبى منذ طفولته حتى اختاره الله تعالى إلى جواره وقد كتبه بعد أن قرأ كتاب حياة محمد « لأميل درمنجم » وروح الإسلام لسيد أمير على وكتاب واشنطن أرفينج عن محمد . إلى جانب سيرة ابن هشام ومغازى الواقدى ومروج الذهب للمسعودى وغير ذلك من المراجع العربية والغربية . ودرس فى هذا الكتاب معالم الحياة العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام كما درس هذه المعالم فى كتابيه « الصديق أبو بكر » « والفاروق عمر » وقد أبان هيكل فى كتابه عن أبى بكر نواحى العظمة فى هذا الرجل الوديع السمح الأسيف السريع إلى التأثر وإلى مشاركة البائس فى بؤسه والضعيف فى ضعفه والذى تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال وفى إبراز ملكاتهم ومواهبهم وفى دفعهم إلى ميادين الخير العام يعملون فيها بكل ما آتاهم الله من قوة ومن مقدرة وتعرض لسيرته وحروبه وصبره وجلده وسياسته وحكمته وغير ذلك من المباحث القيمة . أما كتابه عن الفاروق عمر بن الخطاب فقد أبان فيه مظاهر العظمة فى هذا الرجل الذى بلغ أسمى مكانة فى عصره فكان العاهل المطلق اليد فى الإمبراطورية الكبرى وكان فى نفس الوقت يأبى على نفسه كل ما يرفه عنها ويحرص على أن يعيش عيشة الفقير ليحس بالفقر ثم إن زهده فى الدنيا لم يكن زهد عائف عنها بل كان زهد قادر عليها متحكم فيها . ولذلك كان مع شدة ورعه وعظيم تقواه ينكر صنيع أولئك المتنسكين الذين يرون فى الحرمان متاعا ولذة ، والذين يخفضون من أصواتهم إذا تكلموا ويتباطأون فى مشيتهم إذا ساروا يريدون أن يقول الناس عنهم أنهم متنسكون أو نساك .. ذلك لأنه كان يمقت الضعف فى كل مظاهره وكان أشد مقتاً التظاهر به ..

عودة إلى السياسة والقومية

وأخرج هيكل عام ١٩٥٠ كتابه « مذكرات في السياسة المصرية » في جزأين أماط فيهما اللثام عن كثير من الحقائق السياسية والأسرار الدفينة التي شغلت الأذهان في وقت من الأوقات . وفي عام ١٩٥٥ نشر قصة « هكذا خلقت » وهي قصة عصرية جعل بطلتها تروي حكاية حياتها في بساطة ويسر حتى يخيل إليك معها أنها حياة عادية لامرأة تعرفها ولكنك بعد ذلك تقف مدهوشاً لأنها امرأة فريدة في نوعها ونسيج وحدها .

وفي ديسمبر عام ١٩٥٦ انتقل الدكتور محمد حسين هيكل إلى جوار ربه بعد أن ترك للأدب والتاريخ زخراً نفيساً ، وفضلا عظيما ..

سلامه موسى

فقد العالم منذ سنوات أديباً فذاً من أعلامه، وصاحب قلم عف نزيه من أقلامه، ألا وهو الأستاذ سلامه موسى .. الذى كان أحد الرواد الأوائل فى القرن العشرين، الذين قدموا للأدب والعلم ذخيرة حية خالدة طيبة هذه السنين، مما كان له أكبر الأثر فى تطور المفاهيم الثقافية فى العصر الحديث ..

عاش سلامه موسى حياة خصبة حافلة، ولم يكن ينقض عليه عام أو أقل من عام حتى يخرج على الناس بكتاب جديد، وثمرة فكر ناضج يحمل آراء جديدة، ودعوات تجديدية كبرى .. بل أنه حتى فى السنوات التى امتنع فيها عن التأليف والكتابة كان يعيش رهين محبسه فى البيت يداوم على الاطلاع والقراءة بشغف زائد ونهم عظيم. إذ كان يجد فى العكوف على الكتاب لذة لا تدانيها لذة ومتعة لا تدنو منها متعة.

وكان دائم الاتصال بالأدب العربى والأدب الغربى يعرف بحارهما الزاخرة، ويحاول أن يستفيد مما يقرأ، ويصبه فى قالب تفكيره الرزين ويخرجه خلاصة ممتعة للعقول بعد أن يضفى عليه آراءه النيرة، وخواطره الرشيدة.

ترجمة حياته

ولد سلامه موسى فى يناير عام ١٨٨٧ وأخذ يتنقل بين المدارس فى مصر إلى أن راق له أن يستأنف دراسته فى الولايات المتحدة، فسافر إلى هناك حيث عب من مناهل الثقافة الجديدة. ثم عاد إلى مصر ليعاود اطلاعه على فنون الأدب، ونشاطه فى ميادين الثقافة، فاشتغل فى تحرير مجلة الهلال عام ١٩٢٣ ثم أجرى قلمه فى جريدة البلاغ وكانت معقل أقطاب الفكر والأدب فى هذه الفترة، فلفت إليه الأنظار بآرائه العلمية الجريئة، ثم عمل فى جريدة الجهاد التى كان يصدرها الأستاذ الصحفى القديم محمد توفيق دياب ثم أصدر (المجلة الجديدة) عام ١٩٣٠ التى مزج فيها بين العلم والأدب والفن، وكان يحرر فيها الدكتور طه حسين

والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ، والدكتور زكى مبارك والأستاذ دريني خشبة وغيرهم .

ثم أصدر سلامه موسى عقب ذلك مجلة وطنية لم تستمر فترة طويلة ، لأن الحكومة فى ذلك العهد أمرت بإغلاقها فطفق يساهم منذ ذلك الوقت فى مجلات مختلفة إلى أن انتهى به المطاف فى دار أخبار اليوم ، حيث كان يداوم على كتابة يومياته كل أسبوع حتى أدركته العلة واشتد عليه المرض ، فدخل إلى المستشفى لإجراء إحدى العمليات الجراحية ، وبعد أن كللت هذه العملية بالنجاح وشرع يستأنف نشاطه كان شبح الموت أسرع من كل شيء ، وشاء القدر أن تصعد روحه إلى الرفيق الأعلى ، فى الرابع من شهر أغسطس سنة ١٩٥٨ .

مؤلفات سلامة موسى

وقد ألف سلامة موسى مجموعة ضخمة من الكتب القيمة منها كتاب « نظرية التطور وأصل الإنسان » الذى وضع به أساسا للتأليف العلمى السليم ، وكتاب «أحلام الفلاسفة» فى الوقت الذى كانت فيه الفلسفة ضربا من الترف العقلى ، أو الإلحاد الفكرى ، وكتاب « العقل الباطن » الذى وضح فيه الفرق بين العقل الباطن والعقل الواعى ، وبين فيه مراحل التفكير والإرادة ، وعرج على الأحلام عند النوم ، وأحلام اليقظة . والشعور واللاشعور ، ومجرى الشعور ، وما إلى ذلك من اصطلاحات نفسية كانت عسيرة فى ذلك الوقت على أغلب الناس، غير أنه عرضها عرضا واضحا سلميا لاغموض فيه ولاالتواء ولاتقعر فيه ولاتطرف فمكن الطبقة الناشئة من الشباب من متابعة كتاباته دون أدنى صعوبة أو عسر . وكتاب « مختارات سلامة موسى » الذى جمع فيه ثمرة قراءته واطلاعاته ، وكتاب « أشهر القصص التاريخية » الذى استمده من بطون الكتب التاريخية ، القديمة والحديثة ، وجمع فيه بين أمانة المؤرخ وروعة أسلوب الأدب ، وكتاب « حرية الفكر وتاريخ إبطالها » ، وهو من الكتب الفذة التى تهم الأفراد والشعوب جميعها لأنه يرسم الطريق أمام الأمة الناهضة لتأخـذ مكانتها فى صف الأمم المتحضرة الحرة . وكتاب « الاشتراكية » الذى تعرض فيه للمذهب الاشتراكى الذي كان مؤمنا به ومن دعاته ، وكان له الفضل فى نقل كثير من أفكاره إلى قراء

العربية ، وكتاب « اليوم والغد » و « الشخصية الناجحة » و « التثقيف الذاتى » و « كيف نربى أنفسنا » و « هؤلاء علمونى » و « تربية سلامة موسى » الذى كان من أحب كتبه إلى نفسه ، وكان يعتز به اعتزازاً عظيما .

وألف سلامة موسى كذلك كتابا قيما عن الأديب الإيرلندى المعروف برنارد شو ، الذى كان من أحب كتاب الغرب إليه ، وكتب فى صدر هذا الكتاب أنه للعقول المفتوحة ، التى ترحب بالأفكار وتجترىء على تخطيط المستقبل ، وتضع البرامج للحياة ، وليس هو للعقول المقفلة التى تضع التقاليد فوق التطور ، وتستسلم للغيبيات التى كان يؤمن بها الفراعنة قبل خمسة آلاف سنة والتى تعتقد أن الفقر من سنن الطبيعة وأنه خالد ولا يمكن محوه من المجتمع البشرى !

بعض من عرفهم

ومن المفكرين الذين تأثر بهم سلامة موسى العالم النفسانى سيجموند فرويد وداروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء ، وكارل ماركس حامل لواء الاشتراكية.

هذا من كتاب الغرب ، أما من كتاب العربية فقد اتصل سلامة موسى بجورجى زيدان مؤسس دار الهلال ، وعرض عليه رسالة « مقدمة السبرمان » وأخذ رأيه فيها عندما كان فى انجلترا ، وقبل أن يموت جورجى زيدان بسنة أو سنتين .

كما اتصل سلامة موسى بالكاتب فرح أنطون الذى كان يصدر الجلة ، وساهم معه فى تحرير مجلة اللواء وكان فرح على حد تعبيره « مفكراحرا » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة ويعرف روسو ونيتشه كما اتصل سلامة موسى بيعقوب صروف محرر المقتطف ، وكان صروف لا يصدق أن سلامة موسى مصرى دما ولحما إنما لابد أن يكون فيه عرق أجنبى ، وفى المقتطف عرف أمين المعلوف ونشأت بينهما صداقة مكينة حتى انتقل إلى جوار ربه ثم ولج صالون الأديبة المعروفة « مى » وحضر مجالسها الأدبية الرقيقة ، وكانت له معها مساجلات أدبية رائعة ومداعبات فكرية عذبة ، وظل صديقاً لها حتى جاءه نبأ وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان .

كما اتصل سلامة موسى بالأديب عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة « البيان »

وساهم فى تحريرها فترة من الزمن ، وعمل مع لطفى السيد وطه حسين فى جريدة « الجريدة » وكان يعتقد أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف . أما طه حسين فكان يعده مثال الازهرى الناجح لدرجة أنه نشر صورته بالجبة والقفطان فى مجلة « المستقبل » التى كان يصدرها ليرمز إلى تطور العقلية الازهرية .

بينه وبين العقاد

وفى أبريل عام ١٩٣٠ عقدت بالجامعة المصرية مناظرة بين الأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ سلامة موسى ، بشأن هذا النص : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى الاثنان ، الذى نظمه الشاعر الانجليزى كبلنج ، وقد أيد الرأى الأستاذ العقاد ونال ٢٨ صوتا وعارض الرأى الأستاذ سلامة موسى ونال ١٣٢ صوتا .

وذكر الأستاذ سلامة موسى فى معرض دفاعه أن هذا البيت لشاعر يسمى « شاعر الامبراطورية » الذى يزين صفحات « المورننج بوست » أحيانا بنفثات قلمه ، وهو ابن خالة أو ابن عم المستر كولدوين رئيس وزراء المحافظين فى فترة من الفترات ، ثم هو نشأ فى الهند التى كانت تحاول التخلص من النفوذ الأجنبى فى هذا الوقت . فمن هذه الظروف كلها نظم الشاعر هذا البيت . . كما ذكر أن النوع البشرى واحد وأن اختلفت السلالات ، إذ قام الأستاذ جودوين واطسون بجامعة كولومبيا بتجارب لبيان الذكاء الذى يتسم به كل من الأمريكى الأبيض والزنجى والامرندى (أى الأمريكى القديم الأحمر) فوجد أنهم كلهم يتساوون فى الذكاء وإذا كان هناك فرق فهو فرق التفاوت ، وليس فرق الاختلاف ، وأن هــذا التفاوت أقل بين السلالات الثلاث بما هو بين أفراد السلالة الواحدة ، فدعوى الأفضلية للغرب على الشرق أو غير الشرق من هذه الناحية دعوى باطلة لم تؤيد ببراهين ، وأن الشرقيين إنما هم شرقيون بتقاليدهم وثقافتهم وحضارتهم فقط .

ورغم هــذه الحجج وغيرها التى سردها الأستاذ سلامة موسى فإن جمهور الحاضرين أيد الاستاذ العقاد فى رأية بأغلبية تسعة وتسعين صوتا .

هدية إلى الشباب

وكان سلامة موسى يدعو الشباب إلى الاهتمام بالقراءة ويستشهد برأى المؤرخ الفرنسى تين ، الذى يقول أن التفكير ليس من عمل الفرد ، إنما هو من عمل الجماعة ، وهو يعنى بذلك أننا نتأثر بالوسط الثقافى الذى نعيش فيه فإذا قرأنا العلماء أصبح أسلوبنا فى التفكير علميا ، وإذا قرأنا الصوفيين أصبح تفكيرنا صوفيا ، وهناك فرق بين الأسلوبين ، وعلينا لذلك أن نختار لابنائنا تلك الجماعة التى ستؤثر فى أخلاقهم وأسلوبهم فى التفكير حتى لايشبوا ولهم عقل الخدم والصعاليك ، إذ أن عمر الإنسان أقصر من أن يتسع للغث من الرأى ، والسخيف من الافكار .

ولم يكن سلامة موسى يريد أن يمنع الشباب من جمع المال إنما كان يعترف بأن الحقيقة التى يجب ألا ننساها أن الحياة التى نعيشها اليوم تقتضى من الناس أن يصيروا أغنياء أو على الاقل تطالبهم ألا يكونوا فقراء لان الفقر هو الاصل للمرض والشقاء والجهل ، ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا العمل أولا وقبل كل شىء فلا يكون المال هدفا من أهدافنا ، فلابد أن نكب على العمل الذى نمارسه أو نهواه فنعمد إلى إتقانه وبلوغ الغاية فيه فإذا بلغ الشاب ذلك لم يلبث أن جاءه المال عفوا .

والطريف أن الاستاذ سلامه موسى ظل طيلة حياته يتقن عمله على الوجه الاكمل فلما فاضت روحه إلى بارئها ، لم يترك من متاع الدنيا شيئا ولله فى خلقه شئون .

آراؤه فى الحب والجمال

وكانت لسلامه موسى آراء طريفة فى الحب والجمال مزجها بفلسفته ، ومنها أن رجل الفن قبل ثلاثمائة أو أربعمائة سنة كان يرى الجمال ممثلا فى الوداعة والقداسة والسذاجة ، ولكن رجل الفن الآن لايمكنه أن يرى الجمال فى هذه الصفات لان نفس المرأة تطورت ، كما أن نظرنا لها ، ورأينا فيها قد تطور فهى قد خرجت من البيت إلى عالم الاعمال والرياضة ، فالمرأة الجميلة ليست الآن

الساذجة الوديعة وإنما هى اليقظة المنتبهة التى اكتسبت بحياتها الخارجية شيئا من مزاج الرجال فى الجرأة والدرس والكد والرياضة .

وكان سلامة موسى يدافع عن حقوق المرأة فى جرأة واضحة ، ويعتقد أن هناك تقاليد انتهكت كرامة المرأة انتهاكا ولها سلطان فى النفوس يجعل الدعاة إلى كرامة المرأة وحريتها أقرب إلى أعداء البلاد منهم إلى أصدقائها ، وبناتها الاولياء فى حين أن دعاة الاستعباد للمرأة يقفون موقف الفخر والمباهاة كأنهم يردون غارة أجنبية !

وقد نشر سلامه موسى عام ١٩٣٤ مقالا يدافع فيه عن المرأة الجديدة ويشيد فيه ببطولة الآنسة لطيفة النادى الذى فازت فى سباق الطـيران بين القاهرة والاسكندرية ، وكانت الأولى بين ٢٨ طيارا ينتسبون إلى أمم مختلفة . واعتبر أن هذا الانتصار الصغير تعده بعض الامم انتصارا كبيرا فى الشرق لاننا حققناه فى وجه عالم من الاعداء الذين هدموا فى أخلاقنا وحرمونا من فرص الرقى .

وتزوج سلامة موسى عام ١٩٢٣ وهو فى أوج مجده الأدبى وأنجب خمس فتيات وثلاثة أبناء أكبرهم الدكتور رؤوف موسى بالمركز القومى للبحوث . وقد شاركته زوجه مدى خمسة وثلاثين عاما فى كفاحه وجهاده الادبى وهيأت له الجو المناسب للاطلاع والانتاج .

من هو الكاتب المثقف

ولسلامة موسى رأى طريف فى الادب والاديب ، فهو يعتقد أن الكاتب المثقف فى أيامنا يقتبس الارقام ويدلل بها كما كان الكاتب القديم يقتبس أبيات الشعر أو الحكم المأثورة ليدلل بها أو يستخرج منها المغزى المقصود ، ويرى أن مليون بيت من الشعر وألف حكمة من ارسطوطاليس لن تفيدنا شيئا فى مهمة الأزمة الاقتصادية الحاضرة كما يفيدنا الاحصاء عن الانتاج والاستهلاك فى هذه السنين مع مقابلتها بإحصاءات السنين الماضية والكلام عن السعادة الزوجية أو الطلاق لن يفيدنا كثيراً مثل ماتفيدنا إحصائيات الاخصائيين الاجتماعيين فى هذا المضمار . وإذا كانت البلاغة القديمة عند الزمخشرى وإضرابه قائمة على استعارة جميلة أو مجاز طريف فإن بلاغة الرجل المثقف يجب أن تقوم على جعبة ضخمة

من الاحصاءات التى يعرف كيف يستغلها ويثبت بها نظرياته أو فرضه .
وطالما كان الاستاذ سلامة موسى يناقش الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان فى هذه الناحية ، إذ كان البرقوقى يحرص على استخدام بعض الالفاظ القديمة عملا على أحيائها . وكان سلامه موسى يعارضه فى ذلك ، ويرى وجوب تطعيم الاسلوب بأفكار جديدة فى أسلوب سهل واضح .

ولا يمنع هذا الرأى سلامه موسى من تذوق الشعر رغم واقعيته .
فطالما قرأ للمعرى وابن الرومى وغيرهما ، واتصل بشوقى وحافظ ومطران فى العصر الحديث وكان يفرق بين شعر الثلاثة ، ويحس أحيانا فى قصائد شوقى ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال ، والسجاجيد الايرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود والمقاعد الناعمة ، كما يحس فى أشعار حافظ صرخات المتألم أحيانا ، ومهاترات العاجز أحيانا أخرى ، ونحن نقرؤها فنصرخ معه ونهاتر فى ألم وعجز لانه منا ونحن منه وهو شاعر مصرى بلدى ، أما مطران فيشبهه أديبنا الكبير بتلك الحدائق الانيقة التى يجمع فيها أصحابها الاثرياء أصص النباتات الاجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها ، ولعل هذا يرجع إلى أن مطران عكف على الآداب الغربية فنهل منها وشاع أثر ذلك فيما نظمه من شعر .

عالم أديب

وهكذا جمع سلامة موسى بين عقلية العالم والاديب ، وكان له الفضل الاكبر فى نشر الاسلوب العلمى المهذب فى مجلاتنا المصرية ، وصحفنا السيارة حتى سبقت أفكاره جيله بعشرات السنين !

لقد كان سلامه موسى يحب برنارد شو حبا جما . وقد قال شو ذات يوم : « الحياة تسوى بين جميع الناس ولكن الموت يبرز المتفوقين » .
وقد أبرز الموت كما أبرزت الحياة سلامه موسى !!

عبد العزيز البشرى

يعتبر عبد العزيز البشرى من أمنع الكتاب المصريين الذين كان له دور كبير فى تحليل الأدواء الاجتماعية ، وانتقاد التقاليد البالية التى كان يعيش فيها المجتمع فى هذه الفترة ، كما دعا البشرى إلى إنشاء أدب قوى رصين يحفظ العربية من المرذول من العبارة ، والدخيل من الألفاظ ، والسقيم من المعانى ، ويحفظ لغة القرآن الكريم حية على مر الأيام ، وتعاقب الأزمان ، وكان أسلوبه نفسه آية من البلاغة والروعة ، وأضفى مزاجه الرقيق ، وطبعه الساحر على هذا الأسلوب ألوانا شتى من الجمال ، وضروبا عدة من الفتنة تجتذب القارىء اجتذابا ، وتخلب المستمع اختلابا . .

ولد فى حى البغالة بمصر عام ١٨٨٦ ونشأ فى بيت عريق عرف بالعلم والدين وكان أبوه الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق . ودخل عبد العزيز البشرى الكتاب وهو فى سن الصبا وتعلم القراءة والكتابة على نحو ما كان يفعل أقرانه فى ذلك الحين — ومكث فيه فترة طويلة حفظ فيها القرآن الكريم . ثم انتقل إلى مدرسة ابتدائية ، ولكن أباه أبى إلا أن يدخل الأزهر وأن يدرس علوم الدين . وكان يومئذ شيخ الإسلام لأول مرة ، وبينما كان عبد العزيز فى الأزهر تعلق بالأدب وأحبه ثم تخرج عام ١٩١١ فعين سكرتيرا بوزارة الأوقاف حيث ظل بها من ١٦ يناير عام ١٩١١ إلى ٢٣ سبتمبر عام ١٩١٢ ثم عينه المرحوم أحمد حشمت باشا محررا فنيا بوزارة المعارف ، وفى هذا الوقت ندبه سكرتيرا عاما للجنة الاصطلاحات العربية — وكان من أعضاء هذه اللجنة حفنى ناصف وأحمد زكى باشا ، وتقرر تعيين الشيخ عبد العزيز البشرى الموظف بعموم ديوان الاوقاف محررا عربيا بوزارة المعارف العمومية حيث خلت بها هذه الوظيفة بانتقال من كان يشغلها إلى نظارة الحقانية وهو الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى .

ولما تحول أحمد حشمت إلى الاوقاف كره الشيخ البشرى البقاء فى وزارة المعارف ورضى التحويل إلى القضاء الشرعى فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية حتى

عام ۱۹۲۲ ، وكان مقره محكمة الزقازيق الشرعية ، فأتاحت هذه الفترة له انتقاد النظم الموجودة فى المحاكم الشرعية انتقاداً مراً . ثم عين مفتشاً بوزارة الحقانية فى عام ۱۹۲۳ ولم يلبث فى هذه الوظيفة شهوراً حتى تغيرت الحالة السياسية وتألفت وزارة نسيم الأولى ، ولم يمض عليها ساعات حتى صدر أمر وزير الحقانية بندبه عضواً عاملا بمجلس حسبي أسيوط ، فبقى هناك حتى استقالت الوزارة وعاد قاضياً إلى المحاكم الشرعية .

ولما تولى على ماهر وزارة المعارف أول مرة عهد إليه وإلى الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الحقوق الأسبق وطبع كتاب فى التربيـــة الوطنية ثم نقل إلى وزارة المعارف عضواً بالمكتب الفنى .

ولما تولى على الشمسى الوزارة ألغى هذا المكتب واتخذه سكرتيراً برلمانياً له ، وبقى عبد العزيز البشرى فى هـذا المنصب حتى عين وكيلا لإدارة المطبوعات ثم أحيل على المعاش لإلغاء منصب وكيل المطبوعات ثم أعيد إلى خدمة الحكومة فى المجمع اللغوى وظل فى المجمع حتى اختاره الله إلى جواره فى ٢٤ مارس ١٩٤٣

وقد عرف البشرى بروح المرح والدعابة والسخرية من الأوضاع الاجتماعية والتقاليد البالية .

ومن أروع انتقاداته للنظم البالية للزواج ما كتبه فى كتابه قطوف ، إذ كتب يقول : يتلقى أهل البيت الواردات بأحسن مظاهر التأهيل والترحيب وقد سبقوا فنظفوا الدار ، وأحسنوا تنفيض أثاثه ، ودفعوا فتاتهم إلى الحـــمام ، فأحسنوا جلاءها وصقلوا عارضيها وقلموا أظافرها ، ورتلوا شعر رأسها ومشطوه ، وقصروا على الجبين مقدمه ، وضفروا سائره ضفيرتين ثم ألبسوها أجمل الثياب وحلوها ما أصابوا من لباس وأساور وأقراط وخواتم ، ويبدأ بتقديم الشراب فتطوف به امرأة أو شابة أو فتاة من فتيات الدار أو خادم من خدمة البيت أو من خدمة الجار ، ثم لاتزال الأنظار تتطلع إلى ناحية الباب ترقباً لطلعة العروس ، ثم إذا هى مقبلة تتمشى على استحياء وقد أسبلت جفنيها وهى تحمل فنجان القهوة تقدم إلى السيدة الكبيرة أولا ثم تعود بالثانى إلى الثانية وهكذا والأنظار تتناهبها من كل جانب ، هذه تتوسم وجهها ، وهـــذه تتفقد عنقها وصدرها ، وأخرى تسرح النظر فى شعرها ، ورابعة تلاحظ خطوها لعل فيها ظلعاً أو شكا لا يدعن فى

جسمها رقعة إلا أوسعنها تفقداً وتصفحاً وتأملا . . .

وعلى هذا النحو أعطى لنا عبد العزيز البشرى صورة عن نظام الخطبة فى المجتمع الماضى ، كما رسم أمام أبصارنا صورة ضاحكة مضحكة لجهاز العروس وهو يتهادى عبر الشارع ، من أثاث حجرة النوم إلى أوانى المطبخ ، و (طقم الحلل والنحاس) الذى يرن فوق « عربات الكارو » رنيناً . . . فيبهر الأنظار ويدل على الغنى وعلو المقـــام !.

وكان يرى أن البنت المصرية إن لم تكن ثائرة فهى على جناح ثورة بالآباء والأمهات وبمأثور العرف والتقاليد ، فقد كانت إلى عهد قريب تخطب إلى الرجل لا تعرف من هو ولا تدرى ما صلته ونسبة ولا أصله وفصله ، ولا شكله وسمته ، بل قد يضن عليها الأولياء باسمه ولقبه ، اللهم إلا أن يسر إليها شيئاً من ذلك بعض أترابها إلى أن تزف إليه ، ولقد يمنعها الحياء أياماً من توسم وجهه وإرسال النظر فى ضواحى خلقه !

وإن لها لعقلا وقلباً وأن لها لإرادة وعاطفة وحساً ، ولقد توافرت لها جميع الشرائط اللازمة لحرية التصرف المباحة لجميع العقلاء الأحرار ، فكيف يجوز الحجر عليها فى التصرف فى أخص شئونهـــا . بل فى روحها وبدنها ، وفى قلبها وعاطفتها فلا يروعها إلا أن ترى نفسها وقد سلكت مع فلان فى قرن واحد . تقضى العيش معه إلى الأبد ، وتتوافى له إلى غير حد ، وتشركه فى الذرية ، والولد وتبذل له من ذات نفسها مالا يبذل لأحد ، أليس هذا ظلماً لا يلحقه ظلم ؟ واستبداداً أرفق ما يقال فيه أنه غير كفء لنظم الحياة فى هذا الزمان ؟ !!

على هذا النحو وبهذه اللهجة مضى الشيخ عبد العزيز البشرى يطـالب بحقوق الفتاة المصرية فى اختيار شريك حياتهـــا فى رقابة والديها خشية الاعوجاج أو الانحراف ، ولو أن هذا الحديث صدر من أديب متشبع بالثقافة الغربية . وحديث عهد بباريس ولندن ونيويورك وغيرها من عواصم العالم ، وجاب أوربا وأمريكا طولا وعرضاً ، وأشربت روحه بالحضارة الأجنبية لهان الامر كثيراً ، ولكن هذا القول صدر من الشيخ الأزهرى المعمم عبد العزيز البشرى ، ومن هنا كان للقول أثره وخطره ، وكانت له قيمته ومنزلته .

وهكذا سبق عبد العزيز البشرى الزمن بأفكاره النيرة ، وآرائه السديدة ،

وكان مثال الأديب الحر الذى يعبر عن أفكار حرة تأبى القيد ، وترفض الاحتباس .

ولم يكتف عبد العزيز البشرى بانتقاد نظم الزواج فى مصر فحسب إنما نادى بوجوب حماية العامل والأجير ، وطالب المسئولين برعاية الفلاح الذى كان يئن فى هذه الفترة من تاريخ البلاد تحت وطأة أرباب الإقطاع الذين يسلبون خيرات الأرض ، وينعمون بخيراتها ويستأثرون برزقها بينما هو وأولاده يتضورون جوعاً ولا يجد ما يسد رمقه ، أو يقيم أوده ، أو يحول بينه وبين ذل السؤال ، وهوان المسغبـــة .

وكان عبد العزيز البشرى يمتاز بروح مرحة فكهة ، حلو الحديث ، عذب النادرة ، إذا حضر فى مجلس من المجالس أو مجتمع من المجتمعات زانه بأدبه ولطفه وبما يحفظه من قصص العرب وطرائفهم ، وما يجرى على لسانه من دعابة ، أو ملحة أو فكاهة ، وقد نشر كتابه « المرآة » منجما على صفحات مجلة السياسة الأسبوعية ، وتناول فيه زعماء البلاد وأقطاب الفكر والفن والأدب والطب بالتحليل ، وكان تحليله قوياً أخاذا وكان كل كبير من هؤلاء الكبراء ينتظر دوره فى مرآة عبد العزيز البشرى بصبر فارغ ، وشوق لجوج ، وكانوا جميعاً يخطبون وده ، ويتمنون رضاءه حتى لا ينهال عليهم نقداً وتجريحاً ، غير أنه فى الواقع كان لا يحب التهجم ولا التعنت فى الأسلوب ، وكان يكتب بما يمليه عليه ضميره من أمانة فى العرض ، وإخلاص فى العقيدة ، وتهذيب فى العبارة ، ويعتبر أسلوبه غاية فى الطرافة والروعة ، وأحياناً كان يحليه ببعض العبارات العلمية ، ولم تكن تشوه جماله أو تذهب بقيمته إنما كانت تزيده جمالا فوق جمال ، ومن أطرف أوصافه للدكتور محجوب ثابت قوله :

«والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح ، بميدمدى العظام ، لولا أن فى جسمه رهوله ، أميل إلى الطول ، فإذا مشى خلته أحدب ، وما به حدبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين ، عريض الجبهة إلا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه ، وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى إلى إنسانهما وهما دائمتا الحركة والاختلاج وهو بعد طيب القلب مكفوف الأذى ، عذب الروح ، حلو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى فى قوله غريب اللغة ويلتمس الشاهد من مأثور شعر العرب ، وقد يجىء به أحيانا مكسوراً غير متزن .

وهكذا أخذ عبد العزيز البشرى يحلل شخصية الدكتور محجوب ثابت فأعطانا صورة عن شخصه ، فيها كثير من التفصيل حتى كأنه فنان يرسمه بريشته أمام عينيك فتعجب بفنه ، وتدهش من ريشته ، ولم يشأ أن يعطى لك صورة صامتة فحسب إنما جعلها تتكلم وتبين ، وتنطق وتضحك ، وصورها فى حالة حركتها وحديثها ، ولم يشأ أن يهتم بالمظهر دون أن يصل إلى الجوهر ، ولم يحب أن يكتفى بالصورة دون أن يبلغ أغوار القلوب ، وأعماق النفوس ، فصور لنا نفسيته وأخلاقه وشخصيته تصوير المتفهم المتعمق المطلع على خفايا الصدور وشاء مرحه وطبعه الساخر بعد ذلك أن يستغل ناحية فى شخصية محجوب ثابت ألا وهى استخدامه للقاف بدلا من الألف فى نطقه لعدم قدرته على النطق بها . فتناولها بكثير من الدعابة والفكاهة فقال « أما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت بداره مرة ، فرأيت بنتين صغيرتين تتلاعبان ، فقالت إحداهما للأخرى . هذا بيت الدكتور ؟ فسألتها ومن الدكتور ؟ ! فقالت لها . ألا تعرفين الدكتور الذى يقول يا بنت هاتى القبرة » . . يقصد الإبرة » !

* * *

أنظر إليه وهو يصور براعة الدكتور على ابراهيم فى الطب « فلو كانت لغيره تلك الأصابع التى تسرق الكحل من العين لآثر أن يكون نشالا . إذن والله لسل الآلاف ولا حرز أكثر مما تجدى الجراحة أضعاف الأضعاف ، ولما أبقى فى جيب على كيس ولا هنىء الناس بكريم ولا نفيس . . . ولكن قدر فكان وسبحان من يعطى الحلق للى بلا ودان » .

ثم تأمل أسلوبه العذب الساحر الساخر وهو يتكلم عن شاعر النيل حافظ إبراهيم « حافظ إبراهيم شاعر . . . فهو يحب الجمال ويجتمع له ويكره القبح وينعى على أهله . يجابه بذلك مجابهة ، لا يتقى فى القول ولا ينحرف ، وما طلع عليه فتى دميم الخلقة غير مستوى معارف الوجه . إلا قال له ، يا فتى ليس الوزر عليك إنما الوزر على أبيك لأنه لم يؤد مهراً . » وإذا أطردت نظرية حافظ فلاشك أن المرحوم والده تزوج على الطريقة الأفرنجية فلم يدفع مهراً بل هو الذى أخذ الدوطة !

جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنما قد من صخرة فى فلاة موحشة ثم فكر فى آخر ساعة فى أن يكون إنساناً فكان والسلام ! أماما يدعى فه فكأنما

شق بعد الخلق شقا ، وأما عيناه ، فكأنما دقتا بمسمار ندقا ، وأما لون بشرته والعياذ بالله فكأنما عهد به إلى نقاش مبتدىء وتشابهت عليه الأصباغ والألوان ، فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجيها ، فخرج مزجا من هذا كله ، لا يرتبط من واحد بسبب . ولا يتصل بنسب . وإنك لو نضوت عنه ثيابه وألبسته دراعة من دونها سراويل وأفرغت عليه من فوقها جبة صافية ، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات لخلته من فورك دهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين ، فإذا جردته كله وأطلقته فى البحر حسبته فيلا أو أرسلته فى البحر ظننته درفيلا ، ولكن أكشف بعد هـذا عن نفسه التى يحتويها كل ذلك فلا والله ما النور بعد الظلام ولا العافية بعد السقام ، ولا الغنى بعد البؤس ، ولا إدراك المنى بعد طول اليأس بأشهى إليك ولا أدخل للسرور عليك من حافظ إبراهيم !

ويتضح من هذا النموذج أن البشرى كان عذب الأسلوب ، ساخر العبارة ، غير أن سخريته كانت من باب العطف والإعلاء لا من ناحية التحقير والازدراء .

وترجع هذه الروح الخفيفة التى امتاز بها أدب البشرى إلى ما فطر عليه من طبع صاف وقريحة فياضة ونفس مشرقة . وقلب لا يحمل الهموم ولا الغموم ، ويهزأ بمشاكل الحياة ، ويسخر من نوائب الدهر ، ولا يلقى مثقال ذرة إلى أشجانها وأحزانها ، ولم تكن تفوته النكتة فى أحرج أوقات حياته ، وقد ألحت عليه العلة بضعة شهور حتى رقد فى فراشه ، منهوك القوى ، خائر الأعصاب ، يتراوح بين الموت والحياة ، والشفاء والهلاك ولم يمنع ذلك الابتسامة العذبة من أن تتلألأ على ثغره ، والنكتة الحلوة من أن تنبعث من أعماقه لا على سبيل التهريج والتهويل إنما على سبيل النقد الساخر ، واللوم اللاذع . يرمى إلى الإصلاح ولعل قراءته المتصلة لأدب الجاحظ أثرت فى أسلوبه إذ كان البشرى يعلن عن تأثره به وحرصه على أدبه ، وإمعانه فى العكوف عليـــه ، ويصرح بصحبته ويفاخر بها ، وفى ذلك يقول « أستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثر بالجاحظ وأرتضى صحبته وأفاخر بها وأحرص عليها ، لقد عرفته منذ أمد بعيد ، عرفته من الساعة التى أدركت فيها أثر القراءة القائمة على الدراسة والتحقيق ، وكلما زادت قراءتى له كلما استوعبت فيه ألوانا جديدة من الروعة والإمتاع . إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية جودة وأناقة ورشاقة وجمال توضيح ، وهو الأسلوب الجزل

السهل الذى ينشده لنفسه كل أديب يريد الكمال لقلمه والإبداع فى إنتاجه وإن الجانب الفكاهى فيه يصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر وكلما رغب أن تجز نقداته فى الرقاب . . . » .

والمعروف أن الجاحظ أغرم بالفكاهة والسخرية فى كتاباته ، ومن يقرأ البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، والبخلاء ، ونوادر الحمق والطفيليين والمتنبئين والمغفلين وغيرهم يدرك مدى التشابه بينه وبين ما كتبه البشرى عن الباعة المتجولين ونظم الأفراح والخطبة والزواج ، والشحاذين ، وماسحى الأحذية ، ومن إليهم من طبقات الشعب الذين تعرض لهم فى مقالاته فى السياسة الأسبوعية « التى كان يصدرها الدكتور محمد حسين هيكل فى الربع الأول من القرن العشرين أو فى كتابه « المختار » أو قطوف أو فى « المرآة » .

وكان يلجأ فى تحليله للشخصيات إلى الأسلوب الكاريكاتورى شأنه فى ذلك شأن المصور « الكاريكاتورى » فهو يعمد إلى الموضع الناتىء من خلال المرء فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات .

ومن النكات التى رواها عبد العزيز البشرى عن شاعر النيل حافظ إبراهيم أن صديقاً لحافظ لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس متجهم الوجه ، فسأله ما به فقال له . إن المصران الأعور عندى ملتهب ، فقال له صاحبه ، وبماذا تشعر ؟ ! فقال أشعر بوجع شديد هاهنا وأشار بيده إلى جنبه الأيسر ، فقال له « إن المصران الأعور إنما يكون فى الجانب الأيمن لا الأيسر ، فأجابه حافظ إبراهيم من فوره « يمكن أنا يا سيدى أكون أعور شمال ؟ ! » .

وكان البشرى يعتقد أن النكتة فن جميل من فنون الأدب تكسب الأسلوب روعة وجمالا ، وسحراً وبهاء . ويرى أن مردها إلى خلل فى القياس المنطق بإهدار إحدى مقدماته أو بتزييفها أو بفصلها بحكم التورية ونحوها ، بما لا تتصل به فى حكم المنطق السليم فتخرج النتيجة إلى غير ما يؤدى إليه العقل ، لو استقامت مقدمات القياس ، وهذا الذى يبعث العجب ويثير الضحك والطرب . فهى على هذا الأساس ضرب من أحلى ضروب البديع ، وإذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يحتاج فى إدراكها إلى فطنة ودقة فهم خرجت باردة لا طعم لها فى مساغ الكلام .

ويتفق البشرى فى تعريفه للنكتة مع علماء النفس الغربيين مثل الدكتور «جون ويزدم» العالم النفسانى المشهور الذى لا يختلف تعريفه للنكتة عن تعريف البشرى .

ولم تكن النكتة هى كل مايميز أسلوب البشرى إنما كان يمتاز إلى جانب ذلك بوضوح الفكرة ، وحلاوة اللفظ ، وجمال الواقع ، وطرافة الموضوع ، ويعتبر البشرى من أعظم الكتاب العرب اللذين عالجوا فى كتاباتهم أدواء المجتمع العربى ونادوا بضرورة إصلاح حال الفلاح والعامل والأجير كما خاضوا فى شئون الفن من موسيقى وغناء . وحاولوا أن يبعثوا القومية العربية من مرقدها بكل ما استطاعوا من قوة وجهد .

وكان البشرى يدعو إلى تليين علوم البلاغة وتمرينها حتى تصبح أشبه بالأسلوب النقدى القائم على التفطين والتذويق بحيث تتطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل تعليمها فى المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه ، والواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدرس علوم البلاغة ، ولكن بطول ترديد النظر ، وتقليب الذهن فى المأثور من روائع الآداب إلى الارتياض بكثرة العلاج والتمرين ، فإذا انفسحت مع هذا ملكة الكاتب أو الشاعر ورهفت فطنته بترسم مذاهب النقد الفنى فقد تمت نعمة الله عليه وكان يرى أن من أسباب ضعف النقد الأدبى أو بعبارة أبين من قصور علوم البلاغة العربية فى هذا العصر أن سلفنا وجهوا كل عنايتهم إلى النقد الجزئى أعنى نقد الكلمة فى الجملة أو نقد الجملة فى العبارة فإذا كان الكلام نظما جرى النقد للبيت مستقلا وأحياناً للبيت من حيث اتصاله بما قبله أو بعده أى النقد (بالقطاعى) على تعبير التجار ، أما نقد الكلام مجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصوت واتصال المعانى ، واتساق الأقطار ، وتلاحم الأجزاء. فذلك مالم يكن له من نقدة البلاغة حظ جليل !

وكان البشرى يعتقد أن النقد الأدبى أصبح فوضى فى العصر الحديث حتى بات يخشى أن يضل الناشئين عن كل أدب صحيح إذا لم يأت بالفعل على أدب صحيح .

وعلة هذا فى تقديره تعود إلى الشعار الذى لحق كثيراً من كتابى هذا العصر إلى طلب الشهرة ونباهة الذكر من أقصر طريق — وليس فى هذه الطرق أخصر

ولا أيسر من التهويش وحب المديح جزافاً ، وهيل الثناء ، وإضفاء النعوت ، وإفراغ الألقاب بغير حساب !

ويمضى البشرى موضحاً وجهة نظره فى ذلك فيقول « ليس يعنى الأدب كثيراً أن يغمط أديب بعض حقه أو أن يغمط حقه كله ، ولا يعنيه كثيراً أن يفرغ على متأدب من النعوت والألقاب مالا يرتفع إلى بعضه كل قدره — ليس هذا مما يعنى الأدب فى ذاته كثيراً ، وإنما الذى يعنيه ويجهده هو فقدان المقاييس الأدبية التى هى المرجع الصحيح أو القريب من الصحيح فى تقويم خطوط الآداب هذا شعر خالد ! وهذه شاعرية جبارة وهذا المعنى من وحى السماء ! وهذا فلان يؤدى رسالة الأدب فى العالم الخ يالطيف يالطيف !

مهلا رويداً أيها الناس فوالله ابتذلتم النعوت ، وأرخصتم الألقاب ، ومالها لا ترخص ولا يلحقها أشد الوكس — وقد أصبحت لا تدل فى أكثر الأحيان إلا على كل تافه هزيل » .

رحم الله البشرى فقد كان أديباً رائقاً رائعاً حقاً خاض فى كل ميدان من ميادين الأدب والنقد وجمع بين الجد والفكاهة والسخرية والدعابة .

مصطفى لطفى المنفلوطى

فى يوليو عام ١٩٢٤ فقد الأدب العربى ركناً ركيناً من أركانه ألا وهو الأديب العربى الذائع الصيت مصطفى لطفى المنفلوطى . ورغم مرور أكثر من ربع قرن على وفاة هذا الكاتب الكبير فان كتبه ومؤلفاته لاتزال خالدة الذكر ، وتطالع فى المدارس والمكتبات فى نهم زائد وشوق عظيم ، ولايزال الأدباء والمتأدبون ، وطلاب المدارس يجدون فيها الفكرة الناصعة والأسلوب المشرق والديباجة الأنيقة والتعبير العربى المبين .

نشأ المنفلوطى نشأة شعرية فى بيت أبيه عبدالله هاشم ، ولما تعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وفد على الأزهر طالباً ، وحصل صدراً من علومه ، وعكف على كتب الأدب يجنى ثمارها ، ويقطف من أزهارها وكان يحفظ الأشعار وهو لم يدرك الحلم فى مكتب جلال الدين السيوطى الذى كان يرأسه الشيخ محمد رضوان أحد الفقهاء فى ذلك العصر .

ولما بلغ مصطفى لطفى المنفلوطى السادسة عشرة من عمره قرض الشعر وأنشأ قصيدة غزلية يقول فيها .

أردنا سؤال الدار عمن تحملوا   فلم ندر من فرط البكا كيف نسأل

وهاج لنا الذكرى معاهد أصبحت   تعيث صبا فيها وتعبث شمأل

وقد سمعها بعض أساتذته فشجعوه على قرض الشعر ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ المنفلوطى ينظم الشعر وينشره فى بعض الصحف والمجلات ، بيد أن مكانة المنفلوطى الأدبية لاتعزى إلى ماخلفه من أشعار إنما تعزى إلى ماتركه من مقالات أدبية وكتب نفيسة فى النثر الفنى .

وقد اتصل المنفلوطى بالأستاذ الشيخ محمد عبده ، وظل يرافقه ويحضر مجالسه حتى استوفى الشيخ أنفاسه عام ١٩٠٥ . وقد لمس الشيخ محمد عبده فى المنفلوطى نصاعة الحجة ، وأمارات النبوغ وقوة البيان ، فأفسح له فى مجلسه ، وبث فيه روح الحماسة والإقدام ، وشجعه على الكتابة فى الصحف والاتصال بالرأى العام وكان هذا العمل يأنفه شيوخ الأزهر فى ذلك الوقت .

وسافر المنفلوطي إلى بلدته « منفلوط » حيث عاش سنوات من عمره في تأمل دائم ، واستغراق مطلق ، وعكوف على القراءة والاطلاع ، وانكباب على التحرير والتدوين ، إلى أن استدعاه الشيخ على يوسف ، محرر جريدة المؤيد ، وطلب منه المساهمة في الكتابة ، وهنا انطلق المنفلوطي من عقاله ، وطفق يصول ويجول ، وخصص له الشيخ على يوسف مكاناً معيناً في جريدته ، ومقالة موسومة أطلق عليها المنفلوطي « الأسبوعيات » وظل يسجل في أسبوعياته كل مايعن له من أفكار ، ومايرد على ذهنه من خواطر ومايجيش في قلبه من مشاعر ، ولم يلبث بعد ذلك أن جمع هذه الأسبوعيات في كتاب أطلق عليه « النظرات » .

وفي أثناء دراسة المنفلوطي بالأزهر نظم قصيدة في هجاء الخديوى عباس على أثر قدومه من الآستانة فحكم عليه بالسجن وجاء في هذه القصيدة التي منعت من النشر قوله :

قدوم ولكن لا أقول سعيد ... وملك وإن طال المدى سيبيد
رحلت ووجه الناس بالبشر باسم ... وعدت وحزنه في القلوب شديد
علام التهاني هل هناك مآثر ... فنحمل أم سعى لديك حميد
تذكرنا برؤياك أيام نزلت ... علينا خطوب من جدول سود
فياليت دنيانا تزول وليتنا ... نغيب تحت الأرض حتى تعود

وظل المنفلوطي في السجن طيلة مدة العقوبة ، فلما تولى سعد زغلول نظارة المعارف عين محرراً عربياً لها ، ولما تحول إلى نظارة الحقانية حوله معه ، وولاه فيها مثل هذا المنصب وقامت قيامة دنلوب عندما علم بتعيينه في نظارة المعارف إلا أن سعد زغلول تمسك به وقال : إن الحكومة في حاجة ماسة إلى مثل مصطفى لطفي المنفلوطي .

ولما قام البرلمان عين مصطفى لطفي المنفلوطي في سكرتيريته ، إلا أن الموت لم يمهله فقضى نحبه وهو في العقد الخامس من عمره .

ويقول الرواة أن المنفلوطي كان يميل إلى شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري ، وقد أعجبه في المتنبي حكمته ونظرته إلى الحياة وفي أبي تمام معانيه وأفكاره وفي البحتري حلاوة أسلوبه ، ورقة موسيقاه . وكان يعتقد أن الشريف الرضى أحسن شاعر في الغزل والفخر ، ولا سيما مجازاته . أما في النثر فكان يقول : ما رأيت

مؤلفاً يكتب بقلم واحد كابن خلدون فى مقدمته ، وكان يرى ابن الأثير كاتباً إذا استرسل ولم يسجع وكان يقول :

«بعد المائة الثامنة من الهجرة لا أجد للكتاب شيئاً إلا ما يجده المعدن من الماس من الفحم الحجرى».

ومن أروع الأبيات التى اختارها المنفلوطى وأعجب بها قول الشاعر

وقانا لفحة الرمضاء واد   سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا   حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا   ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا   فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى   فتلمس جانب العقد النظيم

وعلق على هذه الأبيات بقوله : إن القارىء يخيل إليه أنه يخطر فى ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره ، وأنه يرى بعين أولئك العذارى السانحات وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء فتولهن وفزعن إلى جوانب عقودهن يلمسنها بأطراف بنانهن يحسبن أن قد وهت فانتثرت جواهرها فى ذلك الروض الأريض .

كان المنفلوطى يمثل الثقافة فى عصره أصدق تمثيل . إذ نشبت فى تلك الفترة معركة بين القديم والجديد ، وكان أصحاب القديم يتشبثون كل التشبث بالأدب العربى القديم ، والتراث العربى الفصيح ككتب المبرد والأصفهانى وسيبويه وابن منظور وغيرهم من أئمة الأدب واللغة فى القرون الماضية على حين كان أصحاب الجديد تبهرهم الثقافة العربية والنزعات الرومانتيكية والرمزية والبرناسية التى انتشرت فى أوروبا ويحاولون أن يخرجوا على الناس بأدب جديد يمثل هذه النزعات المختلفة ، وقد حاول المنفلوطى أن يأخذ من أصحاب الجديد بطرف إلا أنه لم يغفل أصحاب القديم ، ولذلك جاء أسلوبه مزاجاً بين القديم والجديد . وخليطاً من الثقافة العربية ، والثقافة الغربية .

وقد قام المنفلوطى بترجمة بعض الآثار الأدبية العالمية مثل رواية الشاعر أو « سيرانو دى براجراك » للكاتب الفرنسى « أدمون روستان » ورواية « ماجدولين » أو تحت ظلال الزيزفون ، تأليف الكاتب الفرنسى « ألفونس كار» ورواية الفضيلة أو « بول وفرجينى » تأليف « برناردان دى سان بيير »

ورواية « فى سبيل التاج » تأليف « فرانسوا كوبيه » .

والمعروف أن المنفلوطى أصلا لا يعرف غير العربية ولكن يظهر أن بعض الأفرادكانو ينقلون له بعض المقالات أو القصص العربية عن الفرنسية ، فيعود هو فيكسيها بأسلوبه ، ويسكبها فى عباراته ، إلا أنه يتصرف تصرفاً كبيراً فى معانيها وآرائها . .

وقد تكون ترجمة المنفلوطى غير ذى بال بالقياس إلى الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الأدب العالمى فى العصر الحديث بيد أنها كانت فاتحة خير فى الفترة التى عاش فيها ، وكانت إرهاصاً لنهضة كبرى فى ميدان الفكر العربى الجديد .

ولكى نحيط علما بأسلوب المنفلوطى فى ترجمته ننقل للقارىء نموذجا لأسلوبه والكلام على لسان شيخ يشرح لبول فوائد العزلة فى قصة بول وفرجينى .

« إنى أسكن يا بنى على بعد فرسخ ونصف من هذا المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذى يسمونه « الجبل الأبيض » وهنالك أمضى أيام حياتى وحيداً منفرداً ، لا زوج لى ولا ولد ، ولا أنيس ولا عشير ، وعندى أن سعادة المرء فى إحدى حالتين : أن يوفق إلى زوجة صالحة تحبه ويحبها ، وتخلص له ويخلص إليها . فإن أعوزته ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعزتها ، وقد قضى الله أن أحرم الأولى فلم يبق لى بد من اختيار الثانية .

والعزلة هى المرفأ الأمين الذى تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج وتصطلح عليها هوج الرياح ، وهى الواحة الخصبة التى يفىء إليها السفر بعد الأين والكلال ، فيجدون فى ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ولوافح الرمضاء ، وهى المنزلة الأولى التى ينزلها المرء فى طريقه من الدنيا إلى الآخرة ليستجمع ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد عدته للقاء الله تعالى . لذلك كانت العزلة دائماً فى الشعوب الشقية المضطهدة التى لا إرادة لها أمام حاكميها الظالمين ، وملوكها المستبدين كما كان شأن المصريين والرومان فيما مضى من التاريخ .

وهكذا وجدنا المنفلوطى ينقل الفكرة إلى لغتنا العربية فى أسلوب سهل مبين وألفاظ قوية منتقاة . فتجد عبارته متينة السبك ، جيدة الصياغة ، متزنة الأداء .

وللمنفلوطى فضلا عن ذلك آراء طريفة فى نقد الشعر فهو يرى أن الشعر

تصوير ناطق لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك فى النفس من الأثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله ، ودقة مسلكه ، وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه وتصوير مافى نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلمسه ببيانه فيصبح شريكه فى حسه ووجدانه ، يبكى ببكائه ويضحك بضحكه ويغضب بغضبه ويطرب بطربه ، ويطير معه فى ذلك الفضاء الواسع من الخيال . فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها وشموسها أقمارها ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغمها وناطقها وصامتها من حيث لا ينتقل إلى ذلك قدما ولا يلاقى فى سبيله نصباً .

وتعتبر « نظرات » المنفلوطى و « عبراته » من أروع مادبجته يراعته ، والنظرات هى مجموعة من المقالات جمعها المنفلوطى فى كتاب ، أما «العبرات» فهى مجموعة روايات قصيرة بعضها موضوع ، وبعضها مترجم على غرار أسلوب المنفلوطى فى الترجمة .

وأوصاف المنفلوطى وتشابيهه وصوره من متناول يده ، ولا يتكلف فى طلبها ولا إيرادها ، ويتخير كلماته تخيراً دقيقاً حتى قيل أنه لا يهتم بالآراء والأفكار بقدر مايهتم بحسن التعبير عنها ، وقد امتزج ذلك كله بقوة عاطفته وسعة خياله ، وروعة معانيه ، واستمد المنفلوطى أغلب معانيه من السماء التى طالما قلب بصره فيها ، ومن سحبها وغمائمها ، وشمسها وقمرها ، ومن الحياة ومناظرها الساحرة ، ونسائمها الرخية الوادعة ، وريحها القوية الجارفة ، ومن المجتمع الذى عاش فيه وتمنى أن يمسح الله بيد الرحمة عليه .

ولذلك كانت نزعة الحزن تسيطر على أدبه ولعله تأثر فى ذلك بما كان يعانيه من حرمان « أو بما قرأه عن أدب الرومانتيكيين فى أوربا الذين كانت تشيع فى آدابهم أصداء الحزن ورنات الأسى .

ولكن من يغوص إلى أغوار حياة هذا الكاتب الكبير يذهل من صبره وحلمه وجلده على الحزن ، فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد، فسكن لهذه الفاجعة الأليمة سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ، على شدة شغفه بهما ثم ماتت زوجته بعد ذلك ، وكانت أحب الناس إليه فجلس إلى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء بذلك الحادث غيره .

وكانت للنفلوطى أراء قيمة فى الأدب والحياة ومن ذلك أنه كان يرى أن أغزل الغزل عنده غزل العاشقين وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين وأشرف المدح مدح الشاكرين وخير العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

وإن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه لهذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون فى تاريخه من بعده من أبنائه وشيعته وذوى رحمة صورة نفسه ومضطرب آماله ، ومسرح أحلامه ، والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد اولئك الذين يودعون صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم وكان يرى أن البذور تلقى فى الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها وجعل عاليها سافلها وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته وتخللت أجزاءه وبلغت سويداءه ولا محراث للقلب غير الشعر .

وكان يعتقد أن أسعد الناس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ونظر إليها نظرة المستريب بها ، وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها .

والسبب فى شقاء الإنسان إنه دائماً يزهد فى سعادة يومه ، ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده . فإذا جاء غده أعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقياً فى حاضره وماضيه

وكان ينصح المرء بقوله . خذ لنفسك من العلم والأدب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء ! ومن أروع معانيه فى الحرية قوله ، من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً فى الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته . وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ذكياً ناطقاً . يحلق الطير فى الجو ويسبح السمك فى البحر ، ويهيم الوحش فى الأودية والجبال . ويعيش الإنسان رهين المحبسين محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد !

والفضيلة للإنسان أفضل الأوطان فن لم يحرص عليها فأحر به إلا يحرص على وطن السقوف والجدران

ومن أشعار المنفلوطي قوله في المشيب

ضحكات الشيب في الشعر ... لم تدع في العيش من وطر
هن رسل الموت سانحة ... قبله والموت في الأثر
يا بياض الشيب ما صنعت ... يدك العسراء بالطرر
أنت ليل الحادثات وإن ... كنت نور الصبح في النظر
ليت سوداء الشباب مضت ... بسواد القلب والبصر
فالصبا كل الحياة فإن ... مر مرت غبطة العمر

وقد أبدع المنفلوطي في هذه الأبيات في الإبانة عما يجيش في نفسه من خواطر وهو يودع الشباب ويستقبل المشيب ولا غرو في هذا فقد كان يعتقد أن البيان ليس إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس وتصويره ، في نظر القارىء أو مسمع السامع ويصوره تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ، ولا يقصر عنه ، فإن علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العي والحصر !

وكان المنفلوطي يعتقد أن الشعر السابق شعر ناطق أما الشعر الصامت فهذه التماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال بعد مماتهم فهي شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصور خواطر القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق ، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي شعر ، وهدير الأمواج شعر لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلام الليل شعر لأنه يطابق دموع الباكين ، وحفيف الأشجار شعر لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق ، وبكاء الحمائم شعر لأنه يمثل لجعة البين ولوعة الفراق .

رحم الله المنفلوطي فقد كان أديباً كبيراً ، وكان إنساناً ، بأدق وأوسع مدلولات هذا اللفظ .

جميل صدقي الزهاوي

جميل صدق الزهاوى أديب شاعر فيلسوف جاد به العراق القطر الشقيق فترك أثراً خالداً فى تاريخ الفكر العربى الحديث .

وهو شاعر جميل التصوير ، صادق التعبير يزهو أسلوبه على أساليب الشعراء المحدثين والمفكرين المعاصرين .

وهو فيلسوف له أثره وخطره فى تحريك دقة الفكر فى الشرق العربى وتحطيم أغلال القيود الاجتماعية التى يرسف فيها المجتمع العربى منذ أمد طويل .

وهو كاتب يجمع بين الرصانة فى القول ووضوح الفكرة ، وجلاء الخطة ، وقوة الحجة ، وصراحة الحديث .

ولد فى بغداد فى منتصف القرن الماضى ، وتلقى علومه الابتدائية فى بغداد ثم نزح إلى الآستانة للتزود من الثقافة التركية حيث كان العراق فى ذلك الوقت يتبع الدولة العثمانية ، وقد درس الزهاوى اللغة التركية فى الآستانة حتى أتقنها وأحرز شهادة علمية فيها ، فتهافتت عليه المعاهد العلمية هناك لنبوغه وتفوقه ، واختير أستاذاً بمدرسة الحقوق السلطانية فى الآستانة حيث تخرج على يديه عدد كبير من رجال القانون والقضاه والمحامين المشهورين ، وكان الزهاوى ثقة فى شئون القانون المدنى والشرعى ترجع إليه المحاكم فى كثير من القضايا وتستشهد بآرائه ، وتستأنس بعلمه ودرايته .

ولما أعلن الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ اختير جميل صدقى الزهاوى ممثلا لبغداد فى مجلس المبعوثان، حيث أظهر براعة فائقة كانت موضع إعجاب الكثيرين ، وظل جميل صدقى الزهاوى يرسل قلمه بين الحين والحين على صفحات الصحف والمجلات مبديا آرائه وفلسفته السياسية والاجتماعية حتى تم استقلال العراق

وكان الزهاوى يشكو كثيراً من الأمراض بيدأنه دائما كان يصطنع الابتسام فى أحرج الأوقات وأحلك الساعات . وأدركته علة النخاع الشوكى وهو فى منتصف العقد الثالث من عمره . ثم لحقه الشلل ، فكان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الأمين حتى إذا ما ترجل توكأ على خادمه حتى يصل إلى مجلسه

وللزهاوى آراء طريفة فى تحرير المرأة وله رسالتان فى الجاذبية الطبيعية والدفع العام . وقد أثارت آراؤه فى تحرير المرأة حفيظة كثير من أهل زمانه ورموه بالانحراف والخروج على مقتضى العرف والتقاليد

ومن آرائه التى نادى بها ودافع عنها أن المرأة الشرقية أخذت النزر من العادات الغربية من غير تمييز بين النافع والضار ، منها تقليدها الغربية فى مقابلة الرجال والاجتماع بهم فى المنتديات والمجالس كانسان يقابل إنسانا ، وهذا نافع للمجتمع يجب إبقاؤه لأنه يدعو أفراده إلى التعارف ويبنى الزواج بين الفتيان والفتيات على أساس الحب ، فلاينفصم بسهولة ويرفع مستوى المجتمع لاشتراك جميع أعضائه فى العمل والدخول إلى معترك الحياه، وقد ساعدها على هذا التقليد السفور الذى لم يمنعه دينها ، ومنها تقليدها فى طلاء الوجه بالمساحيق التى تفتن أنظار البسطاء ، وقد تشوه محاسنه وتذهب بما للجمال من روعة ، فهذا يجب تركه ومنها تقليدها فى لبس الأحذية المرتفعة الكعوب وهذه لا تلائم تركيب الرجل فهى ضارة يجب الإقلاع عنها ، ومنها تقليدها فى اتباع « الموضة » وهذا إسراف يجر العائلة فى الغالب إلى الإفلاس والمتربة ، فيجب العدول عنه ، ومنها تقليدها فى تعلم الموسيقى والشدو فى البيت وهذا نافع يملأ قلبها وقلب أهل البيت سروراً ويربى فى سامعها الذوق الراقى وفى قلب صاحبه الحب للحسن الذى هو أساس النهضة ، والنازع إلى الرقى الذى يسير البشر بمجموعه إلى غايته، ومنها تقليدها فى تربية الأطفال أحراراً وهذا نافع يجب تعميمه وحبذا فى نظر الزهاوى لو كان تعليم البنات والبنين الصغار فى مدرسة واحدة فإنه يقلل المصاريف ، فإن فتح المضاعف من المدارس التى تحتاج إليها الأمة من الدرجة الواحدة يضر بالأمم الفقيرة واقتصادها

وكان الزهاوى ينصح المرأه الشرقية المحجبة بأن تأخذ من شقيقتها الغربية عادة السفور فتمزق الحجاب الذى أسدله الجهل فسد عليها طريق النور وجعلها بمعزل عن الحياة الاجتماعية إلا فى ظروف خاصة كأنها لم تخلق إلا لتكون سلوة للرجل أو آلة للهوه وكأنما لا تملك نفسا أو قوة فى المجتمع تعادل قوة الرجل.

وألقى الزهاوى اللائمة على التربية الشرقية التى علمت المرأة الشرقية أن تقنع بذلتها وتؤمن بالقدر إيماناً أعمى! إنها جعلتها دون الفتى ذكاء ومنزلة، وقتلت فيها النزعة إلى التقدم وشلتها وبشللها شل نصف المجتمع ، ولما كان النصف الثانى

متولداً من النصف المشلول فهوغير سالم من الشلل الذى ينتقل إليه بالوراثة ، ومنذ صغرت المرأة الشرقية فى نفسها أرادت مستنداً لها من الذكور أباً أو أخاً أو زوجاً كالنعجة التى لاتستطيع أن ترعى الكلأ إلاإذا رعاها راع فهى تخاف إذا ابتعدت عنه أن يخطفها الذئب

وقد جعلها الحجاب الدائم والحياة الانفرادية حساسة إلى أقصى درجة فهى تكاد تذوب إذا سمعت صوت الرجل فما أصدق القائل « الإنسان حريص على ما منع » .

وقد وشى الزهاوى آراءه بحلة من الحماسة القويه ، وإطار من الثورة الفتية ونبرات من الدعوة العتية ! فقال ،

« اهدمى يا فتاة الشرق فى العصر العشرين السد الذى بنته الأعصار القديمة دون بلوغك المنزلة التى ندبتك الطبيعة لها والحق بإخوانك فى الغرب ، واسعدى مع السعيدات فيه ، أنت فى عصر الحرية ، عصر النور ، عصر التمرد على العادات الضارة التى هى سلاسل فى أرجل العقل تمنعه من المشى إلى السعادة وأغلال فى فى أيديه تمنعه من تناول ما يحتاج إليه فى الحياة الاجتماعية .

مزقى الحجاب الذى حسبوه لجهلهم سوراً للعفة فجاء بأكبر مما خافوا منه كالمستنجد من الرمضاء بالنار ، زعموا أن حجابك يصونك من تناول الأبصار فأوقعوا بك أنت يا أم الشعب ما يرجع وباله إليه . استقلى بنفسك فأنت إذا استقللت قوة قاهرة لا تستطيع أن تقهرها قوة أخرى . أنت كهربائية الإنسان الموجبة ، والرجل كهربائيته السالبة وقيمتكما فى الطبيعة واحدة ، ومن اتحادكما معاً يتولد النور وتتولد الحرارة ، اثبتى للملأ أنك إذا كنت مطلقة متعلمة أقدر على حفظ عفافك وأعرف بقيمته منك وأنت مقيدة جاهلة »

وعلى هذا النحو مضى جميل صدقى الزهاوى يطالب بحقوق المرأة فكان أشبه فى دعوته بقاسم أمين فى مصر ، وقد مهدت دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة والسفور والحصول على حقوقها الاجتماعية والسياسية وإنشاء الاتحادات النسائية الكبيرة التى ترعى شئون المرأة وتهتم بمشاكل الأسرة ، وكذلك مهدت دعوة جميل صدقى الزهاوى فى العراق إلى تحرير المرأة ومشاركته فى الحياة العملية ،

واشتغالها بالوظائف العامة والتحاقها بالمعاهد العالية للحصول على أرقى الدرجات العلمية والجامعية .

وألف الزهاوى رسالة بعنوان « المجمل فيما أرى » تقع فى نحو ثمانين صفحة عرف فيها القارىء بفلسفته ونظرته إلى الحياة ، وهو فى فلسفته مجدد لا يقنع بالنظرية أو المذهب الفلسفى أو الرأى العلمى لمجرد كونه من مخلفات السلف أو لأنه لم يقم إلى اليوم ما ينقضه أو من يخالفه بل يبدى ما يخطر له بعد التفكير والتأمل وإن جاء على غير ما قرر المتقدمون أو شاع بين الناس .

وقد تعرض فى رسالته إلى المسائل الخطيرة التى تعرض لها رجال العلم والفلسفة منذ القدم والتى لا يزال كثير منها إلى اليوم موضع الأخذ والرد ، وتناول بحثه الطبيعة والفلك والكيمياء وعلم النفس والاجتماع ، وما تسمه فى رسالته بعض الموضوعات الاجتماعية مثل مذهب الاشتراكية وبعض شئون الأسرة والحجاب والزواج والطلاق ، وبعض موضوعات سياسية عن الجمهورية المستقبلة والسلم والحرب .

وقد نظم جميل صدقى الزهاوى طائفة كبيرة من الأشعار جمعها فى ديوان رقيق أنيق ، وفى كل قصيدة وفى كل بيت مظهر من مظاهر نفسه وصورة من صوره وقال الزهاوى فى مقدمة الديوان « الشعر ما ينظمه الشاعر من إحساس يجيش فى نفسه بأوزان موسيقية فيهز به السامع .

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر

ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد ، حر لا يتقيد بالسلاسل والأغلال وهو أشبه بالأحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء ، يتجدد وأحر به أن يتجدد بحسب الزمان ويرتقى من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب .

وأنزع أن أمشى بشعرى فى سبيل الحياة الطبيعية متجنباً المبالغات ، وكل ما ليس حقيقياً ، وما أخلق بالشاعر أن يخرق التقاليد التى ورثها الأبناء من الآباء فيقول ما يشعر به هو لا ما يشعر آباؤه »

وتوضح لنا هذه الفقرة الموجزة معنى التجديد الذى هدف إليه الزهاوى فى شعره كما توضح النهج الذى سلكه فى نظم قصائده ، فالتجديد والشعور الصادق

هما دعامتا ديوان الزهاوى ، وقد أضاف إلى هاتين الدعامتين السلاسة فى التركيب والعذوبة فى التعبير .

ويقع ديوان الزهاوى فى ٤٤ صفحة وقسم إلى أقسام مختلفة ففيه حديث عن الشهقات وهواجس النفس . والحديث شجون ، والدم والنار ، والدموع الناطقة ، وأنين المجروح وما إلى ذلك من موضوعات شعرية خلابة .

وقد رانت على شعر الزهاوى سحابة معتمة من الكآبة والحزن ، والضيق والتبرم ، والشعور بالغربة والعزلة فى مجتمع صاخب لاغب ، ومدنية تزحف بضوضائها زحفاً . وهو فى ذلك أشبه بجبران خليل جبران الذى كان يأنس إلى الوحدة ويركن إلى العزلة ، ويجد فيها ضالته المنشودة ، وراحته الكبرى

قال جميل صدقى الزهاوى :

لقد كنت فى درب بغداد ماشيا ... وبغداد فيها للشاة دروب
فصادفت شيخاً قد حنى الدهر ظهره ... له فى الصراط المستقيم دبيب
عليه ثياب رثة غير أنها ... نظاف فلم تدنس لهن جيوب
يسير الهوينى والجماهير خلفه ... يسبونه والشيخ ليس يجيب
له وقفة يقوى بها ثم شهقة ... تكادلها نفس الشفيق تذوب
تدل غضون فى وسيع جبينه ... على أنه بين الشيوخ كئيب
فساءلت من هذا فقال مجاوب ... هو الحق جاء اليوم فهو غريب
فجئت إليه ناصرا ومؤازراً ... ودمعى لإشفاقى عليه صبيب
وقلت له إنا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وهذه القصيدة من القصائد الرمزية الجميلة التى نظمها الزهاوى ، وجسم منها المعنويات وصورها فأحسن تصويرها ، وهو فى هذا المذهب يشبه الشاعر أبى تمام الذى نحا فى شعره منحى التشخيص والتجسيم بيد أن الزهاوى مضى فى تشخيصه وتجسيمه وروى لنا قصة طريفة كأنما هى حقيقة واقعة لاشك فيها ولا ريبة ترقى إليها .

ونظم الزهاوى قصيدة فى الحياة والموت تعد من عيون شعره وجاء فيها :

إن بين الحياة والموت حربا ... هو يبغى لها وهى تأبى
ولقد تجمع الجراثيم أجنا ... داً لها صولة فتزحف إلبا

وتذود الحيـاة عنها بجمـع   من كرياتها وجنـد معي
ويـكون الصدام بين الفريقين   عنيفـاً وتلهب النـار لهبـا
تلك حرب بين الخلايا وأعدا   ء الخلايا تجد طعنـا وضربا
وهناك القتـلى تمزق اشـلا   ء وتلك الأشلاء توخذ نهبـا
ولقد تحـرز الحياة ظهـورا   بعد لأى وقد تهـادن غضبي
وإذا المـوت بعـد ذلك الق   خوراً فى الحيـاة يهجـم وثبا
وتظل الحيـــاة تدرأ عنهـا   الشـر حتى تعيا فتقضى نحبـا
ربما كان الموت أجدى لناس   ركبوا مركباً من الظل صعبـا
أى خـير من الحيـاة لعـان   كل يوم فيهـا يعالج كـربا

وهذه القصيدة من القصائد الرمزية كـذلك التى نظمها الزهـاوى ، غير أنها تصور مدى ثقافته الواسعة واطلاعه على علوم الطبيعة وإلمـامه بـكرات الدم البيضاء والحمراء والصراع بين الجراثيم فى سبيل الحياة ، وما إلى ذلك من أمور تتصل بالعلم ، فهذه القصيدة ليست قصيدة نظام من النظامين أو شاعر يلتمس العبارة الرصينة والأسلوب المحكم فحسب إنما هى قصيدة تصور جانباً من الفـكر الإنسانى إلى جانب إطارها الفنى الجذاب .

وهو فى شعره يختلف عن الشاعر عبد المحسن الكاظمى اختلافاً كبيراً . فالكاظمى نشأ على أن يـكون تاجراً غير أنه عشق الأدب والشعر ، وحفظ عشرة آلاف بيت وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، ونظم وهو فى السادسة عشرة من عمره قصيدة غزلية فى ٥٥ بيتا ، وكان الارتجال من أبرز صفاته الشاعرية ، وكان يقترح عليه القصة أو يحفزه أمر فى حفل عام فيقوم ويرتجـل الخمسين أو الستين بيتا بل المائة والمائة والأربعين أو تزيد وكأنما أعدها منذ أيام . الكاظمى شاعر السليقة العربية والمعانى المترسلة المتدفقة ، أما الزهاوى فشاعر الفـكر والتأمل ، والنظـر والتعـمق واللجوء إلى مقروءاته ومحفوظاته فى الآداب والعلوم ، وشتى نواحى المعرفة الإنسانية .

ولـكن الزهاوى كان يتفق مع الكاظمى فى عشق مصر ومحبة أهلها . وكان يحب الأفلام العربية حباً جماً ، وجاء إلى مصر عام ١٩٢٤ ليطبع رباعيات الخيام وكان قـــد ترجمها نظما عن الفارسية ، واختلف إلى بعض دور السينما المصرية

للاستمتاع بمشاهدة بعض أفلامها العربية ، وحدث أن اشتد عليه المرض وألحت عليه العلة ذات ليلة وهو فى طريقه إلى السينما .

أما الكاظمى فقد وفد إلى مصر من الهند عام ١٨٩٩ فرحب به أهلها واحتفوا به وأكرموا وفادته فوجد فى مصر أهلا بأهل ووطناً بوطن فاختارها موطناً له . وأول قصيدة قالها فى مصر :

إلى كم تجيل الطرف والدار بلقع　　أما شغلت عينيك بالجزع أدمع
أأنت معيرى عبرة كلما ونت　　يحفزها برح الغرام فتسرع

ونظم الزهاوى قصيدة بعنوان « مع نفسى » كان فيها أشبه بالشاعر الضرير أبى العلاء المعرى رهين المحبسين ، وقد ظهرت فيها فلسفة الزهاوى واضحة جلية ، ومظاهر حيرته وشكه وجاء فى هذه القصيدة .

أخبرينى يا نفس من أنا　　أنت منى ما مبدئى ما معادى
ما حياتى وغاية الله فيها　　ما وجودى والقصد من إيجادى
كيف جاءت تقوى الإرادة فينا　　ما علاقات الروح بالأجساد
علمينى بما به لك علم　　فلعلى يانفس ألقى رشادى
أنت لاتدرى حين تسمع شعرى　　أبكاء ذا أم ترنم شاد
أيها الشعر أنت عزى ولكن　　فى بلاد بعيدة عن بلادى
كم غريب فى جنب دجلة زاو　　وقريب فى قلب دجلة صاد
جرحوا فى شيخوختى القلب منى　　ثم أبقوا جرحى بغير ضماد
إن فى جرحهم لقلبى عذابا　　دونه القتل بالسيوف الحداد
ربما نام ليلة مستريحاً　　بعض من أخلدوا إلى الجلاد
أى شيء يلقى بنفسك ريباً　　من حديثى عن ذلك الأخلاد
لاتذم المضل للشك فيه　　فلعل المضل للناس هاد

وقصيدة الزهاوى تمثل حيرته الفريدة وفلسفته الثائرة ، ولعل شاعر المهجر إيليا أبا ماضى تأثر بها إلى حد كبير فى قصيدته « الطلاسم » وربما كانت هذه القصيدة من القصائد التى دفعت لفيفاً من الناس إلى إتهام الزهاوى بالإلحاد ، فهو يتخذ العقل أمامه ودليله ولكن العقل لايلبث أن يعجز عن فهم مكنونات هذه الدنيا ، وسر هذه الحياة . ولا يحاول أن يقشع هذه السدول الكثيفة التى تحيط

بهذا الـكون من كل جانب ، وتـكتنف الحياة بعد الموت ، والخلود فى الآخرة .

والزهاوى رغم هذه النظرة الـكئيبة المعتمة شاعر عاشق تشرق أمامه الدنيا وتتفتح حياله أكمام الطبيعة وثغور الأقاحى . ووجد ليلاه ترنو إليه وتحادثه مقلتاها وتناديه شفتاها وتقيده الأحداق كالأطواق ، فإذا العابد واجد ، والشكاء بكاء والمنى ضنى وإذا الشعر ينطلق ويتدفق ويسيل فى الليل كاللحن الحالم ، وناداها الشاعر فى ظلمة الليل والدنيا صامته ساكنة والطبيعة هادئة وادعة لا تسمع فيها نأمة ولا نهمة ، والقمر يطل من عرشه النورانى فى كبد السماء ، فتململت وتدللت فأقبل عليها يتوسل ويترسل ، حتى ظفر بمناه .

ظفرت بالمنى   فى ليلة هنا
فى ليلة بدت   بيضاء كالسنا
كانت سعادة   فلم تدم لنا
إذ كان ساكباً   لنوره القمـر
وكان تحتـه   يحلو لنا السمر

ولـكن الدهر لم يلبث أن طاح بحب هذا الشاعر العاشق فمضى يعاتب هاجرته فى حنين وتوجع وحرقة وتفجع .

قد كنت واثقاً   بالعهـد بيننا
من ذا أضاعه   أأنت أم أنا
أم الذى رعى   هو الذى جنى
هذا الذى جرى   ما كان ينتظـر
لا عتب لى على   الأيام والقـدر

فهو هنا يجعل للقدر صولته ورهبة ، ويحنى هامته لصروف الزمن وأحداث الأيام ولا يلبث أن يترنم فى نغم حزين وقلب كسير أضناه الأسى ، وأبلاه الجوى وحطمه الزمان .

آه من الأسى   آه من الضنى
المـوت راعنى   فى الليل إذ رنا
من ذا يرده   من بعد ما دنا

الدهـر لا تـلم   فالدهر ما غـدر
حظى هو الذى   من العمى عثر

فالنظرة الحزينة لاتلبث أن تعاوده ، وتهدم عليه قصور اللذة ، وتحطم حواليه صروح المتعة وترده إلى حالته الأولى أسيفاً كاسفاً ، وترد فكره إليه حسيراً عاصفاً ، وتشتد عليه الفجيعة — وتتهالك عليه الوجيعة ، وتتركه حطاماً بالياً .

تلك هى تأملات فى أدب جميل صدقى الزهاوى من نثر وشعر ، وقد قام بدراسته عدد كبير من أدباء العروبة فى العراق وغيرها من البلاد العربية ، ومنهم الأديب الكبير رافاييل بطى الذى ألف كتاباً عن شعراء العراق يعتبر فى مقدمة الدراسات الأدبية عن الحياة الأدبية فى العراق .

ولقد كان أدب الزهاوى أرهاصا لتطورات شتى فى ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية لما نادى به من آراء جريئة وأفكار وثابة سبق به عمره لسنوات بعيدة .

ولى الدين يكن

أديب وشاعر من أدباء وشعراء العصر الحديث يمتاز أسلوبه بالجزالة والعذوبة والصدق ، ولد فى الآستانة عام ١٨٧٣ بناحية السليمانية ثم حضر إلى مصر حيث عكف على دراسة الثقافة العربية والتحق بمدرسة الأنجال ، ثم تعلم الفرنسية بمدرسة « مارسيل » الفرنسية . وألم بالإنجليزية واليونانية ، وقد ظهرت مواهبه منذ نعومة أظفاره وبدأ تعلقه الشديد بالتحرير والكتابة ، فكان يرسل نفثاته إلى الصحف المصرية بين الحين والحين ، وكانت سنه وقتذاك لا تتجاوز العشرين فنال إعجاب رؤساء تحرير الصحف والمشتغلين بالصحافة والأدب ، أما الصحف التى خصها ولى الدين يكن بمقالاته فكانت جريدة القاهرة التى كان يصدرها محمد عارف الماردينى ، والنيل لحسن حسنى الطويرانى ، وبعد ذلك اتفق ولى الدين مع يوسف بك فتحى لإصدار جريدة المقياس ، وكان بعض أقاربه ومعارفه يريدون أن يصرفوه عن الاشتغال بالصحافة ويغرونه بالعمل فى الحكومة ، وقد استجاب لدعوتهم فانصرف عن الصحافة وعمل فى نيابة مصر الأهلية ، ثم عمل بالقسم الأوربى فى فى القصر ، ولكنه سافر إلى الآستانة حيث قضى هناك فترة من الزمن .

وفى عام ١٨٩٧ عاد ولى الدين يكن إلى القاهرة ، وكان قد ملأه الاستياء من تحكم الأتراك فى الشعب . فأنشأ جريدة تسمى جريدة الاستقامة لتكون سوط عذاب على الاستبداد الذى نشره عبد الحميد دون وازع من عقل أو رادع من ضمير ، وعلى صفحات هذه الجريدة انطلق ولى الدين يكن ينتقد السياسة العثمانية انتقاداً مراً مما أثار حفيظة العثمانيين وهددوه بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، فاضطر إلى إيقافها على مضض وهو أشد ما يكون ألما وأعظم ما يكون أسى ، ولما أغلق الاستقامة نشر قصيدة مريرة على صفحات « المشير » يودع أيامه الخوالى ويبكى ماضيه وجاء فى هذه القصيدة :

فمن مبلغ عنى الغضاب الألى جنوا ... بأنى امرؤ ما أن أخاف غضابا
أذم فلا أخشى عقابا يصيبنى ... وأمدح لا أرجو بذاك ثوابا

على م أحابى معشرا أنا خيرهم ومثلى إذا حابى الرجال يحابى
ولما غدا قول الصواب مذمماً عزمت على أن لا أقول صوابا
فجافيت أقلامى وعفت استقامتى ورحت أرجى للسلامة بابا

ولم تنطفىء جذوة حماسته بعد إغلاق الاستقامة إنما ظل شعلة متوهجة ضد العثمانيين على صفحات المشير والمقطم والقانون الأساسى وغيرها من الصحف والمجلات .

وأغراه أنصار عبد الحميد بالسفر مرة أخرى إلى الآستانة والعفو عنه فاضطر إزاء صروف الأيام أن يهادنهم ويلبى طلبهم ، ويسافر إلى هناك حيث تقلد فى إحدى الجمعيات الرسمية ، كما عين عضواً فى مجلس المعارف الأعلى الذى يشرف على شئون التربية والتعليم . ويظهر أن هذه الوظائف الجديدة كانت أشبه بالقناصة لوضعه فى القفص ، فلم يلبث أنصار عبدالحميد أن بثوا حوله العيون والجواسيس ، ومضوا يترصدون له بالإيقاع به ، وأخيراً سنحت لهم الفرصة ، ووجدوا عنده كتبا وأوراقا من شأنها النيل فى الحكم الحميدى والقدح فى السلطان عبد الحميد وقد قام الضباط الأتراك بتفتيش منزله فى قسوة وعنف ودون أن يقيموا وزنا لحرمة البيت ، أوشرف الأسرة ، فروعوا زوجته النفساء وأمه العجوز ، وأطفاله الصغار ، وبثوا الرعب فى قلوبهم ، وعاملوهم بمنتهى الغلظة والفظاظة ، بيد أنهم لم يعثروا على ولى الدين يكن نفسه الذى كان قد اختفى فى مكان بعيد عن الأنظار خارج المنزل لجدوا فى البحث عنه ، وبعد أربعة أيام كاملة ألقوا القبض عليه وزجوه فى غياهب السجون دون محاكمة ، وظل فى سجنه فترة حمل على أثرها على ظهر باخرة كبيرة سارت به إلى سيواس إحدى ولايات الأناضول فى جو عاصف وزمهرير شديد .

وأقام ولى الدين يكن فى سيواس نحو سبع سنوات ذاق خلالها الويل والعذاب وقد زاد من ألمه ضعف صحته ، وتهور روحه المعنوية إذ أصيب بألم شديد فى أسنانه كما أصيب أحد أبنائه بالتيفويد فطارت نفسه شعاعاً من أجله .

وأخيراً صدر العفو عنه فلم يصل إلى الآستانة بعد نفيه حتى رغب فى العودة إلى مصر ، فوصل إليها عام ١٩٠٨ فلاقى فى الأوساط الأدبية ترحيبا أى ترحيب ،

وظل يواصل كتابته إلى الصحف المصرية . وينشر روائع شعره على صفحاتها ، ومن أشهر الصحف التى رحبت بقلمه جريدة المقطم ، كما كان يتحف مجلة الزهور التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ أنطون الجميل بروائع قصائده . كما تولى رئاسة تحرير جريدة « الأقدام » لصاحبتها البارونة الكسندرة أفرينو دى فيزنيوسكا ، وبعد فترة من الزمن عين فى وزارة الحقانية ثم ألحق بالسكرتيرية العربية بالديوان وما برح أن ألح عليه مرض الربو حتى كتم أنفاسه ، كما ألحت عليه الأرزاء حتى هدته هدا ، إذ صعق أحد أولاده بالتيار الكهربائى وكان فى السادسة عشرة من عمره ، وتوفيت والدته وشقيقته وكان يحبها حباً جماً . وقد أسدل الستار على سلسلة مآسيه ليلة الأحد ٦ مارس ١٩٢١ فى مدينة حلوان الحمامات وهو فى التاسعة والأربعين من عمره .

وهكذا كانت حياة ولى الدين يكن كلها سلسلة من الأشجان والأحزان ، وقد انعكس أثر ذلك على أدبه شعراً ونثراً ، فامتلأ بالأسى ، وزخر بالألم ونضح بالدموع ، فقال فى طفلة له ماتت وهى فى ثلاثة أشهر من عمرها « أقصرت عنك وسائل العناية ، وخابت فى استبقائك آمال القلبين المشفقين اللذين طال خفوقهما عليك فى الليالى الطويلة ، وها أنت اليوم على وشك التوديع لم تعلى ما يقول المودعون لأنك لم تبلغى سن القول ، ولست تفهمين ما يقال فيك لأنك لم تصلى إلى زمن الفهم . . . .

« أشفقت عليك من أوجاع تحسين بها ، ولا تدركينها . ثلاثة أشهر كثلاث طرفات بالجفن وكأنها لم تكن ، ليت الشفاه التى لها مست قبلاتها تينك الوجنتين الذابلتين جفت قبل أن تكون ممراً للتأوه ! وليت تلك الأنفاس التى سرت على وجهك الغض التهبت فى أحشائنا قبل أن تنقلب زفرات » .

« أعددتك زخراً وإذا بك مسلوبة ، ظننتك لى فإذا بك للثرى ، لهفى عليك إذ تذهبين ، ولم ترى من سطورى ما يكون لك عظة من بعدى ، بل لهفى علىّ إذ استندى عيون النيرات بمصراع أرتجله ، وأنا أطلب اليوم فيك كلام الرثاء ، فلا تسعفنى المعانى » .

وكتب فى ١٢ فبراير عام ١٩١٨ إلى صديقه المرحوم الأستاذ أنطون الجميل

يشكو إليه ما ألم به من تعب وضنى ، وضيق وحزن « إنى فى يأس شديد من زوال هذا المرض . . . الذى عجز الطب عن دفعه وهو المسمى « Emphzeme إذا جاء الليل تكاثرت مخاوفى . فلا يغمض جفناى فرقا ، لأنى لا أغفى إغفاءة إلا وأنتبه صارخاً مذعوراً، إذ تنقطع أنفاسى ، ويشتداضطراب قلبى وتبرديداى ورجلاى، فأختلج مكانى ، وأتلوى تلوى الأفعى التى ألقيت فى النار ، أريد تنفساً أستعيد به ما يوشك أن يذهب عنى الحياة فلا أجده حتى إذا بللنى العرق ، وأنهكنى التعب عاودتنى أنفاسى شيئاً فشيئاً ، وذهبت النوبة على أن تعود بعد ساعة أو ساعتين ، ومصير هذا المرض معلوم وهو مذكور فى كتب الطب لم يختلف فيه طبيبان ، لا أدرى أمن الموت ، وما أنتظر من أهواله ، يزداد جزعى ؟ وما تطلع على شمس يوم إلاوزادتنى قربا من قبرى . والهفى على آمال تحولت آلاما ، وواحسرتى على أيام عمر ما ضحكت لى مرة إلا وجعلت دموعى لها ثمنـــاً . أهـذه عاقبة الصـــبر التى أطلت انتظارها وما أكثر ضلال الحكماء ! وما أكبر غش القدماء . . !! »

وقد ظلت هـذه النغمة الأسيفة الحزينة تلاحقه أينما كان وحيثما سار حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى . وكان آخر بيتين تركهما بجوار فراش الموت هما هذين البيتين : —

يا جســـداً قد ذاب حتى امحى   إلا قليـــلا عالقاً بالشقاء
أعانــــك الله بصـــبر على   ما ستعانى من قليل البقاء !

وقد ظل ولى الدين يكن يحن إلى الموت ويقول : « يا ليتنى أفوز برقدة يستريح الجسم فيها » ، حتى استجاب الله لدعوته وحقق رجاءه ، واختاره إلى جواره .

سقى الله دارات القرافة ديمه   ترف على قوم هنـالك هجد
أحن إلى تلك المراقد فى الثرى   ولو أستطيع اليوم لاخترت مرقدى
فأنزلت جسمى منزلا لا يمله   يكون بعيد عن أعاد وحسد

وتعد الفترة التى قضاها فى سيواس منفاه من أخصب الفترات إنتاجاً ، إذ نظم فيها كثيراً من شعره فى الشكوى والحنين كما سجل فيها خواطره فى كتابه « المعلوم والمجهول » قال فى منفاه :

حـى ربوعهـا قطر   يا وطنـا هو مصر
ما لى إليـك سبيل   هـذا خـلاء وبحر
غر الأعادى انكسارى   والانكسار يغـر
وسرهم طـول نفيى   ومثـل نفيى يسر
هم يحسبونى أقضى   عنهم وما لى ذكر
هيهـات بعدى رجائى   والفجر يتلوه فجر
عين بكت قبل هـذا   وسوف يبسم ثغـر
ارتجـى فى يا أمانىّ   بالوصل قد طال هجر
رضيت سيواس داراً   وما بسيواس شر
جنـوا عليها فامست   قد اقفـرت فهى قفر
فلا بها الروض خصب   ولا بهـا الزهر نضر
اندرست مطرباتى   وأصبحت وهى دثر
فليس لى ثم نظـم   وليس لى ثم نثر
وكم بمصر أديب   يشدو فترقص مصر
لحنى على سانحات   كأنما هى سحر
يقولهـا قائلوهـا   فيعترى الناس سكر

كما ضمن كتاب المعلوم والمجهول تذكارات صباه وشبابه ، وما ألم به من المصائب ، واعتراه من النوائب فى منفاه ، إذ استأجر هناك دارا صغيرة رطبة لا تدخلها الشمس ، ولا يعرف الدفء إليها سبيلا فأصابه ألم ممض فى أسنانه ، ووجع شديد فى أضراسه ، حتى كاد يجن به جنونا ، فأخذ فى أول الأمر قليلا من « الكونياك » على حد تعبيره وجعل يتمضمض به تسكينا لوجعه فما زاده هذا إلا شراً ، وبقى ليلة كاملة واقفا أو ماشيا أو قاعداً أو مضطجعا إلى أن أصبح الصباح ، فبادر إلى صيدلية تحت المنزل يسأل صاحبها دواء يسكن ألمه ، فأخذ الصيدلى يجرب عقاقيره دون طائل فلما تجاوز الشدة نفد صبره ، وطلب منه أن يعطيه مقداراً من المورفين فحقنه حقنة تحت اللثة بعد تردد وإحجام ، فخف عنه الألم بيد أنه لم يسكن إلا قليلا ، وكانت أصوات الحاضرين تصل إليه فى خفوت وهمس وكأنها تأتيه من جوف بئر يسمعها ولا يفهمها . وتأمل صحبه ووجهه

فوجدوا فى خده الأيسر ورما يتزايد على توالى الساعات ، وما دنا المساء حتى كان صاحبنا صاحب وجهين ، ولو أنه لم يكن كذلك فيما سلف من عمره . فلما تكامل الليل خف فعل المورفين واعتاده الوجع ، فنزل لشراء حقنة مورفين بيد أن السلطات العثمانية كانت قد تنبهت إلى استخدامه للمورفين فأصدرت الأمر إلى الصيدليات بمنعه من الحصول عليها فعاد إلى منزله كاسف البال حزيناً ، وعمد إلى سلك من الصلب لفه على إحدى ثناياه ومازال يجذبها حتى اقتلعها من أصلها ، واقتلع معها قطعة من عظم الفك الأعلى ، فشعر بألم صارخ فأجريت له عملية جراحية لم تنجح بل ضاعفت آلامه ، وزادته وجداً على وجد ، وقد أخرج الطبيب من جيبه مطواه غطاها الصدأ حتى لا يتبين الناظر نصلها ، فتناولها ولى الدين منه بيده وشمها ، فإذا بها رائحة الخيار فنظر فى وجه الرجل وقال « ألم تختر موضعاً تصنع فيه السلطة إلا بين فكى . فمسحها الرجل على سرواله وقال : هى نظيفة فقال ولى الدين يكن : لا والله لن أدعك تمس فمى أو تدعنى أطهر هذه السكين فقال الرجل ـ شأنك وما تريد . فاستحضر ولى الدين قليلا من الكحول أضرم جانباً منه أحرق به النصل ثم غسله بما بقى ، وأمر الرجل أن يغسل يديه أمامه ففعل ثم أسلمه فكه وجلس بين يديه وأسند رأسه على ركبتيه ، فخط على اللثة العليا بسكينه خطا استشعر به وهى تحفر فى عظامه ، فوثب واقفا دامى الثغر ، لاتحمله قدماه ، وأشار إلى الطبيب قائلا : قم عنى لا عدت لى بعدها ! فخرج من عنده الرجل متعثراً .

هذه هى صورة من الحياة التى عاشها الأديب الشاعر ولى الدين يكن فى منفاه ، وغنى عن البيان أنها مترعة بالإهمال ، وضحية للظلم والطغيان واستبداد الحكام بمصالح الرعية .

وقد تمثلت فى شعر ولى الدين يكن ثقافته الواسعة ، واغترافه من ينبوع الأدب الأوروبى عامة والأدب الفرنسى خاصة ، فأغرم بالشعر الليريكى Lyric Poetry واستطاع أن يعبر عن مشاعره دون زيف أو رياء وفى صراحة تامة وأسلوب فكه طريف . ينضح بالألم ، ويفصح عن الأسى فى نفس الوقت .

وقد سجل عواطفه حيال باريس والثقافة الفرنسية فى هذا المقال « باريس

عاصمة ملك حذيت على غير منوال . إذا أطرى الواصفون بلدة قالوا هى الجنة أنهارها جارية وبناياتها شاخة ، ورياضها يانعة ، وأشجارها ثامرة وأعوادها زاهرة . وأوصاف ابتذلتها أقلام الكاتبين ، ووقفت عندها بديهات الشعراء . أما باريس فلا تتناولها هذه الأوصاف ، كل شىء هو دون ماوصف به إلا باريس فهى فوق ما وصفت به قال أكثر الناس : الجمال غريب لا وطن له . كذبوا باريس وطنه ، ومشرق شمسه . لم يسعدنى الزمان بزورة لها وكم اشتقتها وكم أشتاقها وإنما عشقتها الروح ، ولم ترها العين . وما كان عشقى لها على قدر ما نعتها به الناعتون فأقول « الأذن تعشق قبل العين أحيانا » ولكن عشقى لها على قدر معرفتى بها بينى وبينها الفدافد ، والبحار ولم يستجل مرآتها ناظراى غير أن نفسى حلقت بسمائها وخواطرى جالت فى أرجائها . كلما أنشدت بيتا لهوغو أو موسيه خلتنى أنشد شعرها واترجم لذاتى عنها » . ومن أروع قصائده التى تعبر عن « الأنا » الحزينة والقلب الولوع قوله

غيرت عهدك فى الهوى فتغيرا منك الهوى قلبى وقلبك مادرى
كونى كما أنا فى الغرام وفية لا تهجرينى ما خلقت لأهجرا
أصبحت فيك من الولوع بغاية إن زدت حسنا لا أزيد تحيرا
بلغ المدى بى كل شىء فى الهوى فإن أردت زيادة فلن تقدرا
يسمو بك الحسن المدل إلى السما ويمت بى الجد المذل إلى الثرى
ماذا التحالف فى المحبة بيننا نفس مكرمة ونفس تزدرى
ينفك عمرى فى الهوى متقدما ويظل سبقى فى الهوى متأخرا
وأكاد أحسب فى غرامك شقوتى لو كان يسعد عاشق بين الورى
لا تنكرى نظرات عينى خلسة الله قد خلق العيون لتنظرا
وقفت عليك فما انثنت عن منظر فننت به إلا لتطلب منظرا
قلبى يحس وهذه عينى ترى ما حيلتى فيما يحس وما يرى
أن تصبرى عنى فقلبك هكذا أما أنا فأخاف أن لا أصبرا

كما نظم هذين البيتين اللذين يسيلان رقة وعذوبة .

رأيت كتابها فقرأت فيه شكايات ألذ من الثناء
فقلت فؤادها يحكى فؤادى لذاك بكاؤها يحكى بكائى

وقال فى كتاب « التجاريب » مبينا ضياع شأن الأديب فى العصر الذى عاش فيه : لكل أمرىء فى هذه الأمة موضع يميزه ، والناس فى درجاتهم متقاربون وليس لرجل ينكره معارفه ، ويتجافاه أقرب أقاربه إلا الأديب ، فهو إذا برز على أقرانه حسدوه وإن أقصر عنهم حقروه . » .

وقد نشر كتاب « التجاريب » فى الإسكندرية عام ١٩١٣ وهو يضم مجموعة مقالات اجتماعية طريفة ، أما كتاب المعلوم والمجهول فقد طبع بمطبعة المعارف عام ١٩١١ ، وله غير هذين الكتابين كتاب « الصحائف السود » وهو مجموعة مقالات نشرت تباعا فى جريدة المقطم وانتقد بها بعض ما يقع فى معترك الحياة واختار حين بدأ نشرها توقيع « زهير » ثم عدل إلى إسمه وطبع الكتاب عام ١٩١٠ بمطبعة المقتطف وترجم كتاب « خواطر نيازى » وهو صفحات من تاريخ الانقلاب العثمانى الكبير .

وله كتاب العصر الجديد ويضم بعض الأحداث التى جرت بمصر . وقد تلاعبت به الأيدى فلم يسمع له ذكر وله كتاب مائة برهان وبرهان على ظلم عبد الحميد السلطان ، وكتاب عفو الخاطر ، وكتاب العجائب وكتاب الخواطر ودكران ورائف وهى رواية اجتماعية مثيرة ، وكتاب الطلاق وهو تعريب رواية بول بورجيه Paul Bourget وهذه الكتب الأخيرة لم تنشر بعد .

أما ديوانه فقد جمعه بعد وفاته أخوه يوسف حمدى يكن وطبع عام ١٩٢٤ فى مطبعة المقتطف والمقطم بمصر فى ١٣٠ صفحة وفيه مجموع ما عثر عليه من شعره مقسما على سبعة أقسام . الشعر السياسى ، الرثاء ، والعزاء ، التهنئة والمديح ، الدهريات ، الهجاء ، الغراميات ، المتنوعات ، وقد كتب مقدمة ديوانه الصحفى الراحل الأستاذ أنطون الجميل .

حفني ناصف

لم يعرف الأدب العربي الحديث شاعراً فكه الأسلوب ، خفيف الروح ، عذب المعانى ، مليح العبارة ، حاضر البديهة ، ولا أديبا رصينا ، جزل اللفظ ، واسع الأفق ، ولا محاضراً مسترسلا متعمقا مثل : حفنى ناصف .

كانت شخصية حفنى ناصف متشعبة الأطراف . متعددة المسالك ، متنوعة الأهداف تجمع بين الشاعر والأديب والخطيب ، ومنادر الجليس ، غير أنها تلتقى عند نقطة واحدة ، وبؤرة معينة ، وهى ذلك المزاج الرقيق ، وهذا الحس المرهف وهذا الشعور الدفاق ، وهذه الطبيعة الفكهة المرحة التى امتاز بها حفنى ناصف عن غيره .

وكان حفنى ناصف يرى والابتسام لا يفارق شفتيه ، والانبساط لا يغادر وجهه ، ولا يحضر فى مجلس إلا وتتهلل الأسارير انشراحا ، لما يرسله من نكات طريفة ، وقفشات عذبة ، ونوادر حلوة ، إذ كان حافظا لنوادر الظرفاء ، عالما باللغة راويا للأشعار ، وتجلت روحه فى أحرج الأوقات ، وأدق المواقف .

حدث أن نقله وزير الحقانية من مصر إلى قنا من بلاد الوجه القبلى فى الإقليم المصرى ، فكتب يقول فى قصيدة طويلة :

ألقى الهواء فلا أهاب لقاءه ظهراً وبطنا
وأنام غير مدثر شيئاً إذا ما الليل جنا
قد خفت النفقات إذ لا أشترى صوفا وقطنا
وفرت من ثمن الوقود النصف نصفا وثمنا
فالشمس تكفل راحتى فكأنها أمى وأحنى
فاذا بدت لى حاجة فى الغسل ألقى الماء سخنا
أو رمت طبخا أو علاج الخبز ألقى الجو فرنا

ورغم هذه الروح الفكهة التى تتجلى فى هذه الأبيات ، وتشيع بين ألفاظها ، ومعانيها فقد كان حفنى ناصف فى بعض الأحيان الأخرى شاعراً حكيم التفكير ،

متزن العقل ، وافر النهى ، قد صقلته تجارب الأيام وعلمته صروف الزمن . فشاعت الحكمة فى أفكاره . وتمثلت الروية فى معانيه . اسمعه يقول .

أنقضى معى أن حان حينى تجاربى وما نلتها إلا بطول عناء
ويحزننى إلا أرى لى حيلة لاعطائها من يستحق عطائى
إذا ورث المثرون أبناءهم غنى وجاءا فما أشقى بنى الحكماء

الشاعر والتجربة

ومن أشعاره التى تصور تلك النزعة الحكيمة ، والجنوح إلى تصوير تجارب الحياة ، ورأى الشاعر فى الصداقة والأصدقاء ، تلك الأبيات التالية التى تذكرنا بحكمة المتنبى أو ابن الرومى ، فكما كان المتنبى يعرف الحياة ويستخلص معانيها فى بيت أو بيتين من الشعر . وكما كان ابن الرومى يختلط بأنماط مختلفة من الناس ، وأنواع متباينة من الأخلاق ثم يسطر فلسفته فى الصحبة والأصحاب ، والأخوة والإخوان فى أبيات قليلة من الشعر . كان حفنى ناصف يسلك هذا المسلك ، وينهج هذا النهج ،ويقدم لنافلسفة الحياة بطولها وعرضها . وهدوئها وضوضائها، وخيرها وشرها ، وحلوها ومرها فى أبيات من القريض .

أحييت آمالى وكنت أمتها من طول مالاقيت من إخوانى
أدلى بإخلاص لهم وأذود عن أغراضها بجوارحى ولسانى
ومحضتهم ودى فلما أيسروا كانت بداية أمرهم نسيانى
حسبى من الدنيا صديق ثابت فرد فكنه ولا احتياج لثانى !

وعندما سافر حفنى ناصف إلى الخارج تغنى بحب الطبيعة الساحرة فى أوربا ونظم طائفة من القصائد الجياد فى وصف فى لوزان وأفيان وماريمباد وغيرها من بلدان أوربا ، فقال فى وصف رحلته إلى ماريمباد :

ارجعوا لى ياغيد ماريمباد مهجتى قبل عودتى لبلادى
إننى قد شددت رحلى وأهلى فى انتظارى فاطلقوا لى فؤادى
ليتنى لم أزر حماكم فانى فى هواكم أضعت كل رشادى
وبرانى الضنا فصارت ثيابى فوق جسمى كمضرب ذى عماد

وأتانى السقام من حيث أبغى صحة وانهزمت قبل الجلاد
حدثوا أن فى حماكم عيونا تذر الناس ضامرى الأجساد
صدقوا أنها عيون ولكن كحلت منذ خلقها بسواد
جنبونى ذاكر العيون فقلبى فى ارتعاش من فعلها وارتعاد
فهى كالكهرباء توحى بلحظ فتدق الأجراس فى الأكباد

بحث إلى مؤتمر المستشرقين

تلك هى نفحة من شعر حفنى ناصف يمكن ان نستشف من خلالها شخصيته المتشعبة فى عالم الشعر . فما بالك فى عالم النثر ، وقد ترك فيه مؤلفات شتى مثل كتاب « حياة اللغة العربية » وكتاب « القطار السريع فى علم البديع » ورسالة فى البحث والمناظرة ، ورسالة بديع اللغة العربية . وله فضلا عن ذلك بحث قدمه إلى مؤتمر المستشرقين فى فينا عام ١٨٨٦ نشره بعنوان « مميزات لغات العرب » وقد ذكر فيه الأشياء التى انفردت بالتكلم بها شعوب مخصصة من العرب ، وامتازت بذلك عن اللغة الشائعة فى أحيائهم .

ولتوضيح ذلك نقول إن اللغة العربية وإن كانت فى ذاتها لغة واحدة مغايرة للغة الفرنسية ، والانجليزية ، والألمانية ، وبقية الأمم ، إلا أنها تتعدد بالنسبة للاختلافات التى توجد فى ألسنة المتكلمين بها ، فلغة هذيل غير لغة قيس غير لغة أسد ، ولغة تميم تخالف لغة الحجاز ، وهلم جرا .

وقد ذكر حفنى ناصف فى هذا البحث كذلك الفروق التى توجد فى اللغة العامية ويحصل بها امتياز قوم على قوم ، فلهجة أهل مصر تخالف لهجة أهل الشام ، بحيث يعرف بذلك المصرى فى الشام ، كما يعرف الشامى فى مصر ولو كان متزيا بزى أهل مصر ، وكلتا اللهجتين تخالف لهجة المغاربة ، وتغاير اللهجات الثلاث لهجة سكان الحجاز ، ولهجة السودان لا توافق واحدة مما ذكرنا .

اختلاف لهجات العرب

ضرب حفنى ناصف للتدليل على رأيه أمثلة عديدة من تاريخ العرب والإسلام ،

ومثال ذلك ماذكره المفسرون فى قوله تعالى «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » فالفاتح فى لغة اليمن القاضى .

وروى ابن جنى أن أعرابياً دخل على ملك من ملوك حمير ، وأطال الوقوف بين يديه ، فقال له الملك (ثب) أى جلس بلغة (حمير) فوثب الأعرابى وكان على مكان مرتفع فتكسر ، فسأل الملك عن ذلك ، فقال : «من دخل علينا فليتكلم بلغة حمير » .

هذا هو جوهر البحث الممتاز الذى كتبه حفنى ناصف وقدمه إلى مؤتمر المستشرقين عام ١٨٨٦ ، وخرج منه إلى ضرورة التمسك بلغة العرب ، ولغة القرآن الكريم حتى يكون ذلك من عوامل الائتلاف والاتفاق ، ويكون عدم التمسك به مدعاة إلى الخلل وسوء الفهم .

ولحفنى ناصف كتاب آخر فى تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية تحدث فيه عن فن الأدب ، ومساكن العرب ودياناتهم ، وأشهر أصنامهم فى الجاهلية واشتقاق كلمة عرب ، وتقسيم العرب إلى بائدة وباقية ، وأشهر أقسام البائدة ومساكنهم ، وتقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة ، ثم تكلم عن الحروف اللفظية والحركات الأصلية والمتفرعة ، وصفات الحروف ومخارجها ، وتاريخ الخط العربى والمطبعة والاختزال وما إلى ذلك من موضوعات تهم الباحثين فى تاريخ العرب ولغتهم .

رسائله النثرية

وخلف حفنى ناصف رسائل نثرية متعددة يظهر فيها ميله إلى الزخرف ورغبته فى التنميق ونزعته إلى الزينة . ومثال ذلك قوله فى رسائله إلى السيد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية : « زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بعد والله عهد التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتقدم الزمان ، وأنا فى رؤيته فى حرمان ، فقيل لى أنه خرج ليشيع زائر ، وهو عما قريب حاضر ، فانتظرت أعد اللحظات ، واستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار

جاء السيد فى موكبه ، وجلال محتده ومنصبه ، فمضينا لاستقباله وهنأنا بكماله .

كما أرسل حفنى ناصف إلى السيد على الليثى يشكره هدية قفص عنب : « وصل يامولاى إلى هذا الطرف ، ما خصصت به العبد من الطرف ، قفص من عنب كاللؤلؤ فى الصدف ، تتألق عناقيده كأنه من صناعة النجف ، ولعمر الحق أنها تحفة من التحف فقابلناه لثما بالأفواه ، ورشفا بالشفاه ، واحتفينا بقدومه كل الاحتفاء ، ولم نفرط فى حبه عند اللقاء ، بل حللنا له الحبى ، وقلنا له أهلا وسهلا ومرحبا … »

وهذه الرسالة توضح كل التوضيح أسلوب حفنى ناصف الذى كان يجرى على منهاج المتأخرين من كتاب العصر العباسى فى التكلف بالسجع والقصد إلى البديع ، والميل إلى اقتفاء أسلوب ابن العميد حينا ، والقاضى الفاضل حينا ، وابن المقفع فى بعض الأحيان ، غير أن هذا لا يزرى بمكانته الأدبية ، فله أسلوب مرسل فى المقالات يجرده من زخرف الصناعة وأناقة العبارة ، ولا بد أن نعترف أن هذا الأسلوب هو الذى كان شائعا فى العصر ، وكانت هذه طريقة الكتاب جميعاً ، فيجب أن نقيسه بمقياس العصر الذى عاش فيه .

نوادره ولطائفه

وقد ترك حفنى ناصف إلى جانب هذه الآثار الأدبية فى الشعر والنثر آثاراً أخرى لا تقل عنها أثراً أو خطراً وهى طرائفه فى المجالس ، ولطائفه بين سمار الليالى .

حدث أن أقام المرحوم حمد الباسل مأدبة لضيف عزيز ، ودار الحديث فى هذه المأدبة عن حفنى ناصف وسخريته وفكاهاته . وعلى حين غرة قدم ناصف ولاح عند الباب . فصاح حمد الباسل قائلا : « هذا عجيب ! لقد كنا نتداول سيرتك منذ أمد وجيز . . هذا تحضير أرواح ! » فأجاب حفنى ناصف وعلى ثغره ابتسامة عريضة : بل هذا تحضير بطون !

وكان حفنى ناصف يتهيأ مع بعض زملائه للتصوير ولمح حذاء أحد زملائه متسخاً فنبهه إلى وجوب مسحه . قبل أن يأخذ الصورة . ولكن الصديق اعتذر قائلا بأن ذلك لا يظهر فى الصورة .

وكان أحد الزملاء قد سمع طرفا من هذا النقاش فأراد أن يستفسر من حفني ناصف عن حقيقة ما دار بينهما . فأجاب حفني متهكما : لا شيء ! دي بس ملحوظة على الجـــزمة !

وروى أن حفني ناصف تأخر كثيراً فى الترقية نظراً لقصائده السافرة الصريحة ضد أولياء الأمر فى ذلك الوقت . فكون جمعية « المستحمرين » يضم فيها شتات إخوانه الذين فاتتهم الترقية . وأراد أحد الأصدقاء الأعزاء أن ينضم إلى هذه الجمعية ولكنه رفض وقال : « إن لهذه الجمعية مجلس إدارة . وأعضاء . ولابد من تصديقهم على تعيين عضو فى الجمعية المذكورة :

وأخيراً وصل هذا الصديق « كارت » من حفني ناصف وقد كتب عليه أن الجمعية قررت أن ينضم لأنه (حمار أصيل) بالإجماع !

هذه نماذج من فكاهات حفني ناصف ومنادراته ، وهى تدل على ما اتصف به من روح مرحة . وبديهة حاضرة . والمعروف أنه ظهرت فى العصر الحديث طائفة كبيرة من الشعراء والأدباء ذوى المزاج النزع إلى الفكاهة مثل حافظ إبراهيم ، والبابلى ، وإمام العبد ، وحسين شفيق المصرى ، وعبد العزيز البشرى ، غير أن حفني ناصف كان يمتاز عن هؤلاء جميعاً بظهور مزاجه الفكه فى شعره إلى جانب ما كان يشيع فى مجلسه من البشر والإيناس .

باحثة البادية

وترك حفني ناصف أثراً إنسانياً يقف بجواره آثاره الأدبية ، ألا وهو ابنته باحثة البادية ، أو ملك حفني ناصف التى ساهمت فى نهضة المرأة فى مطلع هذا القرن ، وعالجت مشاكل السفور ، والحجاب ، والتبرج ، والزينة والبيت ، والعمل . وما إلى ذلك من شئون تتصل بحياة المرأة ، وكان لها أثر كبير فى الحركة النسائية فى الربع الأول من القرن العشرين ، وظهرت نتائجها فى الربع الثانى من هذا القرن .

وقد أتاح حفني ناصف لابنته حياة أدبية خصبة ، لم تكن تتاح لباحثة البادية لو لم يكن أبوها : حفني ناصف ! . .

زكى مبارك

حصل من الدرجات العلمية على أعلاها وأرقاها ، وبذ بدرجاته أقرانه ولداته حتى أصبح موضع حقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وحتى أضرته هذه الدرجات العلمية أكثر مما نفعته ، وإن عرف بين الناس (بالدكاترة) زكى مبارك . وكان هذا عزاءه وهناءه فى الدنيا ، وسبب زهوه وافتخاره فهو قد حصل على الدكتوراة من الجامعة المصرية عام ١٩٢٤ ، عن رسالته عن « الأخلاق عند الغزالى » وحصل عام ١٩٣١ على دكتوراه ثانية من جامعة السوربون فى فرنسا عن كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » وحصل عام ١٩٣٧ على دكتوراه ثالثة من الجامعة المصرية فى طورها الجديد عن كتابه « التصوف الإسلامى » .

ولكن العلم يغنى العقول والقلوب ، ولا يغنى الجيوب . ولذلك عاش زكى مبارك طيلة حياته يخدم الأدب ، ويؤلف الكتب ، وينظم الشعر ، ثم فارق الحياة وهو لا يملك من متاع الدنيا شيئاً اللهم إلا الذكر الحسن . . والذكر للإنسان عمر ثان ! .

فى أحضان سنتريس

ولد زكى مبارك فى بلدة « سنتريس » فى الإقليم المصرى . وقضى طفولته وصدر شبابه بين « الكتاب والغيط والسامر » على حد تعبيره . وفى السابعة عشرة من عمره حفظ القرآن الكريم وجوده . ثم انتقل من سنتريس إلى القاهرة ليتعلم فى الأزهر ، وحصل منه على شهادة العالمية .

وكان فى هذه الآونة لا يدخر وسعاً فى دراسة اللغة الفرنسية ، حتى تمكن منها وتفوق فيها . ثم التحق بالجامعة المصرية الأهلية عام ١٩١٧ ، وبعد عامين دخل السجن لخطاباته الثورية ، وظل فى المعتقل تسعة أشهر ثم خرج بعدها ليستأنف دراسته فى الجامعة ، وحصل على أجازة « ليسانس فى الفلسفة » عام ١٩٢١ .

وقد ساهم زكى مبارك مساهمة فعلية فى الصحافة المصرية بما دبج من مقالات

ونشر من بحوث ، وكان لقلمه فضل كبير فى رفع مستوى الثقافة فى الصحف اليومية والأسبوعية ، ومن الصحف التى ساهم فى تحريرها «جريدة الأفكار» و «جريدة الوادى» وجريدة «البلاغ» ، واشترك فى تحرير مجلة «الرسالة» التى كان يصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات .

وقد عين عام ١٩٣٦ مفتشاً فى وزارة التربية والتعليم فى الإقليم المصرى ، وكانت تسمى وقتئذ وزارة المعارف العمومية ، وانتدبته الجامعة المصرية لإلقاء محاضرات فيها ، كما انتدبته جامعة بغداد عام ١٩٣٨ ليعمل أستاذاً بمدرسة المعلمين العليا فى العراق ، وهناك كتب كتابه الخالد «ليلى المريضة فى العراق» الذى أثار ضجة أدبية كبرى فى الأوساط العربية .

ليلى المريضة فى العراق

ويقول الشاعر الراحل على الجارم فى معرض الحديث عن هذا الكتاب : «لقد ابتكر زكى مبارك فناً جديداً حين نقل الغزل والتشبيب من الشعر إلى النثر» .

وقال زكى مبارك نفسه فى صدر هذا الكتاب : «لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ماشربت لتحول إلى أوتار وقلوب ، فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرجح من حولى بأنفاس الأزهار والرياض ، ولى قلب يتشوف إلى أفنان الجمال تشوف الشمس إلى نداء الصباح !»

والكتاب يروى قصة غرام زكى مبارك فى العراق بأسلوب حوارى طريف وعبارة قصصية مشوقة : وكان هذا الكتاب موضع مساجلات طريفة بين مؤلفه ووزير المعارف فى تلك الفترة ، وهو الأديب الراحل الدكتور محمد حسين هيكل. فزكى مبارك يؤكد أن كتابه هذا تقرير يغاير التقارير التى يقدمها إلى مكتب تفتيش اللغة العربية من أسبوع إلى أسبوع ، لأنه يضم صراعا مروعا بين الحلم والجهل والرشد والغى والهدى والضلال ، بل يضم صراعا بينه وبين نفسه والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال الرسول ، وقد هز شجرة النفس الإنسانية هزة عنيفة ليعرف ماتحمل من الثمار المعطبة والثمار الصحاح .

وقال مخاطباً وزير المعارف فى ذلك الوقت . « قد تغضب علىّ وأنت وزير لأن الوزراء فى الأغلب يتوقرون ولكنك لا تلبث أن تعود إلى فردوس الأدب إنك لن تبقى وزيراً طول دهرك ، ويومئذ تقرأ هـــذا التقرير بروح الأديب الفيلسوف فتعرف إنى لم أكن من المسرفين » .

النثر الفنى فى القرن الرابع

ولم يكن كتاب ليلى المريضة فى العراق الكتاب الوحيد الذى أثار كثيراً من القضايا الأدبية ، إنما كان كل كتاب ينشره أو يحققه زكى مبارك يثير بين الأدباء ألواناً شتى من التفكير ، وضروباً عدة من الحركة والنشاط ، ولعل أبرز كتاب بين كتبه هو كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » ويشتمل الكتاب على ستة أبواب تسبقها مقدمة ، أما المقدمة فتبحث عن نصيب النثر الفنى من عناية النقاد ، وتبين الغرض من تأليف الكتاب ؛ وفى الباب الأول يتكلم المؤلف عن النثر الجاهلى والنثر الإسلامى ، وأطوار السجع والازدواج ، وفى الباب الثانى يدرس خصائص النثر فى القرن الرابع ، فيبين مافيه من الظواهر الفنية والعقلية ، ثم يمضى فيتكلم فى الباب الثالث عن كتاب الأخبار والأقاصيص ، ويتحدث فى الباب الرابع عن كتاب النقد الأدبى ويشرح فى الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كتاب الآراء والمذاهب ، ويختم الكتاب بالباب السادس ويتحدث فيه عن كتاب الرسائل والعهود .

وقد جاء زكى مبارك فى هذا الكتاب بل فى هذه الرسالة العلمية التى قدمها إلى جامعة السوربون بعض أفكار جديدة مبتكرة ، منها أن أساتذة الأدب كانوا يعتقدون أن « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى هى أول مسلاة فى اللغة العربية ويظنون أن أبا عامر بن شهيد الأندلسى قد حاكاه فى رسالته « التوابع والزوابع » . فجاء مؤلف هذا الكتاب وأثبت أن رسالة ابن شهيد ألفت قبل رسالة المعرى بنحو عشرين عاماً وأن المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد ، فالموضوع واحد بين الرسالتين ، وهو عرض المشاكل الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، ولكن الخلاف فى جوهر الموضوع ، فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شىء على عرض المعضلات الدينية

وابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية ، ويتفق كل منهما على التعريض بمعاصريه .

والمسرح فى الرسالتين واحد تقريباً ، فهو عند ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا ، وعند أبى العلاء وادى الإنس فى الآخرة أى الفردوس والجحيم ، فالممثلون عند ابن شهيد جن يسخرون الناس ، وعند أبى العلاء أنس تسخرهم الملائكة والشياطين .

كما جاء زكى مبارك بقضية جديدة فى الأدب العربى ، وهى أن واضع الأقصومة فى اللغة العربية ، والملهم الأول لبطل مقامات بديع الزمان الهمذانى هو ابن دريد الذى ولد فى البصرة ، فى خلافة المعتصم عام ٢٢٣ ﻫ ، ثم صار إلى عمان فأقام بها مدة ثم صار إلى فارس مدة ، ثم قام فى بغداد إلى أن مات عام ٣٢١ ﻫ .

وكان كتاب ابن حزم « فن الحب » مجهولا فى الشرق العربى ، فلما جاء زكى مبارك وأخرج رسالته « النثر الفنى » عرف الناس بهذا الكتاب ودفع الأدباء والعلماء إلى البحث والاستقصاء .

ذكريات باريس

وألف زكى مبارك كذلك كتاب « ذكريات باريس » ويروى فيه ذكرياته فى عاصمة فرنسا وفى الحى اللاتينى وهو حى الشباب فى باريس ، وعنده أنه ليس فى الدنيا التى رآها بعينيه أو سمع عنها بأذنيه ، أو قرأ أخبارها فى أساطير الأولين بقعة تتفتح فيها أزاهير الشباب ، وتندى أوراقه ، وتمايل أغصانه ، ويتأرجح عبيره كهذه البقعة .

ويضم الكتاب فضلا عن ذلك ، مداعبات بين المؤلف والأستاذ عباس محمود العقاد ـ آنس الله وحدته ـ على حد تعبيره ، والأستاذ محمد السباعى ، الذى قضى الله ألا يحصل التعارف بينهما إلا وهما على طرفى الكرة الأرضية ، وبينهما المهامة والآكام ، والسهول والوديان ، والبحار والخلجان . وغيرهما من أدباء وشعراء العصرين القديم والحديث .

الموازنة بين الشعراء

وألف زكى مبارك كذلك كتاب « الموازنة بين الشعراء » وهو أبحاث فى أصول النقد وأسرار البيان ـ ويضم الكتاب آراء نقدية لها قيمتها وخطرها ، كما يدل الكتاب على اطلاع واسع على مناهج القدماء فى النقد ، وبعض القضايا الأدبية الضرورية لعمل الناقد .

وأشار المؤلف إلى أن هناك آفات تذهب بقيمة النقد كالتعصب للقديم أو الجديد ، أو التشيع بالأفكار الدينية أو الصوفية ، والدفاع عن الجنس فى حكم بعض النساء بين الشعراء .

وقد أوضح المؤلف أن من واجب الناقد ، أن يتعمق فى دراسة حياة الشاعر الذى يضع شعره فى الميزان ، وأن يجتهد فى أن يرى الأشياء بعينيه ويدركها بشعوره ، ليستطيع وزن مايقول . فإن الشاعر إنما يؤدى رسالته إلى جيل خاص فى قطر خاص ، ومن التعسف أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينيك ويدركها ببصيرتك ، ويتذوقها بوجدانك مع أن بينك وبينه مئات الفروق ، وهو لم يعش معك ولا لك ، وإنما خضع فى شعوره لغير ماتخضع له من ظروف الزمان والمكان ومن ذلك قصيدة كعب بن زهير المشهورة :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

إذ عاب النقاد هذه القصيدة لأنه استهلها بالغزل والنسيب ، مع أن هذه الوسيلة كانت عادة مستملحة ومتبعة بين سائر شعراء العصر .

وعقد زكى مبارك فى هذا الكتاب موازنات تطبيقية بين البحترى وشوقى فى « السينية » المعروفة ، وبين البوصيرى وشوقى فى البردة ونهج البردة ؛ وعرج على قصيدة البارودى فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، فأبان موضع الجمال فيها ومنابت الحسن بين أبياتها .

حب عمر بن أبى ربيعة

وألف زكى مبارك كتاب « حب عمر بن أبى ربيعة » وقد أنكر فيه حب

ابن أبى ربيعة لأنه حضرى لا بدوى ، وقلما يصدق للحضريين حب ، ولكنهم يرون من متممات الظروف ومكملات الأدب أن يحيا الرجل بعين باكية ، وقلب خفاق ، والحسن عند الحضريين أشبه شىء بجنة وردها جنى وزهرها ندى ، يدخلها ، والزائر فلا يعجب منها بزهرة ذات بهجة ، أو وردة ذات نضرة ، إلا دعته أخرى أنضر منها وأصبح ، فاذا ذهب يجتلى حسنها ، ويتأمل شكلها ، لفتت نظره ثالثة ورابعة حتى يتصفح الحديقة بأكلها ويقتلها نظراً وشماً ، ولا يدرى أى الزهور أو الورود أحق بالرعاية وأولى بالاحتفاظ . . . !

كما أنكر زكى مبارك حب ابن أبى ربيعة لكثرة غروره وشبابه . وفتونه بجماله وتحدثه بحب النساء له ، وإقبالهن عليه ، وقلما يكون المعشوق عاشقاً والمحبوب محبا ، وفى شعره عزة المعشوق لا ذلة العاشق وتيه المحبوب لا خضوع المحب ، فيقول عمر :

وأنهـــا حلفت بالله جاهدة وما هل له الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شىء تسر به واعجب العين لا فوقه عمر

مدامع العشاق

ومن أبدع كتب زكى مبارك ، كتاب « مدامع العشاق » الذى تنقل فيه بين أخبار المحبين وأشعار العشاق المتدلهين . وناجى فيه أرباب الجمال فقال : « ياأرباب الجمال ما لكم تضنون بما سوف يشبع الدود منه لثما . ويأكله التراب أكلا لما ؟ أما والله أن أرواحنا لفى حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود ، والمراود من الجفون ، والمساويك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف والزينة من الأطراف ، وإن الله ما خلقكم كالأزهار فى القفار ، تزهر ثم تذبل ولا يتمتع أحد بشمها ، وإنما خلقكم روحاً لكل حى ، ونعيما لكل موجود . فاجعلوا لنا منكم حظا . . ولا أقل من النظر ! ! »

زهر الآداب

كما نشر زكى مبارك كتاب « زهر الآداب وثمر الألباب » لأبى إسحق الحصرى القيروانى ، الذى جمع فيه كثيراً من الطرائف الأدبية والأخبـــار الاجتماعية

الطريقة ، والأشعار العذبة الجميلة ، وإذا كان المثقفون يعنون بدراسة الكامل المبرد والبيان والتبيين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة . والأمالى لأبى على القالى ، فإن هذا الكتاب أغزر مادة وأكبر قيمة من جميع المصنفات لأن ذوق الحصرى ذوق أدبى صرف ، أما أولئك فكانت أهواؤهم موزعة بين اللغة والرواية والنحو والصرف .

ويعتبر الحصرى القيروانى (توفى عام ٤٥٣ هـ) من خيرة أدباء العربية ، وكان شباب القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وقد ألف كتابه هذا وكتاباً آخر يسمى « المصون فى سر الهوى المكنون » ويقع فى مجلد واحد .

ونشر زكى مبارك كذلك الرسالة العذراء لابن المدبر مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث (عام ١٩٣١) وقد قدم هذه الرسالة مع تحقيقها إلى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس لنيل دبلوم الدراسات العليا بالآداب ، فظفرت بإعجاب لجنة الإمتحان .

وهى رسالة طريفة بين فيها طرق الخطاب وأساليبه ، وأقدار الناس فى الخطاب ومنازل الملوك ومنازل العوام ، ونصائح للكتاب والمنشئين كقوله :

« وليكن فى صدر كتابك دليل واضح على مرادك , وافتتاح كلامك برهان شاهد على مقصدك حيثما جريت فيه من فنون العلم ، ونزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات . وأجعل لقلمك براية . فان تعثر يد الكاتب وقت القرطاس ناقص لمروءته ومخل لظارفه ، واستعمل لبرى القلم سكيناً طواويسياً مذلق الحد وميض الطرف » .

التصوف الإسلامى

وألف زكى مبارك كتاب « التصوف الإسلامى وهو من أمتع كتبه ، ونقد فيه التصوف وبين ما فيه من عيوب ومحاسن ، وكشف عما فيه من ضعف وقوة بصراحة فائقة وحماسة رائعة ، وأوضح الملامح الأدبية والخلقية للنزعة التصوفية ، ونجح على حد تعبير الأستاذ الزيات فى كشف ناحية من الأدب العربى والفكر الإسلامى ، كان الأدباء المؤرخون يمرون عليها معرضين كما يمر السائح الغفلان

على منجم النصب ، فلا يرى إلا صخوراً وحجارة ، والصوفية لها فى الأدب والخلق والفلسفة والحياة إشعاع هاد كاشعاع الحق ، وكان لا بد لهذا العنصر المجهول من مدام كورى فى زى زكى مبارك تنهك الجسم والعصب وتنفق الوقت والذهب فى سبيل كشفه . .

ألحان الخلود

ونظم زكى مبارك ديوانا شعريا فضلا عن هذه الآثار النثرية القيمة ، وأطلق عليه « ألحان الخلود » ، وهو يشهد على رقة حسه ، ويجمع بين قصص عمر بن أبى ربيعة وجرأته ، وفن الشريف الرضى . وعشق العباس بن الاحنف ، وحكمه المتنبى وأبى تمام ، وحلاوة جرس شعر البحترى . وقد أظهر فيه تباريح الهوى ولواعج الاشواق وتعلقه بربات الجمال . وتأثره بالسحر الشهى الحلال . وما أصدقه حين قال .

رماء صفت فـؤادى   من الأسى والحنـين
لم تشـأ لضلوعـى   غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتى   من الهوى والفتون
أم كيف ترجى نجاتى   من ساجيات الجفون

مصطفى صادق الرافعي

كان مصطفى صادق الرافعي أديباً رائعاً بأدق معانى هذه الكلمة وأوسع مدلولات هذا اللفظ ، عاش فى فترة كثر فيها الجدال الأدبى ، واشتد فيه النقد حتى استحال إلى طعن وتجريح ، واستطال إلى لوم وتقريع ، وأصبح وسيلة إلى الشهرة وتحطيم الأصنام وبلوغ الرفعة وهدم الكيان . ومن هنا أغمط حق الرافعى ، وغدا أدبه موضع الشك والارتياب ، حتى قال أديب كبير عن الرافعى ، وهو الذى كتب عشرات الكتب فى الأدب الرفيع . أنه لم يكد يكتب شيئاً ،

تعليمه وثقافته

لم يكن الرافعى على حظ كبير من التعليم المنظم والدراسة ، بل عكف بنفسه على استيعاب أمهات الكتب العربية . وذخائر الفكر القديم . ونشأ فى أول أمره فى الريف . إذ ولد فى يناير عام ١٨٨٠ على الأرجح فى قرية بهتيم من أعمال مديرية القليوبية . والتحق بكتاب القرية . ثم انتقل بعد ذلك إلى إحدى المدارس الابتدائية فحصل على الشهادة الابتدائية وشرع يستأنف الدراسة الثانوية . بيد أن المرض ألم به فلزم الفراش . ولم يلبث أن أدركته حشرجة فى صوته . ولم يلبث هذا الصوت أن احتبس . وإذا هذا الصوت ينبعث خافتاً باهتا فيه بحة ملحوظة وفيه أنين مكتوم . وتشاء الأقدار بعد ذلك أن يصاب الرافعى فى أذنيه فيدركه الصمم . وتحول هذه الكوارث بين الرافعى وبين الدراسة المنتظمة فى المدارس ولكن اليأس لم يقعده عن التعمق فى القراءة . والتلهف على الانتهال من موارد العلم .

وفى هذا يقول صديقه الأديب الأستاذ محمد سعيد العريان . « وفى القهوة وفى القطار وفى الديوان لا تجد الرافعى وحده إلا وفى يده كتاب . وكان فى أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طلخا . فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود . ويأخذ معه فى الذهاب والإياب ملازم من كتاب أى كتاب ليقرأها فى الطريق

وفى القطار بين طنطا وطلخا وبالعكس . . استظهر كتاب نهج البلاغة فى خطب الإمام على وكان لم يبلغ العشرين ! . . »

وهكذا ظل مصطفى صادق الرافعى يطلع على ذخائر الكتب القديمة فى الأدب والفقه والدين . حتى استطاع أن يهضم محصولا وافراً منها . هــذه كانت ثقافته العربية ، أما بالقياس إلى ثقافته الأجنبية فالحق أنهـا محدودة . إذ كان على حظ ضئيل من الفرنسية والإنجليزية . ولم يقرأ من الأدب الغربى إلا ما ترجم عنه . ولم تكن أغلب الكتب المترجمة فى هذه الفترة التى عاش فيها الرافعى تتوخى الأمانة العلمية . والدقة المتناهية فى إيصال المعنى الغربى إلى القارىء العربى . إنما كان المترجم يضرب صفحاً عن النص ثم يترجمه من ذاكرته وبمقدار ما انعكس على صفحة ذهنه من معان وأفكار .

ولو أن الرافعى أوتى قدراً من الثقافة الأوروبية للحق تارة بالكتاب الرومانسيين وتارة بالكتاب الرمزيين فى أسلوبه وخياله . على أن المعانى على حد تعبير أبى هلال العسكرى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى : والحضرى والبدوى ، ولا نستبعد أن نجد فى بعض رسائل الرافعى فى أوراق الورد أو رسائل الأحزان أو السحاب الأحمر أو غيرها أفكاراً رومانسية ، وتعبيرات رمزية ، ولا سيما أن الرافعى امتحن بالحب واكتوى بناره ، وأصبح قلبه رائده وإمامه فى تفكيره وتعبيره وتصويره . كما أولع برنين الألفاظ وجرس الكلمات .

تاريخ آداب العرب

ألف الرافعى مجموعة قيمة من الكتب الأدبية ، نذكر منها كتاب تاريخ آداب العرب .. الذى انقطع لتأليفه من منتصف عام ١٩٠٩ إلى آخر عام ١٩٠١ ، ثم نشره عام ١٩١١ وهو فى الثلاثين من عمره .

وقوبل هذا الكتاب بترحاب شديد من الأوساط الأدبية . ولا سيما أن طلبة الدرسات العربية فى ذلك الوقت كانوا فى مسيس الحاجة إليه لعدم وجود مراجع وافية كاملة فى هذا الحقل الأدبى ، وذكر أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد خطاب له إلى الرافعى أنه قضى أسبوعا يخطب عنه فى مجالس العاصمة ، كما كتب عنه يقول : « إن الكتاب يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاماً ،

وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا ، وأما أسلوب الرافعى فى كتابه فانه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرأه أقرأ قلم المبرد فى استعماله المساواة ، وإلباس المعانى ألفاظاً سابغة مفصلة عليها لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تؤدى ببعض أجزائها » .

تلك كانت شهادة أستاذ الجامعة ومديرها الأسبق فى كتاب الرافعى حامل الابتدائية . وإنها لشهادة جديرة بالتسجيل . تدل على علو كعبه فى ميدان الأدب وتاريخه . وقد حققت الأيام نبوءة الأستاذ لطفى السيد فظلت الجامعة القديمة وظل طلابها القدامى . ينتهلون من هذا الكتاب انتهالا حتى قامت غير وأحداث . وكلف الطلاب دراسة غيره من الكتب . إلا أننا لا بد أن نقولها كلمة للتاريخ . وهى أن كتاب الرافعى هذا وكتاب جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية قد سد نقصاً كبيرا فى هذا المحيط لا يمكن لمؤرخ الأدب أن يغفله بحال من الأحوال .

أوراق الورد

وكتب الرافعى قصة حبه فى « أوراق الورد » وهو مجموعة من الرسائل العاطفيه المتدفقة التى تصور لواعج قلبه ، وتباريح هواه ، وتوضح أسلوبه ولهفته ، وصبابته ، وتعرض نفسه على القارىء ساطعة ناصعة لا تحجبها حجب ولا تواريها أستار ، كما تبين المعانى الكامنة وراء لغة الحب فى اللفتات والنظرات والابتسامات .

وسمى الرافعى كتابه « أوراق الورد » لأن صاحبته كانت تحدثه دائما عن الورد وعمر الورد وتحذره أن تكون حياته متهداة كالوردة ، وقد وضعت وردتها النادية على صدره ولكن على معان فى القلب كأشواكها .

رسائل الأحزان

وعلى هذا النحو كتب الرافعى « رسائل الأحزان » وتضم عواطف ثارت وقتا ما ليحدث منها تاريخ ، وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابه ، ويؤخذ من رسائله أنها من « وحى رجل وامرأة ، كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى

طينة الخلق الأزلية ، وخرجتا من يد الله معاً ، هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، وقد سماها « رسائل الأحزان » لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لأنها إلى الحزن أنتهت ، ثم لأنها كانت من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حرباً ، ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة . . وكان كالحياة ماضيا إلى قبر . .

تحت راية القرآن

وكتب الرافعى كتاب « السحاب الأحمر » وضمنه خواطر أخرى فى الحب والمرأة ، والقضاء والقدر ، كما كتب « تحت راية القرآن » وهو مجموعة من المقالات فى الأدب العربى والرد على كتاب « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين، وسجل فى هذا الكتاب رأيه فى التجديد ، ودافع عنه فى إرادة وتصميم .

وكتاب المساكين

وكتب الرافعى كذلك كتاب « المساكين » ونشر فيه فصولا عن الفقر وماهيته ، لا لمحوه ولكن للصبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه ، وعن الغنى وما إليه ، لارغبة فى إفساده على أهله ، ولكن لإصلاح مايفهم منه غير أهله ، وقد تجلت روحه الرقيقة فى مقالاته عن الشيخ على والفقر والفقير وما إليها ، ومن نجواه إلى القبر قوله : « واها أيها القبر لا تزال تقول لكل إنسان مقالا ، ولاتبرح كل الطرق تفضى إليك ، فلا يقطع بأحد دونك ، ولا يرجع من طريق راجع ، وعندك وحدك المساواة ، فما أنزلوا قط فيك ملكا عظامه من ذهب ، ولا بطلا عضلاته من حديد ، ولا أميراً جلده من ديباج ، ولا وزيراً وجهه من حجر ، ولا غنيا جوفه خزانة ، ولا فقيراً علقت فى أحشائه مخلاة . .

وحى القلم

ومن أروع آثار الرافعى أيضاً كتاب « وحى القلم » وهو مجموعة من المقالات والقصص والأحاديث الدينية ، وكان قد نشرها فى الصحف والمجلات مثل مجلة الرسالة والمقتطف ، ثم عن له أن يجمعها فى كتاب ، ومنها ما يتناول

مشاكل الأسرة والمجتمع أو يتعـــرض للتاريخ ، أو أوراق ورد لم يلحقها بالكتاب الأول .

قصص الرافعي

وألف الرافعي بعض القصص مثل « الدرس الأول فى علبة الكبريت » التى نشرها عام ١٩٠٥ ، وقصة « عاطفة القدر » التى نشرها فى المقتطف عام ١٩٢٥ وقصة سعيد ابن المسيب التى نشرها فى الرسالة عام ١٩٣٤ .

ويؤخذ من هذه القصص إن أغلبها ذو أصل تاريخى وواقعى ، على انها لاتلتزم الفن القصصى التزاما ، ولا يمكن الحاقها بالآثار القصصية الكبرى فى الأدب العربى ، بيد أن الرافعى فى حديث « الطائشة » استطاع أن يجلو نفسية فتاة من فتيات الليل فى صورة خلابة جذابة ، معجبة عجيبة ، واستطاع أن يغوص إلى أغوار نفس هذه الفتاة ، ويرسم للقارىء صورة عن هذه الحياة الآثمة التى أنزلقت إليها هذه البريئة انزلاقا ، وجعل يستدر عليها الرحمة بدلا من أن يصب عليها اللعنات .

والواقع أن هذا اللون من الأدب انتشر فى أوربا فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وظهرت هناك طائفة كبيرة من الكتاب الفرنسيين الذين يتخذون هذا اللون من النساء مادة لقصصهم ويظهر أن هؤلاء الكتاب الفرنسيين أرادوا بذلك أن يردوا على القساوسة ورجال الدين الذين صبوا جام غضبهم على هذه الفئة من النساء .

الرافعى الشاعر

ونظم الرافعى الشعر صبيا وشابا ، وعندما نشر حافظ ابراهيم ديوانه لأول مرة عام ١٩٠٣ عكف الرافعى على كتابة مقدمة ديوانه ، وجلس فى غرفة داره بعد أن تخفف من الملابس ، واقتعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ لكتابه وهو يقول لصاحبه « إنى لأحب أن أحس الرطوبة من تحتى حتى ينشط جسمى » .

وقال الرافعى عن نفسه فى مقدمة ديوانه إن هذا الشاعر (ويقصد نفسه) يمتاز بولعه الشديد بالغزل . وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ، وله مزية أخرى وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تطرق وكثيرون يعدونه « شاعر مصر » .

ويبدو من مقدمة الرافعى أنه أسرف فى الاعتداد بنفسه ، والاعتزاز بشعره ، وكان حافظا براهيم لا يكاد يقول أنا حتى يقول الرافعى أنا وأنت ، وذهب الرافعى إلى أنه شاعر الحسن ، وبأن حافظا لا يقول فى الغزل والنسيب .

وهذا القول يحتاج إلى نظر طويل ، فمهما أوتى الرافعى من روح حساسة ، وشاعرية ، فانه لا يرقى فى شعره إلى مستوى حافظ ابراهيم . صحيح أن حافظا لم يقرض إلا طائفة معدودة من القصائد فى الغزل ، بيد أن هذا لا يجوز أن يكون دليلا على امتياز الرافعى على حافظ فى الشعر . فان التقصير فى ميدان لا يستوجب القصور فى كل الميادين .

رسائل وفلسفة

على أن الرافعى استطاع فى كتبه أن يخلق لونا جديدا من رسائل الحب فى الأدب العربى ، ويصور فلسفة عذبة حلوة تمس النفس وتصل إلى أغوار الفؤاد ، وهو لا يحب إلا لثلاث ، ليعرف ويحس ويتخيل ، ولا يهلك بالحب الا لثلاث ليوجد فى نفسه ويبقى فى نفسه ويضم نفسه إلى نفسه !

وكان يعتقد أن الحب ضرورة لقلب الفنان ، ومتى قدمت الجميلة على قلب الرجل إضاءته ، فيضيئها نوره بألوان من الحسن ، لا يراها ولا يدركها ولا يصدق بها الا صاحب هذا القلب !

وكان يرى أن تحية الفكر هى رد كلمة بكلمة ، وتحية النفس هى هزيد بيد وتحية القلب هى لمس شفة بشفه !

ومن أجل ذلك كتب الرافعى رسائل رائعة فى « القبلات » أضفى عليها كوامن مشاعره وخلجات إحساسه !

روح الاسلام

وكانت روحه الإسلامية تسيطر عليه فى أفكاره وكتابته حتى عند ما يكتب عن الحب والهوى ، والعشق والجوى ، فقال فى زجاجة العطر التى أهداها إلى صاحبته

« أيها العطر لقد خرجت من أزهار جميلة ، وستعلم حين تسكبك هى على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل من أزهارك ، وإنك كالمؤمنين تركوا الدنيا ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها » .

هنات وهنات

وللرافعى بعض التعقيدات فى الأسلوب أحيانا ، ولعل هذا يرجع إلى ولعه برنين الألفاظ ، وحرصــه على الملاءمة بين الفقرات . وله بعض التعبيرات السقيمة كقوله « وأرى على نور قلبي أحرفا مختبئة فى قلبك هى ألف ، حاء ، باء ، كاف ، فهل تكتبها ؟ !! ، فكأن قلب الرافعى قضيب زجاجى من قضب النيون !

وقوله ، وإنك يا حبيبتى لو ضربتنى بسيف لقتلتنى قتلة معطرة . . وقوله : الحب الروحى الصحيح إنما هو كالطفولة لا تعرف وجه الفتى إلا شبيها بوجه الفتـــاة فليس فيه تذكير وتأنيث . . وفى هذه الفقرة الأخيرة إساءة فى التعبير ولو ان المعنى الأصيل جميـــل ، وقوله : « ا كتب اليك وأنا فى حال من شدة الوضوح قد صارت فى شـــدة الغموض » بيد أن الرافعى جاء بكثير من المعـانى الطريفة كقوله « القمر زاه رفاف من الحسن كأنه اغتسل ، وخرج من البحر ، أو كأنه ليس قمرا بل هو فجر طلع فى أوائل الليل فحصرته السماء فى مكانه ليستدر الليل ، فجر لا يوقظ العيون من أحلامها ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها . »

وقوله « وأشعر بالقرطاس وكأنه علم أنه سيحمل أشواقى وأسرار قلبي فلم يعد صحيفة ورق تموج بالألفاظ بل صحيفة صدر ملأها جو من التنهد » .

وأعجب الأديب الأستاذ سعيد العريان بتعبير طريف للرافعى هو قوله ، « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل . . »

وانتقل الرافعى إلى جوار ربه فى ١٠ مايو عام ١٩٣٧ ففقد العالم العربى أديبا من الطراز الأول يدافع عن العروبة والإسلام ويمثل الوحدة بأدق معانى هذه الكلمة . إذ انحدر من أب سورى مصرى عمل بالمحاكم الشرعية وكانت أمه بنت الشيخ الطوخى أحد مشاهير التجار السوريين مصر والشام .

أمين الريحانى

ولد أمين الريحانى فى بلدة « الفريكة » فى لبنان فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٨٧٦ ـ والتحق أمين بإحدى المدارس فى لبنان ولكن لم يلبث أن أغراه عمه بالهجرة من هناك إلى العالم الجديد . وعلى أول باخرة رست فى ميناء بيروت عقب هذا الإغراء ، رحل أمين مع عمه عبـــده الريحانى إلى مرسيليا فنيويورك. وفى نيويورك أدخل عبده الريحانى أخاه « أمينا » مدرسة راهبات المحبة ليتعلم اللغة الانجليزيه غير أنه كان يضطر فى بعض الأحيان إلى عدم الحضور ليقوم بوظيفة الكاتب عند عمه .

الهجرة إلى أمريكا

ولكن اضواء العالم الجديد لم تلبث أن بهرت عينى أمين الريحانى ، وكان فى هذه الآونة لا يزال شابا فى ريعان العمر وأوج الشباب فانصرف إلى حياة السهر والليل ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا فى حياته لأنه ما لبث أن عاد إلى رشده وزهد فى هذه الحياة الصاخبة اللاغبة التى لا تغنى شيئا وجاز امتحان الحقوق عام ١٨٨١ ثم التحق على أثر ذلك بجامعة نيويورك وعاد أمين مرة ثانية إلى لبنـان وظل هناك مدة من الزمن عكف فيها على القراءة والبحث، والتحق بالمدرسة اللبنانية حيث تعلم العربية على يد أستاذها المعلم بطرس البستانى وكان فى نظير هذا يلقى بعض الدروس باللغة الإنجليزية فى هذه المدرسة .

وتاق أمين الريحانى إلى السفر مرة أخرى إلى العالم الجديد وهناك استأنف الأديب الكبير نشاطه الأدبى فجذب إليه الأنظار من كل مكان .

كتب عربية وانجليزية

ألف أمين الريحانى كثيراً من الكتب باللغة العربية والإنجليزية ومن الكتب التى ألفها بالعربية كتاب « موجز تاريخ الثورة الفرنسية » ١٩٠٢

وكتاب المحالفة الثلاثية ١٩٠٣ ، وكتاب زنبقة الغور عام ١٩١٥ وكتاب ملوك العرب ١٩٢٤ وكتاب تاريخ نجد عام ١٩٢٧ وكتاب أنتم الشعراء عام ١٩٣٣ .

وتعتبر «ريحانيات» أمين من أروع الكتب الأدبية التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العشرين وقد صدرت فى الفترة التى ظهر فيها كتاب «النظرات» للمنفلوطى ونهج الريحانى نهج المنفلوطى فى التصميم .

فالكتاب فى كلتا الحالتين عبارة عن مجموعة من المقالات والخواطر الأدبية فى شتى ميادين الأدب والاجتماع والتاريخ ونحو ذلك . وقد أحدث كتاب الريحانى فى نفوس الشباب ما أحدث كتاب المنفلوطى فى نفوس الشباب إلا أن تأثير كتاب الريحانى كان فى الشام وتأثير كتاب المنفلوطى كان فى مصر ، وأحياناً كان تأثير هذين الكتابين يختلط بعضهما بالآخر اختلاطاً ولم يكن يعرف قيوداً أو حدوداً . .

وكتاب « المحالفة الثلاثية » إسمه بالكامل « المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية » وهى بين الحصان والبغل والحمار . والكتاب عبارة عن محاوره هزلية بين الأقطاب الثلاثة السابق ذكرهم ، ويعبر فيها الثعلب عن رأى المؤلف وبينما الحمار والبغل والحصان ذاهبون إلى حظيرتهم منكسين وجوههم على السكة الحديدية . إذ صفر قطار العلم الذى يقود عربات البخار والكهرباء والاختراعات ومر عليهم جميعا فسحقهم سحقاً ، وتطايرت رءوسهم وبقايا أجسادهم فى الجو وتشتتت أعضاؤهم ، وتبعثرت أشلاؤهم على طريق التمدن الحديث ! .

أما كتاب « زنبقة الغور » فهو عبارة عن قصة تجرى حوادثها فى فلسطين وتكشف عن الكثير من الأدواء الاجتماعية التى تسيطر على المجتمع العربى ، ويكون لها أسوأ النتائج وشر العواقب فى تربية المرء وسلوكه العام بين الناس . .

أنتم الشعراء

أما كتاب « أنتم الشعراء » فهو من أروع الكتب الأدبية وقد نعى فيه مؤلفه على الأدب الباكى ولام هؤلاء الشعراء الذين يتخذون النحيب حرفة من حرفهم والبكاء وسيلة من وسائل التعبير عن مشاعرهم وخلجات قلوبهم فيقول :

« فى هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة بل القلوب المائعة الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام ـ قلوب تميع كلما اهتز الورد فى الأكمام قلوب تشعل هياماً كلما تلألأت شمس الأحلام ، قلوب مائعة ذائبة على الدوام ، قلوب تذوب كلما هبت ريح الصبا ، تذوب فى الليالى المقمرة وعند كل ساقية أو غدير ، تذوب فى رابعة النهار لرنة عود أو أنه من أنات ياليل ! . قلوب تذوب فى ظلال الصفصاف وتذوب أمام الفونوغراف . قلوب شرقية مائعه على الدوام ، ونحن فى زمن الحديد والكهرباء . وإن حاملى هذه القلوب لأعجز فى المحن والنكبات من فراخ القطا ولأجبن من صغار الأرانب ! » .

والمعانى التى قصد اليها أمين الريحانى نبيلة من غير شك . فإن الأدب الباكى من أشد الآفات وأنكاها فى العصر الحديث ، ولقد مل الناس كثرة النواح والنحيب وإلحاح الشجو والأنين ، وتاقوا إلى لون جديد من التفكير والتعبير والتصوير . .

ولكن أمين الريحانى فاته شىء عند الحديث على الأدب الباكى وهو أن بعض النفوس قد وهبها الله حساسية فياضة فهى تبكى عند أقل مؤثر دون أن ينقص هذا من قيمتها أو يغض من فضلها وقدرها ، بل ربما بكت هذه النفوس من شدة الفرح . . فسرعة التأثير ليست عيباً وربما كانت مرضاً وربما الحقت بأمراض الحساسية التى استفاض الأطباء فى هذه الايام فى دراستها والحديث عنها ، بيد أن هذا لا ينقص من قيمة الشاعر أو يزرى بمنزلة البطل . .

رحلاته فى البلاد العربية

أما مؤلفات الريحانى عن البلاد العربية فهى بحق من أمتع مؤلفات الرحلات فى العصر الحديث ونحن فى أدبنا العربى أحوج ما نكون إلى هذا اللون من الأدب . ولا سيما بعد أن اندثرت الرحلات القديمة بموت ابن منقذ والبغدادى وابن جبير وابن بطوطة والمقريزى وغيرهم من أعلام هذا الفن .

والريحانى فى رحلاته بين أرجاء البلاد العربيـــة يستخلص العبر ويستنبط الفائدة ولا يدع الشاردة أو الواردة تمر عليه دون أن يسجلها أو يجنى منها الثمرة الشهية الناضجة حتى قال أحد البحاثة المنصفين :

« لقد زار كثير من الأوربيين سياسيين وجنود وعلماء بلاد العرب طاف (بركهارت) وبورتون أطراف الحجاز و (دوتى) أنحاء الجزيرة الوسطى والغربية كما اجتاز «فيلبي» الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ولكن قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المواتية للتعرف الصحيح بتلك البلاد وأحوالها كتلك التى إتيحت للريحانى » .

ومن أروع ما ذكره الريحانى فى رحلاته تلك الفقرة التى قالها مخاطبا فيها البلاد العربية باسم الحرية فى مؤتمر المعهد العلمى ببغداد وفيها يدعو البلاد العربية إلى الاتحاد :

« هذه الحرية تخاطبك . أيتها البلاد العربية هذه الحرية تخاطبكم ياسادتى أصحاب العظمة والجلالة يا أيها الملوك والأئمة . . الكلمة الاتحاد . . فهل أنتم فى أمر واحد متحدون . والأمر الأول الصلح فهل أنتم بالصلح راغبون . والصلح أساس الوحدة العربية فهل أنتم فى سبيل الوحدة مجاهدون والوحدة العربية أساس الحرية القومية فهل من حرية تعززون ، وحرية الأمة لا تعزز بغير العلم الصحيح فهل من معاهد للعلم تشيدون ؟ إذا كنتم تفعلون فأنا الحرية أقيم بينكم وأبشركم بمستقبل مجيد . وإلا فسأعود إلى أقصى البلاد وألبس على بلادكم العزيزة السواد » .

ترجمة اللزوميات

ونشر الريحانى كذلك بحثا بعنوان « التطرف والاصلاح » ويدور حول العدل والمساواة بين الناس ، كما قام بترجمة اللزوميات إلى اللغة الانجليزية وهى القصائد المعروفة فى الأدب العربى للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى كما ترجم كذلك رباعيات أبى العلا وحول البيتين فى الأصل إلى أربعة أبيات فى اللغة الانجليزية ومثال ذلك ترجم هذين البيتين المشهورين :

ونار إن نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد
لقدت أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ترجم هذين البيتين إلى أربعة أبيات إنجليزية وبلغ عدد أبياتها ١٣٦ بيتا وقد أحدثت هذه الترجمة دويا كبيرا فى الأدب العربى إذ اطلع المستشرقون والباحثون

فى الأدب العربى على جوانب ممتعة من التفكير الإنسانى لفيلسوف المعرة . وهكذا قام الريحانى بجهد مشكور فى تعريف الأدب العربى للأجانب وإلقاء الأضواء على تراثه الفكرى النفيس . .

ولم يحمل الريحانى فى نفسه غلا نحو الغرب أو حقدا نحو بنيه ولم يكن ممن يؤمنون بنظرية كبلنج بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا أبدا بل كان يعتقد أنها لا تصلح إلا فى مظاهر الاجتماع السطحية التى سرعان ما تزول عند وضعها على بساط البحث والمناقشة .

ومن أجل ذلك طفق يتغنى للشرق والغرب معا ومضى يقول : «للشرق والغرب أترنم للنهرين العظيمين اللذين بهما يرتوى الإنسان ويتقوى ويتطهر جسدا ونفسا. لكليهما أغنى وافتخر ولهما أقف حياتى ومن أجلهما أعمل وأتألم وأموت..»

إخوانى إن أعظم الناس ارتقاء ليس أوربيا ولا شرقيا بل هو الذى يختار من مزايا الاثنين مزايا النابغة الأوربى ومزايا النبى الآسيوى !

أعطنى يا شعوب الغرب لوازمى المادية من هذه الحياة وأنت أيها الشرق يا بلادى اشركينى فى ميراثك الروحى :

إننى أصيح معك يا جوته النور وكثيرا من النور
ومعك أقول يا تولستوى المحبة وكثيرا من المحبة
ومعك أنـــادى يا ابسن الارادة وكثيرا من الارادة

ونفس أمين الريحانى فضلا عن ذلك لا تحمل ضغنا ولا كراهية لإخوانه من البشر ممن اختلفوا معه فى الدين ، وحبذ دعوة فولتير فى الحرية الدينية وفى ذلك يقول . لنخدم الله بالأعمال ولنسبحه بالأعمال » .

ونعى على أولئك الذين يتقربون إلى الله بالمظاهر الكذابة والتهاويل البراقة دون أن يدركوا لباب الدين وفى معرض آخر يقول الريحانى : « ساعدنى اللهم لأجمع قواى الروحية والعقلية والجسدية فى سبيل الحق والحب والكرامة » .

وقد عرف عن طريق مطالعاته محمدا الرسول الكريم فأعجب بشخصيته وفتن برسالته وأحس بشىء من الحب نحو العرب — وطلب الإستزادة من أخبارهم ومعرفة تاريخهم . .

ومن يمعن النظر فى مؤلفات الريحانى بالعربية والإنجليزية يدرك لهفته العارمة إلى وطنه الأول وحنينه المتدفق إلى دياره القديمة ففى أحراش كاليفورنيا من الولايات المتحدة أشجار تفوق أرز لبنان ضخامة وضخامة وقدما وكبرا حتى حفرت فى جذوعها طرق كأنها أنفاق تمر فيها العربات ، ولكن أشجار كاليفورنيا وهى من العجائب جماد هائل لا سر فيهـا ولا معنى لها . عظيمة ولكنها صماء وبكماء . . وهى قديمة ولكنها عتيقة لا قصة لها ولا تاريخ . . ولم يعش فى ظلها نبى ولا تغزل بها شاعر . أما شجر الأرز فى لبنان فله صوت لا يتلاشى فالأرز من الأشجار الناطقة بسر من أسرار التاريخ بل من أسرار النفس البشرية !

قصة حب

هذا وقد ذاق أمين الريحانى حلاوة الحب فى العالم الجديد كما اكتوى بناره . . إذ تشاء الصدف أن تذهب حبيبته للتنزه على نهر الأمازون ولا تعود فينقم على الحياة ومن فيها ، ويخفى ألمه الذى يقطع نياط قلبه ، ويصهر حبه فؤاده وراء ابتسامة باهتة تتراءى على ثغره ويمضى يناجى حبيبته :

« يا أيتها الساكنة قاع ذاك النهر القصى ، يا أيتها الراقدة تحت الأمواج الغربية لا تجزعى ولا تخافى . . أنت أميرة اللؤلؤ واللؤلؤ هناك يلاقيك مرحبا . أنت ملكة المرجان والمرجان يمجدك منشدا . . .

يا أيتها الزنبقة المدفونة فى مياه الغربة ليست الغربة بعدك بعيدة وليس القاع دائماً رمز السقوط والحزن والبلاء .

أنت فى غرقك ترتفعين وفى هبوطك ترتفعين . .

وقد كنت بعيدة عنى فأدناك منى الموت ، فأصبحت حية فى ذكر لا يموت .

أنت فى مخيلتى تنيرينها . أنت فيها شمس الحب ، والذكرى إلى أن تفنى المخيلة . . أحببتك حباً روحيا ، وروحك لا تزال رفيقتى . . علام الدمع إذن والحداد ؟ ! . أبعدتك الهجرة الأولى ، فأدنتك الهجرة الثانية . .

وأنت الآن فى أفئدة محبيك وفيها من اللؤلؤ والمرجان ما يندر فى نهر الأمازون . . . »

وفى عام ١٩١٦ وقع أمين الريحانى فى الحب للمرة الثانية غير أن الحب قاده فى هذه المرة إلى عقد قرانه فى المحكمة المدنية فى نيويورك من آنسة اسكتلندية تقطن فى ولاية كاليفورنيا وتدعى « برتاكيس » .

رأيه فى نقد الشعر

ولأمين الريحانى رأى له خطره ووزنه فى نقد الشعر ، فهو يعتقد أن الشاعر شاعران : شاعر قومه وزمانه ، وشاعر العالم وكل زمان ، والأول يندر فى شعره ما يبقى شعرا إذا ترجم إلى لغة أجنبية والثانى عكس ذلك ، فهو قلب العالم وعقله ..

وقد نظم الريحانى بعض الشعر وتحرر فيه من القافية ولكن منزلته كأديب ورحالة تبذ منزلته فى مضمار الشعر ..

وضرب أمين الريحانى فى سلوكه الخاص المثل الأعلى للأديب المعتدل الرصين . حيث قال « لا المجد ولا الشهرة أمنيتى القصوى ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة ، إنما أمنيتى الجوهرية الأولى هى أن أكون بسيطا فى أعمالى صادقا فى أقوالى مستقيما فى مبادئى وآرائى .. فطريا فى تصرفى وسلوكى .. حرا فيما أحب وأكره ... » .

رحم الله الريحانى فقد كان أديبا رائقا رائعا جمع إلى جانب ثروة العلم ، دماثة الخلق ، وحلاوة الطبع ، ونزاهة العقل ..

القَصَصِيُّونَ

توفيق الحكيم

هذا الأديب الكبير الذى منح أكبر وسام فى الجمهورية العربية المتحدة منذ سنوات . هذا الأديب الذى غذى الفكر العربى بعشرات المؤلفات فى الأدب والفن والمسرح له قصة وقصة خالدة لن تمحوها الأيام .

إنه أحد عمالقة الأدب العربى الحديث فى القرن العشرين وأحد الذين ترشحهم الدوائر الأدبية لجائزة نوبل الكبرى .

لقد كان توفيق الحكيم يسمى راهب الفكر لأنه كرس حياته للأدب والفن وحبس نفسه فى صومعته سنوات طوالا وجلس تحت ضوء المصباح الأخضر ليكتب ويكتب حتى تزوج عام ١٩٤٤ ولكن هذا الزواج لم يصرفه عن متابعة إنتاجه الأدبى الخصب فظل يتحف الأدب العربى بنفثاته الرائعة فى ظل زوجته وأبنائه . هذه الزوجة التى وصفتها والدة توفيق الحكيم ذات يوم بأنها توزن بميزان الذهب .

ولد توفيق الحكيم بضاحية الرمل بمدينة الاسكندرية عام ١٩٠٢ ويذكر أحد الكتاب الباحثين وهو الدكتور اسماعيل أدهم أنه ولد عام ١٨٩٨ ولكن والدته ترجح التاريخ الأول وكان والد توفيق الحكيم يسمى اسماعيل الحكيم وكان ينحدر من بلدة الدلنجات على بعد ١٠ كيلو من مدينة إيتاى البارود بمديرية البحيرية بالإقليم المصرى وكان والده على حظ من الثراء ونصيب من الغنى وكان يمتلك جملة من المزارع والضياع وعندما بلغ توفيق الحكيم السابعة من عمره التحق بمدرسة دمنهور الإبتدائية وعندما استكمل تعليمه الإبتدائى أراد أن يلتحق بإحدى المدارس الثانوية غير أنه لم يكن بمدينة دمنهور وقتذاك مدرسة ثانوية فاضطر توفيق الحكيم إلى السفر إلى القاهرة للالتحاق بإحدى المدارس الثانوية . وقد عاش فى تلك الآونة فى كنف أعمامه والتحق بمدرسة محمد على الثانوية .

وكان أعمامه يقيمون بالمنزل رقم ٣٥ شارع سلامة بحى البغالة بالسيدة

زينب وكانت الدار مكونة من ثلاث حجرات وصـــالة تستخدم واحدة منها للاستقبال والأخرى كانت حجرة نوم للجميع إذ كانت مزودة بعدد من الأسرة ودولاب من الطراز القديم ، أما الصالة فكانت بها مائدة من الخشب الأبيض الرخيص عليها غطاء من مشمع قد أكل عليها الدهر وشرب وكان الجميع يتناولون وجبات طعامهم عليه نهاراً وتنقلب المائدة فى الليل سريراً ينام عليه الخادم وكان عمه الأكبر مدرساً للحساب بإحدى المدارس الإبتدائية وكان هو الذى يتولى الانفاق على البيت ولم يكن توفيق الحكيم يترك لأخيه مهمة الإنفاق على ابنه إنما كان يمنحه شهرياً مقداراً من المـــال حتى يستطيع أن يجيب طلبات ابنه أما العم الآخر فكان لا يزال طالباً بكلية الهندسة وكانت ربة البيت هى عمته وكانت فتاة ريفية ساذجة أتت إلى القاهرة مع شقيقها لتقوم بإدارة المنزل .

وظل توفيق الحكيم يتابع دراسته الثانوية حتى انتهى منها وظفر بشهادة الكفاءة فالبكالوريا المصرية ثم التحق بمدرسة الحقوق وحصل على شهادة الليسانس وسافر على أثر ذلك إلى أوربا ومكث فترة طويلة فى باريس لدراسة القانون والحصول على درجة الدكتوراه فى الحقوق بيد أنه شعر أنه ليس فى حاجة إلى هذه الدراسة القانونية قدر ما هو فى حاجة إلى دراسة الأدب والمسرح وهناك فى فرنسا تفتقت مواهب الشاب على الحياة الباريسية بما فيها من نواحى الفن ومظاهر الجمال وعكف توفيق الحكيم على قراءة القصص والمسرحيات وكان يهرع بين الفينة والفينة إلى مسرح الأوديون ودار الأوبرا ليمتع نفسه وحسه بما يعرض هناك من روائع المسرح الأوروبى كما شغف توفيق الحكيم بموسيقى بيتهوفن وموزار وشومان وشوبيرت وغيرهم من أعلام الموسيقيين الغربيين ، وكتب توفيق الحكيم عام ١٩٢٦ مسرحية « أمام شباك التذاكر » باللغة الفرنسية وجعل بطلتها تلك الفتاة التى أعجب بها توفيق الحكيم والتى كانت تعمل فى شباك التذاكر بمسرح الأديون وقد قام بترجمة هذه المسرحية إلى العربية الأستاذ أحمد الصاوى محمد بمجلتى عام ١٩٣٥ ثم نشرها توفيق الحكيم نفسه فى مجموعة مسرحياته عام ١٩٣٧ .

وقد ظهرت ميول توفيق الحكيم الأدبية منذ نعومة أظفاره وتقول والدته أنه لم يكن يلعب كالصبية الذين فى مثل عمره وكان فى أجازات فى الصيف يغرق

فى مكتبة والده حتى استوعبها جميعها قبل أن يلتحق بالحقوق كما كان ينفق أغلب مصروفه فى شراء الكتب وعندما كان فى باريس كان يأكل طبق أرز جاف فى وجباته الثلاثة ليوفر ثمن الكتب ، وعندما عاد من باريس كانت الهدية الوحيدة التى أحضرها معه « سحارة كبيرة مملوءة بالكتب والمؤلفات » .

وقد تقلد توفيق الحكيم عدة مناصب عقب تخرجه فعين وكيلا للنائب العام فى الأرياف وكتب فى هذه الآونة « يوميات نائب فى الأرياف » وكانت وظيفته بالقرب من مدينة طنطا وظل يعمل بها منذ عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٤ حيث عين رئيسا لقلم التحقيقات بوزارة المعارف العمومية ثم اعتزل توفيق بعد ذلك خدمة الحكومة وتفرغ لإنتاجه الأدبى الخاص حتى اختير مديرا لدار الكتب المصرية فعضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ثم عين مندوبا للجمهورية العربية المتحدة فى منظمة « اليونسكو » بباريس .

سجل توفيق الحكيم فى مذكراته الآنفة الذكر « يوميات نائب فى الأرياف » حياته التى عاشها فى الريف المصرى فى أسلوب ساخر وبيان مشرق واستهلها بقوله « لماذا أدون حياتى فى يوميات . ألأنها حياة هنيئة ؟ كلا إن صاحب الحياة الهنيئة لايدونها إنما يحياها . إنى أعيش مع الجريمة فى أصفاد واحدة إنها رفيقى وزوجى أطالع وجهها فى كل يوم ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد . أهنا فى هذه اليوميات أملك الكلام عنها وعن نفسى وعن الكائنات جميعا . أيتها الصفحات التى لم تنشر ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتى فى ساعات الضيق » .

وهكذا شرع توفيق الحكيم يقص علينا فى يومياته صورة فكهة طريفة تستحوذ على إعجابنا . ومضى يصف نفسه وهو يأوى إلى فراشه مبكراً إذ أصيب بالتهاب فى الحلق وهو مرض يراوده من حين إلى حين فلف حلقه بخرقة من الصوف بعد أن عمر بقطع من الجبن العتيق مصيدة الفئران ونصبها حول سريره كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الأسطول ثم أطفأ مصباح النفط وأغمض عينيه وهو يسأل أن ينيم الغرائز البشرية فى هذا المركز بضع ساعات فلا تحدث جناية تستوجب قيامه ليلا ولكنه لم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى أصبح كأنه حجر ملقى ثم حركة صوت الخفير وهو يضرب الباب ضربا شديداً وينادى خادمه

صائحا « إصح يادسوقى » فيهب توفيق الحكيم من نومه مذعوراً وهو يعلم أن جناية وقعت .

وحكى توفيق الحكيم فى كتابه « من ذكريات الفن والقضاء » صفحات أخرى من حياته فى النيابة وصور حياته بميولها ونوازعها وظروفها وإن كان الإطار الذى تتحرك فيه هذه الذكريات هى نفس الإطار الاجتماعى الذى يعكس صورة من حياتنا فى الأقاليم .

وروى توفيق الحكيم قصته مع رئيس النيابة الذى كانت شخصيته بين الجد والمزاح وكانت أشبه بالشخصيات المسرحية التى تعرض على النظارة إذ لم يكن له فى الدنيا غير هوايتين تدخين الشيشة وإيذاء الغير ، وكان الشر للشر مذهبه الفنى فى الحياة ويقول توفيق الحكيم إنه لا يعنيه تطبيقه فى مجال العمل الرسمى فهذا أمر قد يكون له فى نظره ما يبرره ، فالقسوة على المتهمين وتضييق الخناق عليهم فى كل وجه من أوْجه دفاعه والتلذذ بمرآهم وهم يقعـــون فى حبائل أسئلته ووسائل استجوابه المشروعة وغير المشروعة والذهاب أحيانا إلى حد تعذيبهم بالجوع والعطش طوال أيام التحقيق . كل ذلك داخل نطاق عمله الذى لا شأن لتوفيق الحكيم به خصوصاً من كان يظنهم رئيس النيابة بغير سند أو ظهير من عظيم أو وزير إنما يقصد بالشر معاملته لمعاونيه وزملائه ومرؤوسيه .

مسرحيات الحكيم

تعتبر مسرحية توفيق الحكيم « أهل الكهف » من أروع المسرحيات فى الأدب العربى الحديث وقد استمدها توفيق من القصة الخالدة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم حيث قال الله تعالى فى سورة الكهف .

« فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً » .

وقد مثلت أهل الكهف لأول مره عام ١٩٣٥ وكانت هى الرواية التى افتتحت بها الفرقة القومية المصريه موسمها فى ذلك العام وافتتحت بمنظر الكهف بالرقيم وظلام لا يتبين منه الناظر غير طيف رجلين قاعدين القرفصاء . وعلى مقربة منهما

كلب باسط ذراعيه بالوصيد ويدور الحوار فى المسرحيـــة بين « ميشيلينيا و « مرنوش » فيسأل الأول صاحبه : كم لبثنا هنا ؟ فيرد عليه الثانى « يوماً أو بعض يوم » وقد هلل الدكتور طه حسين لهذه المسرحية تهليلا عندما ظهرت لأول مرة ونشر فى جريدة الوادى مقالا جاء فيه « إنها حدث فى تاريخ الأدب العربى » . « إنها تضاهى أعمـال فطاحل « أدباء الغرب » وقد اعتمد الحكيم على قدرته المسرحية فى معالجة القصة كما لم يتخلص من أساس القصة التاريخى ، فاستنزل فكرة مسرحيته من القرآن الكريم وأخذ عن النسفى أسماء أهل الكهف كما أخذ عن البيضاوى خطوط فكرة المسرحية وهى تعتبر بوجه عام خطوة راسخة فى ميدان التأليف المسرحى .

ومن المسرحيات التى تظهر براعة توفيق الحكيم فى المسرحية وأصولها الفنى العريق مسرحية « شهرزاد » وقد استمدها من قصص ألف ليلة وليلة وصدرت فى مارس ١٩٣٤ فى طبعة فخمة عن مطبعة دار الكتب المصرية مشتملة على سبع مناظر وتصور المسرحية فكرة خروج الروح عن المادة واستعلاءها عنها وتبرم شهريار بطل القصة المسرحية بتلك الحياة الرتيبة المملة فيصيح قائلا « لقد شبعت من المادة شبعت منها » .

وقد جعل توفيق الحكيم شهريار بطل قصته يتطوح بين عاطفة حب الجسد والهروب منه. تستقبله شهرزاد بوجهها البسام وصـــدرها الناهد وجمالها المتألق وجسدها الغض الجميل الذى ينبض عشقاً وشوقاً غير أن هذه العاطفة لا تلبث أن تخبو وترتد نفسه إلى أعماقه فإذا به لا يؤمن بالشعور انما ينشد المعرفة . .

وقد صدر توفيق الحكيم مسرحيته بحكمة إيزيس الخالدة « أنا كل ما كان . كل ما يكون كل ما سيكون ، قناعى لم يكشفه بعد إنسان » .

وقد صور توفيق الحكيم الصراع بين الجسد والروح فى أوجه وجعل شهرزاد تقول لحبيبها شهريار « أنا جسد جميل . هل أنا إلا جسد جميل » فيجيبها شهريار « سحقاً للجسد الجميل » فتجيبه شهرزاد « هل أنا قلب كبير . هل أنا إلا قلب كبير ؟ » فيجيبها شهريار « سحقاً للقلب الكبير » وعندئذ تنبؤه شهرزاد بقولها «أتنكر أنك عشقت جسدى يوماً» «وأنك أحببتنى بقلبك يوماً» فيحسم شهريار

الموقف بقوله «مضى كل هذا وانقضى وأنا الآن إنسان شقى، ولا يلبث أن يصيح قائلا «نعاهم الهاربون من أجسادهم».

وفى عام ١٩٣٤ صدرت عن دار الهلال مجموعة قصصية لتوفيق الحكيم تضم ثلاث قطع وهى مسرحية «الزمار» التى كتبها فى طنطا فى أغسطس سنة ١٩٣٠ وقصة «العوالم» التى كتبها فى باريس فى يونيه سنة ١٩٢٧ وقصة «الشاعر» التى كتبها فى دمنهور فى مايو سنة ١٩٣٣ . ومسرحية «الزمار» تصور لنا حياة الفنانين الشعبيين الذين كانوا يعيشون فى هذه الفترة على فنهم كما تضم صوراً عن الحياة الفنية التى تأثر بها توفيق الحكيم فى مطلع عمره، أما «قصة العوالم» فترسم صوراً عن هذه الحياة الفنية التى انتشرت بين هذه الطبقة من أهل الفن وامتازت بتقاليد خاصة فى إقامة الأفراح والليالى الملاح . أما أقصوصة «الشاعر» فتدور فكرتها حول مونمارتر وشهر زاد حيث جعل شهر زاد تمل هذه الحياة الصاخبة اللاغبة فى مونمارتر وتحن إلى الحياة الهادئة الوادعة . .

ومن مسرحيات توفيق الحكيم كذلك مسرحية «محمد» ﷺ وهى من المسرحيات التى رفعت اسم توفيق الحكيم ونشرته فى العالم الإسلامى، وفى ذلك يقول المستشرق الكبير الدكتور جرمانوس «وعقب وصولى إلى بودابست بعث الى صديق توفيق بكتابه المرسوم بعنوان «محمد» حيث فصل فيه حياة الرسول الكريم فى مشاهد ومحاورات وقد حرص توفيق على أن يدون فى هذا الكتاب أهم وقائع الرسول بأسلوب عال أثمن من الأسلوب العادى للقصائد النبوية ولكن من يدرى هل أصاب توفيق نجاحا فى البيئة التى جعلوا فيها من «محمد» كائنا مقدساً لا يحق لأحد أن يتناوله بما لا يخرج عما ورد فى السير التى دونها الصحابة.وعلى الرغم من أن شخصية النبى مقدسة عند جميع المسلمين فإنها لم تلهم أى كاتب عربى لإخراج أثر رائع كما الهمت شخصية المسيح أكثر الكتاب والفنانين والشعراء والرسامين الأوربيين ومهما يكن فإن الذى اعتقده وأومن به أن توفيق الحكيم يستحق تعضيد العالم العربى . فيقدر جهوده الفكرية حق قدرها ويعنى بتفهمها على وجهها الصحيح ليتيسر للشرق المضى فى السير نحو مثله الأعلى . . .

ومما يستحق الفخر لتوفيق الحكيم أنه كان مبتدعا فى هذا الميدان المسرحى ونحى منحى الكتاب الغربيين مثل «أدمون فلج» الذى كتب عدة مسرحيات عن إبراهيم وموسى وسليمان عليهم السلام وقد شجع توفيق الحكيم على كتابة هذه المسرحية ذلك الفصل الذى كان قد نشره قبل ظهور المسرحية بسنوات فى مجلة الرسالة عن السيرة النبوية وقد صـــاغه توفيق الحكيم فى قالب مسرحى فنال استحسانا من القراء شجعه على كتابة مسرحيه برمتها عن محمد عليه الصلاة والسلام .

ونشر توفيق الحكيم عام ١٩٣٧ مجموعة من المسرحيات فى مجلدين عن مكتبة النهضة المصرية وتضم باقة من مسرحياته مثل مسرحية « سر المنتحرة » التى كان الأصل فى عنوانها بعد الموت وتدور فكرتها حول فكرة الزمان والعمر وأثرهما على النفس البشرية ومسرحية « نهر الجنون » ومسرحية « جنسنا اللطيف » التى كانت تسمى « بنات بلادى » ومسرحية « حياة تحطمت » وهى من نوع المأساة والدراما العنيفة التى تحطم أوتار القلوب وأخرج كذلك توفيق الحكيم بعد ذلك مسرحية « الصفقة » التى قدمها المسرح القومى منذ سنوات .

ومسرحياته بمثابة حقل تجارب لايجاد حل للمشكلات التى طالما اعترضت العمل المسرحى ومن هذه المشاكل مشكلة اللغة التى لا تزال موضع جدل وخلاف بين الكتاب المسرحيين فبعض الكتاب يؤثر اللغة الفصحى بينما يحبذ بعض آخر من الكتاب استخدام اللغة العامية الدارجة وقد ساهم توفيق الحكيم فى المضمارين فألف أغنية الموت بالفصحى وكتب مسرحية « المزمار » باللغة العامية وجعل « التومرجى سالم » يدير الحوار باللغة العامية الضاحكة وهو يهب من نومه فزعا ليستقبل رهطا من الفلاحين والفلاحات والأطفال الذين تكدس بعضهم فوق بعض بمدخل طبيب الصحة بالأرياف ويرتفع صوت صياح طفل فى حجر أمه فيسكته سالم فى لهجة عامية ساخرة . .

ولكن اللغة العامية ليست مفهومة فى كل زمن ولا فى كل قطر بل فى كل إقليم فالعامية إذن ليست لغة نهائية فى كل زمان ومكان كما أن استخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة عند القراء ولكن عنـــد التمثيل تستلزم الترجمة إلى اللغة التى يمكن أن ينطقها الأشخاص فالفصحى إذن ليست لغة نهائية كذلك . لذلك كان لابد من تجربة ثالثة لايجاد لغـــة صحيحة لا تجافى الفصحى وهى

فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا ينافى طبائعهم ولا جو حياتهم فحاول توفيق الحكيم أن يجعل هناك لغة مسرحية موحدة فى مسرحية «الصفقة» دون المساس بضروريات الفن كما واجه توفيق الحكيم فى مسرحية «الصفقة» مشكلة المسرح بمعنى أن تكون المسرحية صالحة للتمثيل والإخراج فى أى مكان وليست فى حاجة إلى مناظر ولا ملابس ولا خشبة مسرح بل يكفى مجرد العرض فى ساحة صغيرة فى أى قرية أو مدينة ولذلك كانت مسرحية الصفقة من هذا اللون الذى قد يكون عودا إلى المسرح منذ ألفى عام .

وواجه توفيق الحكيم مشكلة الجمهور والفولكلور بمعنى أن تكون المسرحية مناسبة للجمهور على اختلاف درجته الثقافية فلا يجد فيها المثقف إسفافا ولا يجد فيها الأمى ارتفاعا عن مستواه الفكرى . . فاستطاع الحكيم أن يجمع بين المسرحية المكتملة لعناصرها بجدية تركيبها وهدفها وبين الفن أو الفولكلور على ما يصوغه جو المسرحية وطبيعة بيئتها . .

وغير خاف أن المسرحيات العربية إما تكون مضحكة مغرقة فى الإضحاك بالنكات اللفظية والحركات المفتعلة والشخصيات الكاريكاتورية وإما تكون مبكية غاية الإبكاء بالكلمات المفجعة الجوفاء والمواقف التى تستدر الدموع والتأثر السريع . والواقع أن هذين اللونين بعيدان عن المسرح الحقيقى فإذا استطعنا أن نستدرك الجمهور ونجعله يعتاد النوع الطبيعى الذى لا يهدف إلى إبكاء أو إضحاك إنما يعرض الحياة على حقيقتها والأشخاص على طبيعتهم فإننا نكون أقرب إلى الفن والصدق بالإبداع الفنى وهذا ما حاول توفيق الحكيم أن يبرزه فى مسرحية «الصفقة» .

وللمسرحية عند توفيق الحكيم اعتبار خاص ذلك لأن الحوار بما فيه من إيجاز وتركيز هو القالب الأدنى القريب إلى نفسه وهو محتاج إلى نظام ، والفن عنده نظام والنظام هو الاقتصاد أى البيان بلا زيادة ولا نقصان .

والموضوع الجيد فى المسرحية ضرورة من ضروراتها شأنه فى ذلك شأن النغم الجيد فى القطعة الموسيقية ففى الموسيقى تعتبر النغمة الجيدة تلك التى تحمل فى جوفها توليدات عدة لألحان موفقة فما يكاد يعثر عليها الموسيقى حتى يجـــدها الحبلى

بالتخريجات التى يستطيع أن يملأ بها حركة سيمفونية بأكملها فى حين أن النغمة الرديئة تولد صماء جوفاء عاقرا عقيما يحاول الموسيقى عبثا أن يستخلص منها شيئا وكذلك الموضوع المسرحى الجيد هو الموضوع الفنى الذى ما يكاد يلمسه المؤلف حتى يفيض بين يديه بالمواقف المتجددة والأفكار الطريفة والشخصيات المتنوعة حتى ينمو معه بالمعالجة ويكبر ويزدهر كالشجرة المباركة التى تتهيأ للإثمار الكثير فى حين أن الموضوع الردىء ما يكاد يفتح أبوابه حتى يغلق . .

ويرى توفيق الحكيم أن المؤلف المسرحى يتعين عليه أن يتخير من الأشخاص من تعقدت حياتهم إلى الحد الذى يستطيعون معه أن تكون قلوبهم موضع الانفعالات المختلفة ، ونفوسهم مظهرة لطبائع متباينة فالمؤلف المسرحى كالشاعر فى إنشاء القصيدة فالشاعر يلتزم الوزن والقافية أما الكاتب المسرحى فقيد بطريقة واحدة لا تتغير ولا يتاح له استخدام القصة المرسلة أو الوصف على لسان صديق أو شاهد عيان ولذلك فهو مطالب بأن يخلق أشخاصا يمكن أن يحركهم كما يشاء وقد حاول توفيق الحكيم فى جميع مسرحياته ألا يحيد عن هذا المبدأ وجعله نصب عينيه وصرح به أكثر من مرة فى مقالاته فى الصحف والمجلات كما نشر هذا الرأى فى كتابه « فن الأدب » وهو من أروع آثاره الأدبية .

وفى كتابه « التعادلية » وضح توفيق الحكيم مذهبه فى الحياة والفن فقال إن مسرحه يقوم على أشخاص تتحدد مراكزهم لا بالنسبة إلى الخير والشر بل بالنسبة إلى الحقيقة والواقع فهولم يبرز قط أشخاصا ينتمون إلى الخير مطلقا إذ أنه يرفض هذه الفكرة رفضاً باتا فى كل ما يكتب بل إنه فى قصة « طريد الفردوس » يجعل الأنبيـــاء والرسل أنفسهم يتعرضون لعقـاب الله ولا يمكن أن يعاقب الله على الخير . .

والإنسان عنده قيمة ثابتة تلحق بها أحوال متغيرة من الخير والشر والصحة والمرض ، ومن يأتى عملا يضر بالغير يستطيع أن يأتى عملا ينفع الغير وهولذلك ليس خيرا ولا شريرا ولا صحيحاً ولا مريضا فى أحواله العادية إنمــــاهو موضع تتعادل فيه وتتوازن هذه الحالات المختلفة المتغيرة فالتعادل إذن جهاز ذى محركين رد الفعل والتعويض ، فكل ضعف تعاوده قوة وكل نقص تقابله زيادة ، فالنملة

رفيعة الجناح، ولكنها حادة الإبرة والثقيل فى الوزن والجسم غالبا ما يكون خفيف الظل والروح، والفقيرة فى جمال الوجه أو الجسد أو الشكل كثيراً ما تكون غنية فى جمال النفس أو الخصال أو الفعل وهكذا لابد أن يتم تعادل على كل حال . .

أما قصة « عودة الروح » التى كتبها توفيق الحكيم فقد صدرت فى عام ١٩٣٣ عن مطبعة الرغائب بالقاهرة ثم استكملها توفيق الحكيم بقصة أخرى هى «عصفور من الشرق » ظهرت فى ابريل عام ١٩٣٨ ؛ وقد كتبها توفيق الحكيم باللغة الفرنسية عام ١٩٥٧ ثم عاد فكتبها باللغة العربية الدارجة وهذه القصة هى قصة حياة توفيق الحكيم نفسه إلى جانب أنها دراسة واضحة للحياة ، ويقول المستشرق جرمانوس « إن عودة الروح رواية مصرية موضوعها النهضة المصرية ونهضة الشعب ويقظته بالمطالبة بحريته وقد صب هذه الرواية فى قالب رومنتيكى بيد أنه جعل الحوار بالعامية على حين ظهر المتن بالفصحى وهكذا نجد أسلوبه فيها مزدوجا فى لغتين ..وقد لاقت هذه الرواية نجاحا كبيرا الانتشارها وراء حدود مصر أعنى فى العالم العربى حيث لا يستطيعون أن يتفهموا اللغة العامية وقد استهل توفيق الحكيم قصته بحكمة مقتبسة من الموتى جاء فيها « عندما يصير الزمن إلى خلود سوف نراك من جديد لأنك صائر إلى هناك حيث الكل فى مكان واحد»وقد طفق توفيق الحكيم يصف حياته فى عودة الروح ومن أطرف ما جاء لقصته وصفه لأسرة أعمامه وقد أصابتهم حميا الحمى الاسبانيولية وعادهم الطبيب فما كاد يقع بصره عليهم حتى دهش إذ رأى قاعة واحدة اصطفت فيها خمسة أسرة عيار بوصة وربع أحدها بجانب الآخر وخزانة واحدة كخزانة الخياطين مخلوعة إحدى عارضتيها فيها ثياب على كل لون ومقاس وبعضها ملابس بوليس رسمية بأزرار نحاسية وآلة موسيقية بمنفاخ عنيفة هارمونيكا معلقة بالحائط فقدر الطبيب أنه دخل عنبرا فى ثكنة ولكنه واثق من أنه دخل منزلا وما زال يذكر رقمه وشارعه ودنا أخيرا من السرير الخامس فلم يتمالك وابتسم فلم يكن هذا سريرا إنما كان مائدة الطعام الخشبية انقلبت فراشا لأحدهم ووقف الطبيب لحظة يتأمل المرضى الراقدين صفا وفى النهاية تقدم وهو يقول « لا دا مش بيت دا مستشفى » . ثم فحصهم كل بدوره وفرغ من عمله وهمّ بالانصراف ولكنه عاد فنظر إليهم من جديد فى شىء من عجب وهم محشورون فى تلك الحجرة فسأله ما يحملهم على هذا الحشر وفى الشقة غرفة

أخرى حجرة الاستقبال على الأقل . فأجابه صـوت ارتفع من أعماق سرير « مبسوطين كده » وانتهت عيادة الطبيب واستعدللذهاب و بلغ عتبة الباب غير أنه وقف كالمفكر واستدار للمرضى الراقدين وقال كأنه يخاطب نفسه « يظهر إنكم من الأرياف » .

وخرج الطبيب دون أن ينتظر جوابا ورسمت فى مخيلته صورة الفلاحين وطفق يقول فى سره « إنه ليس غير الفلاح يستطيع هـذه الحالة . هو وحده الذى على الرغم من رحب داره لابد أن ينام وامرأته وعياله وعجله وجحشه فى قاعة واحدة » .

وهكذا مضى توفيق الحكيم يروى لنا فى قصته « عودة الروح » ذكريات شبابه فى أسلوب ساحر مبين وروح مرحة خفيفة الظل وتضم القصة ألوانا مختلفة من الثقافة مما يبعث التشويق على متابعة القصة ومثال ذلك ما كتبه عن السودان وارتياد مجاهل بحر الغزال وفى تضاعيف القصة فالوطنيون يصطادون الأسـد بالرماح القصيرة والفيل الواحد يزن ٦٠ قنطار والقنطار الواحد ثمنه فى ذلك الوقت جنيه والفيل المتوسط يساوى ٦٠٠ جنيه وما إلى ذلك

وقصة « عصفور من الشرق » تضم إلى جانب فنها الروائى الممتاز آراء استوحاها الحكيم من الكاتب الفرنسى جورج دوهاميل وقد أشاد بذكر حضارة الشرق وذكر أنه إذا رجع الغرب إلى حكمة الشرق ورأى كيف فهم الإسلام الديمقراطية لجنى من ذلك دروساً قد تصلح من فساده وتقيل من عثاره . .

وكتب توفيق الحكيم قصة الرباط المقدس وتعالج هذه القصة الصراع بين المادة والروح وبطل القصة كان يشبه صورة رجل الأدب «كارليل» نور الدنيا وكاهنها الذى يقودها كأنه عمود النار المقدس فى حجبها المظلمة ونضاء الأحقاب وكان فى عباءته وقنصوته يشبه حقا الراهب . هكذا كان يرتدى دائما وهو فى بيته ولعل هذا المظهر كان يتفق دائما مع لون حياته تلك الحياة الهادئة بين الكتب والورق الراكدة كمداد المحبرة . . ما كاد لديه شىء يجرى حتى ولا أيام فهى تتشابه وتبدو كأنها واقفة لا تسير أو أنها تجمعت كلها واندمجت فصارت يوما واحدا لا يزول ومع ذلك فقد كان هناك شىء يجرى متدفقاً عنده بغير انقطاع ألا وهو فكره وبطل قصة الرباط المقدس يمتاز بقوة المقاومة .

مقاومته لنفسه فإذا شرب أحيانا من كأس الحياة فانه كان يعرف بالضبط متى وأين يقف ويستطيع بكل عزم أن يقول لنفسه كفى لذلك لم يعرف عنه الانغماس فى ضرب من ضروب اللهو بل لم يسمع عنه أحد اتصاله بامرأة من النساء بالذات وإن هذا النظام قد حال عنه وعن الترهل والهرم الباكر ثم جاءته إمرأة أدعت انها تحترف الأدب ولو آمنت المرأة بأن كبح جماح النفس من أجل واجب الزوجية يمنحها من السعادة الزوجيـــة ما يعوض عليها لذات البدن لما استهانت برباطها المقدس لحظة واحدة فكيف إذن براهب الفكر ؟ وهو الذى يعيش الجمال الفكرى ويعبر بنور الروح . .

وكتب توفيق الحكيم كتابيه « حمار الحكيم » و « حمارى قال لى » وتفسر والدة توفيق الحكيم سر ولعه بالحمير فتقول : « إنه كان يحب الحمير وهو صغير ويكتب عنها أزجالا وعندما كان عمره أحد عشرة عاما وكانت أسرته فى دمنهور تسكن قرب السوق وكان الفلاحون الذين يأتون إلى السوق كل يوم اثنين يربطون حميرهم فى باب البيت كان توفيق يأخذ ثلاثين قرشا مصروفا فى الشهر وحدث أن شاهدت والدة توفيق الحكيم إبنها زهير وعبد المجيد السفرجى، وهما يضحكان وعبد المجيد يحمل بين يديه حمارا صغيرا مثل المعـــزة وتوفيق يجرى وراءهما ويقول « إشتريته يا ماما بثلاثين قرش والنبى ياماما تخليه نبعته العزبة ليتربى هناك » وأخذت الأسرة الحمار إلى العزبة ولكن الحمار عاش فترة على لبن البقر ثم مات » .

ويقول توفيق الحكيم متغزلا فى الحمار الذى يعجب به « رأيته يخطر على الإفريز كأنه غزال وفى عنقه الجميل رباط أحمر وإلى جانبه صاحبه رجل قروى من أجلاف الفلاحين ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون وبجمال منظره وبرشاقة خطاه يعجبون . لقد كان صغير الحجم كأنه دمية بيضاء أو كأنه قد من رخام بديع التكوين وكان يمشى مطرقا فى إذعان كأنما يقول لصاحبه إذهب إلى حيث شئت فكل مافى الأرض لا يستحق من رأسى عناء الالتفات » .

فالحمار فى حياة توفيق الحكيم كائن مقدس كما كان الحيوان عند قدماء المصريين عرفه منذ صغره فى صورة جحش صغير جميل اشتراه بثلاثين قرشا وجعله لنزهته

فى الريف وكانت له بردعة حمراء لاينساها وكأنهما خير رفيقين لا يفترقان إلا للنوم فقد كان فى مثل سنه أى من طور الطفولة من فصيلته كما كان توفيق فى طور الطفولة من جنسه كما عرفه توفيق الحكيم عند ما شب عوده وعاد من مدرسته فى الحضر إلى الريف ولكنه وجده متغيراً فالبردعة الحمراء قد نزعت وألقى بها فى مكان مهجور ووضع مكانها غبيط يحمل فيه التراب والسماد ، فمسح توفيق رأس الحمار المعفر بيده ونظر إليه نظرة حزينة وكأنه يقول : لقد ولت أيام . . .

وقد اتخذه توفيق الحكيم وسيلة من وسائل الحوار كما قال حمار الحكيم توما ذات يوم متى ينصف الزمان فأركب فأنا جاهل بسيط أما صاحبى فجاهل مركب فقيل له ما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركب ؟ فقال الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل والجاهل المركب هو من يجهل أنه جاهل » .

وإن هذا المخلوق الحقير الذى سميناه حماراً أو جحشا وفى نظر الحقيقة العليا مخلوق يثير الاحترام فى حين أن كثيرا ممن سميناهم زعماء وعظماء فركبوه ولم يبعدوا الغرور وهو يركب رؤوسهم هم فى نظر الحقيقة العليا مخلوقات تثير السخرية . . .

وعلى هذا النحو عالج توفيق الحكيم موضوعات السياسة والاجتماع فكتب « حمارى والطوفان » و « حمارى وهتلر » و « حمارى والسياسة » و (حمارى والجريمة) و (حمارى والنفاق) و (حمارى والحكمة) و (حمارى والجنة والنار) و (حمارى وعداوة المرأة وحزب النساء) ونحو ذلك من موضوعات تمس حياتنا العامة مساً فيه كثير من السخرية والنقد وفيه كثير من الروعة والجمال .

وكتب توفيق الحكيم (نشيد الإنشاد) وهو نشيد النبى سليمان وضع قبل الميلاد بنحو ألف عام ولعله أجمل صوت خرج من قلب الإنسان لتحية الحب والربيع منذ أقدم الأزمان وقد سحر هذا النشيد أكثر الأدباء والشعراء وأهل الفنون على توالى العصور ولعل أشهر من فتن به فى العصور الحديثة (رينان) ثم (أندريه جيد) فوضعه كل منهما فى صيغة جديدة ، وقد نشر توفيق الحكيم النشيد بأسلوبه الخاص أثناء الحرب العالمية الأخيرة وعندما كانت روح الشر

تنشر جناحيها على الأرض نشر توفيق الحكيم أغنية النبي سليمان المعطرة بروح الحب والجمال ومنها هذه الأبيات .

حبيبي كالفضة المزوجة بالذهب
إنه يميز من بين عشرة آلاف
رأسه من ذهب إبريز
وخصلاته طائرة حالكة كأنها غراب
وعيناه حمامتان على حافة جدول
يغتسلان من اللبن
وخداه جميلة من الطيب
وشفتاه سوسن يقطر منه العسل
ويداه طوفان من ذهب مرصعان بالزبرجد
وبدنه عاج مصقول مغطى باليواقيت
وساقاه عمودان من الرخام الأبيض
قائمان على قاعدتين من ذهب إبريز
إنه جميل مثل لبنان
إنه جليل مثل الأرز
فمه هو الحلاوة
وكل شيء فيه هو السم
وهذا هو حبيبي
أهذا هو خليلي
يابانات أور شاليم

وكتب توفيق الحكيم « براكسا » أو مشكلة الحكم وأهداها إلى « أرستوفان » رب الكوميديا الإغريقية لأنه استمدها من كوميديا ارستوفان « مجلس النساء » التى مثلت عام ٣٩٢ ق . م وألف توفيق الحكيم هذه المسرحية على غرار ارستوفان كما فعل « موريس دونيه » ، عضو الأكاديمية الفرنسية فى إحدى قصصه « ليز ايستراتا » ويقول توفيق الحكيم إن مجرد اشتراكه مع ارستوفان فى قصة

واحدة قد كشف لعينه ما لم تكشفه تجارب خمس عشرة قصة تمثيلية كتبها وعلمته ما لم يعلم من أسرار هذا الفن العسير واطلعته على صفات وعيوب لم يكن إدرا كها من اليسير ولكنه يلتمس الحلو من القصور فن ذا يقيس قامته بقامة ارستوفان؟!

وكتب توفيق الحكيم « سلطان الظلام » وهو تأملات حول معبد الإنسانية فالكاتب الحر هو الحارس الأمين لجواهر الفضائل الإنسانية والتفكير الحر هو التحرر من كل القيود إذ بمجرد التقييد تتعطل فى الحال آلة التفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ إلا من مبدأ حرية التفكير ، وأول خطوة فى طريق التحرر من سلطان الظلام هو القضاء النهائى على رغبة القوى فى الوقوف على الضعيف وقانون الغابة الذى لم يزل يسيطر على المجتمع الدولى والذى يجب أن تحل محله القوانين الخلقية والوضعية التى تنظم كل مجتمع متحضر لأمة متحضرة وروى توفيق الحكيم فى سلطان الظلام قصة تلميذ الموت التى جثم فيها الموت وهو جالس فى فى قاعة عمله إلى مكتب ضخم يقوم على عظام فيل ووضع أصبعه على جمجمة مفكر أما عيناه الغائرتان فتنظران إلى مجموعة أثرية من المناجل تزين الجدران كما كتب الانتصار الخالد التى أهداها لأهل النرويج محبى الجمال والحرية وإلى الشعب اليونانى منبع الفكر الحر والديمقراطية وإلى كل شعب حى يجاهد فى سبيل استرداد مطرقته الفضية من القوى المعنوية والقوى الروحية ، وكتب « محاكمة طاغية » التى حاكم فيها مشعلى الحرب لا فى دار الرايخشتاغ ولا فى ساحة الأالمبياد بل فى حانة البيرة الشهيرة وكان القضاه المتصوف غاندى والعالم آينشيتين . . . والموسيقى توسكانينى وكان النائب العام شارلى شابلن . .

وكتب توفيق الحكيم مجموعة من القصص الفلسفية بعنوان « أرنى الله » وهذا العنوان هو عنوان القصة الأولى من المجموعة التى تضم « أرنى الله » ، و« موزع البريد » ، و « أنا والموت » ، و « الشهيد » ، و « دولة العصافير » ، و « سنة مليون » ، و « معجزات وكرامات » ، و « اعتراف القاتل » ، و « وجه الحقيقة » ، و « الاختراع العجيب » ، و « امرأة غلبت الشيطان » ونحوها . . .

وتتلخص قصة « أرنى الله » فى أن رجلا كبيراً كان يجلس إلى طفلة يتحادثان كأنهما صديقان رغم فارق السن ، وفاصل الزمن الذى يرتفع بينهما كستاره

وهمية من الحرير فإذا هما متفقان متفاهمان وقد سأله ذات يوم «أرنى الله» فذهل الأب وأخذ يبحث ومضى إلى الناسك يسأله . ولكن الناسك لم يفده . ودعا له أن يرزقه الله نصف ذرة من محبته ومضى الرجل إلى جبل من الجبال يبحث عن الله ولكنه سمر فى مكانه ، وأخذ الإبن يبحث عنه دون جدوى ولكن أخيراً عثر عليه ، فصاح فيه الطفل . ولكن أباه كان جامداً لا يتحرك فقال له الناسك ليس الذنب ذنبك ، إنما ذنب أنك سألت أن يرى الله . . .

وهكذا دبج توفيق الحكيم ببراعته السحرية من القصص والمسرحيات والدراسات فى فن الأدب ، فالأدب عنده هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة فى الإنسان والأمة والحامل الناقل لمفاتيح الوعى فى شخصية الأمة والإنسان وهو تلك الشخصية التى تتصل فيها حلقات الماضى والحاضر والمستقبل والفن هو المطية الحية القوية التى تحمل الأدب خلال الزمان والمكان . . .

والأدب بغير فن رسول بغير جواد فى رحلة الخلود . . والفن بغير أدب مطية سائبة بغير حمل ولا هدف . . . ولقد كان همه دائما محاولة الجمع بين الرسول وجواده ، وكان يرى دائما ولا يزال يرى دائماً الأدب مع الفن ، والفن مع الأدب .

ابرهيم المازنى

كان نحيلا ضئيلا ولكن أدبه كان ملء السمع وملء البصر جميعاً وكان رائداً من رواد القصة والمقالة فى الأدب الحديث ، له قدره ، وله أثره وخطره فى تاريخ الأدب الحديث ، وكان له أسلوبه الخاص الذى عرف به وامتاز به على أقرانه من أدباء العصر ، فهوت إليه القلوب ، وتفذت منه العقول .

ذلكم هو الأديب الراحل إبراهيم عبد القادر المازنى :

أسرة عربية الأصل

ولد إبراهيم عبد القادر المازنى عام ١٨٨٩ وكان والده على نصيب من الثراء وحظ من الجاه ، وكان يقطر فى بيت كبير وصفه المازنى فى كتابه خيوط العنكبوت فقال :

« كانت بوابته كباب المتولى كبيرة هائلة ، تغطيها المسامير الضخمة التى يعادل رأس الواحد منها رأس الطفل ، وكان له تاج غليظ يدخل فى جدار عظيم السمك »

ويظهر أن أسرة المازنى كانت عربية الأصل ، وآية ذلك ما أشار إليه فى كتابه عن « رحلة الحجاز » فهو يصف وصوله مع أصحابه إلى مكة ويقول أنهم دخلوها دخول الغريب ، أما هو فلم يشعر بشعورهم لأنه على حد تعبيره إبن هذه البلاد بل إبن مكة بالذات فإن جدته لأمه مكية زوجوها وهى بنت عشرين سنة لحلا من أهل المدينة فنشزت فطلقوها ، ثم احتملوها إلى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارته ، فتزوجت جده . ويفخر المازنى فى كتاب « صندوق الدنيا » بنفر عظيم من أجداده الذين يحملون لقبه « المازنى » ، واشتهروا وذاع صيتهم فى أنحاء الجزيرة العربية فى العصور الإسلامية المختلفة ، وقد ذكر منهم مالك بن الريب بن حوط المازنى ، وهلال بن الأسعر المازنى وغيرهما .

دراسة المازني

التحق المازنى بالمدرسة الابتدائية ثم المدرسة الناصرية ، ثم الخديوية ثم بالمعلمين ، ويحكى المازنى عن نفسه أنه بعد أن أتم دراسته الثانوية رغب فى الالتحاق بكلية الطب أو مدرسة الطب كما كانت تسمى وقتئذ ، وما أن دخل قاعة التشريح حتى سقط مغشيا عليه فانصرف عن الطب واتجه إلى الحقوق ، ولكن مصروفات مدرسة الحقوق كانت باهظة إلى أبعد حد فاضطر إلى الالتحاق بمدرسة المعلمين ولنترك المازنى نفسه يكمل ترجمة حياته فى أحد كتبه فيقول :

« ومضت الأيام أعنى الأعوام وصرت معلما وتسلمت من الوزارة الشهادة لى بذلك ولكنى لم أفرح بها لأن ذلك كان بكرهى كما صار من لا أذكر اسمه فى رواية موليير طبيبا على الرغم من أنفه فعينتنى الوزارة مدرساً للترجمة بالمدرسة السعيدية الثانوية وكنت صغير السن ولم تكن لى لحية ولا شارب فكنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بإنبات الشعر فقد اشتهيت أن يكون لى شارب مفتول ، وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ولكن الموسى لم تجد فى فتيلا » .

ثقافة عربية وغربية

أما ثقافة المازنى فكانت متنوعة متشعبة تجمع بين الثقافة العربية والغربية إذ قرأ كتب الجاحظ والأغانى قراءة واعية فاحصة كما قرأ الجرجانى وتأثر بالشريف الرضى وابن الرومى ، ونشر بحثاً عن بشار بن برد ، كما قرأ ديوان ابن الفارض وجمال الدين بن نباته المصرى . وكان يقبل على القراءة فى شغف عظيم ، ولهف شديد ويعتقد أنها غذاء لقلبه وفى ذلك يقول مداعباً .

« ما أظن إلا أن الله جلت قدرته قد خلقنى على طراز عربات الرش التى تتخذها مصلحة التنظيم . . خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ويفرغ ليمتلىء ، أحس الفراغ فى رأسى وما أكثر ما أحس فأسرع إلى الكتب ألتهم مافيها وأحشو بها دماغى حتى إذا شعرت الكظة وضايقنى الامتلاء ، رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء ، وقمت متثاقلا ، ومشفقا من التخمة فلا ينجينى منها إلا أن أفتح الثقوب . . »

ويبدو من كتابه « حصاد الهشيم » أن ابن الرومى أحب شعراء العرب إليه وأعزهم عليه ولذلك فليس أعذب ولا أشهى لديه من أن يقضى ساعة معه ولو كل أسبوع .

ويدل كتابه « بشار بن برد » على فهم دقيق لشخصية بشار وعلى حال الأدب العربى فى العصر العباسى بل فى عصوره المختلفة وقد اهتم فى بحثه ببشار الشاعر ، أما سيرته فهى على سوئها وقبحها لم تكن شراً من سيرة معاصريه .. ومن تلاهم من الشعراء وغيرهم ، وإنما تبدو أسوأ لأنه كان أشهر وعلى الله لاعلينا حسابه ..

أما ثقافته الغربية فكان المازنى من أتباع المدرسة الإنجليزية التى خرجته وخرجت العقاد وعبد الرحمن شكرى ، وكان أعلام الحركة الرومانسية فى انجلترا هم أهم الذين أثروا فى أدبه . كما كان كتاب « الكنز الذهبى » لبالجريف الذى يضم باقة من الشعر الرومانسى المرجع الأول لثقافته وثقافتهم الغربية . .

ويقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد أن المازنى بارع فى الترجمة عن الإنجليزية إلى أبعد حد ويضيف قائلا : « لست أغلو إذا قلت إنى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر أديباً واحداً يفوق المازنى فى الترجمة من لغة إلى لغة ، ويملك هذه القدرة شعراً ويملكها نثراً ، ويجيد فيها اللفظ كما يجيد المعنى والنسق والطلاوة » .

وقرأ المازنى وليم هازلت الناقد الإنجليزى المعروف كما قرأ ماكولى وأرنولد ولى هنت وشارلز لام وسويفت وأديسون وغيرهم من كتاب المقالة ، كما قرأ ديكنز ووالتر سكوت وشكسبير وغيرهم من أعلام القصة والمسرحية .

وصدرت للمازنى مجموعة ضخمة من الكتب نذكر منها « حصاد الهشيم » ١٩٢٤ وقبض الريح ١٩٢٧ وصندوق الدنيا ١٩٢٩ وخيوط العنكبوت ١٩٣٥ كما صدرت له دراسة فى الشعر . غاياته ووسائطه ، وبحث عن شعر حافظ ١٩٢١ واشترك فى كتاب الديوان عام ١٩٢١ مع الأستاذ عباس محمود العقاد ونشر مسرحية غريزة المرأة ومجموعة قصص ميدو وشركاه عام ١٩٤٣ وثلاثة رجال وامرأة عام ١٩٤٣ ، وقد صدرت له إبراهيم الكاتب عام ١٩٣٢ وإبراهيم الثانى عام ١٩٤٤ وأقاصيص عام ١٩٤٤ وع الماشى عام ١٩٤٤ و « من النافذة » عام ١٩٤٩ وهى السنة التى توفى فيها .

ابراهيم الكاتب

وتعتبر قصة « إبراهيم الكاتب » أبرز إنتاجه الأدبى وهى فى الواقع صورة لحياته ، ولو أنه حاول أن يبعد كل شبهة بينه وبين بطل القصة كما حاول أن يخلق مجموعة من المتناقضات بين سلوكه وأخلاقه الخاصة ، وسلوك وأخلاق بطل القصة .

فيقول فى المقدمة : « ولست أحتاج أن أقول أنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية . ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال وأنا أتلقاها بغير احتفال وهو يعبس للدنيا وأنا أستقبلها بأعذب ابتساماتى وأحس السرور بهـا يقطر من أطراف أصابعى كالعرق ، وهو مغرم بالتفلسف وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد وأنا ريق سلس ، وهو نفور وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة وأنا مغتبط بالحياة راض عنها قانع بها وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ضيق الصدر وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع مما كان » .

والقصة تصور جانباً من الحياة المصرية بتقاليدها وعاداتها . وخيرها وشرها وحاول المازنى فى قصته أن يتجنب اللغة العامية ما استطاع إلى ذلك سبيلا بيد أنه استخدمها فى مواضع قليلة حينما بدا له أنها تكون أقوى فى التصوير وأضوأ فى التعبير ، لأنه كان يعتقد أنه ليس من الضرورى أن تكون الكلمة جاهلية ليجوز لنا أن نستعملها ، ويرى أن هذا جمود يؤذى اللغة ، وكل لغة فى الدنيا تقتبس ألفاظاً من اللغات الأخرى أو تضع وتسلك ألفاظاً جديدة تستمدها من حياتها الجديدة ولا يضرها ذلك أو يزرى بها أو يفسدها بل يزيدها سعة ومرونة وقدرة على الأداء .

الحوار فى « عود على بدء »

وقد تجلت روعة المازنى فى السياق والحوار فى هاتين القصتين لولا ما ينقصهما من حبكة فنية متينة كالتى تجلت فى قصته « عود على بدء » . . . هذه البراعة واضحة هنا ملبوسة . . . وكان حواره لذيذاً شائعاً . . فاستهل القصة على هذا النحو :

قالت امرأتى ونحن ندنو بالسيارة من طنطا :

ـــ : بعد زيارة السيد البدوى مل بنا إلى بيت الشيخة صباح لنسلم عليها . .

قلت : لا صباح ولا مساء ، الوقت ضيق . .

قالت : أرجو لأجل خاطرى .

قلت : يا امرأة ألا تتقين فى هـذا العبد الصالح الذى سخره الله لخدمتك وخدمة نبيك ؟

قالت متهكمة ضاحكة ـــ : أنت عبد صالح !

قلت : من حسن الحظ أنه لن تنصب امرأة لنا الميزان يوم الحساب ، على كل حال نحن الآن بعد العصر وما زال علينا ـــ على أنا ـــ أن نقطع مائة كيلو وزيادة قبل أن نبلغ القاهرة ، وأخشى أن يحل بى التعب إذا أدركنا الليل قبل أن نفرغ من الطريق ، أم ترى تعبي راحة لك ، ثم إنك قد سلمت عليها منذ أربعة أيام ليس إلا ، فما حاجتك إلى سلام جديد ؟ ! أهو زاد تتزودينه للطريق ؟ !

قالت وكأنها فى حلم : لست أشبع من النظر إلى حسن وجهها .

وقد صدقت . . .

وهكذا مضى المازنى يشوقنا إلى طلعة الشيخة صباح بهذا الأسلوب المشوق العذب المتسلسل ، ولم يكن يأنف أن يستخدم العبارات الدارجة مادامت لاتخرج عن نطاق العربية الفصحى مثل : «لأجل خاطرى» و« تعبي راحة لك » وما إلى ذلك.

والحق أنه استطاع بأسلوبه الرشيق أن يبعث اللهفة فى نفوس قارئيه لمتابعة قصته حتى النهاية . .

مسرحية غريزة المرأة

وهذه البراعة فى الحوار ظهرت كذلك على نطاق واسع فى مسرحية « غريزة المرأة » التى قدمتها فرقة السيدة فاطمة رشدى على المسرح . والواقع أن هـذه المسرحية لا تنطوى على جديد ولا عمل للخيال على حد تعبير المازنى نفسه فى صياغتها لأنها تصور النفور بين الزوجين وما يؤدى إليه ذلك فى الأحيان الكثيرة من الشقاء وخيبة الأمل فى الحياة ، ويؤخذ من هذه المسرحية أن الوفاق بين الرجل والمرأة لايكون إلا إذا فهم كل منهما طبيعة الآخر ، وما تتطلبه كل من الغريزتين فالشقاق نتيجة العجز عن هذا الفهم وقد تؤدى أسباب أخرى إلى الخلاف والجفوة ولكن من المحقق أن العجز عن إدراك مطالب الغريزة النوعية فى المرأة يؤدى

بلا أدنى شك وفى كل حال إلى فساد ما بينها وبين الرجل ، والفهم الصحيح لا يكون إلا بأثر الدرس العلمى وليست الغريزة النوعية فى المرأة فوضى فإن لها قوانين قد يلحقها الاضطراب أحياناً . . ويصيبها الشـــذوذ ولكنها حتى فى شذوذها غير مستعصية على الدرس .

ويؤخذ من هذه المسرحية كذلك أن دفاع الزوجة عن نفسها لم يكن متاحاً بل هى لو تقدمت إلى المحكمة بما يصلح أن ينهض عذراً لها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ولكنها فقيرة مكروبة ممزقة الأعصاب تكتفى بالفرار مما تكره . . .

وليس من شك فى أن هذه المسرحية تدل على جرأة فى التفكير ويظهر فيها تأثر المازنى بالكاتب المسرحى النرويجى الشهير « هنريك ابسن » الذى كان يعتقد أن الإنسان يعيش فى جو من التقاليـــد والعرف . وأنه لا بد أن يحطم هذا الإطار الزجاجى ويزيل الغشاوة عن عينيه حتى يرى الحقيقة واضحة لا زيف فيها ولا خداع . . .

وقد نادى المازنى فى هذه المسرحية بوجوب النظر إلى الغريزة ، وهذه دعوة جريئة لم تكن تتاح لغيره من الكتاب الذين كانوا يتبادلون فنون الكتابة فى الفترة التى عاش فيها . . .

شعر المازنى

وللمازنى ديوان من الشعر ، وله شعر لم يطبع وقد بدأ فى نظم الجزء الأول من ديوانه عام ١٩١٠ وطبعه عام ١٩١٣ وطبع الجزء الثانى فى أواخر عام ١٩١٥ وأوائل عام ١٩١٦ ويقوم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى هذه الأيام بجمع شعر المازنى كله تمهيداً لنشره فى كتاب ، وقد وصف العقاد أسلوبه الشعرى فقال : « فإن قلبه يتحرى الفخامة فى اللفظ ، والروعة فى حوك الشعر كما تتحرى نفسه على لطافتها — الفخامة فى المشاهد ، والروعة فى مظاهر الكون والطبيعة » .

ومن لطف شعره هذه الأبيات :

ودعته والليـــل يخفرنا   والبـــدر يرمقنى ويرمقه
والماء يجرى فى تدفقه   ويكاد ماء العين يسبقه
والدل ينهاه تمنعه   والحب يأمره ترفقه

لما رأيت الليـل زايلنا وأذاع سر الصبح مشرفه
طأطأت لا أرنو لبهجته فالحسن يطفى الصب رونقه

العاطفة والشعر

وشعر المـازنى يدل على ثقافة أصيلة وقراءة متصلة فى الأدب العربى والغربى ، كما يصور مذهبه فى النقد، فهو يعتقد أن الشعر مجاله العواطف لا العقل والإحساس ولا الفـكر وإنما يعنى بالفـكر على قدر ارتباطه بالإحساس ، ولا غنى للشعر عن الفـكر ، بل لابد أن يتدفق الجيد الرصين منه بفيض القرائح ولـكن سبيل الشاعر لا يعنى بالفـكر لذاته أو لرزانته ، بل من أجل الإحساس الذى نبهه أو العاطفة التى أثارته ، ولا بد للشاعر من عاطفة يفضى بها إليك ويستريح أو يحركها فى نفس القارىء ويستثيرها وما دام الأمر كذلك فقد خرج من الشعر كل ما هو نثرى فى تأثيره أو ما كان فى جملته أو تفصيله عبارة عن قائمة ليس فنها عاطفة ولا هو مما يوقظ عواطف القارىء ويحرك نفسه ويستفزها كشعر الحياة اليومية وشعر المديح كله الذى اكتظت به دواوين شعراء العرب .

الكاتب والشاعر

تلك هى نظرة المـازنى إلى الشعر . . . وهـذا هو الثوب الذى حاول أن يسبغه على نفسه من شعر خالفه التوفيق حيناً وخالفه حيناً . . . ولـكن العقاد يعد على أن المـازنى شاعر أكثر منه كاتباً وهو عنده لا يضارع فى التعبير عن إحساسه نظما مهما يكن الموضوع .

وعندى أن قول العقاد صادق فى بعض شعره ولا أقول كله . . . ولـكن أسلوبه الساحر وثقافته الواسعة وتهكمه اللاذع وسخريته التى نجمت عما ألم به شدائد، وطاف به من أحداث ، خلقت منه كاتباً ممتازاً ، رجحت به كفة الميزان .

محمود تيمور

عكف محمود تيمور فى هـذه الأيام على كتابة القصة حتى أصبح لا يكاد يفارقها ، اللهم إلا إلى بحوث قصيرة فى تيسير اللغة العربية . والكتابة الإنسانية وما إلى ذلك ، وصاحب سلوى فى مهب الريح ، وكليوباترة فى خان الخليلى ، وشفاه غليظة ، وأبو على عامل أرتيست ، ونداء المجهول ، وفرعون الصغير ، وعوالى ، ومكتوب على الجبين ، والمنقذة ، وحفلة شاى ، وغيرها من القصص والأقاصيص والمسرحيات باللغة العربية الفصيحة ، وباللغة العامية الدارجة . كان فى صدر شبابه شاعراً من طراز جديد ، لا يحده بحر ولا تحده قافية ، كان يؤثر الشعر المنثور ويبثه خوالج نفسه ، ولواعج قلبـــه فى أسلوب يفيض رقة وجمالا ويبعث سحراً حلالا .

وسيرى القارىء فى القطع التى اخترناها له من شعره المنثور ، أن أسلوبه يتميز بثلاث سمات : البساطة والإحساس والاتقاد . وفسر الناقد « كولريدج » هـذه السمات الأسلوبية بقوله : « أما عن البساطة فهى من جهة تنفى عن الشعر صعوبة الطرق العلمية وتقتفى طريقاً ممهداً معبداً يمضى فيه القارىء دون مشقة ودون عسر ، ويسير فيه رافهاً وادعاً إلى جانبه الجداول بخريرها ، والأشجار بأزاهيرها ، والمساكن بأهليها ، مما يجعل ابتهاجه برحلته قدر اشتياقه إلى بلوغه مقصده . والبساطة من جهة أخرى تحول دون التكلف ، والشذوذ والاختلال فى المعنى والتعقيد فى المبنى . أما عن الإحساس فى الأسلوب فيتمثل فى تصويره الأشياء على حقيقتها ، وتحديده الصور الذهنية ، وإفصاحه عنها . أما الاتقاد أو الحرارة فى الأسلوب فيتجلى فى صقل العاطفة الإنسانية للحقائق حتى تنفث فيها الحياة .

تلك هى السمات الأسلوبية فى شعر تيمور المنثور وقد زاد عليها صفة ثالثة دعا إليها الناقد الشهير « وليم ورد زورث » ألا وهى عـدم الاندفاع وراء الوزن والقافية ، وإتقان المعنى وكماله ، وهذه الصفات التى تمثلت فى شعر تيمور المنثور هى نفسها التى ظل محافظاً عليها بعد انصرافه إلى القصة واغراقه فى كتابتها ، ونسى

أو تناسى هذا اللون من الأدب ، وغدا (كالهدهد) أشهر قصاص فى الزمن على حد تعبير الأستاذ طاهر الطناحى الأديب المعروف .

تأمل ما كتبه فى (الزهرة العاشقة) التى نشرها فى مجلة « السفور » التى كان يحررها الأستاذ عبد الحميد حمدى بتاريخ ٦ نوفمبر عام ١٩١٩ « وعلى شاطىء الغدير ذى المويجات الهادئة تنمو زهرة من زهور الطبيعة يانعة ممتلئة الساق ، مخضرة الأوراق نشأت تتغنى بالحب ، والحب يملأ ربوع الطبيعة بهجة ورواء . . وعلى صفحة الغدير اللامعة ترى خياله النضر ، ومن الأغصان المتهدلة تسمع أناشيده الشجية ، وفى الليل الحالك المغمض العينين يسبح حولها همس القلوب ، ويلمع أمامها دمع العيون وفى النهار المشرق اللألاء ترى وميض القبلات يسطع كضوء الشمس ، وتشعر بالأنفاس العطرية تهب على وجهها المونق كأنفاس الربيع . . . . » .

وهكذا مزج تيمور الشعر المنثور بالقصص ، ولكنه آثر اللغة الشعرية الرفيعة على أن تكون قطعته قصة لها حبكة وسياق ، وتلك مرحلة لابد منها لنشوء الفنان وتطوره ، فلا بد أن يمر بمرحلة الشعر والخيال قبل أن ينغمس فى غمار الواقع ودنيا الحقائق ، ويلجأ إلى أسلوب الحياة اليومية فى التعبير .

وتأمل ما كتبه فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩ فى عدد من مجلة « السفور » إلى سيدة أهدته صورتها : « أنت طيف دائم لا يتعب ، ولا يمل ، أنت تلازمينى كالزهرة فى ربيع حياتى ، أنت التى تسكنين فؤادى ، وتمدين من بهائك روحى ، أنت التى أسمع من همسها حديث وحدتى ، أنت التى أكتب على ضوء نورها (أشعارى) وهواى . أنت التى أستمد من جمالها راحة ضميرى ، أنت التى آخذ من سكونها يقظة فؤادى أيتها النجمة المتلألئة فى سمائى . . أنيرى يا رفيقة الأحلام طريقاً لذلك الفكر الضليل ليسبح على أشعة ضوئك ، ويصل إلى الله يستمد منه النور والرحمة . . أنيرى يا نجمة المستقبل طريق السلام إلى القلب . . أنيرى بابتسامة من ثغرك الجميل طريقاً سالماً فى خضم الحياة . . تمخر فيه سفينة روحى ، أيها الطيف الجاثم فى قلبى الممتزج بدمى ، السابح فى مخيلة رأسى ، أنت يا من أشكو لك آلام فؤادى . . ويامن أبوح لك بأسرار قلبى . . كفكف الله دموع الماضى التى ما زلت غارقاً فى بحارها . . اسعدينى بربيع الحياة التى لم أتمتع بعد بعذب

نسيمها . . اشقيني زهور السعادة التى لم أسعد بطيب أرجها . . . » .

فني هذه القطعة نجد تيمور يتدفق لوعة وحباً كالعاشق الولهان ، ويتيم شوقاً ووجداً كالمحب المحروم ، بل من يدرى لعل تيمور نفسه كان فى هـذه الآونة يقاسى تجربة حب عنيف يهز أوتار قلبه ، ويحرك نياط لبه ، فإذا به ينقلب حبيباً مستهاماً يتمثل الحب فى كل شيء فى هذا الوجود . ألم يقل بعد ذلك فى مقدمة « الوثبة الأولى » أن الله خالق العالم على صورته ، خلقه على أساس الحب والجمال ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلق إلى الجميل ، ولا يودع مخلوقاته إلا الحب إذ أن الله سبحانه وتعالى المثل الأعلى للحب والجمال .

الحكمة عند تيمور

ولـكن هذا الشعور الذى يتأجج بالحب ويضطرم بالغرام لايلبث أن يستحيل إلى حكمة فى الرأى ، وسداد فى القول كما فى تلك القطعة التى نشرها بعـد قطعة «الصورة» بأسابيع « الصمت هو التفكير . . والرجل الصامت هو الرجل المفكر ، فاجتهد إذن أن لا تـكون ثرثاراً ، العامل الصامت هو العـامل المتقن لعمله ، والكاتب الصامت هو الـكاتب الذى يكتب عن روية وتعقل ، والسيدة الصامتة هى التى تعنى بشئون بيتها . . نابليون بطل فرنسـا ، وكرومول بطل انجلترا ، وواشنجتون بطل أمريكا ، كانوا قليلى الـكلام . . .

وفى كلمة أخرى يقول تيمور : « رحب بالأفكار الجديدة .. بدون تحيز بعد أن تختبرها وتسبر غورها ، وتتأكد من صلاحيتها ، ولاتقصر بحثك كله على الجديد فحسب بل استفد من عقول الأقدمين بحيث لا تقف عثرة فى سبيل جهادك » .

وفى حكمة ثالثة يقول : « أحكم على الشخص بما يقرأ ، واحكم على الأمة بتأليف أبنائها ، فالـكتب مرآة تعكس لك ثروة البلاد الحقيقية بين صفحات كتبها . . فني تلك السطور ، ومن تلك الكلمات تتدفق الـكنوز الذهبية . . كنوز العقل المستنير ، كنوز العمل الحقيق ، استفد إذن من الـكتب القديمة . . واقرأ دائماً بانتظام ومثابرة . . واجتهد أن تعيش فى كنفها تسمع أحاديثها الخالدة » .

وليس من شك فى أن تيمور كان محقاً تماماً فى هذا الرأى ، حتى قيل : « قل لى ماذا تقرأ ، أقل لك من أنت ! » ، ونحن فى مسيس الحاجة إلى شباب يقبل على

القراءة بشغف وأمة تستفيد من التجارب ، وقديماً قال السير إدوارد جيبون المؤرخ الإنجليزى المشهور : « إنى أفضل رغبتى فى المطالعة على كل كنوز الهند » ، وكتب السير جون هرشل الفلكى المشهور يقول : « إنى إذا طلبت من الله أن يوجد فى خلقاً يبقى معى مهما تغيرت أحوال الزمان والمكان ويكون ينبوع سرور لى وسلوى مدى العمر ودرعاً أتقى بها نوائب الدهر ، فذلك الميل هو حب المطالعة . فتيمور أصاب عين الحقيقة بحكمته التى لن تمحى مع الأيام .

وكان محمود تيمور فى صدر شبابه ينقل كثيراً من الآثار الأدبية عن أعلام الكتاب الإنجليز والفرنسيين ، فنقل عن ألفونس دوديه القطعة الآتية وصاغها فى أسلوب عاطفى رقيق ونشرها بمجلة الشباب فى ١٩ فبراير عام ١٩٢٠ وسماها « النجوم » . . « فى الوقت الذى تهدأ فيه النفوس . وتسكن الأجسام ، يصحو عالم آخر سحرى تكتنفه الوحدة والسكون ، فبينما الينابيع توقع ألحانها والغدران توقد نارها يسمع الإنسان من خلال هبوب النسيم فى الفضاء أصواتاً رقيقة تكاد تمر على الأذن فلا تدرك كنهها ، وما تلك الأصوات غير أصوات الأشجار والحشائش وهى تنمو وتمتد خفية فى الليل فلا تدركها الأبصار ، ففى النهار حياة الأفراد من إنسان وحيوان ، وفى الليل حياة الطبيعة وهى متجلية بالليل . . ضاحكة فى سكون الليل تسير خفية بين المروج وتسبح هائمة بين أمواج النسيم ، وتلمع سافرة على صفحات الغدران ، تأخذه رعدة الخوف والوجل » .

ثم انظر إلى ما كتبه باسم « الحياة وداع » فى ١٥ إبريل سنة ١٩٢٠ فى مجلة الشباب قبل أن تأخذ طابعها الانتقادى الفكاهى المعروف : « السيدات يا رفيقى كم أرثى لحالهن . إن كل سعادتهن وكرم سلطانهن وكل غايتهن فى الحياة موقوفة على جمالهن ، فالجمال هو كل شىء عندهن ، وما ذلك الجمال ! إنه هبة عشر سنين لا أقل يهبها لهن القدر . . أنت تعلم أننى كثيراً ما أحببت ككل الناس ولكنى فى الحقيقة لم أحب إلا حباً واحداً وكان ذلك منذ اثنتى عشرة سنة أى قبل الحرب الأولى بقليل ، قابلتها على شاطىء البحر الصغير المستدير كالهلال حيث كانت السيدات تجتمعن فيه زرافات وتكسبه زينتهن البديعة بهجة ورواء ، ناجيت كل شىء فيها . . نظراتها الملائكية ، وابتسامتها الخلابة ، وشعرها اللعوب المتموج بأنفاس النسيم . . كل شىء فيها حتى تلك الملامح الصغيرة المرتسمة على وجهها

الصبوح قد استعبدت عقلى وفؤادى وأشرب حبها نفسى فشغفت حتى بحركاتها العادية ، وملابسها التى كانت ترتديها والتى صارت أمام عينى كأنها نسيج سحرى يستهوى العقول ، فما كان أشد حزنى حينما أرى قناعها أو قفازها ملقى على أحد المقاعد . لقد كان يخيل لى أنها الوحيدة فى لباسها . لا مثيل لقبعاتها بين قبعات النساء . . . » .

التعبير الصادق والابداع الفنى

وهكذا أخذ تيمور يقص على القارىء قصة حبه فى أسلوب أخاذ . ويحاول أن يبرز عناصر الجمال التى استهوته فى غادته الحسناء، والتى تتجلى فى صفاتها الجثمانية التى وهبها الله إياها ، ثم يعبر لنا عن خلجات فكره الصغير دون مواربه ودون محاورة إنما فى صراحة ووضوح وجلاء . . ولا شك أن التعبير الصادق عنصر هام من عناصر الإبداع الفنى ، ولا يمكن إغفاله فى تقييم الأثر الأدبى . ولكن الشىء الذى يستلفت الناقد أن تيمور كان فى صدر حياته يعتنى عناية فائقة باللفظ وصياغة الأسلوب ، ويضعه فى المقام الأول فى كتاباته ولعل أصدق تصوير لصراحة ماوصف به أحد أبطاله فى قصة « اليتيمة » فى مجموعة « الشيخ عفا الله » — وله أسلوب رقيق فى الكلام خال من العبارات المزيفة ، صادر من قلب لايعرف التملق ولا المكر .

وكتب محمود تيمور فى مجلة السفور بتاريخ ٤ سبتمبر عام ١٩١٩ هذه القطعة : ومشى الطفل الصغير . . ذو الأقدام الناعمة على الصحراء الخشنة الملتهبة . . مشى يفتش عن الحقيقة .. ومر الطفل فى طريقه على المدينة الأولى ذات الأعمدة المموهة بالذهب والقصور الملأى بالكنوز ، والأنهر الفياضة بالخمور ذات الابتسامات المهذبة والقبلات الشهية والعيون السحرية ، ذات اللذة الضاحكة ، فأقبل الطفل يجرى فى ساحاتها مرحاً بذلا يسمع أناشيدها ، ويمتع نظره بعيدها ، ويملأ قلبه باللذة ، وجيوبه بالمال ، ثم أخذ يفتش عن الحقيقة . وخرج الطفل من المدينة ذات الأكواخ الصامتة إلى الصحراء الحارة . . ومشى فيها أعواماً طويلة . . حتى بلغ المدينه . . المدينة السوداء ، فأغبر شعره ، وتجعد وجهه ، وانحنى ظهره ، وهناك أمام المدينة السوداء وقف ينتظر أمام الأسوار المظلمة ، والهواء المحترق ، والدخان المتكاثف وهناك بدأ يفتش عن الحقيقة فى الظلمات النائية ، فوجدها .. وجدها

أمام عينيه ولمسها بيديه ، ولكنه لم يستطع رؤيتها .. لأنه صار أعمى .. ولم يستطع سماع صوتها لأنه صار أصما . ولم يستطع أن يكلمها لأنه كان أبكما .

وهذه القطعة من القطع الرمزية التى ولع بها الكتاب فى أوائل هذا القرن ، فضوا يدبجون المقالات ، وينظمون الشعر على هذه الوتيرة مقلدين فى ذلك كتاب الغرب وشعرائهم الذين شاع « الرمز » فى إنتاجهم الأدبى والبحث عن الحقيقة وهو موضوع شائق طالما تناوله كتاب الغرب فى كتاباتهم وسلكوا فى ذلك مذاهب شتى .

ومن ترجمات تيمور مما كتبه فى (السفور) نقلا عن أحد المفكرين الفرنسيين:

السعادة الحقيقية هى أن تعمل دائماً وأن تتمتع بنتيجة عملك ، فالعمل جهاد لنفسك ، وجسمك ، وحصولك على الراحة بعد ذلك الإجهاد راحة الجسم والعقل هو السعادة الحقيقية فى الحياة ، فاجتهد إذن فى أن تعمل لأن السعادة هى العمل .

ترجمات تيمور

وترجم تيمور غير هذه العبارة عبارات بل مقالات شتى فى الفلسفة والأدب عن أعلام المفكرين الغربيين ، وسافر تيمور إلى أوروبا مرات متعددة فشاهد هناك على حد تعبيره فى « فرعون الصغير » . مرئيات ومناظر هزت نفسه وتغلغلت فى صميم قلبه كما أن خبرته بالحياة ومعرفته لها اتسعت وتنوعت فكان لهذه الحياة الجديدة التى عاشها هناك أثر لاينكر فى تطور تفكيره .

وعندما عالج تيمور القصة فى صدر حياته الأدبية كان أنيقاً فى عباراته ، وفى إحدى قصصه « يحفظ بالبوسطة » التى نشرها فى مجلة الشباب فى ١٣ مايو عام ١٩٢٠ أخذ يذكر (جروبى) و (مقاعد الفوتيل) الأنيقة الوثيرة ، وما إلى ذلك من أشياء كان التعرض إليها فى ذلك الوقت لوناً من الترف الفكرى ، ولكن كان لا يعنى أن تيمور اتجه اتجاهاً ارستقراطياً فى قصصه . إنما كان ولايزال يحسن تناول الشخصيات الشعبية كما فى قصة (صابحة) التى نشرها فى الهلال عام ١٩٢٨ وكما فى غير ذلك من القصص ، فتناول شخصيات الشيخ جمعه ، والشيخ غنيم وطاقيته ، وماسح الأحذية ، وبائع الكعك ، والحاج شلبى ، وفتحية الفتاة الساذجة ، وتهانى الفتاة الشيطانة ، وأم الخير الخاطبة ، وأم زيان الفلاحة .. وغير

ذلك من الشخصيات الشعبية تناولا أخاذاً خلاباً يثير الإعجاب به والائتناس إليه ، والتصفيق له ، وجعل همه أن يعرض لفكرة مرت بخاطره أو يسجل صورة تأثر بها مخيلته أو يبسط عاطفة اختلجت فى صدره فيكون أثرها فى نفوس قرائه مثل أثرها فى نفسه .

والمعروف أن محمود تيمور هجر نفثاته وخواطره وأسلوبه الشعرى بعد الربع من القرن العشرين واتجه إلى النثر الواقعى ، ولا يكاد القارى يتصفح مجلات الفجر ، ومجلتى والهلال وغيرها من المجلات ، حتى يجد إحدى روائع قصصه منشورة على صفحاتها .

وشاعت السلاسة فى أسلوبه ، وجرى الأسلوب طلقاً لا تحده لفظة ، أو تقيده عبارة ، ولم يتحرج فى بعض قصصه من تصوير الخلجات النفسية الخشنة دون نفاق ، غير أنه فى الواقع لا يتميز بلون معين من القصص أو الأقاصيص — إنما كان إنتاجه مختلف الأصباغ ، متعدد الألوان ، متغير الأشكال ، يستهوى النفوس ، ويختلب الألباب ، ويتسع لنزعات إنسانية رفيعة مثل نزعات الخير والكمال وحب الجمال ، والصراع بين قوى الخير وقوى الشر ، وبين نداء الرذيلة ودعاء الفضيلة .

مع بعض روائعه القصصية

ولنتحدث الآن عن بعض روائع قصصه القصيرة ولنحيا لحظات بين سطورها .

إنه حادث خطير حدث فى حى الحمزاوى بالقاهرة فى إحدى ورش تجليد الكتب ، وبطلا الحادث عم محمد عوف ، صاحب الورشة وعبد العزيز صبى صاحب الحانوت وهو فى الخامسة عشرة من عمره يتيم الأبوين ضعيف البنية .

ولنبدأ القصة من أولها ، كان محمد عوف رجلا مديد القامة ، جسيماً وسيماً تبدو عليه إمارات القوة والفتوة بين أبناء الحى الذين يرهبون سطوته ويخشون لسلطانه ، وكان الصبى « عبد العزيز » من أحب الأشخاص إليه علمه سر الصنعة حتى أصبح ساعده الأيمن فى إنجاز شتى أعماله ، وفجأة بينما كان المعلم عوف يركب الترام إذ سقط تحت عجلاته فبترت ساقيه وأصبح كسيحاً . ومنذ ذلك الوقت استقر عوف فى بيته المتهدم وتحاشى الناس ، وظل أسير سجنه الرهيب تنتابه

نوبات عصبية حادةفيندفع كالبركان الثائر يقذف الحمم ، أو يزمجر كالأسدالحبيس ، وهو يئن أنيناً مفجعاً ، وظل عبد العزيز ينظم عمل المعلم عوف فى حانوته ويحمل إليه مما يجلد من كتب وكراريس ربحه يسطره عليها من حروف بماء الذهب ، غير أنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أن عبد العزيز يسخر منه لعجزه ، فإذا هو الآمر الناهى فى بيته وحانوته ، وإذا هو يسير مختالا كأنه يقول له أنه الكسيح وهو الصحيح ورأس معلمه إلى الأرض وهو زاحف ورأس عبد العزيز إلى العلاء وهو يسير ، فانقلب الرجل ثوراً هائجاً يعض الوسائد ويمزقها بأسنانه ، ويبعثر قطنها فى أرجاء الحجرة فعز على عبد العزيز أن يعتقد فيه معلمه وولى نعمته هذا الاعتقاد وهرع فى حالة عصبية خطيرة إلى ورشة التجليد حيث وضع ساقيه تحت الآلة القاطعة للورق ففصلت ساقيه عن جسده وغمرت أرض الورشة بطوفان من الدماء — ولما علم المعلم عوف بهذا الحادث الجلل هدأت نفسه وتحامل على مسندين خشبيين ورجع إلى حانوته ليزاول عمله مرة أخرى ، كأن شيئاً لم يحدث . واستبدل ساقيه المبتورين بساقين أنيقين من الخشب .

أما الحادث الثانى فوقع فى أحد المسارح الأهلية بأحد أحياء القاهرة إذ قتل ممثل قديم يسمى « محفوظ » صاحب فرقة مسرحية كبيرة لأنه قام بتمثيل دوره على خشبة المسرح ، وكان هذا الممثل القديم يقوم بتمثيل البطل فى هذه المسرحية منذ أكثر من عشرين عاماً ، وكان يمثل دور « الحاكم طيب القلب » . وظل الممثل يعيش فى هذا الجو طيلة هذه السنين بين المآدب الفخمة ، والكئوس المذهبة ، والأردية النفيسة من المخمل والحرير التى يتلفع بها ، حتى استغنى عنه مدير الفرقة أخيراً وأحاله إلى المعاش ، ورغم أنه قد منحه معاشاً كاملاإلا أن هذا الاعتزال أثر فى نفسه تأثيراً كبيراً فقامت عليه سحابة من الحزن والأسى ، وقصد إلى أحد الأحياء النائية ، بعيداً عن أصحابه ومعارفه ليقضى الفترة الباقية من حياته وكان يمضى إلى القهوة ليقضى فيها نهاره وشطراً من ليله ، مع أنه كان يكره الجلوس فيها . لقد كان المسرح ملجأه الوحيد الذى لايعرف سواه ، يقضى فيه أوقات راحته وعمله بين أشخاصه وقصوره . وتلاله المكدسة من المناظر والملابس وأصناف المتاع . وفجأة بينما كان محفوظ يجلس فى القهوة إذ وقع فى يده إعلان من إعلانات المسارح وكاد يصفق من الدهشة حينما قرأفيه أن فرقته

التى كان فيها ستقدم مسرحيته المفضلة ، وأن مدير الفرقةسوف يقوم بدورالبطل، وهو درر الحاكم المسالم الطيب القلب الذى طالما قام به بنفسه .

وتجمعت فى رأسه ذكريات عشرين سنة كاملة وفى حركة آلية توجه صوب المسرح ، ودخل إلى مخزن الملابس حيث انتزع من الخزانة طيلسان الحاكم وصولجانه ، وطفق يرتدى ملابسه وهو يتأمل نفسه فى المرآة ، ثم خرج من الحجرة ولحيته تنحدر على صدره فى جلال بين عزف الموسيقى وقرع الطبول ، وصوت البوق الذى يعلن قدومه يجلجل فى الفضاء ، حتى وصل المسرح بخطى ثابتة متزنة ، وفجأة لاح له شخص آخر فوقف يتأمله فى غيظ وضيق وطلب منه أن يفسح له الطريق غير أنه لم يستجب لندائه .

فعز عليه ذلك وأصاب منه مقتلا ، فخر لتوه على الأرض وأصبح جثة هامدة لاحراك فيها . وكان الأمر حقيقة واقعة لامجرد تمثيل !

أما الحادث الثالث فقد وقع فى منزل « فضلى بك » ، وهو رجل أعزب من أصحاب الأملاك يبلغ الستين من العمر ويعيش مع إبنه « يحي » فى حى الحلمية . وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره وموظف فى إحدى الوزارات ويعيش عيشة أبناء الذوات الذين يقضون أوقاتهم فى السهر واللهو .

وليحي كلب مدلل من الكلاب الأصيلة ، كان يصطحبه معه فى سيارته فى نزهاته ، ويطعمه من أكله ويعتنى بنظافته إلى حد يفوق الوصف ، وحدث يوماً أن خرج يحي فى سيارته الجديدة مع فريق من أصحابه لرياضة ليلية فى الضواحى ، وتهور فى القيادة فصدمه عمود من أعمدة الترام فى الطريق صدمة أودت بحياته كما أصيب رفاقه من جرائها بجراح بالغة .

وطار لب « فضلى بك » من هذا الحادث وخيم عليه الحزن ، وظل حبيس منزله لا يبرحه ، وتحاشى الناس به وعكف على إطعام الكلب المدلل الذى تحول نفوره منه إلى حب وعطف . فكان يطعمه ، ويرقده تحت سريره ويحضر له ما لذ وطاب من الحلوى وهو يقول : « لقد كنت حبيب إبنى يابمبوش ، وحبيب إبنى حبيبى » ! ! ، وظن فضلى بك أنه يستطيع بذلك أن ينسى فقد إبنه ، غير أنه لم يقو على ذلك . وظل الألم يعاوده حتى اضطر أخيراً أن يغادر منزله القديم فى الحلمية وينتقل إلى مصر الجديدة وهناك اختار « فيلا » أنيقة تحيط بها حديقة

جميلة واسعة ، وبنى فيها للكلب ظلة نظيفة جميلة يبقى فيها .

ولكن الذكريات لم تغب عنه . وظلت أطيافها وأشباحها تعاوده بين الحين والحين وكلما سمع نباح الكلب تذكر ابنه يحيى . وتلاحقت الأيام واستيقظ فضلى بك ذات ليلة من نومه على نباح الكلب المدلل طار لبه ، ونزل لتوه إلى الحديقة وهو منفوش الشعر محتقن الوجه وهوى عليه بالعصا حتى قتله .

ليست هذه حوادث وقعت فى القاهرة إنما هى حوادث وقعت فى قصص الكاتب القصصى اللامع محمود تيمور ، الأولى فى قصة «ساق من خشب» فى كتاب «ثائرون» ، والثانية فى قصة «تاج من ورق» فى كتاب «مكتوب على الجبين» والثالثة فى قصة «بمبوش» فى الكتاب السابق ، ولعل هذه القصص أروع ما كتبه القصصى المصرى فى ميدان القصة الحديثة .

وقد استخدم تيمور فى قصته الأولى كل عناصر التشويق والإثارة ، والحبكة والحوار ، ورواها على لسانه كأنه شاهد من شهود الواقعة ، وفرد من أفرادها على النحو الذى يلجأ إليه كتاب الغرب فى رواية أقاصيصهم ليحس القارىء بالواقعية تسرى فيها ولا يجد فيها مجالا لتهاويل الخيال ، أو تصاوير الكذب والبهتان .

وعالج تيمور فى هذه القصة العقدة النفسية التى تنتاب الإنسان من جراء النقص الذى يصيب شخصه سواء كان نقصاً معنوياً أو مادياً يمس جسده أو تكوينه الخلقى ، فتعتريه عقدة النقص التى تسيطر على كل أفكاره وتصرفاته ، ويقول «مكبريد» فى بحثه عن عقدة النقص «إن العجز العضوى هو أحد أسباب النقص الرئيسية وقد يبلغ هذا الشعور بالنقص العضوى فى طفل حساس درجة مرة حادة . »

ونجح تيمور فى تصوير الأزمات النفسية التى تصيب هذا الرجل بعد أن إصيب فى حادث الترام نجاحاً منقطع النظير ، ورغم أن القصة ذات نهاية مفجعة مفزعة تسيل فيها الدماء وتتقطع الأشلاء ، إلا أنها تصوير صادق لبعض خوالج النفوس محاطة بالإطار عذب من القصة ، وأسلوب جميل من الحوار .

أما القصة الثانية «تاج من ورق» فتصور نفسية كثيراً ما تنتاب الممثلين الذين يندمجون فى أدوارهم اندماجا كليا حتى تصبح حياتهم قطعة من التمثيل . ويحدثنا المؤرخون والناقدون مثل برادلى ، وهازلت ، أن شكسبير كان يندمج

فى تمثيل أدواره اندماجا كليا ، حتى يصعب على أحد أن يتفاهم معه بعد إنهاء المسرحية بفترة طويلة ، وظل موليير يمثل « مريض الوهم » وهو يتقمص شخصية البطل على المسرح ويهز إعطاف النظارة بفكاهته وخفة روحه حتى سقط على خشبته وهو لايزال مندمجاً فى دوره ولا يحس بدبيب الموت وهو يسرى فى جسده .

أما القصة الثالثة فيمكن أن تكون واقعية كالقصتين السابقتين وتصور الحالة النفسية التى يسميها علماء النفس انتقال العواطف ، فقيس يمر على ديار ليلى يقبل ذا الجدار وذا الجدار لا حباً للديار ولكن شوقاً لمن سكن الديار ، وهلم جرا . فالحب انتقل من الكائن الحى إلى الجماد كما هو الحال فى هذه القصة انتقل من الإنسان إلى الحيوان ، وقصة « بمبوش » فضلا عن ذلك وهو اسم الكلب المدلل تعطى لنا صورة صادقة عن العلائق التى تربط الإنسان بمن يحب ، سواء كانت علائق مادية أو معنوية ، إذ تظل تعاوده بين الحين والحين . واستطاع بطل القصة أن يتخلص من بعض هذه الروابط مثل المنزل الذى كان يجلس فيه ، والأصحاب الذين كان يقص عليهم أخبار ابنه ، وبقى الكلب بمبوش يعكر عليه معيشته ويحول بينه وبين الهناء والنسيان حتى وجد فى نفسه الشجاعة أخيراً ، وانقض عليه حتى أسلمه للموت .

يوسف السباعي

ليصدقنى القراء ، وليصدقنى الأستاذ يوسف السباعى نفسه بأنه شخصية عجيبة معجبة فهى تدعو إلى العجب والإعجاب ، لأنها منتجة إلى أبعد حدود الإنتاج فى الوقت الذى جفت فيه أقلام غيره من الأدباء . وعاشوا على تراث ماضيهم القديم ، فهو قد أخرج أكثر من أربعين كتاباً وسنه لاتتعدى الأربعين أو تعدتها بقليل على ما أعلم ، وهو فى نفس الوقت يزاول عمله سكرتيراً للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بهمة ونشاط ويحضر الاجتماعات الدورية التى يعقدها المجلس ويحضرها السيد وزير التربية والتعليم والسيد وزير الإرشاد القومى ، وانتهى فى الوقت نفسه من تأليف بعض القصص للسينما .

ويعمل فى المؤتمر الآسيوى الإفريقى سكرتيراً عاماً له ، ويجتهد فى نفس الوقت فى تحضير رسالة الدكتوراه فى الصحافة من قسم الصحافة بكلية الآداب بجامعة القاهرة وعنوان رسالته « القصة الصحافية » .

فشخصية السباعى إذن كما ترى شخصية عجيبة حقاً ، ثم هى معجبة تدعو إلى الإعجاب ، وتبعث على الإكبار ، لأنها تقوم بهذه المهام دون أن يقعدها شىء فى سبيل أداء واجبها على الوجه الأكمل ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

طريق العودة

ومن أروع القصص التى أخرجها يوسف السباعى قصة « طريق العودة » وهى من القصص التى نسردها لا على سبيل الحصر إنما على سبيل المثال ، وهذا لايمنع أدباء الشرق من أن يبخروا يوسف السباعى إن صح هذا التعبير من عيون الحساد والحقاد .

وقصة طريق العودة حدثت فى خريف عام ١٩٤٨ أثناء المعارك الحاسمة التى انتهت بها عمليات القتال فى حرب فلسطين ، وهى تجمع بين الحب والحرب ، فهى تعطينا صورة واضحة عن كفاح الجيش فى تحرير هذا البلد العزيز ، وما كان يقدم

إليه من أسلحة فاسدة ، ومهمات شائنة ، وبطل القصة عند يوسف السباعي هو إبراهيم ، وهو شاب مهندس متقدم ، تخرج فى كلية الهندسة ، ثم التحق بالجيش وتساوره أفكار الشباب الجريئة ، ولذلك فهو حركة دائمة دائبة تهدف إلى الإصلاح ، وترغب فى التعمير ، لا تعجبه نظم الجيش ، فيحاول أن يصلحه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا تعجبه نظم الحياة اليومية فى الشكنات فيحاول أن يجعلها تسير على نظام سليم ، ولا تعجبه الشكنات نفسها فيحاول أن يشيدها على طراز جديد يتمشى مع روح العصر . وقد اشتغل هذا المهندس تارة كمهندس معمارى ، وتارة أخرى كمهندس معمارى ومقاول فى نفس الوقت ، فحالفه التوفيق مرة وخانه التوفيق مرات ، ثم التحق على أثر ذلك بخدمة الجيش ، وانتهى به المطاف إلى الانتقال إلى العريش ، وفى القطار التقى بصديق له هو الملازم أول محمود مراد الذى كان يعمل معه فى الجيش ، وكان ضابط إمداد آلاى الدبابات ، وقد نجح يوسف السباعى فى تصوير حياة هذا الشاب إذ رسم لنا شخصيته وهو يقضى أسبوعه ، ثلاثة أيام فى القاهرة للعائلة ، وثلاثة أيام فى الإسماعيلية للرفق (بنت جميلة عبارة عن لوز مقشر) ، ويوم الحرية (خبص منفرد ، وتفاريح وسكر وعربدة على ماقسم) كما نجح فى تصوير حدته وغلظته وهو يسرق الأخشاب من عهدة إبراهيم ليبنى بها جراجاً لثلاث دبابات جديدة خشية أن تبيت فى العراء ، ثم وهو يضرب بواب البيت الذى كان يقطن فيه فى الإسماعيلية لأنه كان يستيقظ عند البكور ليؤدى صلاة الفجر ، ولم يكن يؤدى الصلاة فى صمت وسكون ، إنما كان يرفع صوته بالأذان ، عالياً مدوياً فينفض النوم من عينى مراد ، ويسلبه لذة الرقاد ، فلم يجد محمود مفراً من النزول إلى الشارع ليصفعه على وجهه صفعات قوية . المهم أن إبراهيم التقى بصديقه محمود مراد فى القطار أثناء سفرهما إلى العريش ، والمهم أن إبراهيم ومراد عندما وصلا إلى العريش استطاعا أن يجدا مأوى مناسباً لهما ، ولم يلبث إبراهيم أن دعا زوجته وابنته نادية إلى الحياة معه فى العريش ، فلم تجد زوجته مديحة غضاضة فى السفر إلى هناك إذ كانت طيعة طيبة ، لا تعصى له أمراً ، وتلتزم حد النصح ولا تتعداه إلى المناقشة أو الإصرار ، وهى أميل إلى الهدوء والصمت ، لا تحب التدخل فيما لا يعنيها ، ولا تهمل واجبها حياله أو حيال ابنته نادية ، والتقت مديحة فى العريش بصديقتها فى الدراسة زوجة البكباشى عبدالرحمن وكيل المحافظة ، ونشأت بينهما ألفة ومحبة ، أو إن شئت الدقة

فقل عادت الألفة والمحبة إلى صورتها القديمة ، وأيامها الخوالى ، وعرضت زوجة البكباشى عبد الرحمن على مديحة أن تبعث إليها بخادمتها لتعينها فى خدمة بيتها لأنها حضرت إلى العريش بدون خادمة فأبت مديحة عليها ذلك وأخيراً استأذنت من زوجها البكباشى عبد الرحمن أن ترسل إلى مديحة الفتاة نهى ، لترعى نادية ابنة الضابط إبراهيم ، وهى فتاة فلسطينية من نابلس فقدت ذويها ، بعد اعتداء اليهود على العرب وطردهم من أراضيهم ، وقد لقيها مراد وحيـــدة فى أحد معسكرات اللاجئين ، ولمس فيها هدوءاً وسكينة ، ودعة وطيبة ، فطلب منها أن تصحبه إلى بيته حيث عاشت مع زوجته ، وأبنائه الصغار ، ولم تكن نهى تتعدى فى ذلك الوقت الرابعة عشر من عمرها .

زوجة إبراهيم في مأزق حرج

وأرسل الضابط محمود مراد فى طلب زوجته للحياة فى العريش ، لحضرت زوجته ليلى إلى هناك ، غيرأنه كان يضيق بالحياة فى العريش ، رغم وجود زوجته فيها ، فكان ينتهز فرصة إجازاته ليسافر إلى الإسماعيلية أو إلى غيرها من المدن ليقضى لبانته هناك وينهب ما شاء من اللذات ، واضطرت ليلى عند سفره أن تقيم فى بيت الضابط إبراهيم حيث عاشت مع مديحة فترة من الوقت . وكانت مديحة تكرم الضيوف وتحسن استقبالهم . وتهش لمقدمهم ، غير أن مراد سافر وأطال السفر ، وغاب وأسرف فى الغياب ، وبقيت ليلى فى بيت مديحة وأطالت البقاء ، وكان لابد لهذا البقاء أن تكون له نتائج . وأن تكون من نتائجه أن تشتد الألفة بين زوجها إبراهيم وليلى فيتبادلان النظرات الجميلة ، ويتجاذبان الكلمات الناعمة ، وتحس مديحة أثناء نظراتهما وخلال حديثهما بأن شيئاً خفياً يربطهما ، لاتستطيع أن تعبر عنه فى وضوح وجلاء ، غير أنها شاءت أن تقطع الأمر قصيراً كما يقول الأوروبيون وتمنت أن تسافر ليلى بين الحين والحين ، وزاد الطين بلة أن والد مديحة أصبح مريضاً وتلقت مكالمة تليفونية من والدتها فى مصر تشير عليها بالرحيل إلى القاهرة فزادت هواجسها ، واشتدت حيرتها ، إذاً كيف يمكن لها أن تسافر وتترك ليلى مع زوجها ، ولاحت لها فكرة طارئة ، وهى أن تدعو ليلى إلى السفر معها إلى القاهرة ولم تكد تعرض على ليلى هـــذه الفكرة حتى حدث ما ليس فى الحسبان ، فقلب أفكار مديحة رأساً على عقب ، حدث أن كانت نادية ابنة

الضابط إبراهيم تلعب فى الحديقة فتسلقت سلماً لتحضر عش العصافير الموجود فوق سقيفة العنب ، وكادت تهوى على الأرض . من فوق السلم فهرعت لإنقاذها غير أنها سقطت معها على الأرض ، فكسرت ساق ليلى . وتجسمت المشكلة أمام مديحة عنـدما طلب منها الطبيب المعالج الراحة التامة ووضع ساقها فى الجبس ومنعها من الحركة .

لم تجد مديحة مفراً من السفر ، ومغادرة العريش إلى القاهرة بعد أن تركت ليلى فى رعاية الفتاة الفلسطينية نهى التى وعدتها بالعناية بها أثناء علاجها ، كما طلبت منها مديحة ، والواقع أنها كانت تطلب من نهى إلى جانب هذه العناية عناية أخرى لا تقل عن الأولى أثراً ولا خطراً ، ولم تكن تستطيع التعبير عنها . ألا وهى ملاحظة العلاقة النامية بين ليلى وزوجها إبراهيم .

وأخذ عطف إبراهيم يزداد نحو ليلى ، وكان المرض فرصة للتعبير عن العواطف فى وضوح وجلاء ، وصراحة وصفاء ، وعندما شفيت ليلى من مرضها واستطاعت السير على قدميها ، وقفت نهى بعد الأصيل ذات يوم فشاهدت شبحين خافتين باهتين يسيران وقد تشابكت أذرعهما ، والتصقت أيديهما ، ولم يكن هذان الشبحان غير ليلى وإبراهيم .

ويدوى صـوت البوق فى الفضـاء وينادى المنادى هيا إلى القتال ، وتشتد المعارك بين المصريين واليهود ، وتسيل الدماء ، وتتقطع الأشـلاء ، ويرخص الفداء ، ويدعى المصريون لملاقاة اليهود فى قوة وعزم وإرادة وتصميم ، ويحضر مراد إلى جبهة القتال ويشترك فى الحرب الضروس كما يشترك فيها إبراهيم بحماسة منقطعة النظير ، ويوشك مراد أن يقع فى الهلاك ، وتحصره النيران من كل جهة ، وتراود الأفكار ذهن إبراهيم أن ينقض عليه كالصاعقة ، فيأخذ البقية الباقية فى حياته ، حتى يصفو له الجو مع ليلى ، ولـكن هذه الأفكار الشيطانية سرعان ما اختفت من مخيلته ، ووبخ نفسه على التفـكير فيها ، ومضى إلى المعركة بعزم لا يلين ، وقلب لا يستكين ، وظل يكافح ويجاهد ويشترك فى عمليات القتال حتى أدركته شظية فسقط على الأرض شهيداً ، ولم يمت مراد إنمـا مات إبراهيم بعد أن كفر عن أفكاره فى آخر لحظة قبل الموت ، وشاء القدر أن يجعل ميتته ميتة الشهيد الـكريم .

هذا هو ملخص قصة « طريق العودة » التى تقع فى ٤٣٠ صفحة وهى كما ترى قصة من قصص الحرب والحب ، والواقع أنى قرأت هذه القصة بعد فراغى من قراءة كتابين فى فن القصة أحدهما هو كتاب إدوين ميور Edwin Muir (بناء القصـــة) The structure of the Novel والآخر وهو كتاب مظاهر القصة Aspects of the Novel لفورستر .. Forester وهو مجموعة من المحاضرات ألقاها فورستر فى كلية ترنتى بكامبريدج ، وأعجبنى من ميور تفريقه بين القصة الأخلاقية والقصة الدراماتيكية ، وتحليله لعناصر القصة المختلفة ، ومما قاله ميور أن عقدة القصة الأخلاقية تكون منتشرة ممتدة فى فصول القصة جميعاً ، أما عقدة القصة الدراماتيكية فتكون مشددة ومبالغاً فيها فى بعض الأحيان ، وقصة يوسف السباعى من اللون الدرامى والزمنى ، ويطلق عليها نقاد الغرب Perlod Novel ، وقد استطاع يوسف السباعى أن يحل عقدة الحب بين إبراهيم وليلى زوجة الضابط الغائب بالاستشهاد فى ميدان القتال ، الذى وصل بنا إلى الخاتمة .

ويقول يوسف السباعى أنه أخذ قصته من صديق له ، واعتذر له عن طريقة ختامها لأنه استعارها من حياة غيره ليختتم بها قصته ويحل مشكلته ، وهكذا كانت العقدة عند يوسف السباعى تبلغ ذروتها وتصل إلى أوجها ثم يحاول أن يحلها حلا دراميا مثيراً ، والمعروف عند النقاد الغربيين أنه كلما كانت الخاتمة طبيعية مسايرة لطبيعة الأشياء ومتناسبة مع أحداث القصة كان القصاص موفقاً فى إنتاجه الأدبى ، ويوسف السباعى فى ابتداعه هذه الخاتمة لا يناقض طبائع الأشياء ، أو يأتى بأمر يتنافى مع أحداث القصة المملوءة بشظايا القنابل ورائحة البارود .

ورغم ما يوجد فى القصة من تناقض فى بعض الأحيان كالذى يوجد فى شخصية إبراهيم الرجل الجاد الذى لا يعرف العبث أو الطيش ثم لا يلبث أن يقع فى غرام زوجة زميله رغم هـذا الوضع الذى يعتبر فيه بعض التناقض فإن يوسف السباعى استطاع أن يحل عقدة الرواية حلا سليما يتمشى مع مقدمتها كما استطاع بهذه القصة أن يصور فترة زمنية معينة من تاريخ الشعوب العربية وهى فترة القتال فى فلسطين واستشهاد المصريين فى معارك الحرب . مما كان له أكبر الأثر فيما بعد فى تاريخ البلاد وقيام ثورة الجيش الناهضة .

آراء فورستر وقصة السباعى

وقد أعجبنى من فورستر فى كتابه تقسيم الشخصيات عنده إلى شخصيات منبسطة Flat characters وشخصيات دائرية Round characters والشخصيات الأولى هى التى لا تتغير ولا تطرأ الحوادث عليها فتغيرها أو تستدير بها ، والشخصيات الأخرى هى التى تتغير تبعاً للظروف كالدائرة تجابه كل وضع بناحية منها ، وتتغير فى دورانها .

وشخصيات أبطال طريق العودة من هذه الشخصيات الدائرية التى أشار إليها فورستر فى كتابه لأنها تتغير تبعاً للظروف والأحوال .

وشخصية مراد الضابط العابث من أمتع الشخصيات فى القصة فهو يثير الضحك حيناً ، والإشفاق حيناً آخر ، بل إنه يثير فينا السخرية وهو يتهكم على زوجته التى « تمشى على الحيط » ، وصور لنا فى حوار الطفلة نادية مع الفتاة نهى شيئاً من أهوال حرب فلسطين وفظائع اليهود ، إلا أن الحكمة كانت تجرى على لسان نهى بصورة تختلف كل الاختلاف عن سنها الصغيرة كقول الصغيرة « هل المدفع يضىء الطريق ؟ » فتجيب نهى « المدفع يظلم طريق السلام ويضىء طريق العدوان » ، وأكثر يوسف السباعى من بعض التفصيلات كالنقاش الذى دار بين الجميع حول شرب الشاى بقطعتين من السكر أو أربع قطع منه ، غير أن هذه التفصيلات كانت لذيذة وممتعة حقاً ، عندما كان يتعرض لوصف الطريق عند الرحيل فالقطار ينساب تحت سقيفة محطة مصر ، ثم ينحسر ظلها عن نوافذه ، وتلقى الشمس أشعتها على ساق إبراهيم وتتواتر أمام عينيه الأشجار والأسوار والدور العالية ، والعربات المتسابقة فى الشارع الممتد جواره ويخلف القطار وراءه عمارة غمرة العالية ثم أكشاك سكة الحديد السوداء ، وعرباتها المتناثرة هنا وهناك ثم الحقول الخضراء ، فهذه تفصيلات تشعرنا حقاً بأننا مسافرون وأننا نبرح محطة القاهرة لبلد آخر ، كما تشعرنا بأن يوسف أديب شائق رائق يصور ما يراه تصويراً صادقاً رائعاً لا تهويل فيه ولا تنسيق .

ولكنى لا أدرى حكمة يوسف السباعى فى تصوير شخصية مراد الذى يترك زوجته فى العريش وكأنه لا يتركها هناك ، فهى ليست فى باله أو تفكيره ،

دون أن يعترى قلبه أى شعور بالغيرة عليها ، وقد يقال أن واجباته الوطنية تفرض عليه مبارحة العريش فى فترة من الفترات غير أن هذا لايمنع من إرسال زوجته إلى أهلها إن استدعى الأمر غيابة عنها لمدة غير وجيزة .

أسلوب القصة

وقد يعيب بعض النقاد على يوسف السباعى أنه استخدم بعض الألفاظ العامية فى قصته مما هبط بمستوى اللغة فيها غير أن الواقع يختلف عن ذلك تماماً ، فالنقاد المحدثون ومنهم تشارلتون Charlton يرون أن المهم فى لغة القصة لا أن تكون عالية أو هابطة أو بمعنى آخر لا أن تكون فصحى أو دارجة إنما المهم أن نقول هل هذه اللغة لبست شخصيات القصة أم لا ، وعبرت عن أحاسيسها وشعورها حق التعبير أم لا . ونحن بهذا المقياس ، وأنا أؤيده ، نرى أن أسلوب يوسف أسلوب ممتع لذيذ حقاً وأنه حفل فى بعض المواضع بالعبارة حتى ارتقى إلى مصاف والده طيب الله ثراه .

إنى راحلة

لست أدرى لماذا كانت قصة « إنى راحلة » للأستاذ يوسف السباعى من أحب القصص إلى نفسى ومن أعمقها أثراً فى قلبى ، ولست أدرى لماذا كنت أقبل على قراءتها مره ومرة ومرة ، ولا أكاد أنتهى من قراءتها وتمر الأيام أو الشهور وإذا بى أعود إلى قراءتها من جديد ، وإذا بها تحدث فى نفسى ما كانت تحدثه من متاع فكرى لذيذ ، ولذة روحية خالصة ، وتترك فى قلبى ما كانت تتركه من تعلق بها ، وإكبار لها ، وإعجاب بكاتبها ، ولست أدرى لماذا لا أقرأ هذه القصة إلا وأتذكر قصة « روميو وجوليت » ، ولا أتذكر مأساة أحمد وعايدة إلا وأتذكر مأساة العاشقين الخالدين التى حدثت فى مدينة فيرونا وهى إحدى مدن إيطاليا ثم ذاع صيتها فى مختلف الأقطار والأمصار ، وسار بذكرها الركبان .

والواقع أن قصص يوسف السباعى جلها إن لم تكن كلها من الذخائر الثمينة فى القصة العربية الحديثة ، ولست أكتب هذا الكلام لأن يوسف السباعى رئيس لتحرير مجلة سيارة ، أو لأن يوسف السباعى سكرتير المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، إنما أكتب هذا الكلام لأن يوسف السباعى قصصى من أمتع

القصصيين فى الأدب العربى الحديث ، ولا بد لمؤرخ الأدب العربى الحديث أن يقف وقفة قد تطول وقد تقصر عند إنتاجه الأدبى ، الذى ينهمر فى بعض الأحيان كالمطر المدرار أو الغيث الهتون ، فيصيب الأرض بكثير من الرخاء والخصب والنعمة.

والحق يقال أنه مهما وجه إلى يوسف من النقد ، ومهما كان نصيبه من لوم اللائمين وتجريح المجرحين فإنه لايختلف فى طبعه عن رواد القصة فى الأدب العالمى . فهو لايزعم أن قصصه جميعاً آية فى الإعجاز ، ولايدعى أن قصصه نموذج مثالى للقصص الرفيع . إنما يتواضع ويرى أن التوفيق يحالفه مرة ويخونه مرات ، وهو من أجل ذلك يسعى دائماً إلى الكمال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما وجد إلى ذلك طريقاً .

ولم يستطع شارلز ديكنز ولا ثاكرى ولا هاردى فى الأدب الإنجليزى أن يقف فى مستوى واحد فى جميع قصصه ، وقل مثل ذلك عن موباسان وبلزاك وفلوبير فى الأدب الفرنسى وقل مثل ذلك عن إدجار الن بو ووليم فولكنر ومارك توين فى الأدب الامريكى ، وقل مثل ذلك عن تولستوى وديستوفسكى وترجنيف فى الأدب الروسى .

وقصة يوسف السباعى التى نقدمها فى هذا الفصل من أروع ما كتب يوسف السباعى بل من أروع ما كتب قصصى فى القصص العربى الحديث .

وتحكى قصة « إنى راحلة » حكاية فتى يسمى أحمد نشأ بينه وبين بنت خالته عايده حب قوى جارف رغم ما كان بين الأسرتين من شبه عداوة أو عداوة مستترة ، وكانت عايده فى بادىء الأمر تترفع عن قريبها وتعامله بشىء من الكبرياء وكان قريبها يعاملها بنفس المعاملة غير أن الثلج لم يلبث أن تحطم بينهما كما يقول الفرنجة ، ولم يلبث هذا الفتور أن استحال إلى عاطفة قوية تجرف أمامها كل شىء ولا تقيم لشىء وزناً ، وإذا بعايدة لايغمض لها جفن ولا يقر لها بال ولا يهدأ لها حال حين تبعد عن صاحبها وإذا صاحبها لايطيق عنها فراقا ، ويسعى عقب تخرجه فى الكلية الحربية إلى طلب يدها ، ولكن أباها « المقاول » الذى أصبح من كبار الأثرياء فى مصر ، وأنعمت عليه السراى برتبة الباشوية ، يرفض هذا الزواج ويرى ألا مستقبل لأحمد إلا الغرض المحدود ، ولا دخل له إلا الراتب الثابت وستقضى ابنته عمرها زوجة صاغ أو بكباشى ، وتظل تعدو وراءه من العريش لمرسى مطروح لمنقباد . ويعرض

الوالد على ابنته الزواج من تهانى بك ابن رئيس الوزراء السابق الذى ينتظره الأمل المشرق والمستقبل الباسم ويستطيع أن يكفل لها حياة ناعمة رغيدة .

ولا تملك الفتاة إزاء إصرار والدها إلا أن تقبل الزواج من « تهانى بك » ولا سيما بعد أن أدرك اليأس حبيبها أحمد ، فانصرف عنها وتزوج بغيرها ، وتركها وحيدة كالريشة فى مهب الرياح ، أو كالسفينة التى توشك على الغرق فى بحر لجى متلاطم الأمواج .

وقد أعطانا يوسف السباعى صورة من العبث الذى تعيش فيـــه الأسرة الكبيرة ورسم لنا صورة « لتوتو بك » ابن « الذوات » الذى انغمس فى ملذاته وعكف على شهواته وأهمل واجباته الزوجية ولم يحفل بزوجته « عايدة » وتركها مهيضة الجناح ، كسيرة النفس تندب حظها العاثر ، وحياتها المظلمة .

وتمر الأحداث سراعا ، وتموت زوجة أحمد مع جنينها أثناء الولاده ، وتخيم على أحمد كآبة حزينة ، غير أنه لا يزال يحمل بين أطواء نفسه ، وحنايا صدره حبه القـــديم لعايدة ولا تزال عايدة تجد فى أعماقها شوقا ، وحناناً شديداً نحوه ، ويلتقى الحبيبان ويعولان على الهروب إلى الإسكندرية ، ويعمى الحب بصرهما فإذا هما لا يرغبان فى شىء إلا أن تدنو أرواحهما ، وتقترب أجسادهما وينعما بأوقات الحب ، ويهصرا أفانين الهوى . ويشربا كئوس الغرام غداقاً . وفى الإسكندرية يشعر أحمد ببعض « المغص » فى معدته ولا يبرح داؤه الدفين أن يعاوده ، ويشتد عليه المرض ، وتستبد به أعراض الزائدة الدودية ، ويشحب وجهه ، وتنقطع أنفاسه ، وتتكسر أوصاله ، وينطفىء النور فى هذه الساعة ، وتخيم الظلمة الحالكة على الحجرة التى يرقد فيها أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ويضىء البرق ، فيدوى الرعد ، ويشتد صفير الريح من خلال زجاج النافذة ، ولا تلبث روح أحمد أن تفيض إلى بارئها ، وهنا يدرك عايدة شىء أشبه بمس الجنون ، فإذا هى تشعل النار فى الدار حتى تحترق معه ، وتفنى معه ويختلط عليهما الدخان ، ويمتزج الرماد ، وينسدل الستار الأخير على المأساة .

وهذه القصة أشبه بقصة شكسبير الخالدة روميو وجولييت ، عاشقان تحابا بالرغم ما بين أسرتيهما من عداوة ، ورغم ما فى مستواهما من فروق . ولم تستطع القرابة أن تمحى ما بينهما من شقاق بل لعلها كانت من أهم أسباب الشقاق ،

وتعصف أحداث الحياة بهذين العاشقين على غير ما يريدان ، ولكنهما يؤثران اللقاء فى الموت لعجزهما عن اللقاء فى رحاب الحياة .

وشخصية عايدة فى قصة يوسف السباعى تماثل شخصية جولييت فى مسرحية شكسبير ، فتاة صبية يافعة تتفتح للحب كالزهرة الغضة فى إبان الربيع ، وتتحكم فى كل منهما العاطفة ، ويغشى الحب بصرهما ، وأحمد عند يوسف السباعى يموت من آلام الزائدة الدودية وخطر الانفجار والتسمم ، أما روميو عند شكسبير فيموت من أثر السم الزعاف الذى يسرى فى جسده بعد تجرعه . ولا تموت جولييت من المخدر الذى تناولته لأنه لم يكن سوى مخدر خادع فلا تلبث أن تفيق فتجد روميو بجوارها وقد تجرع من سمه فتود لوكانت فى القدح ثمالة لترتشفها ولكنها لا تجد شيء فتهوى على شفتى روميو لثما وتقبيلا . جولييت تقدم عند شكسبير على الانتحار أولا ، غير أنها تموت آخراً بطعنة من خنجر روميو فى صدرها حينما تجده قد استوفى أنفاسه . أما عايدة عند يوسف السباعى فتنتحر حرقاً عقب مصرع حبيبها بآلام الزائدة الدودية . ويأتى مصرعها مثل جولييت عقب مصرع روميو .

قصة روميو وجولييت تحكى قصة العداوة رغم القرابة بين أسرة كابوليت وأسرة منتجو . وقصة يوسف السباعى تحكى نفس هذا الشعور من أسرة أحمد المتواضعة وأسرة عايدة الممعنة فى الثراء . وتزف عايدة إلى « توتو بك » وتحرم من حبيبها أحمد ، وتزف جولييت إلى حبيبها باريس وتحرم من حبيبها روميو ، وتعول عايدة على الهروب من توتو بك ومن مباذله ومفاسده ، ويعود باريس فى الصباح الباكر ليوقظ عروسه بأنغام الموسيقى الوادعة فيجد جولييت جثة هامدة لا حراك فيها .

ويدور بين أحمد والموج صراع جبار قبل مصرعه ، كما يدور بين روميو وباريس صراع جبار قبل مصرعه ، وتمتلأ القصتين بأحاديث الحب العذبة الجميلة التى تثلج القلوب وتشرح الصدور .

وقد ذكر الناقد الإنجليزى الدكتور فولر Foller أن نهاية مأساة روميو وجولييت صعبة قاسية ، ولا تليق بقصة حب تعرض على الجمهور الاليزابثى ، وكان من المستحسن ألا تتم على هذه الصورة ولكن الواقع أن شكسبير كان لابد

له أن يبلغ هذه الذروة حتى يصور المأساة على حقيقتها ، وقل مثل هـذا يوسف السباعى . فربما كان من السخف أن يختار خاتمة غير هـذه الخاتمة ولـكنها تزيد فى صورتها عن صورة الخاتمة عند شكسبير . فالنار قد اندلعت فى الدار كلها ، والنار قد أكلت الأخضر واليابس ، والنار لا تبقى ولا تذر .

كانت الأحداث هى التى دفعت عايدة إلى الانتحار ، أما جولييت فإنها تجرعت دواء منوماً عملا بنصيحة الراهب لورنس حتى تتجنب جريمة الزواج من باريس عقب توثيق زواجها من روميو فظن الناس كلهم أنهـــا انتقلت إلى جوار ربها وعملوا على دفنها دون أن يدروا أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة الموت إنما لن تلبث أن تزول عنها وتعود إلى حالتها الأولى .

وتنتهى مأساة روميو وجولييت بالصفاء بين الأسرتين كابوليت ومنتجيو ، ويتعهد لورد منتجيو بأن يقيم لجولييت تمثالا من الذهب الخالص لا يضارعه أى تمثال صنع فى فيرونا . أما مأساة أحمد وعايدة فإنها تنتهى بين الرياح العاصفة واللهب المتأجج ، والبحر الثائر ، وقطرات الدموع المثقلة بالحزن المفعمة بالجوى والأسى . . . حتى يتنفس الفجر وتصمت الدنيا فإذا لاموج ولا ريح . . ولا نار ولا لهيب إنما مواكب من الذكرى تتراءى بين الرسوم والأطلال .

وهكذا كانت قصة يوسف السباعى تلتقى وتفترق مع قصة شكسبير فى وجوه شتى ولـكنهما على أية حال ينبعان من معين واحد ويجريان فى جـــدول واحد ويتناولان موضوعاً واحداً هو موضوع الحب الإنسانى العنيف الذى لا تستطيع نوائب الدهر أن تنال منه ولا يمكن أن تزعزعه الأهوال وهو راسخ رسوخ الجبال .

وقد أحسن يوسف السباعى فى قصته تصوير المجتمع المصرى بطبقاته المختلفة المتباينة . وأعطى لنا صورة واضحة عن هؤلاء الذين يأكلون الفول والطعمية والـكشرى أبو جبة ، و(ومية الدقه) وهؤلاء الذين يأكلون ما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة . وأولئك الذين لا يندمجون فى الحفلات والمراقص وأولئك الذين يتقنون (السامبا) و (الرومبا) و (الفوكس تروت) وما إليها من رقصات ولا يتكلمون العربية إلا فيما ندر ويتشدقون بألفاظ أجنبية فى كلامهم الذى تكسوه مسوح من الرطانة .

وقـد أعجبتنى سخرية يوسف السباعى كثيراً وهو يصور عبث الأسر الراقية ،

فصاحب الدولة يربت على كتف عايدة ويسألها ضاحكا (لم تجلسين وحدك هنا ؟ لم لا تأتين لزيارة توتو وسوسو) ولم تحـــاول عايدة أن تتعرف عليهما لأن إحساسها بالتضاؤل إزاء هذه الطبقة جعلها شديدة النفور منها ولـكنها فوجئت ذات يوم بالباشا وهو مقبل مع فتاة فى مثل سنها خفيفة الجسد طويلة القامة وشـاب متأنق أصـفر الشعر أبيض البشرة متورد الوجنتين ، ولأدع يوسف السباعى يكمل بقية المنظر على لسان عايدة :

« فقلت لنفسى هـذه لا شك إحدى الإثنين توتو أو سوسو . ترى لمـاذا لم تحضر الفتاة الثانية .

واقتربت منهم محيية ورد الأب تحيتى مرحباً وقام بمهمة التعريف بينى وبين ولده وابنته قائلا :

— أهلا وسهلا مدموازيل عايدة . . .

ثم أشار إلى ابنه اللامع المتورد :

— إبنى توتو . . .

وإلى ابنته الطويلة النحيفة :

— بنتى سوسو . . .

إذن فتوتو هو ابنه ذكر لا أنثى . شد ما خدعنى الإسم ، ولـكن معهم الحق فهو فى تأنقه وحفلطته أشبه باسم « توتو » من غيره من أسماء الرجال .

وتظهر فى قصة « إنى راحلة » ثقافة يوسف السبـاعى الأدبية رغم حرصه على الحبكة وغيرها من مقتضيات القصة الحديثة ، فهو لا يفتأ يردد بعض أبيات الشعر بين الحين والحين مثل قوله :

كلانا غنى عن أخيه حياته   ونحن إذا متنا أشد تفانيا

وقوله :

رب ورقاء هتوف فى الصحو   ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا وعهداً سالفاً   فبكت حزناً فهاجت حزنى

وقوله :

منى أن تـكن حقاً أحلى المنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وهذه الأبيات أو غيرها لا تأتى فى قصة يوسف السباعى جزافاً ، ولا يرقع بها قصته كالثوب المهلهل إنما تأتى فى مواضعها حتى كأنها جزء من الحوار أو تكملة للسياق . وهوفضلا عن هذايستشهد ببعض إعجاز أو أشطارمن الأبيات كقوله : نشوان فى جنبات الصدر عربيد و « تكسرت النصال على النصال » .

وقد سما يوسف السباعى إلى ذروة عالية من الأسلوب الأدبى الممتع فى بعض فصول هذه القصة كقوله « فى بهمة الليل وحلكة الدياجير ، والكواكب ترتجف فى السماء شاحبة ذابلة ، تقلب ظلها فى الأرض أرمدها البكاء وكسف أضواءها الحزن ، الريح تعصف صرصراً عاتية ، تصرخ بالبكاء وتصدع بالعويل ، والبحر يهدر ويزمجر نائماً ملتاعاً ، يلطم بكف الأمواج ضد الصخور ، ويسكب من الرذاذ الدموع . ، بدأ الكوخ كالميت المسجى أو كسراب الأمل الضائع فى بلقع العيش أو كالصدى المتبدد لمتعة عابرة » .

وتمثل هذه القصة كذلك فى بعض جوانبها ثقافة يوسف السباعى العسكرية ، فالمعروف أنه كان ضابطاً بسلاح الفرسان ، ولذلك فهو يستخدم ثقافته العسكرية فى هذه القصة فيعطى لنا صورة عن حياة الضباط فى الميس أو المعسكر فهو يحكى على لسان أحمد كيف يبدأ التفتيش على نظافة الخيل والسروج والجنود ثم يصطف للطابور ، وفى الساعة السابعة يتحرك إلى الخانات وهى أرض مفروشة بالقش يتخذونها ميداناً للتدريب فاذا ما انتهى الطابور عاد إلى الثكنات ثم بدأ عملية « الطومار » وهى تنظيف الخيل بل إن يوسف السباعى يذكرنا بأن من يقطع « زرار » جندى يحبس ستة أشهر فما بالك بضابط فى رتبة الملازم الأول . وفى معرض الحديث عن الحب يشبهه بجواد جموح صعب المراس حين يستبد بقلوب العاشقين .

وفى قصة السباعى نجد دفاعا مجيداً عن الجيش ورجاله إسمعه يقول «كان الإنجليز يسيطرون على الجيش ويتولون قيادته ليضغطوا عليه حتى يظل منكمشاً أما اليوم فستصبح لنا دبابات ومدافع ، سنتعلم أشياء جديدة .. وسينفتح لنا المجال للدراسة والدخول فى كلية أركان الحرب . . لن نكون قط عاطلين بل أؤكد لك أنه سيأتى اليوم الذى تعرف فيه الأمة مقدارنا عندما تستنجد بنا فنقدم لها أرواحنا رخيصة فى أكفنا لتفعل بها ماتشاء ... » .

فنى هذه الفقرة نلاحظ تحمس يوسف السباعى للجيش وحرصه على نهضته وبجده ونجد فيها قبسة من روح هؤلاء المحاربين الأبطال ، ونفحة من شعورهم النبيل حيال وطنهم المفدى وبذلهم النفس والنفيس فى سبيل رفعته .

ويظهر أن ليوسف السباعى ولعاً شديداً بالأزهار والرياحين فنحن نتشق عبيرها بين فصول القصة ، ونحن نشم أريجها بين عباراته ، وهو لا يفتأ يردد الحديث عنها فيصف أزهار الفراولة والداليا والفوفير والاسبرجس وغيرها . ويعين الزهور بأسمائها ويصفها وصف الخبير بها المعجب بجمالها المفتون بأسرارها .

وليوسف السباعى حاسة عجيبة حادة فى الوصف . فله قدرة على تصوير خلجات النفس الإنسانية وما يدور فى الفكر من هواجس وشوارد ، تأمل وهو يصور ما يدور فى رأس عايدة حينما تاقت إلى الخروج مع أحمد « لقد قلت إن المسألة مسألتى أنا أولا وآخراً ، وإنى ما دمت واثقة من نفسى قادرة على كبح جماحها فلاخوف على كبريائى وعلى مقاومتى . . إنى لاأحب ولن أحب .

هذا مجرد ترويح عن النفس وأن صحبة إنسان لطيف مهذب قريب لايمكن أن تعنى أنى ترديت فى هواه . إنه مجرد أخ أو صديق . أما التنزه فى النسيم العليل وفى ضوء القمر فهذا شئ طبيعى . كيف يكون التنزه إذن . فى هجير الشمس وحمارة القيظ ، أكل المتنزهون عشاق ؟ ! » .

فهنا نلاحظ أن يوسف السباعى يصور الهواجس والذبذبات المختلفة التى تلم بالمرء . ويجلو التيارات المختلفة التى يتجاذبها عقل الإنسان عند تفكيره . وهو لا يتقن التصوير فى هذا الموضع فحسب إنما يتقنه فى شتى مراحل القصة من بدايتها حتى نهايتها .

ويحرص يوسف السباعى فى قصته « إنى راحلة » على تصوير الدقائق وقد ينتهى به حرصه إلى شىء من الغرابة فى بعض الأحيان لعدم مناسبة وصفه لجميع الأوقات كحديثه عن سير الأتوبيسات ، وخطوطها مما يبدو مضحكا فى بعض الأحيان لمعتادى التنقل بين أنحاء القاهرة .

وهو يأخذ القارىء بيده ليرشده إلى الطريق كأنه غريب يريد أن يصل إلى مكان معين كقوله « وغادرنا العربة وكانت المحطة الأخيرة قائمة قرب الجامع المطل على سراى القبة والكائن فى زاوية ينتهى عندها شارع الملك ويبتدىء الشارع المؤدى

إلى المطرية الممتد بحذاء سور السراى البحرى ، والذى يقوم السراى على أحد جوانبه وتقوم المزارع على الجانب الآخر . . . » .

ويكثر يوسف السباعى فى بعض عباراته من تعدد النعوت والأسماء وتكرر الأوصاف كقوله « محومة القلب .. مقروحة الجفن .. مسهدة العينين .. محطمة .. مهدمة ... » وقوله « أنا الغريقة اللاهثة الأنفاس . . المكروبة الصدر . . المثقلة بالأحزان . . » وقوله « وسط الحطام . . والرذاذ والهشيم . . »

* * *

ليصدقنى القراء أن قصة يوسف السباعى « إنى راحلة » ذخر ثمين فى الأدب العربى الحديث ، وأن يوسف السباعى قد استطاع أن يمتلك القلوب ، ويستحوذ على المشاعر ، ويستأثر بحبات الأفئدة ويستذرف الدموع فى هذه القصة الممتعة .

نجيب محفوظ

لم يعرف الأدب العربى القصة الطويلة أو القصيرة التى تجرى على نمط واحد ووحدة فى الموضوع وحبكة فى العقدة إلا فى العصر الحديث . حقاً لقد اشتهر الأدب العربى بكثير من القصص الطريفة مثل قصص ألف ليلة وليلة والأميرة ذات الهمة وعنترة وغيرها من القصص إلا أنه لم يشتهر بالقصة التى تجرى على نسق القصة الأوروبية فى وحـــدة الموضوع وقوة فى الأسلوب ومتانة فى التركيب وحبكة فى الموضوع إلا فى القرن العشرين .

ولقد ظهرت فى مطلع القرن العشرين فى الشرق العربى بوادر طيبة لترجمة عيون القصص الأوربى ونقل شىء كثير لقدماء الأدب الغربى وأشهرهم لافونتين وموليير وراسين وكورنى فى الأدب الفرنسى : وشكسبير ومارلو فى الأدب الإنجليزى ، وإذا انحدرنا إلى القرنين الأخيرين التاسع عشر والقرن العشرين برز أمامنا فى الأدب المصرى الحديث أسماء فرنسية عديدة نذكر منها فيكتور هوجو وبودلير وأدمون روستان وفلوبير وأندرية جيد ، وغيرهم فى الأدب الفرنسى وشو وأوسكار وايلد وديكنز فى الأدب الإنجليزى ، وقد ترجمت بعض آثارهم الأدبية سواء فى الشعر أو النثر وسواء فى القصة أم فى الأقصوصة . فتأثر الأدب المصرى الحديث بتلك الآثار الغربية وظهرت أمارات التأثر فى إنتاج الأدباء المصريين بشكل واضح ملموس . ومن الفنون التى ازدهرت فى العصر الحديث بتأثر الكتاب الغربيين فى مصر كتابة القصـــة الطويلة وقد ظهرت فى العصر الحديث طائفة من الكتاب الذين يحسنون كتابة هذا اللون من الأدب نذكر منهم الأستاذ يوسف السباعى والأستاذ عبد الحليم عبد الله والأستاذ نجيب محفوظ الذى نكتب عنه هذا الفصل من الكتاب .

ونجيب محفوظ فى قصصه لايبتغى التسلية والتلهية فحسب إنما كثيراً ما يرمى إلى غايات اجتماعية نبيلة وأهداف رشيدة ومثال ذلك قوله فى قصة خان الخليلى..

« لست أدرى كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أن غالبية قومهم

جياع لا يدخل بطونهم مايقيم أودهم جهلاء لا ترتفع أدمغتهم عن أدمغة الدواب ، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة لم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلا ، فإن للحيوان على سادة الريف حقاً فى الغذاء والمأوى والصحة لا مراء فيه » . .

ولا يترك نجيب محفوظ القارىء يتيه فى حيرته ويضل فى التماس الأجابة على هذه السؤال ، فيقول على لسان حوارييه . .

« الفلاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للإنسانية فلا يمكن أن يطالب بشيء ولكن خليق بكل إنسان أهل لشرف الإنسانية أن يمد يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط ، وقديماً حارب الرق والعبودية الأحرار لا العبيد » . .

وهذه الروح التى كتب بها نجيب محفوظ تلك السطور من القصة ليست إلاقبساً من روح الشعب المصرى بأجمعه الذى ثارمن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية وفى سبيل تحرير الشعب المجاهد من براثن التحكم والإستبداد .

وكثيراً ما تلمح فى قصص نجيب محفوظ روح السيادة تطل من بين السطور فهو يتهكم على الباشوات الذين يستغلون النفوذ وعلى المآرب التى تقضى بواسطة الرشوة والأغراء وما إلى ذلك .

والأستاذ نجيب محفوظ فى الخمسين من عمره إذ ولد عام ١٩١٢ ولما استكمل تعليمه الابتدائى والثانوى التحق بالجامعة حيث حصل على درجة الليسانس فى الآداب قسم الفلسفة بجامعة القاهرة عام ١٩٣٤ وقد استهل حياته الأدبية بكتابة بعض المقالات الفلسفية مثل مقال ما معنى الفلسفة فى المجلة الجديدة التى كان يصدرها أحد الصحفيين المصريين المشهورين وهو الأستاذ سلامه موسى فى ذلك الوقت ومثل مقاله عن فلسفة برجسون ومقاله عن الإدراك والحواس وإن من يطلع على هذه المقالات يلمس روحه الفلسفية تشع من بين السطور وتحلق فوق الموضوع من أوله إلى آخره ، غير أن هذه النزعة الفلسفية لم تلبث أن انقشعت عنه فإذا به ينحرف إلى كتابة القصة ، والقصة الطويلة ويستهل إنتاجه الأدبى بأصدار قصص فرعونية . فازت منها قصة رادوبيس بجائزة مادية كبيرة منحته إياها السيدة قوت القلوب الدمرداشية كما فازت قصة كفاح طيبة وهى قصة

فرعونية أخرى بجائزة وزارة المعارف للقصة إلا أن الأستاذ نجيب محفوظ سئم هذا اللون من القصص الفرعونى واتجه اتجاهاً آخر فى القصة وهو كتابة القصة التى تصور الأحياء البلدية تصويراً دقيقاً صدقاً فأخرج قصة خان الخليلى التى فازت بجائزة المجمع اللغوى منذ سنوات ثم أصدر قصة « زقاق المدق » التى تمتاز بتذوقه للحياة المصرية الصميمة وتبين مـدى تعمقه فى دراسة البيئة المصرية والوسط المصرى الصادق وتغلغله فى دراسة هذا الوسط تغلغلا يثير العجب والإعجاب .

ويمتاز نجيب محفوظ بميزة بارزة تملك عليه نفسه وتستحوذ تفكيره وهى إنه يعيش فى أجواء قصته ويتمثل أبطالها أمامه كأنما هو فرد منهم يناقشهم ويناقشونه ويجادلهم . . ويجادلونه ويبادلونه الرأى ويبادلهم . وتتجلى هذه الميزة فى قصصه العصرى وقصصه التاريخى كذلك ، كما يستخـدم نجيب محفوظ ثقافته التاريخية فى تصوير قصصـه . تأمله وهو يصف زيارة الملك سيكنرع لمعبـد آمون فى قصته « كفاح طيبة » :

« وذاع بين الطيبين أن سيكنرع سيزور معبـد آمون ليستلهمه الرأى ويسأله المعونة فذهبت جموع غفيرة من الرجال والنساء إلى ميـدان المعبد وانضم إليهم خلق كثير أحاطوا بالمعبد وتدافعوا إلى السبل المؤدية إليه وكان يبدوا على وجوههم الجدو الاهتمام والتطلع، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم الحديث . كل يفسر الأمر على ما يرى وجاء الركب الفرعونى تتقدمه كوكبه من الحراس تتبعها عجلة الملك وعربات أخرى تحمـل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملـكى ، فسرت فى نفوس القوم موجة من الحماس والفرح ولوحوا لمليكهم بأيديهم وهللوا له وكبروا فأبتسم سيكنرع إليهم ولوح لهم بصولجانه ولم يغب على أحد أن الملك يرتدى لباس الحرب ذا الدرع اللامعة فأشتد تشوق الناس إلى سماع الأخبار ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساء ورجال فأستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد بالسجود وهتف نوفر آمون بحياة طيبة بصوت شق عنان السماء » .

وهكذا كان نجيب محفوظ فى قصصه يعطينا صورة واضحة عن الحيـاة عند قـدماء المصريين ، فى ثنايا قصته التى يصور فيها كفاح مـدينة تأبى الذل والضيم وتطمح إلى العزة والكرامة والأمل المنشود . فيخيل إلينا أن موكب سـيكنرع يطوف أمام أعيننا ويجرى حيالنا .

غير أن فن نجيب محفوظ لا يمكن فى صوره التاريخية الرائعة ولا فى تصويره الصادق لحياة المصريين القدماء إنما يكمن فى تصوير البيئة المصرية الحديثة تصويراً قلما تجد نظيره عند القصاصين المعاصرين ، فأكثر قصصه المصرية تدور بين أحياء خان الخليلى والحسينية والسيدة عائشة والسيدة زينب وغيرها من الأحياء المصرية الشعبية ، وأكثر أبطال قصصه يدورون حول عم كامل بائع البسبوسة وعباس الحلو الحلاق وعم كرشه صاحب القهوة وسنقر الجرسون ، وغيرهم من الشخصيات الشعبية الطريفة التى تمثل الأحياء البلدية فى مصر أصدق تمثيل .

فبطل قصة خان الخليلى ينتهى إلى ميدان الأزهر ثم يتجه إلى خان الخليلى يتسمت هدفه ثم يعبر عطفة ضيقة إلى الحى المنشود حيث يرى العمارات الجديدة تمتد ذات اليمين وذات الشمال تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى فكأنها ثكنات هائلة يضل فيها البصر .

ولا أعرف قصاصاً أستطاع أن يصور القاهرة فى إبان الحرب العالمية الأخيرة كما أستطاع نجيب محفوظ أن يفعل فى قصصه ، إن مصر لم تكن تعرف فى ذلك الوقت الغارات الجوية ، فكان حدوثها أمراً خطيراً يفزع المصريين الذين لم يتعودوا إلا على الحياة الهادئة الوداعه . فكان تصوير نجيب محفوظ لنفسية الأسرة المصرية والبيئة المصرية فى هذه الفترة تصويراً يثير إعجاب القصاص كما يثير إعجاب المؤرخ .

ومن أروع الصور التى أحسن نجيب محفوظ تصويرها فى قصصه صورة البطل فى قصة سراب « فهو شاب مصاب بعقدة نفسية من النساء وقد اتيح له الزواج ، إلا إنه كان لا بد من أن يزف إلى عروسه فى عرس بهيج ، فأرتقى درجتين ورفع عينيه فى خوف وأشفاق ، فرأى حبيبته جالسة تحت ظل من الأزهار فى ثوب العروس الأبيض وعلى رأسها هالة الفل والياسمين تنسدل منها على الظهر ذيول من الحرير كانت بهاء ونوراً وفلا وياسميناً ، وقد غضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة ثم صار على قيد خطوة منها ، وهنا تذكر قول أخيه (حى عروسك وأجلس) فساءل نفسه كيف يحييها ! ! أيسلم باليد أم يوجه إليها تحية المساء ، وتردد مرتبكا ورأى فى ابتسامتها الخفيفة الخجلة ما ينم عن انتظار تحيته ثم عاوده الشعور بالأعين المحدقة به تكاد تخرق ظهره ففقد طباعه وجلس على المقعد الخالى دون أن ينبس بكلمة . . . ! »

وقد أبدع نجيب محفوظ فى تصوير هذا الفصل فى قصة (السراب) إلا أن أبطال قصة زقاق المدق يبدون كثيرين إلى حد ينسى القارىء بعضهم طوعاً أو كرها غير إننا يمكن أن نستشف شيئاً من قصص نجيب محفوظ وهو إنه رجل يحسن تصوير البيئة ومن هذه البيئة يخلق الشخصيات ويوجد الأبطال .

ألم يصور نجيب محفوظ البيئة المصرية فى القرن الماضى أصدق تمثيل فى قصة (بداية ونهاية) وهو يقص خبر الفتاة المصرية التى تنزوى خلف الباب بمجرد أن يلوح شبح إنسان كما يدفع « حسنين » أن يقول :

ليس فى حياتى وجه جميل يجذبنى إليه وحسبى ماصدفت من فتيان فى المدرسة ونادى شبرا . أريد فتاة . . أريد هذه الفتاة . فى أوربا وأمريكا ينشأ الفتيان والفتيات معاً كما نرى فى السينما . هذه هى الحياة ، أما هذه فما أن رأتنا حتى توارت عن الباب . . كأننا وحوش نروم التهامها .

فهذه هى دعوة الشباب المصرى فى القرن الماضى وهذا هو شعور الشباب المصرى الذى كان يشكو التقاليد والحرمان قبل أن تندفع مصر فى ركب الحضارة ، وتأخذ من التقاليد الحديثة بنصيب موفور . ؟ ؟ ؟

الشُعَراءُ

محمود سامى البارودى

هو الوزير القائد محمود سامى البارودى ، ابن حسن بك حسنى مدير دنقلة وبربر فى عهد محمد على . توفى أبوه وهو فى السابعة من عمره ، فتعهده أقاربه ، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها وبشجاعته وبطولته أخذ يترقى فى الجيش حتى أصبح وزيراً للحربية .

وقد تحول البارودى من الجيش إلى الإدارة ، فنصب مديراً للشرقية ، ثم رئيساً للضبطية ثم صارت إليه نظارة الأوقاف ، فنظارة الجهادية . . . ثم صارت إليه رياسة مجلس النظار قبيل الثورة العرابية . فلما جاء الاحتــلال البريطانى ، وسيطر الإنجليز على مرافق الدولة ألقوا القبض على زعماء الثورة العرابيه ، وكان من بينهم محمود سامى البارودى ، فحوكم ونفى إلى جزيرة سرنديب (سيلان) ، ولبث فى منفاه إلى أن عفى عنه ، وأبيح له التمتع بحقوقه المدنية ، فعاد إلى أرض الوطن العزيز . . . غير أن النضال الذى خاضه ، والنفى وسوء المعاملة كان قد نال منه ، وأثر فى صحته ، فلم يلبث أن انتقل إلى رحمة الله تعالى عام ١٣٢٢ للهجرة (١٩٠٤ م) .

والبارودى يعد أستاذ شوقى وحافظ ، والمدرسة الأولى التى أخذ عنها هذان الشاعران وكان شعره يمتاز بالنزعة الوجدانية الخالصة . ويعبر عن خلجات فؤاده ونبضات شعوره فى صدق تام ، وصراحة واضحة ، دون تزويق ولا تنميق ، ودون كذب ولا رياء .

وبينما كان شعراء عصره يهتمون بالعالم الخارجى أكثر من اهتمامهم بالعالم الداخلى ويعنون بالأشياء المحيطة بهم أكثر مما يعنون بدخائل نفوسهم ، وطوايا قلوبهم — انطلق البارودى يعبر عن إحساسه الفردى وخواطره الإنسانية . . . وهــذه النزعة الوجدانية الخالصة التى امتاز بها شعر البارودى هى التى شاعت فيما بعد فى شعر مطران ومن لف لفه من الشعراء .

وقد زخر شعر البارودى بالألم ، فجاءت مدرسة مطران فتمادت فى هذا الألم

ولما كان مطران أكثر اتصالا بالثقافة الغربية من البارودى ، فإنه هذب الألم تهذيباً جديداً ، وصار أشبه بالرومانتيكيين الذين يتفش الألم فى شعورهم ، وينطبع فى شعرهم ، وهو ألم يدل على عزلتهم الروحية وانهيار آمالهم الواسعة ، ونفورهم من أدواء المجتمع ، كما يدل على رفاهة شعورهم ودقة إحساسهم ، إلى حد لا تستقر معه نفوسهم ، بل تظل فى اضطراب دائم وحيرة متصلة . . وقد يمتد بهم العمر . ولكنهم لا يجنون من آمالهم شيئاً ، ولا يظفرون من أحلامهم بشىء.

وقد وضع البارودى اللبنة فى هذا الفن الشعرى فقال :

أعد يا دهر أيام الشباب ... وأين من الصبا درك الطلاب
زماناً كلما لاحت بفكرى ... مخائله بكيت لفرط ما بى
مضى عنى وغادرنى ولوعا ... تولد منه حزنى واكتئابى
وكيف تلذ بعد الشيب نفسى ... وفى اللذات إن سنحت عذابى !

وقال يتشوق إلى مصر بوجدان عذبه البعد ولوعة الفراق فيقول :

ليت شعرى متى أرى روضة ... النيل ذات النخيل والأعناب
حيث تجرى السفين مستبقات ... فوق نهر مثل اللجين المذاب
ملعب تسرح النواظر فيه ... بين أفنان جنة وشعاب
يا نديمى فى سرنديب كفا ... عن ملامى وخليانى لما بى
كيف لا أندب الشباب وقد أصـ ... ـبحت كهلا فى محنة واغتراب !
أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على عينى ... تخيال ، كأننى فى ضباب

وقال كذلك يتشوق إلى وطنه فى حسرة تفتت الأكباد وتحرق القلوب :

هل من طبيب لداء الحب أوراق ... يشفى عليلا أخا حزن وإيراق ؟
قد كان أبقى للهوى فى مهجتى رمقاً ... حتى جرى البين فاستولى على الباقى
حزن برانى وأشواق رعت كبدى ... يا ويح نفس من حزن وأشواق
أكلف النفس صبراً وهى جازعة ... والصبر فى الحب أعيا كل مشتاق
لا فى «سرنديب» لى خل ألوذ به ... ولا أنيس سوى همى وإطراقى

والبارودى رائد من رواد الوطنية ، ومشعل من مشاعل الحرية ، وقد تبدى

أثر ذلك فى شعره واضحاً جلياً . وهو أول من حمل لواء الشعر السياسى بمعناه الجديد فى الأدب العربى الحديث ، وأول من نبه الشعب إلى آلامه وأوجاعه ، وطالبه بالثورة لنيل حقوقه كاملة غير منقوصة ، والتخلص من نير الظلم والاستعباد ، والتحرر من ربقة الذل والاستبداد ، فهو القائل :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً لـكل منتزع سهماً ومختتـــل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل فى ضاف من الحلل

وصور البارودى الأسس التى تقوم عليها الأمة الناهضة والحكومة الرشيدة فى بيتين من شعره قائلا :

أمران ما اجتمعنا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى ، وجند للعدو بمرصد

وكان البارودى يمثل الدعوة الوطنية لتسليح الجيش وتزويده بالمعدات الحديثة . وقد صور المعارك الطاحنة التى خاضها بنفسه تصويراً صادقاً خلاباً لا تقليد فيه ولا تهويل ، بل هو تجارب شخصية مر بها وصورها فأحسن صورها، وأبدعها فبلغ الذروة فى الإبداع .

واجتهد البارودى فى إصلاح « الجهادية » التى تفشى فيها الاختلال والفوضى وطلب إلى رئيس الوزراء « رياض باشا » زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظم والقوانين العسكرية ، ولما وافق الخديو على ذلك ، فى ١٢ أبريل عام ١٨٨١ ، فرح الناس ، وأقام البارودى احتفالا دعا إليه النظار والمفتشين ، وخطب فيه رياض وعرابى والبارودى .

وقد وصل البارودى باجتهاده الشخصى ومقدرته إلى رتبة اللواء ، كما أصبح رئيساً للوزراء ، واستعان بعرابى فى تنظيم الجيش وتعديل نظمه ، وكانت له فى مجلس النواب مواقف مشرفة ومن ذلك قوله فى جلسة من الجلسات مخاطباً نواب الأمة . « ولا بد من تخليص الأفكار ، وتمحيص الطوايا من الشوائب ، شوائب النزعات الشخصية ، وبأن نجعل الأعمال وقفاً على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم . . . وآخر ما نتواصى به ألا نجعل للتعصب المشربى دخلا فى الأعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها، وأن تكون

الوطنية الحقيقية هى الباعث القوى على كل فكر، والغاية القصوى من كل قول وعمل.

وكان البارودى يميل إلى العدل والإنصاف والشورى. ويكره الظلم والطغيان. وكأنما كان يوجه الحديث عبر التاريخ للملوك الطغاه حين قال:

يأيها الظالم فى ملكه ... أغرك الملك الذى ينفد

اصنع بنا ماشئت من قسوة ... فالله عدل، والتلاقى غد!

كما كان البارودى كثير الفخر والحكمة، وله فيهما أبيات جرت مجرى الأمثال ومنها هذه الأبيات:

ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذى يلقاه فيها محبب

وقوله:

وقليلا ما يصلح المرء للجد ... إذا كان ساقط الأجداد

وقوله:

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته ... فما لصروف الدهر يوسعها سبا

وكان البارودى مفتوناً بوصف الطبيعة، وله شعر عذب فى وصفها فى هدوئها وصحوها ... تغنى مع الطير فى غدواته وروحاته، كما وصف النجوم والسماء، والعاصفة الهوجاء، والبحر المزمجر. ومثال ذلك قوله:

وللنسيم خــلال النبت غلغلة ... كما تغلغل وسط اللمة المشط

والريح تمحو سطوراً ثم تثبتها ... فى النهر لا صحة فيها ولا غلط

وللمياه خيوط غير واهــية ... تكاد تجمع بالأيدى فترتبط

كأنها ـ وأكف الريح تضربها ـ ... سلوك عقد تواهت فهى تنخرط

ومن أجمل شعره فى هذا الباب قوله ـ وهو فى «سرنديب» ـ يصف تفرده هناك وحزنه بين أحضان الطبيعة.

لا فى «سرنديب» لى ألف أجاذبه ... فضل الحديث، ولا خل فيرعى لى

أبيت منفرداً فى رأس شاهقة ... مثل القطامى فوق المربأ العالى

إذا تلفت لم أبصر سوى صور ... فى الذهن يرسمها نقاش آمالى

تهفو بى الريح أحياناً، ويلحفنى ... برد الطلال ببرد منه أسمال

فنى السماء غيوم ذات أروقة ... وفى الفضاء سيول ذات أوشال

فلو ترانى ـ وبردى بالندى لثق ـ ... لخلتنى فرخ طير بين أدغال

ويصف البارودى سجنه، ويعبر عن مشاعره، آناء الليل وأطراف النهار

فى هـذه المحنة التى هدت كيانه وقوضت بنيانه ، فيقول :

فسواد الليل ما أن ينقضى ... وبياض الصبح ما أن ينتظر
لا أنيس يسمع الشكوى ولا ... خبر يأتى ، ولا طيف يمر !
بين حيطان وباب موصد ... كلما حركة السجان صر
يتمشى دونه حتى إذا ... لحقته نبأة منى إستقر
كلما درت لأقضى حاجة ... قالت الظلمة . مهلا لا تدر
أتقرى الشىء أبغيه فلا ... أجد الشىء ، ولا نفس تقر
ظلمة ما أن بها من كوكب ... غير أنفاس ترامى بالشرر

وقد امتاز شعر البارودى بشعور جارف ، وعاطفة منسوبة ، وحنين عارم نحو أهله وإخوانه وأصدقائه ، حتى ليمكننا أن نقول إنه شاعر الحنين الأول فى الأدب العربى الحديث . . تأمل قوله :

أبيت حزيناً فى « سرنديب » ساهراً ... طوال الليالى ، والخليون هجد
إذا خطرت من نحو حلوان نسمة ... نزت بين قلبى شعلة تتوقد
وهيهات ما بعد الشبيبة موسم ... يطيب ولا بعد الجزيرة معهد
شباب وإخوان رزئت ودادهم ... وكل امرىء فى الدهر يشقى ويسعدا

وقد نظم البارودى بعض شعره فى الرثاء ، وهو من أعذب شعره ، لأنه صدر عن عاطفة صادقة وشعور قوى ، لا زيف فيه ولا نفاق ، ولا خداع فيه ولا رياء . فلم يكن يرثى عظيما من العظماء ابتغاء الشهرة وعلو الذكر ، ولم يكن يرثى زعيما من الزعماء من أجل بعد الصيت ورفعة الشأن ولم يكن يرثى سياسياً من السياسيين ابتغاء الاندماج فى حزبه والظفر بأعلى الرتب وأرفع المناصب إنما كان يرثى أهله أقاربه الذين ودعوا الدنيا ، وفارقوا الحياة دون أن يلتقى بهم ، واختطفهم الموت اختطافا دون أن يظفر بمجالستهم والحديث إليهم والاستمتاع بحياهم . ولذلك كان هذا اللون من أروع ما نظمه البارودى ، بل من أبدع ما نظم فى الأدب العربى .

قال محمود سامى البارودى يرثى زوجته التى جاءه نعيها عام ١٨٨٥ وهو فى المنفى ، فعاش فى مدينة « كولومبو » حزين النفس ، مكروب القلب ، محطم الفؤاد :

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى ... تقوى على رد الحبيب الغادى

يا دهر فيم فجعتني بحليلة ... كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها ... أفلا رحمت من الأسى أولادي !
ومن البلية أن يسام أخو الأسى ... رعي التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحي ... أسفاً لبعدك أو يلين مهادي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي ... والدمع فيك ملازم لوسادي
فإذا انتبهت فأنت أول ذكرتي ... وإذا أويت فأنت آخر زادي

ومن أروع مراثيه كذلك رثاؤه لابنه علي الذي جاء فيه ،

كيف طوتك المنون ياولدي ... وكيف أودعتك الثرى بيدي
فقدك سل العظام مني ورد ... د الصبر عني ، وفت في عضدي
وا كبدي يا علي بعدك ... لو ... كانت تبل الغليل « واكبدي » !

وهكذا كان للبارودي الفضل في إرجاع الشعر في هذا العصر الحديث إلى فتوته وقوته ونضارته في العصور المتقادمة . وقد لخص الدكتور محمد حسين هيكل ماجاء به البارودي فقال : « ونحن نحاول اليوم أن نتلمس الجديد في شعر البارودي ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة في عهد الأولين ممن بعث لنتهم وشعرهم ، وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه . وما يتصل بالحاضر مما جعله الشعر الأوروبي أغراضه . فيأخذ بألبابنا ما في ديوانه من الشعر الأوروبي السياسي ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية والحياة المصرية . أما ماخلا ذلك فلم يعد البارودي فيه مقاصد المتقدمين من شعراء العرب ولم يعد أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم ، ولم يفكر في الملاحم الكبرى كما فكر « شكسبير » في مسرحياته وكما فكر « دانتي » في الكوميديا الإلهية .. وإن كان من الحق كذلك أنه لم يفن فيهم ولم يقصر همه على النقل عنهم ... بل بدت شخصيته بارزة في شعره ، وبدا شعره مرآة بيئته وزمانه . فلو أنه عاصر الأقدمين وعاش بينهم لكان له ما للأخطل والفرزدق ولأبي فراس وبشار من ذاتية يمتاز بها عن غيره ، ويقف بها في الصف الأول من هؤلاء الأقران المبرزين » .

وجدير بالذكر أن البارودي عارض قصيدة أبي فراس المعروفة :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر

فقال :

طربت وعادتني المخيلة والسكر ... وأصبحت لايلوي بشيمتي الزجر

صريع هوى يلوى بى الشوق كلما تلألأ بدر ، أو سرت ديم غر
إذا مال ميزان النهار رأيتنى على حسرات لايقاومها صبر
يقول أناس أنه السحر ضلة وما هى إلا نظرة دونها السحر

ونعود إلى رأى الدكتور محمد حسين هيكل فى تجديد البارودى ، فنقول إنه يرى من النصفة أن نعدل عن قياس تجديد البارودى بأعلام الشعب فى أوروبا ، إنما كانت محاكاته للأقدمين جديدة وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة .. فقد هوى الشعر العربى قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسياً منسياً ، وجعلنا نكاد نسقط من حسابنا هذا الألف من السنين ، الذى انقضى بين بدء انحلال الشعر العربى ، وبين هذا الشاعر الذى بعث الشعر العربى إلى الحياة من جديد . فإذا كان البارودى قد بعث الشعر العربى واللغة العربية من مرقدهما ، ورد إليهما حياة ذوت وذبلت قروناً متعاقبة ، فعمله هذا خلق لا ريب فيه ، وهو فى عصر جديد كله . وهو جدير لهذا أن يتسنم ذروة المجد ، وأن يجلس بين الخالدين .

وقال عنه الدكتور محمد صبرى : « البارودى يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة فى الشعر ، فهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصرى . وهو محى دولة الشعر بعد العدم » .

وكتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى . « لم يكن شاعرنا كامل التصرف فى فنون المعانى وإن كان أشعر من جميع معاصريه بلامراء . غير أنه أتم ذلك النقص بما اتقنه من جمال الصنعة وبديع الرواء . وأما نمط البارودى فى النظم فهو غاية ما دارت له الألسنة ، عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلعب بالنفس . وسلامة يستريح فى ظلها القلب . وكان يقدم أبا تمام على المتنبى ، لأن شعر أبى تمام أجزل وصنعته أوضح وأتم » .

وقد عاد البارودى إلى مصر عام ١٩٠٠ م من المنفى بعد العفو عنه ، وجاء فى هذا الإعفاء : « بناء على الإنهاء المرفوع لنا من محمود سامى البارودى بإلتماس الإحسان عليه بالتمتع بالحقوق الوطنية فقد اقتضت مكارمنا منح الموصى إليه التمتع بالحقوق الوطنية . وعلى ذلك فيجوز له من الآن امتلاك أى ملك من أى نوع كان فى الأقطار المصرية بطريق الإرث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة كانت الذى

كان محروماً منه بمقتضى الأمر العالى الصادر فى ١٤ ديسمبر عام ١٨٨٢ (٣٠ صفر عام ١٣٠٠)..

ووقع على هذا الأمر الخديو عباس حلمى ، وأرخ فى ١٨ من المحرم عام ١٣٠٨ هـ (١٧ مايو ١٩٠٠) فلما صدر الأمر بعودته نزل إلى أرض الوطن العزيز ، واستقبل وطنه الحبيب بقصيدة من درر قصائده جاء فيها :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

وهب الأدباء والشعراء إلى استقباله والاحتفاء بقدومه ، وأصبح منزله ندوة عامرة بأشهى أحاديث الأدب ، وأجمل أبيات الشعر . وقد عكف منذ هذه الفترة على ترتيب مختاراته وتنقيحها وإعدادها للطبع ..كما عكف على تنظيم ديوانه ، وحذف مالا يروقه من الأبيات ، وإضافة ما تراءت له إضافته مما يشهد له بالذوق الرفيع ، والإيمان الصادق بأن العبقرية مجهود متصل فى سبيل الكمال . وكانت تشيع فى مجلسه روح الشعر التى تتدفق سهلة سلسلة دون تعنت ولا تعقيد والتى سبق أن عبر عنها فى هذين البيتين المشهورين :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالإساءة غافل فلابد لابن الأيك أن يترنما

وقضى البارودى فى مصر أربعة أعوام بعد عودته من منفاه ، قاس فيها من الألم ما أوهى جسده وفقد بصره من شدة الحزن . وفى السادس من شوال عام ١٣٢٢ للهجرة (الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤ م) لبى نداء ربه ، وفاضت روحه الكريمة إلى بارئها . ولم يكن البارودى عند وفاته قد طبع المختارات ولا الديوان نفسه ، فتولت أرملته التى تزوجها بسرنديب — وهى أبنة المرحوم يعقوب سامى ، أحد زعماء الثورة العرابية . . طبع الجزءين الأول والثانى من الديوان (إلى آخر قافية اللام) . وقدم المرحوم الشاعر على الجارم ، بالاشتراك مع أحد الأدباء ، بنشر الديوان وتحقيقه فى صورة حديثه ، ولكنه لم يكمل حتى الآن . وللبارودى رسائل نثرية طريفة — كالرسالة التى وصف بها رحلته إلى المنفى — لم تر النور حتى الآن أما مختاراته فتضم أشعاراً للبحترى والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم من أعلام الشعر العربى .

إسماعيل صبري

شاعر لم يرد لنفسه أن يكون شاعراً ، ولم يتكلف الشعر تكلفاً ، ولم يسع إلى زمرة الشعراء سعياً ، ويقف على أبوابهم ، ويتمسح بأعتابهم ، إنما كان فناناً موهوباً ، قد حبته الأقدار بهذه الموهبة فلم يستطع لها رداً ، ولا منها خلاصاً ، وكان لا يكره شيئاً كما يكره التعمل والتصنع ، وتكليف الأيام غير طباعها ، ولا يحب شيئاً كما يحب الطبيعة السهلة السلسة ، التى لا تعرف التعقيد ولا الإلتواء ومن أجل ذلك لم يتخذ الشعر صناعة ، إنما اتخذه لوناً من ألوان الراحة النفسية ، والإستجابة لموهبته القاهرة القادرة ، والتعبير عن خلجات قلبه ، ونبضات شعوره وهو أشبه بأمرىء القيس الذى لم يقل الشعر راغباً أو راهباً . .

وهذا الشاعر هو إسماعيل صبرى ، وهو شاعر قاهرى ولد فى ١٦ فبراير عام ١٨٥٤ ودرس فى مدرسة المبتديان ، ثم بالمدرسة التجهيزية فمدرسة الإدارة ، ثم ألحق بالبعثة المصرية المسافرة إلى فرنسا ونال شهادة « الليسانس » فى الحقوق من كلية مدينة « إكس » فى مايو عام ١٨٧٨ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره .

وعين عقب عودته من البعثة مساعداً بمحكمة مصر الإبتدائية ، ثم نقل فى نفس الوظيفة إلى محكمة المنصورة الإبتدائية ، ثم إلى محكمة الأسكندريه الإبتدائية المختلطة ، وظل يتدرج فى مناصب القضاء حتى عين وكيلا لمحكمة طنطا الأهلية فرئيساً لمحكمة الأسكندرية الأهلية فوكيلا لمحكمة الاستئناف فى ٢٧ ديسمبر عام ١٨٩١ ، فنائباً عاماً عام ١٨٩٥ ، وكان يزاول قبل ذلك عمل النائب العام قبل تعيينه فى هذا المنصب عن طريق الانتداب .

وفى أول مارس عام ١٨٩٦ عين محافظاً للاسكندرية ثم وكيلا لوزارة الحقانية أو العدل كما نسميها اليوم ، وانتهى به المطاف إلى إعتزال الخدمة فى ٢٨ فبراير عام ١٩٠٧ ، وتفرغ لأعماله الخاصة ، ومزاجه الأدبى حتى انتقل إلى رحمة الله وهو فى التاسعة والستين من عمره فى ٢١ مارس عام ١٩٢٣ .

تلك هى حياة اسماعيل صبرى فى سطور ، والملاحظ أنها كانت زاخرة بالعمل والإنتاج بالقياس إلى وظيفته فى الخمسين سنة الأولى من حياته ، أما السنوات الباقية من عمره فقد قضاها بعد إعتزاله الخدمة ، ومن يقرأ ديوانه يلاحظ أن إنشاده للشعر لا يقتصر على فترة دون فترة ، ولم يكن يمتنع عن قرض الشعر فى فى تلك الأوقات التى شغل بها بمسئوليات القضاء ، ومشاكل المتقاضين ، بيد أنه كان ينظمه إذا ماخلا إلى نفسه،وأطلق العنان لفكرة دون افتعال أوإصطناع ، وشعر الشباب يمتاز بعاطفة قوية جياشة أشبه شىء بسيل العرم الذى يجرف أمامه كل شىء ، وشعر الشيخوخة يمتاز بروح التصوف والإيمان والورع والتقى، وشعر الفترتين صادق ليس فيه كذب وليس فيه خداع ولا تضليل ، وإنما ينبعث عن النفس إلى النفس ويصدر من القلب إلى القلب .

قرأ إسماعيل صبرى الشعر للقدماء ولعله تأثر بأبى عبادة البحترى فى أحكام الأسلوب ، وصقل الديباجة ، وحلاوة الموسيقى ، وأشراق العبارة ويروى الدكتور محمد صبرى أن إسماعيل صبرى كان مغرماً بقول البحترى :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على إمرىء بطويل
قصرت مسافته على متزود منه لدهر صبابة وعويل

ولكن اسماعيل صبرى كان يختلف عن البحترى فى أشياء كثيرة . كان البحترى وصافاً من الطراز الأول . وكان الوصف عنصراً هاماً من عناصر فنه الشعرى فوصف بركة المتوكل ووصف إيوان كسرى ووصف الربيع وألقى بدلوه فى هذا الميدان حتى زخر وامتلأ وفاض ، أما اسماعيل صبرى فقد كان مقلا فى وصفه ولا نجد فى شعره قصائد ينشدها وينشئها فى الوصف ، إنما يأتى الوصف عرضاً وقد لا يأتى، فهو لا يحفل بأمره ولا يأبه بشأنه كهدف من أهداف الفن الشعرى . وهذا لا يمنع وجود بضعة أبيات فى ديوانه فى الوصف يجود بها كما تجود الصخرة بالماء الزلال كقوله فى وصف النيل :

ما أعجب النيل ما أبهى شمائله فى ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وإنما هى أرزاق وأرباح

على أن هذه الأبيات نسبت لشاعر آخر هو ابن خروف الأندلسى فى بعض الروايات .

الصداقة والأصحاب :

ولعل إسماعيل صبرى يشبه فى مجال آخر شاعراً آخر ، أما المجال فهو باب الصداقة والصحبة ومعاشرة الناس ورأيه فى ذلك جميعاً .

أما الشاعر فهو ابن الرومى فاسماعيل صبرى كان كثير الحديث عن طباع البشر وأخلاق الناس وتارة تجده منشرح النفس مثلوج الصدر وتارة تجده منقبض الأسارير ضيق الخلق وهو فى حديثه الشعرى يعبر عن تجربة صادقة وخبرة واعية وروح عاقلة شأنه فى ذلك شأن ابن الرومى بيد أنه لم يكن كابن الرومى يجنح إلى الإطالة وإلى تحليل المعانى وتفصيلها وتقليب وجوهها إنما كان يجود بالبيت أو البيتين أو المقطوعة القصيرة فإذا هى تضم جماع فكرته وشتيت رأيه لا يلجأ بعدها إلى إطالة أو إسهاب . ولعل هذين البيتين يصوران اتجاهه أصدق تصوير فهو يقول :

إذا خاننى خل قديم وعقنى وفوقت يوماً فى مقاتلة سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم

مسرحية من خمس فصول :

ومن أروع ما قرأته فى التعليق على هذه الأبيات قول المرحوم أنطون الجميل: « فى هذين البيتين رواية تمثيلية ذات خمسة فصول ، الفصل الأول الصداقة ، والثانى الخيانة والعقوق (إذا خاننى خل قديم وعقنى) والفصل الثالث النهوض إلى الانتقام (وفوقت يوماً فى مقاتلة سهمى) . والفصل الرابع النزاع بين الصداقة والانتقام (تعرض طيف الود بينى وبينه) . والفصل الخامس انتصار الوداد (فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم) . . . »

وهكذا ضم هذين البيتين عمليات شتى كان فى وسع شاعر آخر أن يحللها ويفصلها ويعلق عليها ويستخلص منها بيد أن إسماعيل صبرى أراد أن يوجزها فى هذين البيتين دون إطالة أو إسهاب . وقد يكون الإسهاب مملا ..بل قد يكون الإيجاز مخلا ، فالعبرة بفن الشاعر وقدرته وبراعته . وقد أثبت صبرى فى هذين البيتين مقدرته على امتلاك ناصية بلاغة الإيجاز .

قصة الثعلب والغراب :

وترجم إسماعيل صبرى قصة « الثعلب والغراب » عن الشاعر الفرنسى لافونتين ونشرها فى ١٧ يناير عام ١٩١٠ وكنا ننتظر بعد هذه الترجمة أو قبلها ترجمات أخرى لقصص لافونتين أو قصائد الفرد دى موسيه أو الفونس لامارتين أو الفرد دى فينى أو فرلين أو رامبو أو غيرهم من أعلام لشعر الفرنسى ولكننا لم نجد من ذلك شيئاً بل كنا ننتظر من شاعر عربى سافر إلى فرنسا وقضى هناك نحو أربعة أعوام أن يطلعنا على ثمرة دراسته فى الخارج واتصاله بالهيئات الثقافية الجديدة ولكن دون جدوى ، والعجيب أن إسماعيل صبرى فى حياته الطويلة العريضة التى أوشكت على السبعين لم يخرج لنا ثمار دراسته فى الخارج ولم يجنح إلى المسرحية الشعرية التى كانت تنتشر فى أوربا وتعرض على المسارح وتطبع فى الكتب ولم يجنح إلى تطعيم الشعر العربى بألوان متنوعة من الثقافات والألوان الفكرية الرائعة .

والعجيب أنه بعد سفره إلى أوربا واتصاله بالحضارة الغربية يعود فيلجأ إلى تشبيه النساء بالظباء ولعل أول من ابتدع هذا اللون من التشبيه الشاعر امرؤ القيس ولف لفه أعلام الشعر فى العصر الجاهلى كالنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى فيقول :

يا ظبية من ظباء الأنس رائعة　　بين القصور تعالى الله باريك
هل النعيم سوى يوم أراك به　　أو ساعة بت أقضيها بناديك

فالمعنى مستهلك ولكن الاستخدام جميل والأسلوب رقيق ، مثله فى ذلك مثل هذين البيتين اللذين نظمهما فى شعر الحبيب ، فلم يأت بمعنى جديد أو فكرة مبتكرة « سبق بها غيره من الشعراء إنما كان له فضل الصياغة وحلاوة التركيب:

إرسلى الشعر خلف ظهرك ليلا　　وأعقديه من فوق رأسك تاجا
أنت فى الحالتين بدر نراه　　صـــادعا آية الدجى وهاجا

ورأى بعض النقاد بعض وجوه الشبه بين قول « مونتى » فى موقف عناق « وما كنت أدرى أكان هو أم أنا » وبين قوله :

ولما التقينا قرب الشوق جهده　　شجيين فاضـــا لوعة وعتابا
كأن حبيباً فى خلال حبيبه　　تسرب أثناء العناق وغابا

والواقع أن المعنيين يختلفان رغم ما يبدو فيهما من مشابه ، فموتى لايستطيع أن يفرق هل هو موتى أم صاحبه ، أما إسماعيل صبرى فقد أصبح المتعانقان شخصاً واحداً لا إثنين وظاهر أن المعنيين متباينان ، زد على ذلك أن « موتى » هذا لم يكن شاعراً ينهج الشعراء على منهاجه أو ينسجون على منواله إنما كان كاتباً من كتاب المقال ولم يكن الموضع موضع عناق إنما موضع اتصال أفكار واقتراح آراء ولست أدرى ما الشاعرية التى وجدها إسماعيل صبرى فى « موتى » حتى تجاهل موسيه وهوجو وبودلير وغيرهم ولم يجد سواه ! إن صدق قول القائلين إنه أخذ المعنى عن « موتى » ، وأظهروا بذلك صلته بالأدب الأوربى .

اسماعيل صبرى والشعر الغنائى :

على أن الشىء الجدير بالتسجيل أن إسماعيل صبرى رغم هذه النقدات كان رائداً من رواد الشعر الليريكى الرفيع فى وقت نزع فيه الشعراء إلى الأحاجى والألغاز والتهنئة بمولود أو الوقوف على الأبواب والتمسح بالأعتاب وانتظار الرفد والعطاء وإزجاء الفرحة بالترقية أو الانتقال من الإسكندرية إلى أسوان ومن أسوان إلى الإسكندرية وغير ذلك من الأغراض التى هى بالعبث أشبه وإلى الهزل أدنى وأقرب .

كان إسماعيل صبرى زعيما من زعماء الشعر الغنائى فى هذه الفترة ومن الشعراء الذين يعكفون على مشاعرهم يصورونها أصدق تصوير وعلى قلوبهم فيخرجون مافيها من مكنونات .

كما أنه ساهم فى ميدان التأليف الغنائى — سواء باللغة العربية أم باللغة العامية ومن أشهر أغانيه « قدك أمير الأغصان » التى غناها عبده الحامولى (والحلو لما انعطف) التى غناها محمد عثمان وفيها يقول :

الحلو لمـــا انعطف أخجل جميع الغصـــون
والخد آه ما انأطف ورده بغـير العيون !

وكان عبده الحامولى يغنى أغانيه وهو لا يزال طالباً فيجذب إليه الأنظار ولفت إليه عشاق الفن والغناء :

الشعر الفكاهي عند صبري :

وحاول إسماعيل صبري أن ينظم بعض شعره في الملح والفكاهة فقال شعراً تعريضا بالصفعة التي أصابت المويلحي صاحب مصباح الشرق فقال :

قفاك محمد نعم السلاح ... إذا التف بالعسكر العسكر
وصدغك إن نقر الناقرون ... عليه يرن ولا يكسر !

وليست هذه الأبيات على حظ كبير من الفكاهة أو البراعة في التصوير كما تصور صبري ولايمكن أن تلحق بفكاهة ابن الرومي إذ كان يعمد إلى التصاوير الكاريكاتورية والتعابير الهزلية التي تثير الضحك وتبعث على الفكاهة وتدعو إلى المرح ، كتصوره للأحدب الذي شبهه بالمصنوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه فرسم أمامنا صورة كاريكاتورية ضاحكة تثير الضحك والفكاهة .

معارضات صبري :

وعارض إسماعيل صبري شوقي إذ نشرت مجلة « الزهور » التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ أنطون الجميل أبياتاً ارتجلها شوقي يعارض أبيات أبي الحسن الحصري

ياليل الصب متى غده ... وقيام الساعة موعده ؟

فنظم صبري معارضته من نفس الوزن والروي مطلعها .

أقريب من دنف غده ... فالليـــل تمرد أسوده
وألتفت تحت عجاجته ... بيض من الحي تؤيده
حرب عنـــدي لمسعرها ... شوق ما زلت أردده
هل من راق لصريع هوى ... هل من آس يتعهده
حتام يساوره كمـد ... يبلى الأحشاء تجدده

ولما مات شوقي رثاه بقصيدة من درر قصائده شعره جاء فيها :

فاذهب كمصباح السماء كلاكما ... مال النهار به وليس بطافي
الشمس تخاف بالنجوم وأنت ... بالآثار والأخبار والاوصاف
غلب الحياة فتى يسد مكانها ... بالذكر فهو لها بديل وافي !

وله جملة مشهورة في شعر الأقطاب الثلاثة شوقي وحافظ ومطران يقول فيها « شوقي ينظم وحافظ يبني . ومطران يبتدع » ، ولما أنشد مطران قصيدته الميمية

فى حرب طرابلس طرب صبرى وكاد يجن بها جنوناً وكان ينشد فيها هذا البيت :

يقول للعلم الخفاق فى يده   فىء من الأرض ما تختار يا علم

وقابل مطران بعد ذلك فقال، لقد أسكرتنى .. إنك فت الشعراء بستمائة عام.

تكرار المعانى والتصوف :

وفى الوقت الذى نجد فيه إسماعيل صبرى يكرر بعض معانيه كتلك الأبيات التى أنشدها عام ١٨٩٢ فى رثاء توفيق :

نحن لله ما لحى بقاء   وقصارى سوى الإله فناء

نحن لله راجعون فمن ما   ت ومن عاش ألف عام سواء

وتلك الأبيات التى نظمها فى رثاء الشيخ على عام ١٨٩٧ :

هى الدنيا وإن جادت بخيلة   يد الحرمان فى يدها المنيلة

سواء من يعيش الألف فيها   ومن أيامه فيها القليلة

يجد الباحث لإسماعيل صبرى براعة لاتدانى ، ومهارة لايشق لها غبار فى شعر التصوف الذى يصدر عن نفس مؤمنة ، وروح خاشعة متبتلة من خشية الله ، كقوله :

يارب أين ترى تقام جهنم   للظالمين غـــدا والأشرار

لم يبق عندك فى السموات العلا   شطط العقول وفتنة الأبصار

يارب أهلنى لفلك واكفنى   والأرض شبراً خالياً للنار

وهكذا كانت كل حسنة تطغى على كل نقيصة فيه ، حتى أصبح شعره مثلا رفيعاً للشعر الجيد الرائق الرائع ، وأصبح هو علماً من أعلام الشعر فى العصر الحديث له أثره وخطره ، وله منزلته المرموقة ـ ومكانته الملحوظة فى تاريخ الأدب الحديث .

وقد وصفه مصطفى لطفى المنفلوطى فقال «أحد شعراء الطليعة الأولى فى هذا العصر ، ويمتاز بجمال مقطعاته ، وعذوبة أسلوبه إلى مالا يجاريه فيه مجار وحسن تصوراته وخلابة خيالاته . وهو أجود ما يكون إذا نطق بكلمة الحكمة أو أرسل بيت النسيب » .

وقال خليل مطران « أكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه ، ولما كان لا ينظم للشهرة ،

بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه ، فالغالب فى أمره إنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قال بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله من بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظه « إيه » مستطيلة

ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة ، إلى أربعة إلى ستـه ، وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيده ، وهو نادر . . .

«شديد النقد لشعره ، كثير التبديل والتحويل فيه ، حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب ، أهمله ثم نسيه . . .

« وهكذا يمر به الآن فيجيش فى صدره الشعر ، فيرسل ببيتيه أطلاق زوجى الطائر فيـذهبان إلى الفضاء ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمعة ، شاديين على توقيع الفروض إلى أن يتوراايا ، وينقطع نغمهما من عالم النسيان . . . ذلك هو الشعر للشعر » .

ووصفته جريدة الزمان منذ أكثر من ربع قرن فقالت : « بعيـد عن نفسه وعن الناس وهو أمير فى زى حقير ، وكبير فى شكل صغير . . . ولو أراد الله أن يصور الجلال فى خلقه ، لمـا كان صاحبنا إلاهو . ولقد ترك الناس بالناس ، وهو لا يتزلف ولا يتأفف ، وإذا ذكرت أمامه إنساناً بسوء نأى بجانبه عنك ، وإذا مدحته فى وجهه استاء منك » .

وقد كان متقدمو الشعراء — من أمثال شوقى فى أول نشأته الشعرية ، وحافظ وأضرابهما — يعرضون على اسماعيل صبرى أشعارهم لمـا عرفوا من رفاهة حسه ، ودقة ذوقه ورقة طبعه فكان يلفتهم إلى ما تأباه الأذن الموسيقيـة ، ويوجههم الوجهة السليمة فى نظم الشعر .

وقـد ظل نجمه الشعرى يتألق ويزكو حتى أوفى قريضه على الغاية من اللطف والإحساس والجمال إلى أن تحققت له راحة القبر التى قال لها :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ص تنم آمنـا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ م التى خلفتك للأتعـاب
لا تخف فالمات ليس بماح منك إلا ما تشتكى من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العنوا ن ما نص فى غضون الـكتاب
وحياة المرء اغتراب فإن ما ت فقد عاد سالمـا للتراب

وانتقل اسماعيل صبرى إلى رحمة الله تعالى عام ١٩٥٣ ، ففقد الأدب العربى ركناً ركيناً من أركانه فى العصر الحديث .

أحمد شوقى

لم تكن سنه تتجاوز الثالثة ، وكان طلق الوجه ، عذب الأسارير ، ترتسم على ثغره الصغير آيات البراءة والطهر . . وكان يعيش فى أكناف القصر يتنقل كالفراشة الوضيئة من مكان إلى مكان ... ودخلت به جدته على الخديوى إسماعيل وكان بصره لا ينزل عن السماء لاختلال أعصابه ، فطلب الخديوى بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فمال على الذهب يجمعه من الأرض ويلعب به ، فقال الخديوى لجدة الطفل : اصنعى معه هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض ، فأجابت : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدلتك يامولاى . . قال : جيئى به إلى متى شئت . . !

وهكذا ولد شوقى أمير الشعراء بباب إسماعيل ، فلما بلغ الرابعة ، أدخل فى مكتب الشيخ صالح ، ونشأ فى حى الحنفى بالقاهرة ، واجتاز بعد ذلك متفوقاً مرحلتى التعليمين الابتدائى والثانوى ، ثم تقدم للالتحاق بكلية الحقوق . غير أن ناظر الكلية رفض أن يقبله لصغر سنه ، وبعد محاولات مختلفة التحق بها الشاب ودرس فيها عامين متتاليين ، وأجرت عليه نظارة المعارف معاشاً شهرياً قدره جنيهان ، ثم ارتأت الحكومة أن ينشأ بكلية الحقوق ـ وكانت مدرسة فى ذلك الوقت تضم قسما للترجمة يتخرج فيه المترجمون الأكفاء . فنصحه أصدقائه بدخول هذا القسم . ففعل ومكث فيه سنتين منحته وزارة المعارف فى ختامهما الشهادة النهائية فى الترجمة.

وألحقه بعد ذلك الخديوى توفيق فى معيته ، وأشخصه على نفقته الخاصة إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، على أن يقضى عامين فى مدينة « مونبليه » وعامين فى مدينة « باريس » . وبعد ما قضى سنتين فى المدينة الأولى أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت ، ولما من الله عليه بالشفاء ، أشار عليه الأطباء بأن يقضى أياماً تحت سماء أفريقية ابتغاء الراحة والاستجمام ، فاختار شوقى الجزائر ليقضى فيها أجازته ، ومكث فيها أربعين يوماً ، ثم عاد إلى باريس ليستأنف دراسته . وفى آخر السنة الثالثة كان شوقى قد انتهى من إحراز

شهادته العلمية ، بيد أنه لم يرغب فى العودة إلى مصر سريعاً ، لأنه لم يمتع بصره ، ويغذى عقله وروحه فى هذه السنوات الثلاث لعكوفه على البحث واشتغاله بالدرس ، فطلب أن يقضى هناك ستة أشهر أخرى للتفرج على أعلام البلاد ، قبل عودته إلى أرض الوطن العزيز .

وفى عام ١٨٩٦ ندب شوقى لتمثيل الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين فى مدينة « جنيف » ثم عين رئيساً للقلم الأفرنجى فى معية الخديوى عباس حلمى الذى لم يلبث أن ثل عرشه وتطوح ملكه بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، فاستقال شوقى من منصبه ، ولكن السلطات العسكرية لم ترغب فى بقائه فى مصر فسمحت له باختيار الجهة التى يريد الإقامة فيها ، خارجها ، فاختار إسبانيا ، وأزمع السفر إلى برشلونة ، ولم يؤذن له بالرجوع إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها .

وعندما عاد إلى وطنه انصرف عن بهرجة القصر وأبهة الملك وفخامة السلطان ، وعكف على تحسس آمال الشعب وأحلامه ، ليصوغها فى شعره . وحاول أن يتقرب إلى الجماهير ويبتعد عن البرج العاجى الذى كان يعيش فيه ، وانصرف إلى إدارة أملاكه وإلى الاشتغال بالتأليف والنظم . ولما أنشئت الحياة البرلمانية عام ١٩٢٤ ، عين أحمد شوقى عضواً فى مجلس الشيوخ .

وفى عام ١٩٣٠ أصيب شوقى بمرض شديد حد من نشاطه ، وعاقه عن الإنتاج العظيم ، وإن لم يستطع أن يشل فكره تماماً ، وظل ينظم الشعر حتى لحظاته الأخيرة . . . .

وفى أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٣٢ فاضت روح شوقى إلى بارئها ، وكان قبيل وفاته يقرأ فى كتاب « تاريخ الحسين » ، وكان رحمه الله يبكى أكثر من مرة أثناء القراءة ، كما وجدوا على المنضدة العريضة التى وضعت بجوار الكرسى الطويل الذى كان يستلقى عليه فى غرفة النوم أوراقاً مكتوبة بالقلم الرصاص فلما أطلعوا عليها وجدوها نتفاً من فصول آخر رواية كان الفقيد يشتغل بها . . . .

وهذا دليل على أنه كان متعلقاً بالشعر حتى لحظاته الأخيرة . . . وأنه كان كالشمعة الموقدة . . . تضيء وتنير . . ولكنها تذوى وتذوب . . . .

تلك هي صورة خاطفة لحياة أمير الشعراء أحمد شوقى . والواقع أنه مدين فى مراحل عدة من حياته إلى القصر . . . ولم يكن كحافظ إبراهيم شاعر الشعب الذى ولد بين الفاقة والحرمان ، وقاسى شظف الحياة ورقة الأحوال . وهذا هو العيب الذى ينسبه بعض النقاد إلى شعره . فبعضة شعر رجل مترفع عن الشعب ، يعيش فى برجه العاجى ، فإذا تناول آمال الجماهير ، فإنما يتناولها مسايرة لروح العصر ، ومجاراة للشعور العام ، حتى لاتقال عنه الأوقاويل ، وتظن به الظنون .

وكان شوقى مضيافا إلى أبعد حــــد ويعيش فى بذخ وثراء ، وينفق فى كرم وسخاء ، وكان كثيراً مايتنقل مع أصحابه بين منتديات القاهرة ومطاعمها ، فمن مطعم سورى إلى « الحاتى » فصانع الحلوى ، أو بائع الكوارع ، أو الفسيخ ، وينفق على أصحابه فى بسطة يد دون بخل أو تقتير . وقد اتفق له عند زواج كريمته ، أن شهد هذا الفرح أكبر أمير من الدولة الروسية وأن مر الخديوى بباب الفرح ، واجتمع فى السرادق أكبر ذوى المناصب والثراء فى الشرق العربى . أما داره فى الجيزة فكانت فى أوقات متعددة من السنة ملتقى لأعلام الأدب وأقطاب الفن وقادة الرأى ، كما كان يزوره أكابر رجال السياسة وينفقون وقتهم فى بشر ومرح بين أنغام القيثار ورنين الأوتار ، حتى الهزيع الأخير من الليل .

وتراءت صور هذه المعيشة الأرستقراطية فى شعره ، فقد روى الشيخ الليثى أنه لقى أباه ، وهو فى بطن أمه لم يوضع بعد ، فقص أبوه على الشيخ حلماً رآه فى نومه ، فقال له الليثى وهو يمازحه « ليولدن لك ولد يخرق خرقا فى الإسلام » ، واتفق بعد ذلك أن عاد شوقى الشيخ على الليثى ، وهو على فراش الموت ، وكان فى يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدره بقوله : « هــــذا تأويل رؤيا أبيك ياشوقى ، فوالله ماقالها قبل فى الإسلام أحد . » فقال شوقى : « وماتلك ياسيدى ؟» قال : قصيدتك فى وصف البال « المرقص » فى عابدين ، فإنها نفحة من نفحات القصور ، إذ تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

هاهى فى يدى أقرأها . . فاستعاذ شوقى بالله . . وسأله الصفح عما نظم !

يظهر أن شوقى أحس بطبيعته أنه لا بد من أن يتقرب إلى الشعب ، ولا بد من أن يساهم بنصيبه فى خدمته ، والإشادة بمجده وعرض قضاياه ، فحاول أن ينسى

طبيعته ، فنظم بعض قصائده يشيد فيها بمجد الفراعنة الأمجاد ، كقصائده فى أبى الهول ، وتوت عنخ آمون ، وأنس الوجود ، وفى سفح الأهرام ، وإلى النيل ، وطفق يغنى بآمال الشعب الوطنيـــة ويتناول فى شعره شتى شئونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فنظم القصائد السياسية فى مشروع ملنرو ٢٨ فبراير (شباط) ، وسعد زغلول ، ونظم القصائد الاجتماعية فى الحجاب والسفور ، والهلال والصليب ، وشاد بجهود مصر الاقتصادية فى بنك مصر ومشكلة التموين وغير ذلك من القصائد .

وكان لا يفتأ يشيد بوحدة الأمة المصرية ، وائتلاف المسلمين والأقباط ، ويدعو إلى محو الخلاف بين الأحزاب ، ونبذ العداوة والخصام حتى تسير الأمة المصرية قدماً إلى الأمام .

وقد أجاد شوقى فى هذه الناحية ، ولكنه على أية حال لم يستطع ان يغوص إلى أعماق النفس الإنسانية ، ويصور آلام البؤساء وزفرات المحرومين المتصاعدة إلى أجواز الفضاء ، لأنه لم يقاس الفقر ، ولم يعرف الذل ، وإنما عاش فى أكناف البذخ ، وتسربل بحلل الثراء !

* * *

ولكن شوقى كان شاعر الغناء ، وقصائده فى الحب والغزل كانت ترانيم عذبة وصلوات هائمة فى محراب الحسن والجمال . وقد وضعه شعره الغنائى « الليركى » هذا فى الذروة ، ويرجع العارفون بتاريخ الغناء فى مصر أن شوقى ألف شيئاً من مواويل عبده الحمولى وأدواره ، هو ومحمد عثمان ، ويقول خليل مطران : كنت أنا والمرحوم إسماعيل صبرى وأحمد شوقى نشترك فى وضع الدور الواحد ، كل منا يؤلف جزءاً منه ، وكنا نأنف أن تنسب إلينا الأغانى ، نزولا على حكم العصر .

ويقول محمد عبدالوهاب ، إن شوقى لم يؤلف قبل القصائد التى قدمها إليه فلحنها وأنشدها سوى موال أو موالين . هما « ساهى الجفون » و « ياما أنت واحشنى » ولم ينظمهما بقصد التأليف الغنائى إنما نظمهما فى ساعة انشراح وابتهاج ، وهو جالس فى حلقة من أنصاره وأصحابه . ولم يلبث أن قدم إليه شوقى مجموعة من روائع الشعر ، فغنى له « ياجارة الوادى » و « ياناعما رقدت جفونه » و « ردت

الروح » وغيرها ، كما صنع له المواويل أو مانسمية « طقاطيق » ونظم له قصيدة فى وصف « البلبل » كانت أول شيء جدى للتخت . وعندما افتتح معهد الموسيقى الشرقية ، غنى محمد عبد الوهات فى ليلة الإفتتاح إحدى مقطوعات أمير الشعراء وكانت أبدع أغنية شاعت فى هذا العصر — « فى الليل لما خلى » .

وكان أمير الشعراء أحمد شوقى ذا حاسة موسيقية واضحة ، ويظهر أنه كان يغنى شعره فى نفسه ، ويترنم به فى خلوته ، لأن محمد عبد الوهاب لاحظ أنه عندما يغنيه إحدى قصائده يترنم هو بها ، ويقارن بين تلحينه وتلحين عبد الوهاب ، زد على ذلك أنه كان يختار الألفاظ الموسيقية فى شعره ، التى تطرب السامع ، ويكون لها وقع جميل ونغم رخيم فى الأذن .

ويقول محمد عبد الوهاب : أنه رحمه الله كان يسمع منه أحياناً بعض الألفاظ فيعجبه نطقه لها ، فيتعمد استخدام هذه الألفاظ عينها فى شعره .

وهكذا كان شوقى يحب الموسيقى ، ويطرب من الغناء ولذلك كان شعره يمتاز بحلاوة اللفظ ، ورخامة الإيقاع ، وكان يحتفظ فى بيته ب « فونغراف » أنيق ، يسمعه أدوار عبده الحمولى ، وعبد الحى حلمى ، بين الفينة والفينة ، وأدوار تلميذه محمد عبد الوهاب أخيراً . . .

ولما مات عبده الحمولى ، وعبد الحى حلمى ، رثاهما بقصيدتين من درر قصائده ، وبين فضلهما على الموسيقى ، وجهودهما فى خدمة هذا الفن الرفيع .

* * *

ولم يكن شوقى شاعر الغناء فحسب ، بل كان شاعر التمثيل كذلك ، فنظم الروائع من المسرحيات مثل مجنون ليلى ، وكليوبترة ، ومحمد على الكبير ، وقمبيز ، وأميرة الأندلس . عنيفة حيناً وخفيفة حيناً آخر ، فإن شوقى انطلق فى ميدان جديد ، وطعم الشعر العربى بهذا الغذاء اللذيذ الذى كان المسرح المصرى يتحرق ظمأ إليه ، ورغبة فيه . وكانت الحركة المسرحية فى ذلك الوقت تتعثر فى سبيلها ، وكان الكتاب لا يقبلون على هذا اللون من التأليف إلا نادراً . وقد نجح شوقى فى خلق أدب جديد للمسرح لا يزال يمثل حتى اليوم بعد مرور أكثر من ربع قرن على وفاته فى كثير من التوفيق والنجاح .

وقد استمد شوقى أغلب مسرحياته من التاريخ ، وأضفى عليها خياله ، غير أنه

تورط فى بعض الأحيان فى أخطاء تاريخية ، مما دعا بعض النقاد إلى لومه وتجريحه. ولكن المؤلف المسرحى على أية حال ليس ملزماً باتباع حوادث التاريخ بحذافيرها، إنما له الحق فى أن يغمر بعض الحوادث بخياله ، على ألا يشوه الحقائق الكبرى.

ولا بد أن يكون شوقى أطلع أثناء إقامته فى باريس على روائع المسرح الأوروبى ، فحاول أن يحاكيها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا سيما أنه كان يتقن الفرنسية ،وكانت ترجمات مسرحيات شكسبير إلى الفرنسية منتشرة فى أرجاء فرنسا . ولا بد كذلك أنه اطلع على مسرحية شكسبير عن أنطونى وكليوبترة ، أو على مسرحية جون دريدن ، وقرأ ترجمة مسرحية روميو وجولييت كذلك .

ويعطينا شوقى صورة عن ثقافته الغربية فيقول : « قرأت قصص بلزاك وإسكندر دیماس ، مراراً وتكراراً ، قرأتها للدراسة والتأمل فى أسرار هذا الفن العظيم فى القصة ، وتعجبنى فى ديماس لباقته فى حبك القصة ، وسبك الوقائع ، والبراعة فى اختراع المؤامرات. لا تجد شخصيات فى قصصه ، ولن تجد فيها أفكاراً عظيمة ، لكنها مفعمة بالحوادث ، التاريخ يسير فيها بخيلاء أهله ، وكبرياء ملوكه وطغيان الأمراء ، ومكر النساء النبيلات ومطامحهن . وفى بلزاك تجد شخصيات لا تحصى تجدها حية ، وتطالعك هنا وهناك أفكار عن الحياة وأوصاف لتطوراتها جد جليلة ، وعن هذين الكاتبين تلقيت فن القصة ، ولما كنت أميل إلى دراسة التاريخ بطبعى فقـــد وضعت ببالى أن أنتزع من تاريخنا قصصاً أصوغها فى القالب الروائى » .

« هذا ماصرح به شوقى عن ثقافته لأحد مندوبى الصحف قبل وفاته عام ١٩٣٢. ونحن لا نستطيع أن نؤمن بكل ما قاله شوقى عن ثقافته الغربية ، لأنه لم يكن يتعمق فى دراسة الأدب الغربى تعمق الدارس أو الباحث ، إنما كان يكتفى من المعرفة بأيسرها ، ومن الثقافة بأهونها ، وإذا ذكر الأدب الفرنسى فإنه لا يعرف منه إلا السمات البارزة فيه كقصيدة «البحيرة» للامارتين . أو خرافات لافونتين أو فلسفة السيمونيين . ولم يكن يبحث فى أدب الأدباء الفرنسيين المعاصرين مثل بول جيرالدى أو بول فاليرى . أو جورج دوهاميل أو غيرهم . وساعدته هذه المعرفة مهما كان حظها يسيراً أو كثيراً على كتابة الروائع للمسرح وعلى تزويد الأدب العربى بهذا اللون الفنى الراقى وعلى كتابة بعض القصائد على نمط

الشعراء الغربيين كقصيدته « كبار الحوادث فى وادى النيل » التى نظمها متأثراً بالشاعر فيكتور هوجو فى قصيدته « أسطورة القرون » . وقد قص شوقى فى قصيدته الأحداث التاريخية من عهد الفراعنة حتى العصر الحديث ، كما تناول هوجو فى قصيدته أحداث التاريخ فى حقبه المتعددة .

وقد أفسحت أسفار شوقى وسياحاته الكثيرة فى بلاد المغرب وفى بلاد الشرق القريب من خياله ، وألهبت قريحته ، وغذت ملكته الشعرية وموهبته الأدبية ، وملأت شعره بالصور الجميلة واللوحات الرائعة والتشبيهات المبتكرة .

وعول شوقى بعد رجوعه من المنفى على نشر بعض رواياته فى ذيل جريدة الأهرام مثل رواية « بنطاؤور » و « ورقة الآس » التى قدمتها فرقة عكاشة على مسرح حديقة الأزبكية القديم ، قبيل نفى أمير الشعراء إلى أسبانيا ، وكان حرصه على نشر رواياته على هذه الصورة تمشياً مع تجديد الصحافة ، ومحاكاة للصحف الفرنسية فى هذا الباب ، ولضمان أكبر عدد ممكن من القراء .

كان شوقى يفيض بالشعر ، كما يفيض الينبوع بالماء ، وينطلق الطير بالغناء ، وتشع الشمس بالضياء ، وكان ، كما يقول خليل مطران ، ينظم بين أصحابه ،فيكون معهم وليس معهم ، ينظم فى المركبة ، وفى السكك الحديدية ، وفى المجتمع الرسمى ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه فى بادىء الأمر غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا ، وتواترت فيهما حركة المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه ، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً . هنيهة بعد هنيهة ، فإذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحثه فيه أصحابه ، كعادته فى الحديث ، ثم إذا استأنف المنظوم ولو بعد حين أو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه ، مستظهراً ما تم منه ، حافظاً لبقية المعنى الذى يضمره ، يكتب القصيدة بعد ذلك تماماً وربما تمت ونسيها شهراً ثم ذكرها ، فكتبها فى جلسة واحدة .

* * *

كان أحمد شوقى مرح الطبع حلو المعشر ، حاضر النكتة ، عذب الحديث ، يحب الدعابة ويطرب منها ، وكان له مع الدكتور محجوب ثابت ندوات طريفة ، تشيع فيها الدعابة والفكاهة ، وقصائد خفيفة الظل مثل « مكسوينى والأتومبيل »

و«مكسويني» إسم حصان الدكتور، نسبة إلى الزعيم الأرلندى الذى مات فى آرلندة مضرباً عن الطعام ثم عول على استبداله بسيارة، فكان ذلك مثاراً لقفشات شوقى ومدعاة لصياغة بعض دعاباته العذبة.

ومن طريف ما يروى عنه، أنه ذهب لمقابلة المرحوم حافظ إبراهيم، فوجده جالساً مع شاعر أسود البشرة! مفلفل الشعر، وهو الشاعر إمام العبد، فى أحد المقاهى، فما أن رآهما شوقى معاً حتى ابتسم ثم ضحك ملء شــدقيه وهو يقول: «أنتم قاعدين زى الملاحة».. ويقصد بذلك أن حافظ أبيض البشرة، وإمام أسود البشرة، فكأنهما الملح الأبيض والفلفل الأسود فى ملاحة واحدة!

وبصر شوقى بمطران يوماً وهو يدخل إلى مشرب «صولت» وكان بصحبة غادة حسناء الوجه، هيفاء القوام، تخطر تيهاً ودلالا فناداه شوقى فجاء وسلم، ويظهر أن شوقى أعجب بهذه الفتاة الجميلة فأراد أن يداعب الخليل وقال له والضحكة تملأ ثغره: يا خليل إنت لسه ماهمدتش! فضحك خليل وكان سريع البديهة، حاضر النكتة قال إنما صاحبتها لأدلها على إبنك على!

* * *

كان شوقى يحب لبس الصوف فى الصيف والشتاء ويختلف سمكه فى الفصلين خفة وثقلا، وكان يلبس فى منزله جلباباً من الصوف ولم يحدث أن لبس «البيجاما» فى فترة حياته، ولكنه عرف ارتداء الأرواب الثقيلة فى الشتاء، وكان يتنقل فى سيره فى منزله بالجورب، ولا يخلعه فى الليل أو النهار، ولم يكن يتحرج من شرب الخمر، وإن قلل من شربها فى شيخوخته، وكان يصوم رمضان... حتى إذا ما ولى هذا الشهر المبارك حاول أن يخرج من قيوده وينطلق من إساره، وربما نهل كأساً أو كأسين ليرطب جوفه من حرمان الصوم، وقال:

رمضان ولى هاتها ياساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق!!

وكان يحب أكل الفاكهة، كما كان شغوفاً بالسينما ويدخل إليها بأرخص الأسعار لضعف بصره وعدم استطاعته رؤية الفيلم وهو جالس فى المقاعد الخلفية.

وكان مصاباً بزكام غير منقطع، وربما كلمه فى ذلك بعض إخوانه وندمائه، ناصحين له بالتداوى من علته، فكان يجيبهم: «هذه حالة تفرج عن الذهن ولم يعرفها كما عرفتها إلا الأنبياء...!

وكان شوقى نقى السريرة ، طيب القلب ، لا يحمل ضغناً ولا حقداً ، ويعجب بالشاعر مطران لأنه لا يكره أحداً وليس له خصوم من الناس ، ويروى ابنه « على » أن رجلا متديناً ، ومعروفاً بتقواه ، زاره يوماً ، وحمـــل على خصومه فى خلال حديثه حملة شعواء ختمها بقوله : « وإن شاء الله يصيبهم مرض فى كلاويهم فسأله شوقى : لمـاذا اخترت الـكلى ؟ فقال لأن الـكلى أصعب الأمراض وأشدها .

ولمـا انصرف هـــذا الرجل التفت شوقى إلى أبنائه وقال : « أنظروا هذا الرجل المتدين يتمنى السوء لخصومى مع أن الإسلام ينهى عن ذلك ! ! ! فأما أنا فأطلب من الله هدايتهم ! »

وكان شوقى رغم هذا الشعور النبيل الذى كانت تفيض به نفسه هدفاً لـكثير من الحملات الصحفية ، وانبرى له لفيف من الأدباء نقداً وتجريحاً ، ومن بينهم العقاد والمـازنى ، ألقوا على عاتقهم تبعة انتقاد شعراء العصر الحديث . وقد اندفع المـازنى فى كتاب الديوان ينتقد عبد الرحمن شكرى شاعر الطليعة فى مقاله « صنم الأكاذيب » نقداً مراً دون رحمة ودون هوادة ونفى عن شعره مواطن الجمال ، كما مضى العقاد ينتقد شعر شوقى نقداً مراً عنيفاً قاسياً ووصف قصيدته فى رثاء مصطفى كامل بأنها كومة من الرمال لاحياة فيها ولانظام ولااتساق ، حتى أوشك أن يهبط بأمير الشعراء إلى الحضيض .

ويبدو أن الأستاذ العقاد غير بعد ذلك رأيه فى شعر شوقى ، كما يبدو أن هذه الحملات الأدبية كان لها أثر كبير فى شعر أمير الشعراء ، فانطلق يهذبه ويصقله ويعمل على إرضاء الجماعات الغفيرة من الناس التى تقرأ شعره فى الصحف والمجلات الأدبية ولم يلبث الأستاذ العقاد بعد ذلك أن قال أن مقالاته التى نشرها عام ١٩١٢ كتبها قبل أن يستوى شعر شوقى وحافظ فى مكانه المناسب ، ومقطع الرأى فى شوقى وحافظ أنهما كانا ولايزالان يستويان على أرفع القمم العالية بين نهاية التقليد وبداية التجديد ، وإن ما نقص منهما فى الجديد تقابله زيادة فى القديم .

* * *

كان حافظ وشوقى شاعرين من جيل واحد وصديقين جمعت ملـكة الشعر بينهما ، غير أن الغيرة كانت تدب بينهما فى بعض الأحيان . وكان شوقى فيما يروى الرواة يقول أن حافظ لايسمو ليـكون خصما . وقد لام يوماً الدكتور محمد حسين

هيكل لوماً شديداً حينما سمعه يساوى حافظ به ويرفعه إلى درجته .

ولكن حافظ انتقد شوقى فى كتابه « ليالى سطيح » وقال « إنه مهزول اللفظ ، غامض المعنى يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم . ولقد نظرت فى شعره فألفيته إلى الغارة على صحائف الأولين أشبه ، فهو لم يغادر معنى فى خدره إلا سباه ، ولا لفظاً فى وكره إلا وأزعجه » ، ولكن يظهر أن هذا القول كان من جراء التنافس بينهما ، والسعى إلى مكان الصدارة ، وهو يرى فى مجال آخر إنه ظريف الوزن ، لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسير بيانه كأنما يتناول الشعر من كمه بسهولة متناهية . إلا أنه مكثار ، وقل أن يسلم المكثر من العثار ، فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهية : كساحة الملوك يقع فيها الخزف والذهب ! .

ولما نشر شوقى قصيدته فى وصف مرقص أقيم فى سراى عابدين جاء فيها :

مال واحتجب وادعى الغضب
ليت هاجرى يشرح السبب

استخف حافظ إبراهيم بها ، وصادف أن التقى بأحد أصدقائه فمضيا يعارضانها بقصيدة هزلية ساخرة ، يقول أحدهما شطراً ، ويقول الآخر الشطر الثانى ، حتى بلغت نحو ستين شطراً :

شال وانخبط وادعى العبط
ليت هاجرى يبلع الزلط

ولم يلبث أن أنهى الموت التنافس بينهما ، فانتقل حافظ إلى جواربه فى يوليو (تموز) عام ١٩٣٢ ، ورانت على شوقى كآبة موجعة ، واكتنفه كمد أليم ، ونزل حديقة قصره وقال لسكرتيره الخاص : أحمد أفندى ! كم تربة يسع هذا البيت ؟ فتعجب سكرتيره من هذا السؤال وقال لم يا سيدى ؟ فقال : أليست مساحة التربة من عشرة أمتار إلى خمسة عشر متراً ؟ فقال : نعم. فقال : وما مساحة أرض هذا البيت ، والفضاء المحيط به ؟ فقال : خمسة آلاف متر . فقال رحمه الله : أى إن هذا المكان يسع نحو خمسمائة تربة ؟ بئس طمع الإنسان ، يطلب الجاه والمزيد منه ، ثم يدفن فى مساحة من الأرض لا تزيد على عشرة أمتار ! !

وذات مساء فى أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩٣٢ ، أو فى مساء الرابع عشر منه على وجه التحديد ، وذلك بعد وفاة حافظ إبراهيم بثلاثة أشهر تقريباً ، ذهب شوقى إلى جريدة « الجهاد » للسمر هناك ، وأثناء جلوسه فى دار الجريدة شعر بسعال شديد ، فآب إلى داره ورقد على سريره ، وأسدل الخادم عليه الكلة وحياه وانصرف . . .

ولم يلبث أن نهض من نومه مذعوراً ... فصاح شوقى بخادمه ... ولكن الموت كان أسرع إلى تلبية النداء ... ففاضت روحه إلى بارئها ... وانتهى آخر بيت من قصيدة حياته العصماء ... !!

دفاع عن شوقى

إن مؤرخ الأدب العربى لايمكن له بحال من الأحوال أن ينسى أثر شوقى فى النهضة الشعرية فى البلاد ، وعندما صدر الجزء الأول من ديوانه الشوقيات فى عام ١٨٩٨ تلقفه الناس بلهفة كبيرة وشغف عظيم ، وكان صدوره كالبركان هز أركان الشرق العربى من أدناه إلى أقصاه فحطم به سلاسل التقييد ، وألف بين الأسلوبين العربى والغربى ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، واستهل الجزء الأول من ديوانه بمقدمة أبان فيها خطته فى التجديد ورغبته فى التخلص من المدائح والأهاجى وشعر المناسبات وطالب بالجرى على منهج الإفرنج فى الرجوع إلى الطبيعة ، والتغنى بجمالها ومفاتنها .

وقد قيض الله لشوقى أناساً يدافعون عن شعره ، وينافحون عن مذهبه فى النظم ، ويؤمنون بشاعريته إيماناً يخالط دماءهم ، ويسرى فى قلوبهم . قيض الله لشوقى أناساً يتهجمون عليه فى حياته وبعد مماته ، ولكن الشىء الذى لاسبيل إلى إغفاله أو إهماله ، هو أن منزلته فى الأدب العربى كرائد أول من رواد الشعر فى العصر الحديث لايمكن أن يدركها مساس .

أحلام خاطئة

ومن أغرب الأشياء التى سمعتها عن بعض الشعراء المحدثين عن شوقى ، أنه كان جاهلياً فى أفكاره وأسلوبه ، ولم يساير ركب المدنية الحديثة ، وهؤلاء الشعراء

لم يقرأوا شوقى قراءة صحيحة سليمة حتى يحكموا عليه هذا الحكم ، ويبدوا فيه هذا الرأى ، وهم يقيمون شعره بما ينظمونه من شعر بحجة التجديد ، وطرق أبواب من المعانى بكارى ، وهم فى هذا القياس كذلك يبعدون عن الحق ، ويجافون الدراسة العلمية المنظمة ، لأن شوقى هو الذى وضع الأساس وهم الذين شادوا عليه ، وكم من بنيان هوى ، ولم يصمد أمام الريح ! . .

ويذهب بعض المغالين من النقاد إلى وصف شوقى « بشاعر القصور » وأنه لم يكن يمثل الشعب ولا آلامه ، ولا أمانيه ، فهو شاعر أرستقراطى فى نظرهم ، ولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، وكان الأصفر الرنان ينثر أمامه وهو طفل صغير يحبو فى أرجاء القصر ، فلم يفهم نفسية الشعب فهماً صحيحاً سليما ، يتيح له التعبير عن مطالبه فى شعره ، ولذلك فهو من رجال العهد البائد الذين ينبغى أن نطرحهم خلف ظهورنا ، أو نجرى أسماءهم على ألسنتنا لأنهم يمثلون الإقطاع فى التفكير ، والإقطاع فى الحياة ، والإقطاع فى نظم الشعر !

وهذا القول يبعد عن الحقيقة ، لأنه تلاعب فى المقدمات ، وتعسف فى استخراج النتائج ، ومن يتصفح ديوان شوقى يجده مهتما بالجماهير العظيمة من الناس التى تقرأ ديوانه ، ولذلك يحرص على تصوير مشاعر الشعب وأحاسيسه الاجتماعية ، وأمانيه القومية وأهدافه الوطنية ، وكان شوقى ينشر شعره فى الصحف الكبرى كجريدة الأهرام التى كان يزين صدرها بدرر من قصائده ، ولذلك كان يفكر عندما ينظم شعره فى الجموع العديدة من الناس التى تستقبل شعره مع الصباح ، أو تقبل على قراءته فى المساء مع صحف المساء وهلم جرا .

حقاً لم يكن شوقى من أبناء الطبقة الكادحة العاملة ، وحقاً لم يذق شوقى طعم الجوع والحرمان ، كما ذاقه حافظ إبراهيم الذى فر من منزل خاله وهو حدث صغير فذاق مرارة الحرمان منذ نعومة أظفاره ، وحقاً لم يكن البؤس يطوى حياته ، ويتمثل فى هيئته وملابسه فى بعض الأحيان كحافظ إبراهيم ، ولكنه كان ذا شعور وإحساس مرهف ، وخيال خصب ، ولم يكن يعيش فى برج عاجى يفصله عن الناس ويحول بينه وبين لقاء الشعب ، إنما كان يندمج مع كافة الطبقات . فى الشوارع والمقاهى ، ودور السينما .. بل إنه كان يحرص على الجلوس فى الدرجة الثالثة فى دور السينما لقصر نظره حتى ينعم برؤية الفيلم عن قرب .

شعراء تربوا فى القصور :

وشوقى شاعر مجيد سواء تربى فى أكناف القصور أم ظلمات الدور ، والمتتبع لتاريخ الأدب الفرنسى أو الإنجليزى ، يجد أن مثل هذه الحياة لم تغض من قيمة شاعر من الشعراء فربما كانت لكل شاعر من الشعراء ، أو أديب من الأدباء ظروف خاصة ، دفعته إلى ذلك دفعاً .

بل أن الشاعر الكبير وليم شكسبير نال من الحظوة فى عهد جيمس الأول أكثر مما كان يجد فى أيام الملكة الياصبات التى توفيت عام ١٦٠٤ وكان جيمس الأول يشجعه على الكتابة والتأليف وكان راعياً له بعد اللورد ساونهامبتون الذى كان راعى شكسبير منذ شبابه .

ولم يمنع ذلك كله هؤلاء الأدباء من التمجيد مهما كانت الظروف السياسية فى البلاد ، بل أن العهد الجمهورى فى فرنسا لايزال يذكر بكثير من الفخار جهود موليير وراسين ، وهما من دعائم النظام الملكى ومن الذين نهلوا من معين القصر والبلاط حتى الثمالة . !

فالحجة التى يقيمها المعارضون لشوقى إذن حجة واهية لا يقوم عليها دليل قاطع ولا تبنى على أساس متين ، لأنها أشبه بالأوهام التى تشيد بالليل لتتحطم أمام مواكب النور فى الصباح !

كان الشعر فى العصر المملوكى والعثمانى يرسف فى أغلال بالية من البديع والبيان والصور السخيفة السقيمة ، والتراكيب الممجة المستهجنة . فجاء شوقى وسار على نهج البارودى فى إعادة الشعر إلى فتوته ، وقوته ورونقه وبهائه ، وكساه بحلة بديعة من الخيال العذب ، والفكر الطليق ، وعكف شوقى على قراءة دواوين شعر الشعراء الأقدمين مثل البحترى والمتنبى وأبى فراس وأبى نواس ، وأخذ ينهج نهجهم فى نظام القصيدة العربية ، بل حاول أن يعارضهم فى بعض القصائد كسينية البحترى وبعض أشعار الشريف الرضى .

كما طفق شوقى ينقل بعض المعانى الغربية إلى الشعر العربى ، ونقل بعض خرافات لافونتين ، وعندما سافر إلى أوربا حاول أن يأخذ من الثقافة الغربية بنصيب وأن ينهج منهج لامارتين وغيره من الشعراء الرومانتيكيين واستهوته قصيدته

المعروفة « البحيرة » التى أشار إليها فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه الطبعة الأولى عام ١٨٩٧ كما قرأ سان سيمون وغيره من الفلاسفة الفرنسيين وشرع يعبر عما يجيش فى نفسه من مشاعر ويضطرب فى قلبه من أحاسيس .

يجول في كل ميدان :

ومهما يكن نصيب شوقى فى ثقافته من القوة أو الضعف ، ومن العمق أو البساطة فإنه استطاع على أية حال أن ينفض عن الشعر تراب السنين ، ويغوص إلى أعماق الحياة المصرية ، والروح العربية ، والحضارة الشرقية فى عصره ، ويعالج مثلا كل السياسة والأحوال الاقتصادية والظروف الاجتماعية فى شوقياته ، واستطاع فى كثير من الأحيان أن يصل إلى أغوار السرائر ، ويهز أوتار القلوب هز الفنان القادر على فنه ، والمتمكن من شخصه ، المدرك لحقيقة الشعر ، وأثره فى استهواء النفوس ، واجتذاب الأفئدة .

وظفر « الشرق » فى شعره بأهمية كبرى ، فكان يغار على مجده القديم ، وعزة الدارس ، ويزهو بما كان له من فضل فى انبثاق المدنية ، وانتشار الحضارة وبعث الروحانيات . وكانت الحسرة تفتت كبده وهو يرى الاستعمار ينشب براثنه فى بلاد الشرق فيسلب خيراتها ، ويقتل حضارتها ، ويستنزف دماءها ، ويدعو أبناءه إلى الوثوب فى سبيل الحرية ، والتعاون من أجل الاستقلال ، والتكاتف والتآلف ، ونسيان العداوات الشخصية ابتغاء إدراك الأمانى القومية العليا ، وفى ذلك يقول أمير الشعراء :

عمالك الشرق أم أدراس أطلال ... وتلك دولاته أم رسمها البالى ؟
أصابها الدهر إلا فى مآثرها ... والدهر بالناس من حال إلى حال
إذا جفا الحق أرضاً هان جانبها ... كأنها غابة من غير رئبال
وأن تحكم فيها جهل أسلها ... لفاتك من عوادى الذل قتال
نوابغ الشرق هزوه لعل به ... من الليالى جمود اليائس السالى
أن تنفخوا فيه من روح البيان ومن ... حقيقة العلم ينهض بعد إعضال
لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم ... ولا محل لمباهاة وإدلال
لا تطلبوا حقكم بغيا ولا صلفا ... ما أبعد الحق عن باغ ومختال !

ولا يضيعن بالإهمـــال جانبه فرب مصلحة ضاعت بإهمال
كم همة رفعت جيلا ذرى شرف ونومة هدمت بنيان أجيـال !

* * *

وهكذا كان شوقى بوقا للحرية ، وداعياً إلى العلم ، وشحذ العزائم واستثارة الهمم ، وصوتاً للمعانى الوطنية التى كانت تجيش بها النفوس فى هذه الفترة العصيبة من فترات الـكفاح القومى .

قصة هندية :

ومن أطرف شعره القصصى تلك القصيدة التى نقلها عن كاتب هندى بعنوان « خلق المرأة فى الهند » ، واستهلها بقوله :

أروى لـكم خرافة فى غاية اللطافة
أتت من الهند لنا وترجموها قبلنـا
إلى لغات جمـة لأن فيها حكمة

والقصيدة ذات أصل هندى كما قلت ، وحكى فيها قصة خلق المرأة من استدارة القمر ولطافة الزهر . . وهى طريفة للغاية ، وتطعم الشعر العربى بلون جديد من ثقافة الشرق يمكن أن يضم إلى ذخيرة شعره الوطنى والعاطفى .

شوقى والمسرح :

وشعر الطبيعة هذا فى ميدان الشعر الغنائى ، أما فى ميدان المسرح فقد ألف شوقى مجموعة من المسرحيات مثل مجنون ليلى ومصرع كيلوبترة وقمبيز وأميرة الأندلس والست هدى ، وغيرها ، ومهما يوجه إلى هذه المسرحيات من نقد من الناحية الفنية ، فإننا نلتمس العذر لشوقى لأنه ينظم بالشعر ، وهى على أية حال صـــورة من الحركة التجديدية الـكبرى التى حاول أن يعكسها على الشعر العربى الحديث .

حقاً لقد حاد شوقى عن التاريخ فى بعض مسرحياته أحياناً ، ولـكنه استطاع أن يتناول الموضوعات فى كثير من المهارة والدربة ، وأضفى أسلوبه

الشعرى الجميل عليها ألواناً شتى من الجمال والروعة حتى أننا يمكن أن نقول ونحن مطمئنون أن شوقى من أعظم المنشئين للمسرح فى مصر ، وأنه خلق بمسرحياته نهضة مسرحية كبرى لانزال نجنى قطافها حتى اليوم ، وما أصدق خليل مطران حين احتفى بمقدمه فى قوله :

أهلا بنابغة البلاد ومرحبا ... بالعبقرى الفاقد النظراء
« شوقى » أمير بيانها « شوقى » فتى ... فتيانها فى الوقفة النكراء
« شوقى » وهل بعد اسمه شرف إذا ... شرفت رجال النيل بالأسماء ؟
مصر بشوقى قد أقر مكانها ... فى الذروة الأدبيـة العصماء
هو أوحد الشرقين من متقارب ... متكلم بالضاد أو متنائى
ما زال خلاقا لكل خريدة ... تصبى الحليم بروعة وبهاء
كالبحر يهدى كل يوم درة ... أزهى سنا من أختها الحسناء !

حافظ ابراهيم

فى صباح يوم باسم صعدت زغرودة من عوامة ترسو على شاطىء النيل ، كان يسكنها إبراهيم أفندى فهمى أحد المهندسين المشرفين على قناطر «ديروط» وزوجته الست هانم التركية الأصل ، وكانت هذه الزغرودة بشيراً بمولد محمد حافظ إبراهيم، ورنا الأب إلى ابنه فى شوق ولهفة وهو فرح بهذا المولود الجديد ، وظل يرقبه يوماً بعد يوم حتى بلغ الطفل الصغير الرابعة من عمره . . .

وعندئذ سلك القدر مسلكا آخر ، ولم يشأ أن ينعم الأب أكثر من ذلك بابنه . . . ففاضت روحه إلى بارئها ، وترك اليتيم فى مفترق الطرق . . . تتجاذبه ريح الزمن ذات اليمين وذات الشمال . . .

وحملت الأم ابنها الصغير إلى القاهرة والأمل يحدوها والرجاء يحركها ، لتنسى آلامها وتغرق أحزانها ، وعند شقيقها محمد نيازى حطت الأم عصا الترحال وتنفست الصعداء واعتقدت أنه سيحمى فلذة كبدها من أرزاء الدهر ونوب الزمان ويسوق له تربية كريمة صالحة تبعده عن مواطن الزلل ، ومهاوى الشقاء . . . ودخل الطفل المدرسة الخيرية بالقلعة ، وتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم وتلقن مبادىء الحساب ، وظل ينتقل من معهد إلى معهد حتى استقر فى المدرسة الخديوية ، غير أن خاله لم يلبث أن نقل من القاهرة إلى طنطا فاضطر حافظ إبراهيم أن ينتقل مع خاله إلى هناك ليلتحق بأحد مدارسها .

وفى طنطا كان حافظ إبراهيم يبلغ السادسة عشر من عمره ، وكان كثيراً مايذهب إلى مسجد السيد البدوى ليؤدى فريضة الصلاة فيروعه هذا العدد الغفير من الناس الذين حضروا من كل فج عميق لزيارة السيد البدوى للتبرك بنفحاته الطاهرة وأداء نذورهم فى صندوقه ! . . . وكان كثيراً ما يبهج عينه بمنظر رجال الطرق الصوفية وهم يذرعون الطرقات جيئة وذهاباً وهم يحملون أعلامهم ويرفعون بيارقهم ويصلون على الرسول الكريم وصحبه الأبرار فى غدواتهم وروحاتهم ، والناس حولهم متجمعون كأنهم فى يوم الحشر العظيم .

ملأت هذه المناظر أعين الفتى فلم يشأ أن يترفع عن الشعب ، إنما اندس بين القوم وهو يحاول أن يحس بمثل أحاسيسهم ويضطرب قلبه بمثل مشاعرهم .

وأخذ الفتى يعكف على دواوين شعراء العرب فى شغفونهم ، وطفق يحفظ أشعار الفحول منهم فى آناء الليل وأطراف النهار ، وانطلق يروض قلمه الصغير فى قرض الشعر ، وكان إذا انتهى من نظم بيت من الأبيات أخذ يردده على لسانه فى نغم عذب وترنيم طروب ، فإذا آنست نفسه إلى ما نظم استأنس برأى رفاقه فى نظمه فيعجب بعضهم بشعره بينما يقابله البعض الآخر بالاستهجان والنفور .

وأخذت شاعرية الفتى تزداد مع الأيام قوة واشتعالا ، وتلتهب حساً ووجداناً ، وتتأثر بما قرأ فى كتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفى من عيون القصائد ، وبدائع النظم ، وأصبحت نفسه لا تطيق سلطان أحد عليه ، ولا تتحمل إهانات خاله له ولومه وتقريعه كلما داعب قطة أو لاعب كلباً ؛ وفى أحدى الليالى تسلل الفتى حافظ إبراهيم تحت جنح الليـــل البهيم من بيت خاله . . . وهو يعتزم أن يعمل لحساب نفسه ويرتزق من عرق جبينه ولا يكبد خاله مسئولية الإنفاق عليه .

وعن لحافظ إبراهيم أن يعمل فى المحاماة ويشترك مع أحد كبار المحامين فى إعداد القضايا ، ورغم أنه لم يكن يحمل من مؤهلات المحاماة شيئاً إلاأنه لم يجد عائقاً يحول بينه وبين بدء نشاطه فى هذا الميدان ، فالتحق بمكتب المحامى محمد الشيمى بطنطا مرة وبمكتب المحامى محمد أبى شادى مرة أخرى وبمكتب عبد الكريم فهيم تارة وبمكتب إبراهيم الهلباوى تارة أخرى .

وقد مكنته هذه الفترة من الاتصال بكبار المحامين ، وبإيثار الأسلوب الخطابى فى الشعر ، والإتيان بالحجج البيانية والبراهين البلاغية من أجل الوصول إلى الحقائق وفى سبيل إيصال الفكرة إلى ذهن القارىء أو السامع .

وسئم حافظ إبراهيم دنيا القضايا والمرافعات ، ومل المحاكم وما يدور فيها من منازعات وخصومات وتاق إلى أن يقتفى أثر أستاذه العظيم محمود سامى البارودى فيصبح مثله رب السيف والقلم !! ولكن كيف السبيل إلى ذلك من غير الالتحاق بالمدارس العسكرية ؟ !

عول حافظ إبراهيم على الالتحاق بالكلية الحربية المصرية ولم يكن حينئذ يبلغ من عمره سوى سبعة عشر عاماً . كان فى غض الأهاب مفتول العضلات ،

شامخ البنية ، حاد الأسارير ، ولكن الأمل كان يملأ أعطافه أن يغدو ضابطاً كبيراً فى الجيش عظيم المهابة قوى الشأن .

تخرج حافظ إبراهيم فى الكلية الحربية وهو فى العشرين من عمره ولم يلبث أن سافر إلى السودان مع إحدى الكتائب المصرية المسافرة إلى هناك . غير أن العيش لم يطب له فى السودان واشتكى مر الشكوى مما كان يكابده من شظف العيش وشدة الحرارة ، وحدة القيظ ، وأرسل إلى الأستاذ الأمام محمد عبده بعض الرسائل يشكو له فيها آلامه هناك . ويظهر أن الحياة فى السودان فى هذه الفترة لم تكن من السعة والتقدم إلى ماهى عليه الآن ويظهر أن حافظ إبراهيم لم يكن راغباً فى هذا السفر ، ومن ثم اشتد ضيقة هناك وأثار ذلك فى نفسه التبرم والسخط فقال يصف حالته .

جنيت عليك يانفسى وقلبى	عليك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهم وأدوا بيانى	بلغت بك المنى وشفيت مابى
سعيت وكم سعى قبلى أديب	فآب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلى	دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً	صبيغاً بعد ما دبغت إهابى

* * *

وحدثت عام ١٨٩٩ ثورة فى السودان واتهم فيها ثمانية عشر ظابطا ، كان بينهم حافظ إبراهيم فحوكموا إلى الاستيداع ، فسافر حافظ إلى مصر ، وترك السودان وفى ذهنه أفكار شتى نحوه سجلها فى كتابه « ليالى سطيح » .

وصل حافظ إبراهيم إلى مصر بعد أن اصطلحت عليه الأحداث فألحق بدار الكتب المصرية وظل بها حتى أحيل إلى المعاش بعد أن قام بالدار نحواً من عشرين سنة ، ولم تكن تلك الفترة خصبة فى قرض الشعر إنما كان ينفق أيامه وأعوامه فى دار الكتب لايعمل شيئاً ولا يقول شيئاً وإنما يكتفى بأن ينفق صباحة فى الدار يعبث بالموظفين ويتندر عليهم أو تلقاه فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة فإذا حان المساء وهبط الليل انطلق إلى أحد المنتديات أو المقاهى لينفق الصدر الأول من الليل فى ضحك وفرح وانشراح مع رفاقه وأصدقائه .

وكان حافظ يخرج من دار الكتب عند الظهيرة تعباً مكدوداً يتصبب العرق من جبينه ويسيل على هندامه ، والشمس شديدة الوقدة ، ويقف فى شارع باب الخلق ينتظر عربة سوارس ولا تقبل العربة حتى يرى الخيل قد خلعت عنها أرسانها وأبت السير ، وعندئذ تعاود حافظ روحه المرحة وينعى الفقر الذى ألجأه إلى هذا الذل رغم شيخوخته ، ويأخذ فى السير مع بعض أصدقائه فى شوارع القاهرة حتى إذا ما مروا على أحد البنوك تخلف حافظ إبراهيم عن رفاقه وتركهم وتقدم إلى جندى البوليس الذى يحرس البنك وسلمه سيجارة بكل احترام ولما سأله أصدقاؤه على السر فى ذلك يجيب والمرح يملأ أعطافه : عشان يأخد باله من القرشين بتوعى فى البنك ؟!

كان حافظ يحب الجمال ويكره القبح ، وتهتز نفسه من الطبيعة الساحرة والوجه الطلق الصبوح وكلما رأى وجهاً وسيما تمتم فى نفسه أو تمتم أصحابه : ليس الوزر عليه إنما الوزر على أبيه ، وإذا سأله أصحابه وما هذا الوزر ؟ أجاب والضحكة لا تفارق ثغره وتدوى فى أرجاء المكان : لأنه لم يؤدِ مهرا . . . وفى هذا المعنى يتهكم عليه أحد رفاقه فيقول : أن والد حافظ إبراهيم تزوج على الطريقة الإفرنجية فلم يدفع مهراً بل هو الذى أخذ الدوطة ! !

وكان شاعرنا صديقاً حميماً للشاعر خليل مطران وكان يلازم أحدهما الآخر وكانت لهما جلسات رائعة فى حانة اللواء مع الشيخ عبدالعزيز البشرى والبابلى ، وكان الشاعران شريكين فى البأساء والضراء ، وقد اشتركا سوياً فى ترجمة كتاب « تاريخ الاقتصاد السياسى » كما ساعده مطران فى ترجمة كتاب البؤساء لفيكتور هوجو . وكانت بينهما مزاحمة شديدة لمعرفة أيهما أجمل ، وكان كل منهما يدعى أنه أجمل صورة من الآخر ، وتشتد الخصومة بينهما من جراء ذلك ، وأخيراً يقول مطران لحافظ : لئن كنت أنا أقبح إنسان فأنت ولا فخر أجمل خروف ! ، وحدث مرة أن أحضر حافظ صورة جميلة أعجب بها وأراد أن يشاركه الخليل فى هذا الإعجاب فأحضرها إليه وسأله رأيه فيها فنظر إليها الخليل ملياً ثم قال : لا بأس بها على العموم ولكن الأنف على ما يظهر مش ولا بد ، ونظر إليه حافظ وقال : يا شيخ إحنا قلنا لك بص للصورة مش للبراية ؟! . . . ويرمى حافظ من هذا القول إلى التهكم على أنف خليل مطران التى كانت مثاراً لانتقاد حافظ فى شتى المجالات .

وحدث أن كان حافظ والخليل فى لبنان يجلسان فى ظلال شجرة وارفة الأغصان فى إحدى الحدائق الفيحاء ، وحلا الجـــو للخليل فانطلق لسانه يشدو ويترنم ، وحينئذ أخرج حافظ منديلا أحمر ورفعه على عامود موجود هناك فلما سأله الخليل عن سبب ذلك قال : حتى يعلم الناس مصدر خطر الغناء . . . فلا يصلون إلى مكان الغناء !

وكان حافظ إبراهيم صديقاً حميا كذلك لأمير الشعراء أحمد شوقى ، ولـكن الغيرة كانت كثيراً ما تنطرق إلى صداقتهما ، وكان حافظ إذا جلس إلى شوقى لوح له ثنايا حديثه أنه أمير الشعراء وأنه من رعاياه ولـكنه كان إذا خلا إلى نفسه أو إلى نفر من رفاقه أنـكر هذا القول وقال . منه أمير ومنى أمير !

ودبت الجفوة بين الشاعرين فى فترة من الفترات ولا سيما عقب أن خصصت جريدة السياسة لصاحبها محمد حسين هيكل خمسين جنيها لشوقى مكافأة له عن قصيدة نشرها بينما لم يربح حافظ من قصيدة له فى نفس الغرض شيئاً ، بيد أن هذه الجفوة لم تبرح أن زالت وأقيم لشوقى مهرجان تـكريم عام ١٩٢٦ ساهم فيه شعراء لبنان وسوريا والعراق وغيرهم من شعراء العالم العربى وألقى فيه حافظ قصيدة عصماء من درر قصائده بايع فيها شوقى بإمارة الشعر واستهلها بقوله :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد أقبلت معى

ومات حافظ إبراهيم قبل شوقى بثلاثة أشهر فبكاه بدمع هتون ونفث من أعماقه قصيدة يرثيه ضمنها لوعته وأساه .

كان حافظ فى المجالس الـكبرى يعتز بأدبه وبما يحفظه ويعيده من نوادر تاريخية يلقيها أحسن اللقاء ، ويسر السامعين ، ويتقرب بهذا إلى قلوبهم ويرفع الـكلفة بينه وبين أكبر من فيهم ، ولهذا يجد طريقاً إلى الصدر فى كل مقام ولا يتحرج من مجالسه علية القوم دون تردد أو إحجام . !

وكان حافظ فى مجالسه الخاصة ومواقفه العامة فصيحاً متدفقاً مترنماً وكان يلقى رثاءة السنوى لمصطفى كامل عند قبره والحشد عظيم والجمع غفير ولـكن صوته كان يجلجل فى أرجاء المكان جهورياً واضح النبرات قوى الرنين ليسمع القريب والبعيد على السواء ، وكانت له فى إنشاده طريقة خاصة مطربة كما كانت لحافظ

مطارحات ومساجلات مع غيره من الشعراء وكان يبرز فيها محفوظه ومصنوعه دون كلال ودون ملال فى بديهة حاضرة تخلب الألباب .

وكان حافظ فى بيته سخياً مضيافاً ، يحب الضيافات الواسعة التى تقدم فيها الألوان الفاخرة الكثيرة ويحب أن تقدم عليها الذبائح من ضأن وديكة وغيرها ويحب أن يرى القصاع الكبرى متدفقة الجوانب بالفطائر والحلوى والنفائس وكان أشد نهمه فى الطعام بنظره وكلامه لا بشدة بطشه .

روى خليل مطران أن حافظاً كان شكوراً بقلبه ، فقد كنا أيام رحلته فى لبنان نجتاز مركبة قوية قد اشتد الزحام فى ساحتها لانتخاب (العمــــدة) فيها وما كان لنا أن نفرق هذه الجموع لنستمر فى طريقنا إلى المكان الذى نقصده إليه ، ولكن اتفق أن أحد الفتيان كان قدعرفنى شبهاً فلما أبلغته أن حافظ إبراهيم فى المركبة التفت إلى شيخ بجانبه أبيض اللحية طويلها ليستعين به على إسماع صوته وتنحية المزاحمين وأخبروه عن الضيف الموجود فى المركبة فلما سمع ذلك منه نظر نظرة المتفرس فى حافظ إبراهيم ثم قال لصاحبه « الحمد لله أننى رأيته قبل مماتى» فوقعت هـــذه الكلمات فى أذن حافظ موقعاً شهدت منه لأول مرة وجه حافظ وقد اخضل على سمرته بالدموع المتساقطة من عينيه ثم التفت إلى وقال : اليوم قد كوفئت أجل مكافأة عن خدمة أديتها لقوم كرام ، وكان ذلك لأن جميع الناس فى لبنان والشام يحفظون لحافظ مواقف شريفة فى الدفاع عنهم أيام كانت تطرؤ عليهم بعض المحن . . . »

ويقول مطران يقصد بذلك ما كتبه حافظ إبراهيم دفاعاً عن أهل الشام فى ليالى سطيح وإلى ما نظمه فيهم من شعر أخاذ :

ماذا جنيت وما جناه أبوك أظلمتهم يا مصر أم ظلموك
فبسمت للغرب الطموح وأهله ومنحتهم فوق الذى منحوك
وعبست فى وجه الشام وإنما فطر الشام وإن عبست أخوك

عاش حافظ إبراهيم طيلة حياته لا يأبه بالمال ولا يهتم بالمظهر ولم يكن راتبه عندما أحيل إلى الاستيداع فى فترة من الفترات يزيد عن أربعة جنيهات وقد شاع روح الألم والبؤس فى شعره ، وشغلته الدنيا بنكباتها وحرمته شهد أوقاتها

فلم نسمع له مقطوعة تغنى ولا قصيدة تنشد، ولا أنشودة تلحن شأن البائسين المحرومين الذين طواهم البؤس بين أكنافه وعضهم الحرمان بأنيابه ! وقد قال فى صدر ترجمة كتابه « البؤساء » وهو يهديه إلى الإمام محمد عبده « إنك موئل اليائس ومرجع البائس ، وهذا الكتاب أيدك الله قد ألم بعيش البائسين وحياة اليائسين ، وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلةالنسب كما قال فى المقدمة « وضعه صاحبه وهو بائس وعربه معربه وهو بائس وما عربته لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء »

ويقول فى كتابه « ليالى سطيح » أديب بائس وشاعر يائس دهمته الكوارث ودهته الحوادث فلم تجد له عزماً ولم تصب منه حزماً » .

ولذلك كان حافظ جياش العاطفة ، يحسن تصوير الآلام والأحزان ، لون الحرمان نفسه بألوان من الأخـــلاق لا تـكاد تفارقه فهو لا يعرف المداهنة ولا المصانعة ، وهو يعجب بالبساطة والسذاجة ، وينفر من الأرستقراطية الكاذبة غير أنه لم يكن يغرق دائماً فى بحر من الأشجان إنما كان يبدو مشرق الوجه ، منبسط النفس ، منشرح الصدر ، لا تفارق الابتسامة شفتيه ولا تبرح الدعابة ثغره ، لاحظ عليه صديق أيام كان يترجم رواية البؤساء أنه يتشبث بارتداء بذلة قديمة طالت صحبتها له فغار لونها وبلى قماشها فسأله عن سر تمسكه بارتدائها فأجابه لأن فيها صفتين من صفات الله عز وجل ، فلما سأله عن هاتين الصفتين أجاب : القدم والوحدانية .. ! . .

وكان حافظ سريع الحفظ ، حاضر البديهة يقول راشد رستم « سمعته مراهناً فائزاً فى ضيعة الأسرة الأباظية الصديقة المثقفة فيأتى بالأحاكى متتالية دون تـكرار طول الليل حتى مطلع النهار ، وسمعته يتلو علينا من ذاكرته القوية القادرة فقرات مما كان يترجم للقسم الثانى من البؤساء يقرأ الصفحة الفرنسية مرة أو مرتين ولا يزيد ثم يدعها جانباً وقد رسخت فى ذاكرته ثم يأخذ فى الترجمة بإدراكه وكأنه يكتبها على صفحات ذهنه فلا قرطاس ولا قلم ، ولا يقعد لها وإنما يقوم بها وهو يؤدى شئون يومه إذ هى فى الرأس وليست فى الكراس ... »

وكان حافظ يقرأ المقالة الضافية أو القصيدة الطويلة أو الكتاب الضخم فإذا

به عقب الانتهاء من قراءته قد استظهر أكثر جماله أو كأنه يقرأ فى بديهته من كتاب أو يستوحى الغيب فليس بينه وبين الغيب حجاب !

وكان المرحوم محمد إمام العبد شاعراً خفيف الظل يتحدث عن صديقه حافظ إبراهيم ويقول لكل من يقابله من الناس ، أنا اللى خلقت حافظ وعلمته الشعر ثم حدث أن تقابلا وشكا إمام العبد إلى حافظ كيف تحدرت به الأيام حتى أوشك أن يبيت على الطوى ولا يجد لقمة من الخبز يسد بها رمقه ، ولا يستطيع سداد إيجار منزله ، ويطلب منه بعد ذلك فى رقة ودعابة أن يستدين بعض المال منه فيضحك حافظ ملء أشداقه ويضع يديه فى جيبه ثم يقول : يا إمام أنا آسف . . أنا يامولاى كما خلقتنى ! . .

كان حافظ شاعراً ممتازاً وقد نهض بالشعر العربى مع رفيقه شوقى إلى عهود جزالته الأولى فى العصور الذهبية ولوناه بألوان جديدة من الأفكار والمعانى ، واستخدما الشعر فى مسايرة روح العصر فخاضا فى ميدان السياسة والاجتماعيات والوطنيات حتى يغنيا مشاعر الجماهير ، ويشتمل ديوان حافظ على مجموعة من القصائد السياسية مثل قصيدته فى وداع اللورد كرومر وقصيدته فى استقبال السير غورست المعتمد الإنجليزى بعد كرومر ، وقصيدته فى تصريح ٢٨ فبراير وفى رفع العلمين المصرى والإنجليزى على الخرطوم ، كما يشتمل على مجموعة من القصائد الاجتماعية بقصائده فى جمعية الطفل وجمعية إعانة العميان ، وتعضيد مشروع الجامعة المصرية ، والجمعية الخيرية الإسلامية ، وهو فى هذه الضروب من الشعر يحاول أن يرضى الجماعات الكثيرة من الناس التى تقرأ من ديوانه أو تتلو شعره على صفحات الجرائد والمجلات ، ولذلك كان شاعراً ممتازاً من شعراء الشعب ، يغنى آلامه ويترنم بآماله ... ويصبو إلى ما يصبو إليه الشعب من عزة ومجد ورفاهية .

وهكذا أخذ حافظ يتغنى بمشاعر المصريين ويحاول أن يكون شاعر الشعب الذى يتغنى بما يجيش فى نفسه من عواطف ، وما يضطرب بين ضلوعه من مشاعر وما يختلج به وجدانه من أحاسيس وطنية ، وقد زخر ديوانه بالعذب الرائع من شعره فى هذه الباب .

ويقول خليل مطران عن صديقه حافظ أنه يتعب فى قرض شعره تعب النحات

الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره ، وهو يؤثر الجزالة على الرقة وله فيها آيات ، حاضر المحفوظ من أساليب العرب ، ينسج على منوالها ، ويتخير نفائس مفرداتها ، له غرام باللفظ لايقل عن غرامه بالمعنى ، وإذا فاته الابتكار حيناً فى التصور لم يفته الابتكار حيناً فى التصوير ، أولع بالاجتماعيات ، فقال فيها وأجاد وشعره شعر البيان وإن من البيان لسحراً .

وقد وضعه الدكتور طه حسين مع شوقى فى طبقة أشعر العرب بعد أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى فقال : « هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبى وأبو العلاء من غير شك » ...

وعندى أن حافظ كان يمتاز بحلاوة الموسيقى وعذوبة الأسلوب أكثر من أى شاعر آخر فموسيقاه ، عذبة رخيمة لاتصل إلى الآذان حتى تصل إلى شغاف القلوب ، ولا تصل إلى شغاف القلوب حتى تشيع فى النفس انشراحاً ، وفى القلب انبساطاً ، وفى الروح انبعاثاً . . . فإذا القارىء أو السامع ينتشى من الطرب ويهتز من رخامة المبنى ، وحلاوة المعنى !

وكان حافظ يقرض الشعر فى كل مكان . يقرضه فى البيت ويقرضه فى المقهى ويقرضه فى القطار ، وإذا طاف به وحى الشعر وجــدت جبينه يتفصد عرقاً ، ووجدته يهيم ببصره ، وقد ثبتت عيناه فى محجريهما فتحدثه وهو حاضر أمامك فلا يجيب عليك إنما يظل سابحاً فى عوالم الخيال ، فإذا استقام له البيت أخذ يدندن به كما يدندن الموسيقى بلحنه فإذا أعجبه نظم القصيدة على غراره بعد أن كساها بثياب رائعة من الأسلوب .

وهو أشبه فى شعره بجامع الياقوت الأبيض والأزرق واللآلىء والدرارى من أعماق المحيط يكابد المشقة والآلام ، غير أنه إذا ما بلغ بغيته شعر بالسعادة والانشراح ، وأخذيهذبه ويشذبه وينظمه فى عقد نظيم يبهر العين ويخلب الألباب .

وليس معنى هذا أن حافظ كان شاعر لفظ لا شاعر معنى ، فكم من معان عذبة اخترعها حافظ كالعذارى الأبكار . وتهادت فى ديوانه كالعرائس فى ليلة الزفاف تختال بجمالها كما تختال بثيابها ! وليس اكتشاف ذلك على دارس الديوان ببعيد !

كان حافظ حلو النكتة فى أشد الأوقات حرجاً ، عذب المعشر ، حلو الحديث وكان يتبرم بالحياة الغربية التى تقيد الشخص بأغلال « البروتوكول » .

ويروى صديقه الأستاذ راشد رستم أن حافظ ، عندما صحبه إلى باريس كان يجيئهم يوماً يجد فى مشيته ويدندن بصوت خافت عادته إذا مانال راحته ، يقول أنه عمل بنصيحة أمير الظرفاء صديقه الحميم محمد البابلى فقد كان يطلب طعامه فى غرفته بالفندق ثم يحكم إغلاق بابها ويخلع سترته ويلبس الجلباب ثم يجلس أرضاً هو والمائدة ويأخذ راحته ويأكل على طريقته ! !

كما كان يجلس على أحد المقاعد فى شارع الشانزلزيه بباريس لا يفعل شيئاً سوى أن يحصى السيارات وهى تجرى متتابعة ، ومتعارضة ، يقارن بين عددها فى الأوقات المختلفة من الزمان ، وكان كلما مرت غادة حسناء ترنم بأبيات من الشعر محفوظة أما هو فلم ينظم فى الحب والغزل إلا أبيات قليلة ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه لم يذق حلاوة الحب ولم يمتحن بما يمتحن بها المحبون العاشقون من تباريح الهوى ، ولواعج الجوى ، وحلاوة اللقاء ومرارة الفراق ، زد على ذلك أنه لم يوفق فى حياته الزوجية مثلما وفق رفيقه شوقى ، فقد تزوج شوقى وأنجب أبناء وفرح بهم فرحاً بالغاً ، ونظم فيهم بعض بدائع شعره ، أما حافظ فإنه فى عام ١٩٠٦ بعد أن عاد من السودان تزوج من أسرة يحى عابدين ولكن لم يدم زواجه سوى أربعة أشهر فافترق الزوجان ولم يعقب منها ثم لم يعد بعد ذلك إلى الزواج .

وربما كان هذا هو السر فى خلو ديوان جافظ بجزأيه من شعر الحب والغزل ، اللهم إلا أبيات تعد على أصابع اليد الواحدة . لاتروى غله ولا تنقع صدى ، ولا تعطينا صورة واضحة عما يختلج به قلبه ، أو يخفق به إحساسه !

وقد حاول حافظ أن يستهل بعض قصائدة بالغزل مثل مطلع قصيدته إلى الخديو عباس عام ١٩١١ ومطلع داليته فى البارودى ، وبائيته فى حرب اليابان ولكن غزله تقليدى كلاسيكى لايصور عاطفة ، ولايوضح شعوراً غير أن عاطفته الوطنية والاجتماعية كانت تسد الفراغ الذى شغره فى هذا الباب .

وذات يوم دعا حافظ إبراهيم لفيفاً من أصدقائه لتناول العشاء ، وحضر الأصدقاء ، وكان كل شيء معداً ، الأطباق مرصوصة والطعام يسيل له اللعاب ، إلا أن حافظاً لم يستطع أن يشارك أصدقاءه الطعام . . . بل ظل يجالسهم وهم يأكلون . . ويضع يده فوق صدره بين الحين والحين إذ كان يشعر بحمل ثقيل

يجثم على صدره ، بيد أنه تحامل على نفسه ، وأخذ يتحدث إلى صحبه كأن شيئاً لم يحدث .

وانفض عقد القوم ، ورفعت المائدة ، وآب حافظ إبراهيم إلى غرفة نومه إلا أنه شعر بهذا الحمل يثقل عليه شيئاً فشيئاً ، والضيق يملأ جوانحه رويداً رويداً فأسرع الخدم باستدعاء الطبيب . . ولم تمض دقائق حتى كان حافظ قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى بارئها ، وانطوت حياة شاعر النيل الأثيل . . !

نظرة فى شعر حافظ :

يعتبر شعر حافظ إبراهيم معرضاً جميلا من معارض العاطفة النابضة ، والشعور الرقيق والإحساس الفياض .

ومن يقرأ ديوان حافظ إبراهيم يلاحظ أن عواطفه تثور حيناً ، وتهدأ حيناً آخر ، وتتأجج تارة ، وتفتر تارة أخرى ، وتختلف حدتها من غرض إلى غرض ، ومن قصيدة إلى أخرى ، شأنه فى ذلك شأن الشعراء جميعاً ، غير أنه كان يمتاز عليهم بصفة يخضع لها ، ويأنس إليها ، ويتشبث بها ، ويسعى فى سبيلها سواء شعر بذلك أم لم يشعر ، وسواء قصد إليها أم لم يقصد . ألا وهى انسياب مجرى شعوره أو عاطفته من الذات إلى الغير ، ومن شخصه إلى سواه من الناس ، وآية ذلك أننا لا نجد فى شعره تلك القصائد الوجدانية المتوقدة ، التى تعبر عن لواعج حبه ، وتفصح عن تباريح هواه ، ويشرح مايكابده من آلام الجوى ، ومايقاسيه من عذاب النوى ، إنما نجـــد فى شعره عاطفة إنسانية متدفقة تفيض نحو اليتامى والمساكين والمنكوبين ، وتدعو إلى الخير والإحسان ، وإنشاء الملاجىء وإعانة الجمعيات ، ومشاركة وجدانية فى المآسى والأحزان . كما نجد فى شعره عواطف اجتماعية واضحة نحو نشر الإصلاح فى كل مكان ، ونهضة اللغـة على كل لسان ، وعواطف قومية رفيعة تهدف إلى الحرية والاستقلال ، وتحطيم قيود الاستعمار ووثبة الشرق ونهضة أبنائه .

والمتأمل فى ديوان حافظ إبراهيم يلاحظ أنه لم ينظم فى الغزل إلا أبيات قليلة ، وأغلب هذه الأبيات ذكر أنه نقلها عن بعض الشعراء الغربيين وهى على أية حال لاتنبض بعاطفة قوية أو شعور ملتهب ، أوإحساس جياش ، إنما نظمها

حافظ فى أغلب الظن ليثبت أنه استطاع أن يخوض الشعر فى كل غرض ، ويقرضه فى كل باب من ناحية ، ويثبت من ناحية أخرى أنه استطاع أن يصل إلى الثقافة الغربية ، وأن يحصل منها على شىء ظن أنه يمكن أن يتراءى واضحاً جلياً أمام الناس بهذه الأبيات .

ومن شعره فى الغزل هذه الأبيات التى ذكر أنه ترجمها عن جان جاك روسو ونشرها عام ١٩٠٠ :

يأيها الحب امتزج بالحشا ... فإن فى الحب حياة النفوس
واسلل حياة من يمين الردى ... أوشك يدعوها ظلام الرموس

وعمد حافظ إبراهيم فى بعض مطالع قصائده إلى الغزل والنسيب كما كان الشعراء الأقدمون يعمدون إلى ذلك ، فهم يستهلون قصائدهم بذكر الغزل والنسيب ، حتى إذا ما انتهوا من غزلهم ونسيبهم ، انتقلوا إلى وصف الرحلة ، وما قطعوا فيها من شقة وما تحملوا أثناءها من مشقة أيضاً ، ثم انتقلوا إلى المدح أو ما إلى ذلك من أغراض الشعر ، ومثال ذلك قصيدة حافظ إبراهيم فى مدح المرحوم إبراهيم هلال الكاتب والشاعر وصاحب جريدة النواب وقتذاك ، وقصيدته فى مدح البارودى .

ويبدو أن حافظ إبراهيم كان أصدق عاطفة فى شعره قبل الزواج منه بعد الزواج . فنى قصائده قبل عام ١٩٠٦ نجد العاطفة النابضة ، والشعور المتوقد الذى لم تخمده تجربته القاسية فى الزواج ، كما نجده يحرص على ألا يذيع حبه بين الناس مخافة أن يقلل ذلك من شأنه أو يزرى بمنزلته العسكرية ، ولذلك كان كتوماً لعواطفه لا يفصح عنها إلا بنذر ضئيل .

كتمت فقالوا شاعر ينكر الهوى ... وهل غير صدرى بالغرام خبير
ولو شئت أذهلت النجوم عن السرى ... وعطلت أفلاكا بهن تدور
وأشعلت جلد الليل منى بزفرة ... غرامية فيها الشرار يطير
ولكننى أخفيت ما بى وإنما ... لكل غرام عاذل وعذير
أرى الحب ذلا والشكاية ذلة ... وأنى بستر الذلتين جدير
ولى فى الهوى شعران شعر أذيعه ... وآخر فى طى الفؤاد ستير

ولولا لجاج الحاسدين لما بدا لمكنون سرى فى الغرام ضمير
ولا شرعت هـــذا اليراع أناملى لشكوى ولكن اللجاج يثير

* * *

زواج حافظ إبراهيم :

وتزوج حافظ إبراهيم عام ١٩٠٦ بعد أن عاد من السودان من أسرة يحى عابدين ولكن لم يدم زواجه أكثر من أربعة أشهر، فافترق الزوجان، ولم ينجب منها، ثم لم يعد بعد ذلك إلى الزواج، وربما كانت هذه التجربة التى مر بها الشاعر حافظ إبراهيم هى التى صرفته عن النساء، وقللت شعر الغزل فى ديوانه، إذ أحس فى نفسه انقباضاً، وأحس فى قلبه ابتئاساً، وجعلته أقل شعوراً وعاطفة من شوقى حيال الأسرة والأبناء، فالشوقيات مترعة بالقصائد والمقطوعات عن أبناء شوقى وبناته فى شتى المناسبات وتجيش بعواطفه الأبوة الواضحة، أما حافظ فقد افتقد شعره هذا العنصر، وهـــذا اللون من العاطفة، ولعل حافظ نفسه شعر بهذا النقص فقال فى إحدى قصائده فى رثاء باحثة البادية يصور لوعة أبيها فى فقدها :

أنا لم أذق فقد البنـ ين ولا البنات على الكبر
لكننى لـــا رأيت فؤاده وقد انفطر
وشهـــدته أنى خطـا خطوة تخيل أو عثر
أدركت معنى الحزن حز ن الوالدين فما أمر

* * *

وكان حافظ إبراهيم ذا عاطفة حزينة فى أغلب شعره، وكانت نزعة الحزن تسيطر عليه فى تفكيره رغم ما عرف عنه من مرح وبشاشة ودعابة فى حياته الخاصة، ورغم ماروى عنه من نكات عذبة طريفة جرت مجرى الأمثال، ويغلب على الظن أنه كان يصرف بهذا الابتسام ما فى نفسه من عبوس، وبهذا الضحك مافى قلبه من بكاء. لأنه كان يعيش عيشة الكفاف والحرمان، وألمت به الخطوب من كل جانب، سواء منها ما يتصل بحياته الخاصة كمحنته فى الزواج. وما

يمت إلى عمله بصلة كقلقه أو التهم المنسوبة إليـه فى السودان ، وقد صرح حافظ إبراهيم فى أكثر من موضع فى شعره عما يكابده من ألم وعما يشعر به من حزن كقوله :

ولى الشباب وجازتنى فتوته   وهدم السقم بعد السقم أركانى
وقد وقفت على الستين أسألها   أسوفت أم أعدت حر أكفانى
إنى مللت وقوفى كل آونة   أبكى وأنظم أحزاناً بأحزان
إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى   وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

* * *

العاطفة فى رثاء حافظ :

وزاد من حزن حافظ إبراهيم فراق أصحابه وأحبابه ، فقـد كانوا يتساقطون كأوراق الخريف ، واحد إثر واحد . . وكان حافظ إبراهيم لا يستطيع أن يعصم نفسه من الحزن أو يصرف قلبه عن الأسى ، أو عينه عن البكاء . فكان ينظم القصائد من ذوب دموعه . وخلاصـة نفسه ، وسويداء فؤاده لرثائهم . ولذلك كان بعض قصائد الرثاء عند حافظ تبلغ الذروة فى عاطفتها الصادقة وإحساسها الشريف ، وشعورها الفياض . وقد كساها حافظ بوشى من موسيقاه العـذبة ، وأسلوبه الرصين ، ونسجه المحكم فجاءت آية فى الروعة والإبداع .

ومن أروع قصائده التى تجيش بعاطفة صادقة فى الرثاء قصائده فى رثاء الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وجورجى زيدان ، فقد كانت تجمعه بهؤلاء جميعاً صلة قوية مكينة ، وقد ظل حافظ فترة طويلة من حياته يذكر فضل الإمام محمد عبده فى شعره ، ويعرض لرثائه فى قصائد الرثاء الأخرى . كما فعل فى رثاء رياض باشا وجورجى زيدان ، فإنه أشار فى قصيدته الأولى إلى فضل الشيخ محمد عبده فى تحرير الوقائع المصرية وأشار فى القصيدة الثانية إلى لوعته وحزنه يوم فقد الإمام . ولا غرو فى هذا فقد كانت تجمعه بالإمام صلة روحية وثيقة وكان أقرب المقربين إليه . وكان يصحبه كثيراً ويلازمه فى غدواته وروحاته ، وعندما سافر حافظ إبراهيم إلى السودان كتب إليه يشكو ما يكابده هناك من ضيق وشدة ، ووحشة ووحدة حتى أصبح بين نارين ، نار القيظ ونار الغيظ ، ولسنا

هنا فى هذا المقام نبحث الأسباب التى دعت حافظ إبراهيم إلى هذا الضيق أو نحلل الظروف السياسية التى أحاطت به من كل جانب ، فلهذا كله موضوع آخر . إنما نذكر أن العاطفة كانت قوية بينه وبين الإمام ، وأنه كان على اتصال دائم به ، وعندما انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى طارت نفس حافظ شعاعاً من أجله ، وذهبت حسرات عليه ، وظل يرثيه بطريق مباشر أو غير مباشر ، وقال يوم وفاته :

سلام على الإسلام بعد محمــــد   سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا ، على العلم والحجا   على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله   فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوا لهفى والقبر بينى وبينــه   على نظرة تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً   كأنى حيـال القبر فى عرفات

* * *

عاطفة الوطنية :

وامتدت عاطفة حافظ إبراهيم حتى شملت الوطن كله ، والمجتمع كله وأصبح شعره سجلا وطنياً لجهاد بنى وطنه ، وصور بعض الأحداث السياسية التى ألمت بوادى النيل كحادثة دنشواى المشئومة ، ووداع اللورد كرومر واستقبال السير غورست ورفع العلمين المصرى والإنجليزى على الخرطوم وما إلى ذلك وهو ، فى هذا كله يصدر عن عاطفة قوية ، حادة لا زيف فيها ولا رياء ، ولا اهتزاز بها ولا اضطراب ، وما أصدق قوله للإنجليز :

حولوا النيل وأحجبوا الضوء عنا   وأطمسوا النجم وأحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفينا   واملأوا الجو إن أردتم رجوما
وأقيموا للعسف فى كل شبر   كنستبلا بالسوط يفرى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر   أو ترونا فى الترب عظما رميما

* * *

وقد تجلت مشاركة حافظ إبراهيم الوجدانية فى قصائده عن اليتامى والمساكين والمشردين ومنكوبى الحرائق ، وهو فى شعره هذا القلب الحانى ، والبلسم الشافى ، والنور الباهر الذى يمحو الأسى كما يمحو نور الصبح مداد الظلام . وقد استعان

فيه إلى جانب عاطفته القوية بالموسيقى . موسيقى اللفظ ، وموسيقى الأسلوب ، وموسيقى الأوزان والقوافى . فغدت قصائده روائع خالدة تزين صدر الأدب العربى الحديث .

وصدق خليل مطران حينما وصفه بقوله :

ما شعر حافظ إلا صورة مثلث ... للنيل فاض بألوان من النعم
وليس إلا صدى الأطيار مالئة ... جنات مصر بما يشجى من النغم
شعر كأن شعور القوم قدره ... فلاح مظنونه فيه كمرتسم
تراه أصـــدق مرآة لأمته ... إن شفت عن أمل أو شف عن ألم
يلقيه لحناً بلا لحن فيطربها ... ويبدع الوهم لا يلتاث بالوهم
وطاوعته المغانى فهى فى يده ... ملك يصرفه تصريف محتكم

* * *

عباس محمود العقاد

نظم العقاد الشعر فى بداية هذا القرن ، وكانت له مع صاحبيه عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى صولات وجولات ودعوات تجديدية سار يذكرها الركبان فى ذاك الوقت . ويقول العقاد عن نفسه إن كلفه بالشعر أول العهد كان ولعاً ولا يعرف سببه ولكنه كلف به عندما أصدر الجزء الأول من ديوانه معتقداً أنه شاهد من شواهد نهوض الأمم ومرآة يتصفح بها الناس صور نفوسهم وكل عصر وطور ، فهو التاريخ الصحيح الذى لا تكذب أسانيده ، ولا تختلف أرقامه .

الوحدة فى القصيدة :

وقد كان العقاد من أول المنادين بالوحدة العضوية فى القصيدة ، وكانت القصيدة قبل ذلك متعددة الأغراض مختلفة الاصباغ . وكانت كالثوب المهلهل ينتقل فيها الشاعر من الغزل إلى الوصف إلى المدح إلى التعرض لما صادفه الشاعر من عناء السفر ، ومشقة الطريق . وقد يجنح فيها إلى الهجاء وتناول الخصوم بأقذع الشتائم ، وأحد السباب ، كما هى الحال عن جرير والفرزدق اللذين أراقا ماأراقا من حرمات ، واستباحا ما استباحا من محارم ، فيما نظماه من شعر الهجاء .

ولو أننا أنعمنا النظر فى قصيدة من قصائد امرىء القيس أو المتنبى أو أبى تمام لوجدنا الشاعر منهم مشتت الأفكار متعدد الأغراض ، فجاء العقاد وصاحباه وشاركا خليل مطران فى الدعوة إلى وحدة القصيدة ، وأخذوا يدافعون عنها فى حماسة شديدة وإصرار بالغ ، وكتب العقاد مجموعة من المقالات فى هذا الموضوع ، ونشر فى كتاب الديوان نقداً مراً لبعض قصائد شوقى أمير الشعراء ، فأحدث دوياً كبيراً فى الوسط الأدبى ، وأخذ الناس يتلقون هذه المقالات بنهم زائد وشغف عظيم ، ووصف العقاد قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل بأنها كومة من رمل لا حياة فيها ، ولا روح لها ، وأخذ يقدم بعض أبياتها ويؤخر الأخرى دون أن يخل ذلك بنظام القصيدة .

وسجل العقاد فى كتاب الديوان هذه الدعوة ونافح عنها وجاهد فى سبيلها ودعا الشعراء والمتأدبين إلى التمسك بها والدعوة إليها ، ولعله تأثر فيها بما قرأه فى الشعر العربى من قصائد ، وكان العقـــاد فى مطلع حياته يرى المثل الأعلى فى الشعر متمثلا فى شعر بيرون وكيتس وشللى ووليم وردزورث وغيرهم من أعلام الرومانتيكية فى إنجلترا .

ثقافة واسعة :

والمتصفح لديوان العقاد يجده صاحب ثقافة واسعة وأفق رحيب ،فهو يترجم عن شكسبير « فينوس وأدونيس » و « الوردة » عن الشاعر « وليام كوبر » و « الوداع » عن الشاعر « بيرتر » والقدر عن « الكسندر بوب » . . وهو ينقل بعض المعانى والأفكار الغربية إلى الشعر العربى ، وينظم الشعر فى بعض الموضوعات التأملية التى قلما نجد لنا نماذج فيما ترك العرب من تراث أدبى كالسعادة والحب والحياة ، والخيبة واليأس والحلال والحرام ، والنوم وما إلى ذلك . فقال فى النوم :

أيا ملكا مهده فى العيون ... يظلل دنيا الكرى بالخيال
أراك خلقت لنا هدنة ... تعاودنا فى مجال الكفاح
إذا ما رفعنا سلاح الجلاد ... تلم فنلقى إليك السلاح

* * *

وقال فى الغنى والسعادة :

لا تحسدن غنيا فى تنعمه ... قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها ... والماء عند ازدياد النيل يعتكر

* * *

التعبير عن النفس

والعقاد فضلا عن ذلك يحاول أن يبرز لنا فى شعره ما يختلج فى رأسه من الأفكار فى أسلوب رقيق وبيان بديع ، وهو يعبر مع صاحبيه عما يجيش فى صدره ويضطرب فى قلبه من أحاسيس ، ويجعل (الأنا) أو الذات موضوعاً لشعره ، ويعبر عن تجاربه الخاصة ، وتجربة الحب وهى أسمى التجارب الإنسانية على حد

تعبير الناقد الانجليزى وليم هازلت فاذا شعره على حد تعبيره فيه من الحكمة والغباء ، وفيه من اليأس والرجاء ، وفيه من الحب والبغضاء بل فيه صور لحياه دون تزويق ودون تنسيق ، ودون كذب أو رياء .

ونشر العقاد بعد ذلك ديوان « عابر سبيل » ، ويعتبر هذا الديوان نقطة تحول فى الشعر العربى الحديث ، فهو فيه لا يرى الجمال فى السماء الزرقاء . والنجوم التى تلتمع فى السماء ، والروض النضير ، والأزهار اليانعة ، والأنهار الجارية ، والغدران البديعة ، والأطيار المغردة ، والبلابل الصادحة ، فحسب ، إنما يرى الجمال فى أكناف الحياة الواقعية . ويرى فى كواء الثياب وساعى البريد والفاكهى جمالا لا يجده إنسان آخر ، وحياة تستحق التسجيل والخلود ، ويرى فى حياتنا اليومية مايحتاج إلى إبراز موطن الجمال فيه . وعرض مافيه من مواضع الفتنة ، فأنزل ربة الشعر من عليائها فى السماء . أو فى أجواز الفضاء ، إلى الأرض الفسيحة الرحيبة التى تدب فيها الحياة ، وتحرك الأحياء . وفى هذا يقول العقاد فى مقدمة ديوانه عابر سبيل : « إن إحساسنا بشىء من الأشياء هو الذى يخلق فيه اللذة ويبث فيه الروح ويجعله معنى زريا تصدف عنه الأنظار وتعرض عنه الأسماع ، وكل شىء فيه شعر إذا كانت فينا حياة ، أو كان فينا نحوه شعور ... »

الرومانسية عند العقاد :

وتأثر العقاد فى شعره كذلك بالشعراء الرومانتيكيين الإنجليز الذين أضفوا مشاعرهم على الطبيعة وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها ، وعاشوا مع الطبيعة أو السكل كما عاش الشاعر الإنجليزى وليم وردزورث بين بحيرات اسكتلنده وجبالها ووديانها ، وتاه الشاعران بيرون وشللى بين بحيرات إيطاليا ومروجها ، ونظم لامارتين أروع قصائده بين أحضان الطبيعة وعند حلول الربيع ، أو أفول الخريف . . . ثم جاء العقاد بعد ذلك فحاول أن يقتفى أثر هؤلاء الشعراء وأن يطعم الشعر العربى بلون جديد من التفكير ، يتعدى التشابيه والاستعارات ، والتصاوير والمجازات ، فإذا الطبيعة تحس وتتألم وتوحى وتتكلم ، وتحب وتعشق وتقبل وتعرض ، وتحزن وتفرح ، فنظم العقاد طائفة كبيرة من الأشعار الرومانسية مثل قصيدة « الربيع الحزين » التى صور فيها الطبيعة كئيبة معتمة فإذا هو يطرب من الغراب الناعق بعدما كان

يسر من عصافير الضحى ، وإذا الحمام المطوق يبكى بعدما كان يغنى ، وإذا الأنداء دموع ، والأنسام عايلة ، ونوار الحدائق نثرت على قبر السرور الذاهب ، وما إلى ذلك .

العقاد والقوافي

وطالب العقاد فى بداية حياته الأدبية بترك قيود القوافى واعتقد أنها تقف حائلا دون إدارك الإبداع الفنى ، ودون طرق أغراض الشعر الغربى ، ورأى أن الشعر الأوربى زخر بألوان شتى من الشعر التمثيلى لأنه استطاع أن ينفض عنه أغلال القافية ، لأنها هى التى تحدد أفكار الشاعر ، وتلزمه بإطار معين من التفكير لايستطيع أن يتعداه ، وما برع شكسبير فى إنتاج روائعه المسرحية كمكبث وهاملت ويوليوس قيصر والملك لير وتاجر البندقية ، إلا لأنه لم يتقيد بقيود القافية وترك ذهنه ينطلق ما شاء له أن ينطلق ، وقلمه يسيل ما شاء له أن يسيل ، فإذا به يصل إلى أغوار النفس الإنسانية ، ويهزها هزاً عنيفاً ، ويثير ما فيها من مشاعر وأحاسيس ويصبح شكسبير حديث الناس لا فى إنجلترا فحسب بل فى العالم بأسره .

ولكن العقاد لم يلبث أن انصرف عن هذا الرأى ، واعتقد أن للشعر العربى وضعاً خاصاً ، وتاريخاً طويلا وقواعد معينة لا يمكن تجاهلها أو تناسيها بأى حال من الأحوال . فرجع إلى التمسك بأهداب القافية واعتقد أنها أساس مكين من أسس الشعر العربى فى عصوره المختلفة منذ أعماق العصر الجاهلى حتى العصر الحديث . ونشر عدة مقالات فى الرسالة القديمة يدافع فيها عن الشعر القديم ويحاول أن يجعل القواعد القديمة أساساً للجديد إلى جانب ما يضفى الشاعر على الشعر من ألوان الإبداع وصنوف الإعجاز .

وحى الأربعين وأعاصير مغرب

ويعتبر ديوان العقاد من وحى الأربعين من أبرع الدواوين الأدبية فى الشعر العربى الحديث ، وقد جمع فيه العقاد بين ثورة الشباب ، واتزان الرجولة ، وأوشك اتجاهه الأدبى أن يتبلور فى هذا الديوان ، كما يعتبر ديوانه « أعاصير مغرب » لوناً جديداً من الشعر العربى المتأثر بتيار الثقافة الأوربية . فالمعروف أن الشاعر الإنجليزى توماس هاردى نظم ديواناً فى هذا المعنى ، وتبدو فى الدواوين

مسحة الحزن والأسى ، وطابع الكآبة والتشاؤم . كان توماس هاردى ينظر إلى الحياة نظرة معتمة آسية ، وكان يذهب إلى الحزن ليلقى عليه تحية الصباح ، فإذا به يرد عليه التحية بأحسن منها ، وإذا هما حبيبان لا يفترقان ، وكذلك الحال بالقياس إلى عباس محمود العقاد .. الذى تأثر كل التأثر بطابع «الملانكوليا» فى شعر هاردى.

أثر توماس هاردى :

ولعل المجموعة الشعرية التى تحدث عنها العقاد فى مقاله «أزياء القدر» الذى نشره فى إبريل عام ١٩٢٧ من أبرز المجموعات الشعرية التى تأثر بها العقاد، واعتقد أنها فاتحة المجموعة من الألف إلى الياء فى فلسفة هاردى وفى كل ما نظم وصنف من قصيدة ورواية ، فهو إذا تنفس الفجر مضى إلى الطبيعة ليسألها ، ووقف عند الجداول والحقول والقطعان والأشجار فكأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة تشخص إليه ، وكأنما قد طال عليها ثقل الأستاذ فى أساليبه فبردت حرارتها ورانت على وجوهها السآمة والجمود والإعياء ، وكأنما هى تسأل السؤال الخالد : ما بالنا نحن قائمين حيث نقوم فى هذا المكان . هل الأمر حماقة جليلة أم حكمة عالية لا تدركها العقول ، ويسأله الكل وما هو بمستطيع أن يجيب وما تبرح الريح والمطر والأرض فى الظلام والآلام كما كانت وكما سوف تكون ، وما يبرح الموت يمشى إلى جانب أفراح الحياة !

والباحث فى دواوين العقاد يجده متأثراً بهذه النزعة فى كثير من شعره إذ رانت عليه مسحة الكآبة والحزن كتوماس هاردى وتراءت الشفقة فى أبياته ، على الطبيعة الكئيبة حتى امتدت إلى الديدان فى بطن الأرض وأوراق الشجر الذابلة المنثورة فى الفضاء ، كما كان يفعل هاردى !

وتمثل العقاد بشعر بيرون كذلك فرد على هؤلاء الذين يعيبون على هذا الاتجاه فى صدر ديوانه « أعاصير مغرب » : « إن أيامى المكتوبة على الورقة الذاوية ... إن زهرات الحب وثماره . . ذهبت إلى غير رجعة . إنما السوس والديدان ، وحسرة الأسى هى لى .. لى وحدها تحيا . . »

ديوان فى غرض واحد :

وللعقاد ديوان آخر هو ديوان « الكروان » ، ولا نكاد نعثر فى الشعر العربى على شاعر أحب الكروان مثلما أحبه العقاد ، وخصص ديواناً برمته من دواوينه

لهذا الطائر الغرد العذب مثلما خصص العقاد ، ولذلك أهدى إليه طه حسين قصة « دعاء الكروان وكتب إليـه يقول : « أنت أقمت للكروان ديواناً ضخماً فى الشعر العربى الحديث ؟ .. »

وعاش العقاد فى ديوانه مع هـذا الكروان الجميل وأطلق خياله مع صوته العذب الرخيم الذى يتردد رقيقاً ، رفيقاً ، فى الفضاء العريض ، وصور ما يجيش فى نفسه من أسى ، وما يعتمل فى قلبه من ألم ، لهذا الطائر ، وطلب منه أن يعلمه راحة السلوان ..

يا محيي الليل البهيم تهجداً　　والطير آوية إلى الأوكان
كم صيحة لك فى الظلام كأنها　　دقات صـدر للدجنة حان
ياساليأ يشكو ويصدح وحده　　علم سميرك راحة السلوان

وهكذا فاض العقاد على الشعر بدواوين شتى ، وهو يعتقد أن الشعر لون من ألوان الخلق والإبداع الفنى وأن الخالق جل وعلا شاءت قدراته أن يتفضل على العباد بنوع من قدرة الخالق توضح فى نطاقها وتسور بحدودها فوهب له الفن ، وهو قبس فى الإنسان من قدرة الله أو على حد تعبيره فى أحد دواوينه :

الشعر من نفس الرحمن مقتبس　　والشاعر الفذ فى الأكوان رحمان

* * *

وشعر العقاد فيه الخلق الفنى الرفيع ، وفيه النظم المطبوع والمصنوع ببراعة الشاعر وتمكنه ، غير أننا إذا قارنا النوعين من الشعر ، وجدنا كفة الامتياز راجحة دائماً ، فى الوقت الذى ترتفع فيه كفات الشعراء الآخرين .

فالعقاد شاعر من الطبقة الأولى ، وله إلى جانب ذلك قدرة على تفهم الشعر واستنباط مواطن الجمال .. والشعر يجرى فى دمه منذ صباه ، ويؤمن بأنه لا يتعارض مع المدنية الحديثة . وفى ذلك يتمثل بقول فيكتور هوجو : «... هل الشعر أدبر زمانه .. ! ما أغرب هذا القول .. الشعر أدبر زمانه ! .. فكأن هؤلاء يقولون : أن الورد لن ينبت بعـد ، وأن الربيع قد صـعد آخر أنفاسه ، وأن الشمس كفت عن الشروق ، ولا أحد يبكى بعـد اليوم على قبره ، ولا أم تحب وليدها وأن أنوار السماء قد خمدت .. وقلب الإنسان قد مات ! ! .. » .

خليل مطران

كان يمتاز – ولله الحمد – بعلو في الحياة وعلو في الممات على حد تعبير الشاعر القديم ، وما تمجيد الناس لأدبه إلا فضل فوق فضل وتقدير فوق تقدير . . .

إذ استوفى أنفاسه بعد عامين من الاحتفال باليوبيل الفضي لشعره عام ١٩٤٧ . . ولاقى ربه في آخر يونية عام ١٩٤٩ .

التجديد كما يفهمه مطران :

كان خليل مطران رائد التجديد في الشعر العربي الحديث ، ولقد كان تجديده ولا يزال هو المثل الأعلى للشعر الرفيع فهو يجمع بين ثقافة العرب وثقافة الغرب، ويحاول أن يخرج من الثقافتين مزاجاً جديداً، تطرب له النفوس ، وتتغذى منه العقول ، وتنشرح له الصدور .

لم يكن تجديده مثل هذا العبث الذي يلجأ إليه بعض الشعراء في العصر الحديث، يتوهمون التجديد في طرح القوافي وإطلاق الكلام على عواهنه وتجاهل الأوزان العربية التي سار على منوالها الشعر العربي منذ أعماق العصر الجاهلي حتى العصر الحديث ، أو كهذا اللون من الشعر المملوء بالتهاويل أو التصاوير الشاذة التي هي أشبه شيء باللوحات الممسوخة التي لا تعبر عن شيء ، ولا تفيد شيئاً ، إنما كان تجديده يعتمد على الأصول العربية التليدة في الأوزان والقوافي التي قلما تتاح لشاعر غيره ، لتعمقه في الأدب الفرنسي وترجمة روائعه ، واتصاله بالأدب الإنجليزي ، ومحاولته أن يعكس هذه الثقافة على ما ينظم من شعر فهو قد قرأ راسين وموليير وكورني – وتعمق في فهم الفرد دي موسيه ولامارتين وفيكتور هوجو في صورة قلما تمكن منها شاعر من شعراء الطليعة في العصر الحديث ، وهو قد ترجم شكسبير بعد أن هضمه هضما تاماً ، ويندر أن تجد شاعراً عربياً من شعراء التجديد قد بنى تجديده على هذا الأساس الوطيد وهذه الدعامة المكينة التي سداها ولحمتها العلم لا الدعاوى الكاذبة ولا الطنين الأجوف ، ولا الانقياد

وراء الأغراض ، ومحاولة الدفاع عن فلان لصداقة شخصية ، أو علاقة فردية وذلك كله على حساب القيم الفنية والجمالية فى العمل الأدبى !

دعوة قديمة إلى التجديد :

ولست هنا فى صدد المعانى التى أخذها مطران من الأدب الفرنسى أو الأدب الإنجليزى فهى غزيرة وكثيرة ، وليس هنا مجال الاستفاضة أو الإسهاب ، ولكننا يجب أن نقرر هنا أن مطران قد طعم الشعر العربى بألوان جديدة من المعانى والأغراض فى القصص والشعر الوجدانى ، وشعر الطبيعة كهذه الألوان التى يزخر بها الأدب الرومانتيكى فى أوربا ..

وقد قام مطران بدعوة إلى التجديد فى مستهل هذا القرن ، قبل أن تقوم هناك أى دعوة من شاعر من الشعراء ، وصرح بهذه الدعوة فى « المجلة المصرية » أو « الجوائب المصرية » وهما الصحيفتان اللتان كان يصدرهما الخليل فى بداية هذا القرن وطالب بأن يكون الشعر صورة للحياة التى نحياها بخيرها وشرها وحلوها ومرها ، وشهدها وصابها ، وليس الشعر مقصوراً على قصائد المديح أو الهجاء أو الفخر أو التهنئة بمولود ، أو استقبال كبير أو توديع عظيم ، وما إلى ذلك من الأخوانيات أو الأراجيز أو الأحاجى ، والألغاز التى زخر بها الشعر فى العصر المملوكى والعثمانى ! إنما الشعر تصوير وتأثير وتعبير وخوض فى خضم الحياة ومشاركة للشعب فى أحواله السياسية وأزماته الاقتصادية وجهاده الوطنى ونهضته الاجتماعية ، وحركاته التحريرية بأدق معانى هذه الكلمة ، وأوسع مدلولات هذا اللفظ .

ولقد استطاع الخليل أن يكون أباً للمدرسة الرومانتيكية فى الشعر العربى الحديث ، بما أدخله من نزعات رومانتيكية خالصة فى الشعر والتعبير عن خوالج النفس الإنسانية تعبيراً صادقاً لا كذب فيه ولا رياء ، ولا ضعف فيه ولا فتور ، وقد سجل قصة حبه فى الجزء الأول من ديوانه فكانت آية صادقة على الحب العنيف العفيف الذى يجرف معه كل شىء ، ولا يستطيع الموت أن يبلى جدته أو يذهب بروائه وما أصدق الخليل وهو يعبر عن حبه الضائع وأمله المفقود وشبابه الذاهب عندما يبلغه نبأ المرض العضال الذى ألم بصاحبته ، ولم يلبث أن قضى عليها بين الدموع والحسرات .

الله في صدر وهي وتقوست منه العظام
خاو بجوف الغار تمـــــلؤه المخاوف والظلام
إلا سراجاً حائلا فيه ينير بلا ابتسام
روح تضيء على ضريـــــح في صميم القلب قام !

ثم ما أصدق الخليل وهو يوزع هذا الحب وهو يحتجب بين سحب السنين ويتوارى بين غيوم الزمن كما يبتلع الموج العاتي الزورق الحبيب :

سررت في العمر مرة وكنت أنت المسرة
كانت حياتي روضا وكنت في الروضة نضرة
وكان غضا شبابي وكنت في الغصن زهرة
وكان لحظك يهدى إلى بياني سحره
وكان ثغرك يملي على سماعي دره
وكان طيبك يهدى إلى ثنائي نشره
وكنت للروح روحا وكنت للعين قره
قد كان هذا ولكن مضى وخلف حسرة
فبت لاشيء إلا حالين : ذكرى وعبرة

الرومانتيكية في شعر الخليل :

وقد مزج الخليل مشاعره بالطبيعة وأضفى عليها أقباساً من إحساسه وفيضاً من أنفاسه ، فإذا هي تنطق وتتكلم فضلا عن أنها توحي وتلهم وتعتبر قصيدة « المساء » من أروع النماذج في الشعر العربي الحديث في وصف المشاعر الصادقة والأحاسيس النبيلة التي عكسها الشاعر على الطبيعة فإذا هي تبكي وتنهمر من عينيها الدموع ، وإذا هي تعبس وتقطب جبينها وتخيم عليها الكآبة كما يخيم على قلبه وإذا الأضواء كابية كأنما هي تسعى في جنازة إلى مقرها الأخير ، كما تعد قصيدة « الأسد الباكي » من أروع الأمثلة على تصوير مشاعره الذاتية وآلامه النفسية ، وتجاربه الثورية ، وقد نظمها في حالة يأس ، فإذا الأسى يكسوها من أول بيت إلى آخر بيت .

يمر بى الإخوان فى خطراتهم ... أولئك عوادى وليس بجلاسى
أهش إليهم ما أهش تلطفا ... وفى النفس مافيها من الحزن واليأسى
أنا الألم الساجى لبعد مزافرى ... أنا الأمل الداجى ولم يخب نبراسى
أنا الأسد الباكى أنا جبل الأسى ... أنا الرمس يمشى دامياً فوق أرماس

الدفاع عن الشعر :

كان خليل مطران يبذل قصارى جهده لرفعة الشعر والأخذ بناصر الشعراء وكان يعتقد أن الشعر يتحول بتحول العصور ، وهذا التحول ينبع من عوامل الحضارة وما تتأثر به النفوس من عوامل خاصة ، والنفس واسعة كالدنيا لاحدود لها ، ومن هنا يأتى التجدد فى الشعر العربى ، من مختلف بلدان الشرق ، على العصور التى طالعتنا دواوينها ، وكان يرى أن الشعر يبدو ضعيفاً فى العصر الحديث لأنه إذا قيس إلى مقولات الأزمنة السابقة لا يضارعها إجادة وحسن أداء ، ولكنه يرى بما أحدث فيه من أمثلة وأفكار مستمدة من العصر الراهن وأحواله لابد أن يفضى إلى ازدهار كبير تلق فيه مختارات المحاسن التعبيرية فى نواحى التفكير والخيال . . .

فإذا بدا لنا استنكار شىء من هذا الجديد — وهو غير الجديد الذى يفهمه بعض الشعراء أو المنتسبين إلى الشعر فى العهد الحاضر — بل هو الجديد كما حدده فى صدر ديوانه ، فهو أنه ليس فى الواقع غاية أدركناها ، إنما هو تمهيد لأدب متى استقرت عواطف الجماهير وأحاسيسه وأفكاره على قبوله واستحسانه يستطاع الحكم بأننا قد خطونا فى السبيل الذى كان لا بد من المرور بها لبلوغ الغاية الجديدة . وغير خاف أنه لا تتكون موجة عالية إلا بعد أن تسبقها موجة منخفضة . . .

خليل مطران والمسرح :

ولم تكن عظمة مطران مقصورة على ما نظم من شعر وإنما امتدت إلى ما قام به من تراجم لروائع الآداب العالمية ، إذ ترجم ما كبث ، وتاجر البندقية ، وهاملت ، وعطيل ، وغيرها لشكسبير ، كما ترجم هرنانى لفيكتور هوجو ،

وبوليكت لكورنى ، وبيرنيس لراسين ، وغيرها ، ومهما تكن الاعتراضات على ترجمة مطران فإن مؤرخ الأدب العربى الحديث لا يستطيع أن ينسى فضله على المسرح العربى ، ومحاولته رفع مستواه بكل الطرق الممكنة ، وقد قام بمجهود كبير أثناء إشرافه على الفرقة القومية فى سبيل الأخذ بيد المسرح ، ولم يكن يضن عليه بجهد أو مال ، وكان يرسل البعثات إلى الخارج لتعلم فن التمثيل وكان الممثلون يقبلون على العمل فى رغبة وارتياح . .

مطران الإنسان :

وكان خليل مطران فضلا عن علو كعبه فى الميدان الأدبى ، يمتاز بخلق كريم ، وطبع شريف ، فكان رقيق الحواشى ، حلو المعشر ، عذب الحديث ، حتى قيل إنه ينظم الشعر بالليل وبالنهار ، أما شعره بالليل فهو تلك القصائد الحسان التى يحلى بها جيد الأدب العربى ، وأما شعره فى النهار فهو تلك الأيادى البيض التى يسبغها على هؤلاء البؤساء الذين ذكرهم فى شعره بالليل ! . .

ومن أجمل ما ذكر عنه تلك الكلمة الحلوة الرقيقه التى كتبها الأستاذ الكبير أحمد الصاوى محمد منذ ما يقرب من ربع قرن فى « مجلتى » عنه : « قليل الجسم ، نحيل البدن . ولكنه نشط دائم الحركة ، لايريح ساعات يومه ، ولاتريحه ساعات ليله ، وجه وديع كأنما تحيط به هالة ، وأعصاب هادئة قوية ، تمر بها الدنيا عاصفة صاخبة ، وتناله من ثقيل دعابتها بكل ما يمض ويزلزل النفوس الكبار زلزالا ، ولاتراه مع ذلك إلا باسما راضياً ، مطمئن القلب ، منشرح الصدر ، تقرأ فى عينيه الزرقاوين من خلال منظاره فيما تقرأ من ظرف وخفض ودعة ، آية السخر من هذه الدنيا بما تحمل من خير وشر . . وأما الخير فلا يطمئن إليه ، وأما الشرفلا يخشاه ، الشاعرالملهم المجدد ، ومن عجب أن ينتهى به الزمن فى تطوافه إلى أن تحتضنه النقابة الزراعية وتكل إليه تصريف شئونها من حصر أرقام ، وحصر حساب وهو الذى أعدته الطبيعة لتصيد أحلامها ، واستقراء أسرارها ، والتماس ما فيها من منابت الحسن ومفاتن الجمال ، رجل الفضيلة والمبدأ والخلق يفيض رحمة ورقة وحناناً . . لو أوتى مايشاء لما غدا تحت سماء الله معوز أو متعب أو شقى أو محروم ! » .

وهذه شهادة يعتد بها لأنها من أديب مقرب إليه ، متصل به ، عرفه معرفة وثيقة سنوات طويلة ، وعاش معه فى الميدان الصحفى فترة طويلة من العمر سبر فيها غور أخلاقه وطباعه ، ودرس أحواله وسجاياه . ثم رسم بقلمه الساحر صورة له دون تزويق أو تنميق . .

اليوبيل الفضى :

وفى عام ١٩٤٧ خرجت هذه الشهادة خروجاً عملياً إلى الحياة ، وأثبتت الأيام صدقها وعمقها ، فأقيم مهرجان كبير فى دار الأوبرا المصرية لتحية الخليل ، واشترك فيه أقطاب الفكر والأدب مثل عباس محمود العقاد ، وأنطون الجميل والسنهورى ومحمد حسين هيكل ، ودسوقى أباظة وغيرهم ، ومنع الدكتور طه حسين من الإشتراك فى هذا المهرجان ، وهدد المسئولون برفع الرعاية عنه إذا اشترك فيه . فأرسل طه حسين إلى الخليل خطاباً فى الحفل بين إعجاب الحاضرين ، وتبعت هذا المهرجان حفلات بالنادى الشرقى والنادى اللبنانى بالقاهرة وحفلات فى دمشق وبيروت وباريس وبوينوس ايرس . .

وفى أوائل يوليو عام ١٩٤٩ نعت محطات الإذاعة والصحف إلى العالم العربى شاعر الأقطار العربية خليل مطران فكان لوفاته صدى عميق فى جميع النفوس وخسر الأدب العربى بوفاته ركناً ركيناً من أركانه ، وعماداً متيناً من بنيانه ، ومن أروع القصائد التى قيلت فى رثائه ، تلك القصيدة العذبة التى تقطر لوعة وتنبض فجيعة ، وتفيض أسى ، التى نظمها الأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن ، وجاء فيها :

قد نفضنا منك الأكف طويلا ... وخسرناك شاعراً وخليلا
وفقدناك درة ، وعجيب ... درة تسكن التراب مهيلا
وعدمناك بلبلا يتغنى ... فيجيد الغناء والترتيلا
إنما العمر ياخليل سهاد ... معقب بعده رقاداً طويلا

على محمود طه

ما أكثر الذين يستحقون التخليد والتمجيد فى أدبنا الحديث ، وما أقل مايقدم إليهم أو يقدم إلى ذكراهم من حفاوة وترحيب ! ...

فهذا شاعر فحل من شعراء العصر الحديث ، انتقل إلى جوار ربه منذ سنوات معدودات ، فإذا هو فى طى النسيان ، كأنه لم يكن ، وإذا هو فى العصر الجاهلى بدلا من أن يكون فى العصر الحديث ! بل ربما خصصنا لشعراء العصر الجاهلى كتباً وأبحاثاً ، وأغمضنا شعراء العصر الحاضر فى البحث والدراسة ، والنقد والتعقيب مع أن الشاعر على محمود طه جدير بالدراسة المستفيضة ، والبحث العميق . والتعليق والتحليل ، ثم هو بعد هذا وذاك جدير بأن يعنى بشأنه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، فتعمل لجنة الشعر على نشر ما لم ينشر من كتبه ، ويخصص يوم للاحتفال بذكراه ، فإن الفضل الذى أضافه الشاعر على محمود طه لا يمكن أن ينسى ولا يمكن أن يتطرق إليه العفاء !

وأنا أقول هذا الكلام وأنا أعلم حق العلم أن لعلى محمود طه كغيره من الشعراء بعض الزلات فى شعره ، وبعض الضعف فى أسلوبه ، وبعض التكلف فى اختيار الألفاظ ، وانتقاء التراكيب ، والجرى وراء التقليد الغربى دون تعمق فى الدراسة وإحاطة شاملة بالبحث . غير أن هذا كله لا يمنع أن يكون شعره فى الغالب قوى الأسلوب ، طلق الخيال عذب المعانى . رائق الأسلوب .

من التقليد إلى التجديد :

والخليق بالذكر فى هذا المقام أنه قد ظهرت فى القرن العشرين محاولات شتى فى تاريخ الأدب العربى لنقله من التقليد إلى التجديد ، ومن الأغراض الكلاسيكية القديمة إلى أغراض جديدة ، لا تختلف عن الأغراض الحديثة فى الأدب الغربى ، وقام شوقى بنصيب موفور من هذا التجديد فحاول أن ينظم شعراً قصصياً وأن ينحو نحو شعراء الغرب فى نظم المسرحيات بالشعر ، فأخرج مجنون ليلى ومصرع

كليوبترة ، وقمبيز ، وعنترة ، وغيرها من روائع الأدب المسرحى .

كما قام خليل مطران وعباس محمود العقاد ، وعبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى بدعوات تجديدية كبرى للمناداة بوحدة القصيدة العربية والاهتمام بالنفس أو العالم الداخلى كما يسميه الفلاسفة بدلا من الانطلاق فى العالم الخارجى دون هدف أو غاية فعبروا عن ذواتهم ، وأفصحوا عما تختلج به نفوسهم من مشاعر ، وما يضطرم فيها من أحاسيس ، وأضافوا إلى الأدب العربى لوناً ممتازاً من الأدب الليريكى الممتاز ، والشعر الرومانسى الرائق .

وقد جرى الشاعر على محمود طه فى نطاق هذه الحلقة التى تنادى بضرورة التعبير عن الذات ، واجتناب قصائد المدح والهجاء وما إليها ، والعناية بضروب الشعر الرومانسية المختلفة ، كما حاول أن يفسح فى الأغراض التى يجب أن يتناولها الشعر العربى ، فنظم فى مجال الطبيعة فى أوربا ، وأعيادها ومواسمها ، ومجاليها ومفاتنها ، مالا يدانيه غيره من الشعراء ، فوصف عيد الكرنفال فى فينيسيا ، وخمرة العشاق على ضفاف الرين ، وليلة أول أغسطس على شاطىء بحيرة زيورخ فى عيد سويسرة الوطنى الأكبر ، وما إلى ذلك .

ولعل هناك شاعراً مصرياً يشبه فى هذه الناحية ، وأعنى به الشاعر محمد عبد الغنى حسن الذى طالما نظم الشعر فى صور الحياة فى أوربا ، فنظم من وحى انجلترا قصيدة « المانش الثائر » وقصيدة « وحى الغابة » وهى غابة قريبة من مدينة (بزانسون) الفرنسية ، وأهداها إلى إيلين بابت الأمريكية ، كما نظم قصيدة « ثلاجة الجبل الأبيض » وأهداها إليها كذلك . وهى تعطينا صورة عن الحياة بين ثلوج أوربا ، وإرادة الفرد ، وغير ذلك من القصائد التى تعبر عن مشاعر الشاعر حيال الأجواء الجديدة التى يعيش بين أكنافها ، ويتعلل بأطيافها ، ويطلق خياله بين ربوعها ومغانيها .

نماذج من شعره :

قال الشاعر على محمود طه فى قصيدة « تاييس الجديدة » :

أأنا المقيم لديك أم شبحى   لعبت برأسى نشوة الفرح
يا حانة الأرواح ما صنعت   بالروح فيك صبابة القدح

ما للســماء أديمها لهب الفجر ؟ إن الفجر لم يلح
ولم البحيرة مثلما سجرت أو فجرت من عرق منذبح
لولا ابتســامة جارتي وفم يدنو الى بصــدر منشرح
لحسبتها «روما» تمور لظى في قهقهات الآثم المرح
شدت براحتهــا على كتفي فجذبتهــا بذراع مجــترح
وشدا المغنى فاحتشدت لهـا كم للغنــاء لدى من منح
زهـو تملــكني فأذهلني ومن الذهول طرائف الملح
يارب صنعك كلــه فتن أين الفرار وأين مطرحي
هـذى الروائع أنت خالقها ما بين منجرد ومتشح !

* * *

وبين ضفاف الرين ومجاليه الفاتنة وقف الشاعر يمتع عينيه ويثلج صـدره ويجلو صدأ نفسه بمنظر الغيد الحسان ، والكواعب الملاح ، وهن يمرحن مع العشاق في بشر وانشراح .

أقبلوا كالضوء أطيافا وأحلاما لطافا

ملأوا الشاطىء همساً والبساتين هتافا

وفي فينسيا أو مدينة البندقية حيث يتهادى الجندول فوق الموج رقيقاً كأنه حلم طاف بأجفان العذارى ، أو خيال طائف في ركب الأحلام ، وقف الشاعر على محمود طه يتغنى بالسحر والفتنة السارية فوق الثلج ، وينادى الملاح الذى يحرك مجدافه بين نغمات الموسيقى وإيقاع الألحان .

أيهـا المـلاح قف بين الجسور فتنة الدنيا وأحـلام الدهور
صـفق الموج لولدان وحور يغرقون الليل في ينبوع نور
ماترى إلا غيد وضاء الأسرة دق بالساق وقد أسلم صدره
لحب لف بالسـاق خصره ليت هذا الليل لا يطلع فجره

أين من عيني هاتيــك المجال
ياعروس البحر ياحـلم الخيـال

* * *

رقص الجندول كالنجم الوضى فانشد ياملاح بالصوت الشجى
وترنم بالنشـــيد الوثنى هذه الليلة حلم العبقرى

شاعت الفرحة فيها والمسرة
وجلا الحب على العشاق سره
يمنة مل بى على الماء ويسرة
إن للجندول تحت الليل سحره

أين يافينيسيا تلك المجالى أين عشاقك سمار الليـالى
أين من عينى أطياف الجمال موكب الغيد وعيد الكرنفال

ياعروس البحر .. ياحلم الخيال

* * *

نقد شعره الغنائى :

هذه فقرات من قصيدة الجندول تجاهلها الموسيقار محمد عبدالوهاب فى أغنيته المعروفة وهى من أجمل مقطوعات القصيدة رغم أن بعض النقاد ومنهم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف يرى فى كتابه « دراسـات فى الشعر المعاصر » أنها حافلة بالألفاظ أكثر مما هى حافلة بالمعانى .. ويجد الشاعر فيها يحرص على استخدام تراكيب معينة فى شعره ، ونحن نوافق الدكتور شوقى ضيف فى هذه الناحية إلى حد ما فهو يستخدم عبارة « النشيد الوثنى » ، « وحلم العبقرى » وما إليها من قصائد مختلفة من شعره ولكننا نرى أن الشاعر حرص عند نظمها على أن يجعل منها أغنية تتردد على الألسـنة ، وتتناقلها الأفواه . ومن أجل ذلك توخى موسـيقى الألفاظ ، والتوافق بين العبارات ، والانسجام بين التراكيب . ولا يخفى أن قصيدة الغنـاء تختلف عن نظائرها من قصائد الأدب الليريكى فى الصياغة والأسلوب .

واستطاع على محمود طه أن يأتى بالرائع من المعنى ، والعذب من الشعر ... وهو فى ديوانه « الملاح التائه » ربان حائر يتجه صوب شاطىء مجهول ، ويصارع الموج فى سبيل الوصول إلى غاية غير معروفة ، وهو لايقر على حال ، ولا يهدأ

له بال .. ولا يأمن أو يسكن دون أن يصل إلى غايته المنشودة ، وبغيته المرجوة، وهو فى (ليالى الملاح التائه) قد تأثر بعمر الخيام ، وأراد أن يسير على دربه ، وينهج نهجه ، ويشرب من الكأس التى ارتشفها حتى الثمالة . وهبط البحر على ظهر سفينته ليتابع رحلته عبر البحار المجهولة .. يدفعه الأمل ويحدوه الرجاء ، وتتراءى الشطآن حياله عامرة بالأنوار والأضواء ، زاخرة بالمباهج والأفراح ، مترنمة بالألحان .. والأنغام ، ومن أروع أغانيه تلك القصيدة التى يناجى بها ذات الغلالة الرقيقة النائمة تحت نافذتها المفتوحة فى ليالى الصيف المقمرة . وقد تحدر إليها من وراء الغيم ضوء القمر الحالم ، فدبت الغيرة فى نفس الشاعر ، واهتاج شعوره فنظم هذه النفثة الحلوة العاطرة :

أغار أغار أن قبل ـ هـذا الثغر أو ثنى
ولف النهـد فى لين ـ وغم الجسـد اللدنا
فإن لضوئه قلبـاً ـ وإن لسحره جفنـاً
يعـد الموجة العـذرا ـ ء من أغـوارها وهنـا

* * *

وقد أثر البحر تأثيراً كبيراً فى شاعرية على محمود طه ، فإذا هو يجده موطن الجمال الرائع ، والسحر الساحر ، فإذا الهجر بينه وبين صاحبته بمثابة (البحر) الخضم الذى يفصل بين القلبين ، ويبعد بين الحبيبين ، وإ ا هو لايستطيع أن يهتدى إلى « شاطىء » الأمان وسط العواصف الجامحة التى تهد كيانه ، وتحطم أعصابه ، وتسلمه إلى اليأس والقنوط :

أيهـا الهـاجر عز الملتقى ـ وأذبت القلب صداً وامتناعاً
أدرك التائه فى بحر الهـوى ـ قبـل أن يقتله الموج صراعاً
وأرع فى الدنيا طريداً شارداً ـ عنه ضاقت رقعة الأرض اتساعاً
ضـل فى الليـل سراه ومضى ـ لايرى فى أفق منه شعاعاً
فاجعل البحر أماناً حوله ـ واملأ السهل سلاماً واليفاعاً
وقد الفلك إلى بر الرضى ـ وانشر الحب على الفلك شراعاً

* * *

لقد كانت الطبيعة هي المعلم الأول للشاعر على محمود طه ، فنى أحضان المنصورة نشأ وترعرع ونعم بخرير النيل العذب ، والخضرة النضرة التى تمتد على ضفافه ، وتنقل بين بلطيم والإسكندرية ، وغيرهما من المدن الساحلية ، فسكب البحر فى عينيه سحره ورواءه ، وامتلأت جوانحه بزرقته وروعته ، وارتسمت فى مخيلته عظمته وسطوته ، فلاحت صور البحر فى صور الهجر والفراق ، ولوعة الصدود والبعاد وحيرة العاشق الولهان الذى لا يقر له قرار .

غرام بالريف :

كما أغرم الشاعر على محمود طه بالريف ، وأعجب بالماء وهو يداعب ظل الشجر ، والسحب وهى تغازل ضوء القمر ، والأطيار التى ترسل أنغامها بين الندى والزهر ، وثغر النسيم وهو يقبل كل شراع عبر ، والصفصاف وقد أخذ مكانه فى الدجى شريد الفؤاد كئيب النظر ، أغرم الشاعر على محمود طه بهذه الصور وغير هذه الصور من مفاتن الطبيعة ، وعد الطبيعة معهده الذى تعلم فيه ، ولقن دروسه وأساليبه ، وفى هذا يقول :

معهدى هذه المروج وأستا ذى ربيع الطبيعة الفينانه
وأزاهير حانيات على النهـــــر يقبلن . فى الضحى شطآنه
ناثرات وشى الربيع عليها ســاكنات فى لجـه ألوانه
يتسمعن للخرير المناجى ويرتلن للربى تحنـــانه
معبـد للطيور راهبـه النيـــل وناقوسه الصبا الرنانة

وهنـاك بين الأمواج الزرقاء تحت برزخ من الرمال بين شـواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وبحيرة المنزلة حيث تشرف أكواخ (أشتوم الجميل) من بوغازها الصامت على قلعة متهدمة جلس على صخورها الشاعر أيام صباه يمرح بين الرمال والأمواج وقد زار الشاعر هذه البقعة ذات مساء ، وهو فى دور الرجال ، بين جو عاصف ، فهاجت به ماهاجت من أحلام وآلام ، وساق فى قصيدة حزينة ذكريات صباه :

جددت ذاهب أحلامى وليلاتى فهل لديك حديث عن صباباتى ؟
يا كعبة لخيالاتى وصـومعة رتلت فى ظلها للحسن آياتى
للحب أول أشعار هتفت بهـا وللجمال بهـا أولى رســالاتى

آوى إلى جنبات الصخر منفرداً … أبكى لأمسية مرت وليلات
قد غيرتنا الليالى بعدها سيرا … وخلفتنا العوادى بعض أشتات
تلفت القلب فى ليلاء باردة … يبكى لياليك الغر المضيئات
وذكريات من الماضى يطالعها … بين الحقول وشطآن البحيرات
ياليلة قد ذهلنا عن كواكبها … فى زورق بين ضفات ولجات
يسرى بنا موهنا والريح تدفعه … كالنجم يسبح فى علوى هالات
وفى الشواطىء للمجداف أغنية … يصبها الموج فى سحرى موجات
ما كان أهناها دنيا وأهنانا … فى ليلها الصحو فى فجرها الشاتى
مرت خيالات ماضيها وماتركت … سوى وجوم لياليها الحزينات

على محمود طه ولامارتين :

والشاعر على محمود طه فى هذه القصيدة أشبه بالشاعر الفرنسى الرومانسى الرائع (الفونس لامارتين) فى قصيدته المعروفة « البحيرة » ، التى روى فيها قصة حبه وغرامه بالحسناء « الفير » جوليا التى هوت ذات يوم فى بحيرة « بورجيه » أثناء نزهتها ثم أنقذها الشاعر لامارتين . فأصبحا بعد ذلك اليوم صديقين ثم استحالت الصداقة بينهما إلى حب جارف وهوى لجوج ، وأخذا يتنزهان فى الجبل وفى الحديقة ، وفوق البحيرة تارة بالليل ، وطوراً بالنهار ، إلى أن تلقى فى أغسطس عام ١٨١٧ خبر مصرعها فطارت نفسه شعاعا من أجلها وذهبت حسرات ، وبكاها بدمع هتون ، ونظم قصيدة « البحيرة » الخالدة .

وقد ترجم على محمود القصيدة إلى العربية فى شعر جميل فقال :

ليت شعرى أهكذا نحن نمضى … فى عباب إلى شواطىء غمض
ونخوض الزمان فى جنح ليل … أبدى يضنى النفوس وينضى
وضفاف الحياة ترمقها العـ … ـين فبعض يمر فى أثر بعض
دون أن نملك الرجوع إلى ما … فات منها ولا الرسو بأرض

* * *

أترى تذكرين ليلة كنا ... منك فوق الأمواج بين الضفاف
وسرى زورق بنا يتهادى ... تحت جنح الليل وستر العفاف؟
فى سكون فليس نسمع فوق المـ ... ـوج إلا أغانى المجداف
تتلاقى على الربى والحوافى ... بأناشيد موجك العزاف ؟ !

* * *

وقد تراءت فى شعر على محمود طه بوجه عام تلك النغمة الحزينة التى تراءت فى شعر الشعراء الرومانتيكيين فى أوربا ، وهو فى قصيدته « غرفة الشاعر » يبدو أشبه بالشاعر الفرد دى موسيه أو غيره من شعراء الرومانسية فى فرنسا . الذين يغرقون فى الحزن ، ويمعنون فى التأمل ، ويسهرون مع الليل فى ضوء ضئيل هزيل يسترجعون الذكريات ويستعيدون الماضى .

وتأثر على محمود طه فضلا عن ذلك بالشعراء الرمزيين ، إذ أخذ ينقل عنهم ويترجم لهم ، وكان إعجابه شديداً برامبو وفرلين وبول فاليرى ، وغيرهم من أقطاب الرمزية الذين تستهويهم الألفاظ ، وتجذبهم الأصباغ والأنغام والألوان ، فحاول أن يطعم الشـــعر العربى بمعان جديدة أو إن شئت فقل يجعل الألوان والروائح والأصوات تتجاوب فى شعره على حد تعبير الشاعر الفرنسى بودلير . فترجم من الأدب الرمزى (أغنية القطيع) وهى من رمزيات سيتويل فى الشعر الإنجليزى الحـديث ، كما رمز على محمود طه إلى الحب بدير يحن إليه العشاق ، ويتوق إلى الحيـاة بين أكنافه أهل الهوى ، فلا يبرحونه حتى يعودوا إليه نادمين مستسلمين .

إبراهيم ناجي

كان طبيباً ماهراً وكانت يده الساحرة تشفي كثيراً من المرضى ممن اشتد عليهم المرض ، واستبدت بهم العلة ، وكان يستقبل مرضاه دائماً باسم الثغر ، ضاحك السن يخفف عنهم ما يكابدونه من ألم ، ويهون عليهم ما يشعرون به من وجع . ولم يكن ينتظر من كثير من مرضاه أجراً أو مكافأة ، إنما كان يعالج الفقراء منهم مجاناً لا يطلب منهم جزاء ولا شكورا كما كان يعالج أصحابه ويرفض أن يتقاضى منهم أجراً أو حساباً ، ولذلك لم تكن تدر عليه مهنته غنى أو ثراء ، أو جاهاً أو سلطاناً .

تلك كانت حياة الطبيب إبراهيم ناجي بين الأطباء وتلك كانت وسيلته فى علاج المرضى ، ولولا ما كان يتقاضاه من مرتب ثابت فى الحكومة لاشتكى الفقر والفاقة غير أنه كان من الذين تحسبهم أغنياء من التعفف .

على أن إبراهيم ناجي أو صاحب القلب الكبير لم يكن طبيباً فحسب بل كان شاعراً أيضاً وربما عده بعض النقاد فى عداد الشعراء قبل أن يعدوه فى زمرة الأطباء ، وليس هذا غريباً فقد يوجد من الأطباء أدباء بارعون يفوقون الأدباء المتفرغين بل قد يوجد فى أى مهنة من المهن العملية من يبذ هؤلاء الذين يوقفون حياتهم على مهنة من المهن النظرية . . فعلى محمود طه شاعر الجندول الذى يتدفق شعره عذوبة وحلاوة لم يكن متفرغاً للأدب ولم تكن مهنته تتصل بالأدب من قريب أو بعيد ولم تكن مهنته ترتبط بالشعر فى كثير أو قليل والدكتور سعيد عبده أستاذ الصحة الوقائية بكلية الطب بجامعة القاهرة ينظم الزجل والزجل ليس من الطب فى شيء ، والطب ليس من الزجل فى شيء ، ويوسف إدريس يكتب القصة ويجيد كتابتها وهو طبيب متخرج فى كلية الطب بجامعة القاهرة وشتان بين الطب والقصة أو القصة والطب . وفى فرنسا نجد الكاتب القصصي اللامع « جورج دوهاميل » وهو طبيب شهير فى الدوائر الطبية فى أوربا غير أنه أديب

من الطراز الأول ، وله آراء فى الأدب والنقد ، لها وزنها وخطرها وقيمتها فى تاريخ الأدب الأوربى الحديث .

ولذلك فإن إبراهيم ناجى لم يكن نشازاً فى نغم الحياة ، إنما كان يصدر فى أدبه عن موهبة صادقة وإحساس رقيق وشعور أكيد ليس فيه تعمل ولا تصنع وليس فيه افتعال ولا اختلاق وفى ذلك يقول ناجى « الطب الذى ارتبط بالأدب فى حياتى أتاح لى فرصة الاطلاع على حياة الكثيرين من العباقرة الفقراء فلم أضق بهم ذرعاً وكانت النزعة الأدبية عندى تجعل عطفى عليهم مضاعفاً ، بيت الشعر قد يشفى نفسك المعتلة كما تشفى جرعة الدواء معدتك أو سواها من أعضاء جسمك » .

عشق الشعر صبيا :

ولد إبراهيم ناجى فى حى شبرا بالقاهرة عام ١٨٩٨ وتخرج فى مدرسة الطب عام ١٩٢٢ فعين طبيباً فى مصلحة السكك الحديدية فوزارة الصحة فوزارة الأوقاف وظهرت تباشير إبراهيم ناجى الشعرية وهو لا يزال صبياً وكان قد تعلق بحب صاحبة له تعودت أن تزوره مع أهلها فى منزله فكان يختلى بها ويدرس معها فأحبها حباً ملك عليه قلبه وألهب وجدانه فنظم قصيدة يصف فيها دموعها كانت أولى قصائده فى ميدان الشعر وكان قد عكف على قراءة بعض القصص فى الأدب الإنجليزى كقصة « كوبر فيلد » وغيرها فتاقت نفسه أن يكون بطلا من أبطال هذه الروايات ، وتكون له فى حومة الغرام صولات وجولات !

كان ناجى يتردد على الإسكندرية فسحره البحر بجماله وجبروته ، وأخذه بروعته وجلاله وكان يجلس على صخرة من صخور المكس يناجى البحر ويبثه حبه وغرامه وأحلامه وأوهامه ويسرح طرفه بين أمواجه الزرقاء وزبده المتطاير فى الفضاء كالقطن المندوف فخلق هذا كله من نفسه شاعراً رقيقاً يترنم للجمال ويهتز له . .

ثقافة إبراهيم ناجى :

وعكف إبراهيم ناجى على قراءة ذخائر الأدب العربى القديم فقرأ ديوان أبى الطيب المتنبى كما قرأ ديوان ابن الرومى وعاش فترة من حياته مع أبى نواس وغير هؤلاء من شعراء العصر العباسى وغيره من العصور الأدبية . على أن ثقافة

إبراهيم ناجي لم تكن ثقافة عربية فحسب بل كانت أيضاً ثقافة غربية فأغرم غراماً شديداً بشعر الطبيعة فى الأدب الإنجليزى والأدب الفرنسى واستوعب قصائد وليم وردزورث الشهيرة « الرحلة » و « همسات الخلود » كما استوعب مجموعته المشهورة المعروفة « بالموشحات » « البالاد الغنائى » وفتن بشعره وهو يصف حبيبته « لوسى » الريفية الساذجة التى تختبىء كالبنفسج خلف صخرة تغطيها الأعشاب كما استوعب شاللى وقصائده الحسان كقصيدة القبرة التى يخاطب فيها الشاعر هذا الطير الذى يسبح فى الفضاء ، ثم تتوارى كما يتوارى الشاعر فى نور الفكر وهو يردد الأغانى وينظم الأناشيد وقصيدة « الماضى » التى يعاتب فيها الشاعر صاحبته لأنها أسدلت ستار النسيان على ذكرياته العذبة ولياليه الخرد الغيد فى صحبتها . كما استوعب الشاعر « كيتس » ، وقصائده الكبرى «أنديمين» و «هيبيرين» وغيرها من القصائد التى يصف فيها كيتس لوعة الحب أو سحر الطبيعة عندما تتوشى الأشجار بالخضرة أو عندما تبعثر يد الريح أوراقها فى الخريف فى وجه الفضاء كما استوعب بيرون وقصائده الرومانتيكية الرائعة « دون جوان » و « مانفريد » و « يوم الحساب » وسبح مع بيرون فى تأملاته وانطلاقاته وأوصافه للبحر وهو « يعلو صدره وينخفض كالوليد فى نومه » كما استوعب إبراهيم ناجى كولريدج فى تصوير حبه فيما نظمه من روائع أدبية ما بين شهر يونيو عام ١٧٩٧ وشهر سبتمبر عام ١٧٩٨ وهو « العام العجيب » الذى استقرت فيه حياته الزوجية مع « دوروثى » أخت الشاعر الإنجليزى الكبير وليم وردزورث فنظم أروع قصائده بين أحضانها . درس إبراهيم ناجى كل هذا وأكثر من هذا كله فقد كان مولعاً أشد الولع بالأدب الرومانتيكى فى أوربا ، ولاسيما الأدب الإنجليزى . وفى الأدب الفرنسى عكف فترة من الوقت على إنتاج الأدباء والشعراء الرومانتيكيين مثل لامارتين وفيكتور هوجو والفريد دى موسيه ، كما نشر بحثاً عن الأديب الفرنسى والمفكر العالمى «فولتير» نشره فى مجلة الحديث التى كان يصدرها الأستاذ سامى الكيالى فى حلب .

تأثر ناجى بالمدرسة الرومانتيكية :

ومن يقرأ شعر ناجى يلاحظ بوضوح سمات المدرسة الرومانتيكية فى الشعر العربى التى كان خليل مطران زعيمها ورائدها والتى عبر عنها الشاعر الفرنسى الفريد

دى موسيه حين قال « إنها النجمة التى تبكى ، والريح التى تئن ، والليل الذى يرتعد، والزهرة التى تتفرع ، والطائر الذى يحلق . إنها الأمل الوردى ، والحب المتعدد والملك والجوهرة . والرداء الأبيض الذى يكسو الصفصاف » .

فإبراهيم ناجى يهز قلبه هزاً عندما يعبر عن شعوره فى قصيدة من قصائده ، وهذه صنعة الرومانتيكيين عامة ، فإنهم على حد تعبير أندريه شينيه ما فتئوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم لأنها مصدر العبقرية ، وإبراهيم ناجى لا يختلق انفعالاته اختلاقاً ، ولا يصطنع عواطفه اصطناعاً ، إنما يعبر عما يجيش فى نفسه ويحتدم بين صدره . والشعر عنده هو النافذة التى يطل منها على الحياة ويشرف منها على الأبد وما وراء الأبد وهو الهواء الذى يتنفسه ، وهو البلسم الذى يداوى به جراح نفسه إذا ما عز الأساه ، وما أصدقه وهو يقول عند الفراق :

هان الردى لو أن قلبك دار ... أأموت مغترباً وصدرك دارى؟
يامن رفعت بناء نفسى شاهقاً ... متهلل الجنبات بالأنوار
اليوم لى روح كظل شاحب ... فى هيكل متخاذل الأسوار
لو فى الضلوع أجلت عينك أبصرت ... منهارة تبكى على منهار

فهنا يئن الشاعر ويتوجع عند الفراق وهو يعبر عن دخيلة نفسه دون كذب أو رياء ودون زيف أو خداع . وقد صور الشاعر فى قصيدة « السراب » حياته فى خفقات من الشعر ونبضات من التعقيد كما صور ما ألم به من آلام وما تهالكت عليه من ذكريات ، وتعتبر هذه القصيدة من عيون شعره . وقد نشره فى ديوانه المسمى « ليالى القاهرة » ومنها هذه الأبيات :

لا القوم راحوا بأخبار ولا جاءوا ... ولا لقلبك عن ليلاك أنباء
جفا الربيع ليالينا وغادرها ... وأقفر الأرض لا ظل ولا ماء
يا شافى الداء قد أودى بى الداء ... أما لذا الظمأ القتال إرواء ؟
ولا لطائر قلب أن يقر ولا ... لمركب فزع فى الشط ارساء
عندى سماء شتاء غير ممطرة ... سوداء فى جنبات النفس جرداء
خرساء آونة جرداء آونة ... وليس تخدع ظنى وهى خرساء
وكيف تخدعنى البيداء غافية ... وللسواقى على البيداء إغفاء
أأنت ناديت أم صوت يخيل لى ... فلى إليك بأذن الوهم إصغاء !

قصيدة الأطلال :

ولإبراهيم ناجي قصيدة أخرى تعـــد أشهر ما نظم من شعر وهي قصيدة « الأطلال » وهي قصة عاشقين متحابين حباً روحياً عنيفاً يحاربان فيـه طغيان جسدهما ويحاربان نداء الحياة إلى إمتاع الجسد كما يحاربان شتى المغريات من العالم لكليهما فتغضب عليهما الحيـاة وتقسو لأنهما لا يلبيان نداءها وترميهما خارج أسوارها ، فلا يباليان ويستمر نضالها وهما يعتزان بالقوة الروحية التي تنشأ عن تمازج اثنين لهما مثل أعلى وتزدحم المغريات على الفتاة فتتنكر لصاحبها وتصم أذنيها عن نداء حبه البريء فيعود ذات يوم حيث ألف أن يراها فلا يجدها ويسمع ضجة من داخل أسوار الحياة فيعلم أن الحياة ظفرت بها .

وتمر السنون وهو يجالد بين ارتفاع وسقوط وقد فقد السند القوى الذى كان يعتز به ، أما هي فتعتصرها الحياة كما تعتصر الثمرة الشهية وبعد أن يتم اعتصارها تقذف بها الحياة خارج السور الكبير فيلتقى بها صاحبها وإذا به هو أطلال روح وإذا بها هي أطلال جسد وفي هذه الأبيات من هذه الملحمة يصف الشاعر كيف أخذت تتنكر وتصم أذنيها عن ندائه ويضيع اللحن الرقيق في صخب الحياة وضجيجها :

يا مغنى العمر ضيعت العمر ‌ ‌ ‌ في أناشيد تغنى للبشر
ليس في الأحياء من يسمعنا ‌ ‌ ‌ مالنـا لسنا نغنى للحجر
للجمادات التي ليست تعى ‌ ‌ ‌ والرميات البوالى في الحفر
غنها سوف تراها التفتت ‌ ‌ ‌ ترحم الشادى وترثى للوتر !

* * *

أيها الصوت الذى بح انشد ‌ ‌ ‌ نحن في القفر ظماء وجياع
ما لدينـا للذى نعشـقه ‌ ‌ ‌ غير ذا الحب وما منه انتفاع
وغناء الطير قـد رف على ‌ ‌ ‌ زهرات ظامئات للسماع
ضاع شدو الطير في دنيا لها ‌ ‌ ‌ صوت أعراس ولهو ومتاع

نغمات الحزن فى شعره :

والحزن يجلل أغلب شعر ناجى كما تجلل السحب صفحة السماء ، فيتراءى تحتها الأشياء باهتة خافتة ولعل هذا يرجع إلى حبه ، فالحب فى حياته كائن حى لايفارقه وهو قدر كالحياة والموت ولعله فشل فى هذا الحب فرانت عليه هذه الكآبة فى التفكير وكان يخلو إلى نفسه ويأنس إلى وحدته :

يا سجين الحياة أين الفرار   أوصد الليل بابه والنهار
فلمن لفتة وفيم ارتقاب   ليس بعد الذى أنتظرت انتظار
والتعلات من هوى وشباب   قصة مسدل عليها الستار
ما الذى يبتغى العليل المسجى   قد تولى العواد والسمار
طال ليل الغريب وامتنع الغمـ   ـض وفى المضجع الغضا والنار

وفى موضع آخر يقول والألم يعتصر قلبه اعتصاراً والجوى يشعل قلبه أسى وأوارا :

أجرجر وحدتى فى كل حشد   وأحمل غربتى فى كل جمع

وهكذا يمضى بنا إبراهيم ناجى فى أحزانه الموشاة بالجمال والجلال ، وأتراحه المموهة بالروعة والفتنة فكأنه لامارتين وهو يجلس فى حزن واكتئاب فى ظلال إحدى السندنات على سفوح الجبال وعند غروب الشمس ويقذف بنظراته الأسيفة إلى المصادفة العمياء فتهوى من نفسها على المروج المواجهة وتظل هناك عالقة باللاشىء لتستلهمه الأسى والحزن . .

شعره فى ضوء النقد :

ورغم الصور الطريفة التى جاء بها ناجى فى شعره فإنه كان يستخدم بعض الصور القديمة المألوفة فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث وأعنى بها صورة الوقوف على الديار والتشبيب بها وبأهلها وبذكر ما أنفعنى من الأيام وذهب من الذكريات فى أكتافها . وتلك صورة قديمة وردت فى شعر أمرىء القيس وزهير بن أبى سلمى فى العصر الجاهلى كما وردت فى شعر جرير والأخطل والفرزدق وغيرهم من أقطاب الشعر فى العصر الأموى وحاول أبو نواس

أن يخلص منها الشعر فى العصر العباسى. فتبعه شعراء فيما ذهب إليه وتغنوا بذكر السقاة والخمر والصهباء فى مطالع قصائدهم بينما آثر نفر آخر من الشعراء البقاء على سننهم القديم وخطبتهم التقليدية فيقول إبراهيم ناجى فى قصيدة « العودة » :

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء
دار أحلامى وحبى لقيتنا فى وجوم مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهى كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

غير أن إبراهيم ناجى يفترق عن غيره من الشعراء السابقين بأنه لم يكن يقول هذه الأبيات إصطناعاً أو إختلاقاً ولم يكن يسير على منوال لا بد من المسير عليه إنما كان يترجم عن شعوره الصادق حيال حبيبته ودار حبيبته التى أصبحت جزءاً من نفسه وقطعة من قلبه ومزقة من روحه لا إفتعال ولا إجبار ولا إصطناع ولا إرغام إنما نفس صادقة تعبر عن شعور صادق .

أعماله الأدبية :

وقد ساهم ناجى مساهمة فعالة فى النهضة الفنية إلى جانب النهضة الشعرية فترجم للفرقة القومية للتمثيل والموسيقى مسرحية « الجريمة والعقاب » للكاتب الروسى الشهير « ديستوفسكى » كما ترجم مسرحية « الموت فى أجازة » عن الإيطالية للفرقة نفسها . ونشر بحثاً مستقلا عن الشاعر الإنجليزى وليم شكسبير فى ملحق لمجلة أبولو الشهرية فى سبتمبر عام ١٩٣٤ كما أصدر فى السنة نفسها مجلته « حكيم البيت » وكانت تضم كثيراً من الأبحاث الطبية والنفسية والثقافية وله غير ذلك كثير من الشعر غير المطبوع وقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بجمع غير المنشور من شعره فى كتاب صدر منذ شهور وتولى الإشراف على إصداره الشاعر الفنان الأستاذ صالح جودت . .

شاعر الحب والجمال :

تلك هى صورة من حياة ناجى وشعره ، تلك الحياة التى كانت تنبض كعادة

الرومانتيكيين بالحب وتحيا من أجل الحب ، وهو أسمى التجارب الشعورية الإنسانية التى تجيش فى النفس البشرية ، وقد دفعه هذا الحب أن يحب الناس جميعاً :

ذلك الحب الذى علمنى أن أحب الناس والدنيا جميعاً
ذلك الحب الذى صور من مجدب القفر لعينى ربيعاً
إنه بصرنى كيف الورى هدموا من قدسه الحصن المنيعا
وجلا لى الكون من أعماقه أعينا تبكى دماء لا دموعا

أحمد زكى أبو شادى

فقد لبنان علماً خفاقاً من أعلام الشعر فى المهجر ، ألا وهو الشاعر إيليا أبو ماضى وقد فقدت الجمهورية العربية المتحدة منذ سنوات فى هذا المهجر إبناً من أبنائها البررة وشاعراً من رواد الشعر فى العصر الحديث ، ألا وهو الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى انتقل إلى رحمة الله فى ١٢ أبريل عام ١٩٥٥ .

ونحب فى هذا البحث أن نستعرض حياة هذا الشاعر المصرى وأدبه ، ونلقى بعض الأضـــواء على فنه ، فلعل فى ذلك بعض الفائدة وإزالة للغموض الذى يكتنف جهاد هؤلاء العباقرة الذين يرفعون رأس العروبة عالياً ، ويخدمون لغة الضاد وراء البحار حتى يطويهم الموت بأرديته السوداء .

ولد أحمد زكى أبو شادى فى مصر فى ٩ فبراير سنة ١٨٩٢ ، وتلقى تعليمه فى مدارسها ثم سافر إلى إنجلترا لاستكمال تعليمه العالى ، حيث تخصص فى دراسة الطب وحصل على شهادة فى علم الجراثيم ، بدرجة الشرف ، من إحدى الجامعات الإنجليزية ، وزاول بعض التجارب العلمية هناك إلى أن عاد إلى مصر عام ١٩٢٢ فزاول مهنته .

وكان فى أثناء ذلك كله لا يهمل الأدب والصحافة وشئون المجتمع ، إذورث عن أبيه المرحوم محمد أبو شادى حاسة أدبية رقيقة ، وكان والده من كبار المحامين الأدباء وأصدر جريدة « الإمام » الأسبوعية و « الظاهر » اليومية ، وتولى تحرير جريدة المؤيد فى فترة من الفترات ، وكانت هذه الجريدة صوتاً مدوياً للعالم الإسلامى أكثر من نصف قرن .

عكف أحمد زكى أبو شادى أذن على تدبيج المقالات ، ونظم الشعر ، فأخرج مجموعة ضخمة من الدواوين باللغة العربية والإنجليزية ، ومنها « الشعلة » و «عودة الراعى » و « فوق العباب » و « أطياف الربيع » ، و « أنداء الفجر » و « أنين ورنين » و « من السماء » ، و « أشعة وظلال » و «مصريات» و« أناشيد الحياة »

و « الإنسان الجديد » و « زينب والينبوع » و « الشفق الباكى » «باللغة العربية» وكتاب « أصدقاء الحياة » و «مسرح الأدب» و « كيفما اتفق » باللغة الإنجليزية.

هجرته إلى أمريكا :

وكان أبو شادى يشغل منصباً يحسده عليه زملاؤه ، إذكان أستاذاً لعلم الجراثيم فى كلية الطب بجامعة الإسكندرية ، ومديراً لمعمل الجراثيم الحكومى ووكيلا لكلية الطب ورئيساً للاتحاد ولكنه لم يكن سعيداً بهذا المنصب لكثرة الوشاية والإضطهاد ، إذ شعر كما يقول بأن الرجعيين والناقمين بدأوا يعرقلون جهوده ، ويسعون لمطاردته فى عمله الحكومى.. وبدأ الناشرون يحرضون الرجعين بالأعراض عن نشر كتبه ، ولم يكن رجال السراى يرغبون فى بقائه فى منصبه ولا بقائه فى مصر لصراحته وعدم سكوته على الضيم ، فلم يأت عام ١٩٤٦ حتى هاجر الشاعر إلى الولايات المتحدة وظل فيها يزوال نشاطه الأدبى والعلمى حتى فاضت روحه إلى بارئها فى ١٢ أبريل عام ١٩٥٥ .

وتتمثل فى شعر أبى شادى ثقافته الواسعة ، وأطلاعه على الأدب العربى والغربى ، وتعمقه فى دراسة الدرامى الممتاز ، وألوان الأوبرات الأوربية ، والشعر الرومانتيكى الخلاب الذى يفنى فى الطبيعة ومرائى الجمال ويهيم فى فتنة الأرض وروعة السماء ، ويضفى الشاعر فيه مشاعره ووجدانه على مجالى الطبيعة الساحرة ، ويتعلق بأدب الريف الذى يزخر بتصوير المشاعر البريئة والخواطر الإنسانية الرفيعة بين الروابى الخضر ، والمروج الفيحاء ، والسوائم الهائمة ، وأنين الشادوف ، وهزج السواقى ، والأغانى الملاح .

وكان الشاعر أبو شادى من أشدالشعراء تحمساً إلى التجديد، وميلا إلى تخليص الشعر عما فيه من جمود ، وحفلت دواوينه التى تقرب من العشرين بنماذج طيبة عما صبا إليه فى شعره من تجديد ، ونظم الشعر القصصى ، وألف بعض الأوبرات مثل أوبرا « أحسان » و «بنت الصحراء» اللتين قدمتها فرقة السيدة منيرة المهدية ، وأوبرا « أخناتون المستمدة من التاريخ المصرى القديم ، وأوبرا « الآلهة » وهى رمزية من ثلاثة فصول .

وكان أبو شادى يعتقد أن الشعر العصرى هو لسان الحياة العصرية ، والحياة العصرية ذات صلات شتى بالماضى ، وذات تطلع إلى المستقبل ، فليس غريباً

فى الثورة الروحية والفكرية الحاضرة أن يأتى الشعر مزيجاً منوعاً من ذلك كله ولا يطالب الشاعر بشىء سوى أن يكون صادق التعبير والشعور .

أستاذى خليل مطران :

وتتلمذ أحمد زكى أبو شادى على الشاعر خليل مطران ، وأقتبس منه اتجاهه فى نظم الشعر ، وصرح فى أكثر من موضع فى كتبه بتأثره بأستاذه خليل مطران فقال فى كتاب « انداء الفجر » ، : « عرفت محبة هذا الرجل الإنسانى وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدنى صغيراً وبقيت أهتدى بهديه ، وأثره فى شعرى عميق لأنه يرجع إلى طفولتى الأدبية ، ويصاحبنى فى جميع أدوار حياتى ، وإذا كان استقلالى الأدبى متجلياً الآن فى إعمالى فهو فى الوقت ذاته يمثل الأطراد الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسى الكهلة الوفية ، ناظرة إلى آثار الصبا وإلى معلمى الأول بحنان عميق . . . »

وكان خليل مطران يرى أن الدكتور أبا شادى قرأ شعراً عربياً فأشجاه ، وقرأ شعراً إفرنجياً فأشجاه ، وطالع التواريخ وخاصة منها أصول الأدب الأغريقى وقارب بين متباين المذاهب فى البيان . سواء كانت تلك المذاهب فى البيان خيالية أو موضوعية لا تعدو حكايات حال عن نفسه ..

وعبر الشاعر أحمد زكى أبو شادى فى قصيدته « دمعة وابتسامة » عن تلك الصلة الروحية التى تربط بينه وبين الخليل فقال :

يا صديقى ويا أبى وعمى ... وملاذى كأنه ديانى
عش مديداً وبصحة وحبور ... وأعرنا خوالد الألحان
ليس كتبى وليس شخصى سوى بعـ ... ـضى فيكفيك منتهى إيمانى

وقد صحب أبو شادى خليل مطران فى كثير من جولاته فى مصر حتى رحل إلى المهجر فلم تفقـــد الصلة بينهما بل ظل أبو شادى للخليل وفياً مخلصاً كما ظل الخليل يتلقف شعره من المهجر بنفس مشوقه ، وقلب متلهف . . .

ثقافته الغربية :

ولعل أكبرأثراً أخذه أبو شادى من الخليل هوايثاره للمذهب الرومانى الذى نشره الخليل فى الشعر العربى منذبداية القرن العشرين ، كما لجأ أبو شادى إلى عنصر القصة الشعرية التى بلغت ذروتها فى شعر الخليل ، وأضاف إليها الفن الدرامى فى حبكتها وصياغتها غير أن أبا شادى كان متنوع الثقافة ، كثير الأطلاع ، فلم يكتف بلون واحد من الثقافة ، ولم يقتصر على أستاذ واحد من الشعراء ، إنما ظل يعب من مناهل الثقافة الشرقية والغربية بشغف زائد ونهم شديد . وأقتبس أبو شادى من الغرب فن الأوبريت فنظم أوبريت « أخناتون » ، و « الزباء » و « أردشير » وغيرهما ، فأضاف إلى الشعر العربى لوناً جديداً كان فى مسيس الحاجة إليه . وساعدته أسفاره العديدة فى أوروبا على التأثر بالروح الغربيـة زد على ذلك أنه اتصل بالفكر الامريكى وقرأ لادجار ألن بو وغيره من الشعراء الأمريكيين فبان أثر ثقافته الجديدة واضحاً فى شعره .

كلن أبو شادى يعتقد أن الحياة الدنيا نعمة من النعم ، وأن الكفاح المستمر هو السبيل إلى جمال الحياة وكمالها ، وإلى الرحمة والسلام ، والعطف والحب والتسامى ، ويرى أن جمال السماء هو ما فى نفوسنا من جمال ، وأن السبيل إلى التخلص من الضعف انما هو الأقبال على الكفاح ، ويعتقد أن العزلة هى العلاج الشافى من آلام الحياة ، والسبيل إلى الأخوة الإنسانية هو التسامح الدينى ، وفسر أبو شادى السر فى هجرته فى هذه الابيات .

ســألونى لم ارتحلت كأنى	لم أجبهم بسيرتى نصف قرن
شاديا بالطليق من شعرى الباكى	أغــنى لمجدهم ما أغــنى
وحيـاتى لعزهم فى كفاح	كفاح الشعاع فى وسط دجن
وتبلغت بالعـذاب وبالبؤس	مراراً وكل حظى التجنى
وكأنى وحدى المسىء باحساً	نى لعصرى أو أنه لم يسعنى
فترحلت حين يحترم الأحرار	ر حيث الهواء طلق لذهنى
وأظـل الوفى رغم إغترابى	لبلادى ما غمضت قط عينى !

* * *

ورانت فى شعر أبى شادى مسحة حزينة غشته بالجمال والجلال ، وشاع فى شعره الألم . ذلك الألم الذى يخلق العبقرية ، على حد تعبير الفرد دى موسيه ، وهو ألم يعصر قلبه ويصهر وجدانه ، ويلهب إحساسه ، فيرسل الشعر فى عقد من الدموع ، وسلك من العبرات تصل إلى شغاف القلوب ، وتمتزج بحنايا الصدور ، وفى هذا يقول أحمد زكى أبو شادى :

شربت فلسفتى من نبع آلامى وقبلها عب منه قلبى الدامى
وما برحت أغنى زاخرا أبدا كأن آلام قلبى لسن آلامى
كأن دمعى أناشيد قد احتبست حتى تراق على قدسى أنغام

وكان أحمد زكى أبو شادى يرى الطبيعة معبده ومثواه ، ومهبطه ومغناه ، وظل يناجيها فى شعره مناجاة العاشق الوامق الولهان ، ويحكى لها وجده وتباريح حبه ولواعج هواه ، وهو فى هذا الصنيع كالشعراء الرومانتيكيين فى أوربا وأمريكا الذين ينطقون الطبيعة ويجعلونها روحا تنبس وتتكلم فضلا عن أنها توحى وتلهم مثل الشاعر لورد بيرون ، وبيرسى شللى ، وادجار الن بو ، وغيرهم ، وقال أبو شادى يتغنى بجمال الطبيعة :

أرعى الطبيعة أين سرت كأننى أقتات بالموحى إلى وجدانى
تسرى العواطف فى مسارب حسنها نشوانة من حسنها النشوان
ولقد يعاب على ما أغنى به وكذا تعاب هواية البستان

* * *

شاعر الحب والغزل

ونظم أحمد زكى أبو شادى الشعر فى الحب والغزل ، وشعره فى هذا الميدان صادق لا تصنع فيه ولا مجاملة ولا رياء فيه ولا مصانعة ، وهو يعتقد أن الشاعر الحق هو الذى يجعل الحب موضوعا لشعره لأنه أسمى التجارب الإنسانية ، وأعمق المشاعر البشرية ، وردد أبو شادى هذا الرأى فى مواضع شتى من شعره ، غير أنه مزج شعره فى الحب والغزل فى بعض الأحيان برنة أسيفة حزينه من الألم والشجن ، زادته روعة ولوعة وجمالا ...

قلبى الخفوق مصاحباً أنفاسى شعرى وماشعرى سوى أحساسى

هو ملء أنفاسي وفي مجرى دمي   كالحب ، فاتحدا مع الأنفاس

* * *

مدرسة أبوللو :

ولم يكن أحمد زكي أبو شادي ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة كان يجمع في أدبه بين المذاهب الأدبية المختلفة لوفرة أطلاعه ، وسعة أفقه ، ففي شعره لون واقعي، ولون رمزي ولون سريالي ، وله شعر رومانتيكي ، وله شعر كلاسيكي ، ولم يكن يؤثر وزن القصيدة العربية المعروفة ببحورها فحسب إنما كان يلجأ إلى الموشحات والمخمسات ، والرباعيات .

ولعل أهم عمل قام به أبو شادي في حياته الأدبية إلى جانب ما تركه من دواوين هو تأسيسه لجمعية « أبو للو » وإصدار مجلتها الأدبية التي أعلن فيها الثورة على التقليد والجمود والعبودية الفكرية ، ودعا فيها إلى التحرر ، والوحدة الشعرية والصدق في الإحساس ، والنبل في المشاعر ، والابتعاد عن الافتعال . والنأى عن الزيف والرياء ، وكان لجمعيته أثر كبير في خلق جيل جديد من الثوار يؤمنون بالفكرة أكثر مما يؤمنون بالثوب ، ويؤثرون الجوهر على المظهر في نظم الشعر .

وقد رحبت الدوائر الأدبيـــة في الولايات المتحدة ترحيباً كبيراً بديوانه « من السماء » وإنتهزت هذه الفرصة لتكريمه فأقيم له في ٣٠ أبريل عام ١٩٥٠ حفل عظيم في فندق والدروف أستوريا بنيويورك حضره لفيف كبير من أقطاب الأدب العربي والأمريكي ، وكتبت بعض الصحف الأمريكية الأدبية المقالات الفياضة عن شعره وأدبه ونشاطه العلمي .

وأعجب المستشرق الكبير الدكتور « جب » أستاذ الأدب العربي بجامعة لندن سابقاً بالاوبرات التي ألفها أبو شادي ووجد فيها تطوراً كبيراً لنمو الشعر العربي في العصر الحديث . وانتقل أحمد زكي أبو شادي إلى ربه في ١٢ أبريل عام ١٩٥٥ ، فخسر الأدب العربي بفقده ركناً من أركانه ، وجثمت « ساعة الفناء » التي أشار إليها أبو شادي في رثائه لروجته .

ماذا تفيدك لوعتي وبكائي   هذا فناؤك مؤذن بفنائي !

* * *

أبو القاسم الشابى

كان عمره فى عمر الزهور فى أبان الربيع . . تتفتح وتشرق .. وتملأ الصدرو شذى وعبيراً . . وتفعم النفوس بشرا وحبورا .. ثم يدنو منها التصدح والذبول فتتهدل غلائلها . . وتتساقط أوراقها . . ويجف عودها . . ويبدو عليها الموت فتقذفها يد الريح فى وجه الفضاء العريض . . .

تلك هى حياة شاعر الحب والجمال أبو القاسم الشابى الذى شاء القدر أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو أنضر ما يكون الشباب . . وأبعد ما يكون الأمل . . وأوسع ما يكون الرجاء . .

ولد الشابى فى مارس عام ١٩٠٩ فى إحدى مدن تونس الجميلة فى بلدة حنت عليها الطبيعة بجمالها وسحرها ، وبسطت عليها فتنتها ورواءها . إلا وهى بلدة (الشابية) إحدى ضواحى مدينـة (توزر) فى جنوب تونس ، وقد غذته الطبيعة فى تلك البقعـــة الفاتنة من الأرض بإلهامها . . ووحيها فكتب بين أحضانها يقول : —

كم من عهود عذبة فى عدوة الوادى النضير
فضية الأسماء مذهبه الأصائل والبكور
كانت أرق من الزهور ومن أغاريد الطيور
وألذ فى سحر الصبافى بسمة الطفل الغرير
قضيتها ومعى الحبيبة رقيب ولا نذير
إلا الطفولة حولنا تلهو مع الحب الصغير
أيام كانت للحيـــاة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

* * *

وأخذ الشابى يتعلم فى أحد الكتاتيب الصغيرة حتى إذا ماحفظ شيئا من القرآن الكريم وعرف بعضا من التفسير استطاع أن يلم بطائفة من الشعر أرسله أبوه إلى العاصمة التونسية حيث التحق بالكلية الزيتونية وظل فيها ستة أعوام يدرس العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج فيها عام ١٩٢٧ بعد أن حصل على أرفع درجاتها العلمية .

وعلى أثر تخرجه من الكلية الزيتونية شعر بحاجته الشديدة إلى الالمام بالعلوم القانونية . فالتحق بكلية الحقوق التونسية هناك وظل يدرس فيها حتى أنهكته العلة واشتد عليه المرض وحال بينه وبين مزاولته أى نشاط فكرى ، ونصحه أطباؤه بالخلود إلى الراحة والتجول بين الغابات والبساتين والوديان والانهار . إلا أن الطبيعة لم تكن تسلمه إلى هدوء البال ورخاء الحال إنما كانت تثير فى نفسه كثيرا من المشاعر وتبعث فى قلبه كثيراً من الخواطر وتحرك أمام عينيه مواكب الذكريات ، فإذا به يتدفق بالشعر كما يتدفق الماء من الينبوع وإذا به يذوب كالشمعة الموقدة تحترق شيئا فشيئا وكانت العلة أشد عليه من كل حرص وأعنف من كل وقاية . فأصيب بداء تضخم القلب الذى أودى بحياته وأسلم روحه إلى بارئها فى أكتوبر عام ١٩٣٤ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره الزاهر .

وقد ترك الشابى طائفة عذبة من الأشعار والقصص والنظرات فى الأدب والحياة مثل كتابه فى الخيال الشعرى ، ورسائله ، ويومياته ، وقصته جميل بثينة وبعض مقالات نشرها فى مختلف الصحف والمجلات مثل مجلة المباحث التونسية ، ومجلة العالم الأدبى وغيرهما .

وقد كان شعر الشابى قطعة من نفسه ، وفلذة من كبده ، ونفحة من روحه ، أستودعه كل أحاسيسه ، واستوطنه كل مشاعره ، وفى هذا يقول :

شعرى نفاثة قلبى أن جاش فيه شعورى
لولاه ما أنجاب عنى غيم الحياة الخطير
ولا وجدت أكتئابى ولا وجدت سرورى
به ترانى حزينـــا أجر ذيل حبورى

* * *

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحه أو رثاء تهدى بسرب السرير
حسبى إذا قلت شعرا أن يرتضيه ضميرى

وفى قصيدة أخرى من قصائده نجد الشابى يترنم بحب الشعر . فهو منبع حياته ومعين روحه . ومرتع مشاعره وخواطره ، ومبعث آماله وأحلامه ، وهو الكأس التى يحتسيها فى الصباح لينسى ما تقضى من أمسه وما ولى من عمره . .

أنت ياشعر فلذة من فؤادى تتغنى وقطعة من وجودى
فيك ما فى جوانحى من حنين أبدى إلى صميم الوجود
فيك ما فى خواطرى من بلاء فيك ما فى عواطفى من نشيد
فيك ما فى مشاعرى من وجوم لايغنى ومن سرور عهيد
فيك ما فى عوالمى من ظلام سرمدى ومن صباح وليد
فيك ما فى عوالمى من نجوم ضاحكات خلف الغمام الشرود
فيك ما فى طفولتى من سلام وقنوع ، وغبطة ، وسعود
فيك ما فى شبيبتى من أمان باسمات ومن غرام سعيد
فيك ما فى شبيبتى من قنوط مدلهم وحيرة وجمود
فيك تشدو مع الربيع طيورى وتغنى مع الصباح ورودى

* * *

والشابى قبل هذا كله وبعد هذا كله شاعر الحب والجمال . . . يترنم بالحب ويتغنى بالجمال اينما رآه . وقد تزوج قبل أن ينتهى من دراسته العالية ، وترك بعد موته ولدين ظلا حفيظين على شعر ابيهما حتى بلغا طور الشباب .

ولقد كان الجمال فى عينى الشابى معبدا يحج إليه ويجثو على عتباته . . . ويرسل إليه آهاته وزفراته . . ويخضل أرضه . . بذوارف الدموع !

وإلى ربه الجمال وقف الشابى يزجى (صلواته فى هيكل الحب)

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصبا الوليد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد ، كابتسام الوليد
أنت أنت الحياة فى قدمها السامى وفى سحرها الشجى الغزيد

أنت أنت الحيـاة فى رقة الفجر وفى رونق الربيع الوليد
أنت أنت الحياة كل أوان فى رواء من الشباب جديد
أنت دنيا من الأناشيد والاحلام والسحر والخيـال المديد
أنت فوق الخيـال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وربيعى وشوقى وخلودى

والمرأة فى نظر الشابى ليست صورة جميلة تهز الحواس وتحرك الغرائز فحسب إنما هى صورة إلهية أبدعتها يد الخلاق العظيم ، وتمثل فيها جمال الطبيعة وسحر الكون . . . وجمال السماء . . . ونضرة الربيع . . . وابتسام الزهر وسحر الشفق . . وطهارة الثلوج : . فالكون . . .

أراك فتحلو لدى الحياة ويملأ نفسى صباح الأمل
وتنمو بصدرى ورود عذاب وتحنو على قلبى المشتعل
ويفتننى سحر الحيـاة وذاك الشباب الوديع الثمل
ويفتننى سحر تلك الشفاه ترفرف من حولهن القبل
فأعبد فيك جمال السماء ورقة ورد الربيع الخضل
وطهر الثلوج وسحر المروج موشحة بشعاع الطفل

* * *

فصورة المرأة فى عينى الشابى ممتزجة بصورة الطبيعه . وقلبه دعاء كبير يختزن كل ما الكون . وكل نبضة تخفق فى هذا الكون تنبض بين جوانحه ، وكل نغمة أو ناحة تتردد بين أرجاء الوجود يتجاوب صداها بين أطوائه « . . فقلبه الكبير مرآة تنعكس عليها صور الحياة وتتراءى أحداث الزمن » . . وفى هـــذا المعنى يقول :

كل ما هب وما دب وما قام أو حام على هذا الوجود
من طيور وزهور وشذى وينابيع وأغصان تميد
وبحار وكهوف وذرى وديار وبراكين تميـــد
وضياء وظلال ودجى وفصول وغيوم ورعود
وثلوج وضـباب عابر وأعاصير وأمطار تجود

وتعاليم ودين ورؤى　　　وأحاسيس وصمت ونشيد
كلها تحيا بقلبي حرة　　　غضة السمة كأطفال الخلود

* * *

والشابي فى هذا الكون لا يرتاح إلى القيود ولا يرغب فى الأصفاد وتأبى نفسه الضيم وتنكر روحه الذلة والمهانة . يريد أن يعيش حراً كما ولدته أمه حراً . وقد شاهد ما يكابده وطنه من كفاح مرير ، ونضال شديد فى سبيل الحرية ، فنجد قلبه من أجل هذه الغاية ، ووقف يهتف ويقول :

خلقت طليقاً كطيف النسيم　　　وحراً كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير اين اندفعت　　　وتشدو بما شاء وحى الإله
وتمرح بين ورود .. الصباح　　　وتنعم بالنور إنى تراه
وتمشى كما شئت بين المروج　　　وتقطف ورد الربى فى رباه
كذا صاغك الله يا ابن الوجود　　　وألقتك فى الكون هذى الحياة
. . . .　　　. . . . .
ألا وانهض وسر فى سبيل الحياة　　　فمن نام لم تنتظره الحياة !

* * *

وقد رانت على الشابي فى كثير من أشعارة سحابة من الشجن وخيم عليه قتام من الألم فإذا الألم يتضح فى أبياته . . . وإذا الإنات تتصاعد من كلماته . . وإذا العبرات تسيل من خطراته ... وإذا الأسى يكاد يمزق نياط قلبه .. ويمزع شغاف فؤاده ولا غرو فى هذا فإن الألم حليف العبقرية . ولا بد للبطل أن يتألم .. ولابد للعاشق من أن تنصهر روحه فى بوتقة الغرام حتى يتأجج قلبه هياماً.

قد كنت فى زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا تحفل الدنيا تدور بأهلها أو لا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الإحساس أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشى على قلبي الحياة ويزحف الكون الكبير
هذا مصيرى ! يا بنى الدنيا فما أشقى المصير !

إيليا أبو ماضي

شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، والربع الأول من القرن العشرين هجرات متوالية من سوريا ولبنان ، إلى مصر أو إلى العالم الجديد . وكانت لهذه الهجرات أسباب شتى من الضغط السياسي فى ذلك الوقت ، والطموح إلى التمتع بما فى العالم الجديد من حرية طبقت شهرتها الافاق ، والرغبة فى التماس الرزق واختلال الأحوال الاقتصادية فى السلطة العثمانية لفساد الحكومة الاستبدادية حتى أصبح الحصول على الوقت أمراً عسيراً بعيد المنال ، وأصبحت مصادرة الناس فى حقوقهم وأموالهم أقرب اليهم من حبل الوريد ، وهاجر بعضهم إلى أمريكا الشمالية ، كما هاجر البعض الآخر إلى أمريكا الجنوبية ، والقى فريق منهم عصا التسيار بين ربوع وادى النيل ، فأدركوا الحركة الأدبية ، وساهموا فى النهضة الثقافية بنصيب موفور .

ومن هؤلاء المهاجرين إلى أمريكا الشمالية الشاعر الفذ إيليا أبو ماضى الذى ولد فى (المحيدثة) من أعمال لبنان عام ١٨٨٩ وهاجر إلى مصر عام ١٩٠٠ حيث أشتغل ببعض الأعمال التجارية فى الإسكندرية ، ويقول أحد المقربين إليه وهو الأستاذ نجدة صفوت أن ايليا أبا ماضى رحل إلى مصر ليشتغل بالتجارة ، واتخذ لنفسه محلا لبيع السجاد والدخان ، وأخذ يستغل أوقات فراغه فى المطالعة والدراسة ونظم الشعر الذى أظهر فيه منذ نعومة أظفاره موهبة كبيرة ، ورآه الأستاذ أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام الاسبق ينظم شعراً فى الدكان فقرأه وأعجب به ، ونشره فى مجلة « الزهور » التى كان يصدرها ، وكان يعنى فيها بنشر المستجاد من الشعر .

أبو ماضى فى المهجر

غير أن ايليا أبا ماضى لم يلبث أن هاجر إلى أمريكا الشمالية عام ١٩١١ ، وسكن مدينة « سنسناتى » ولما أنشئت الرابطة القلميه فى نيويورك عام ١٩٢٠

برياسة جبران خليل كان أبو ماضى أحد انصارها العاملين ، وكانت هذه الرابطة تهتم بنشر دواوين أعضائها من الشعراء ، وسواهم من الأدباء المستحقين ، وتعمل على ترجمة المؤلفات المهمة إلى اللغات الأجنبية ، وتنادى ببعض المبادىء الأدبية ومنها « أنه ليس كل من حرر مقال أو نظم قصيدة موزونة بالأدب ، فالأدب الذى نعتبره أدبا هو الأدب الذى يستمد غذاءه من تربة الحياة ، ونورها ، وهوائها ، والأديب الذى خص برقة الحس ، ودقة الفكر ، وبعد النظر ، فى تموجات الحياة وتقلباتها ، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة الحياة فى نفسه من التأثير . . . . » .

ثم انضم إلى هذه الرابطة بعض أعلام الأدب والفكر فى العالم الجديد، أمثال نسيب عريضه ، وميخائيل نعيمة ، ورشيد أيوب ، وربما تأثر إيليا أبو ماضى ببعض مذاهب هذه الرابطة فى الشعر فتخلى عن الطابع الكلاسيكى القديم الذى يهتم بالألفاظ والأوزان أكثر مما يهتم بالمعانى والأفكار ، وانطلق فى حلبة المدرسة الجديدة تبهره الفكرة أكثر مما يبهره الثوب ، وتجلى أثر ذلك واضحاً فى ديوانيه « الجداول » و « الخمائل » وغيرهما .

وفى هذا يقول أبو ماضى :

لست منى أن حسبت الشعر ألفاظاً ووزناً
خالفت دربك دربى وأنقضى ما كان منا
فانطلق عنى لئلا تقتنى هما وحزناً
واتخذ غيرى رفيقاً وسوى دنياى مغنى

* * *

ثقافة ذاتية :

لم تكن ثقافة إيليا أبى ماضى ثقافة منظمة ، تخضع لما تخضع لها الثقافة الحديثة من نظم المدارس ، وأساليب التعليم ، إنما كانت ثقافة حرة تأخذ من كل شىء بطرف ، وكانت أشبه شىء بالثقافة القديمة التى كان يلجأ إليها الشعراء القدماء فى بيوت الكتب ودكاكين الوراقين ، إذ كانوا يعكفون على قراءة دواوين الشعراء وكتب الأدباء ، ويأخذون منها ما استطاعوا إليه سبيلا ، ويحفظون ما استطاعوا

حفظه من الأشعار ، وربما صاغوا شعرهم على نهج شاعر من الشعراء فى الجاهلية أو الاسلام إلى جانب ما حباهم الله من طبع صاف وقريحة فياضه .

وربما كان أكثر الشعراء تأثراً بهم فى شعره الشاعر أبو نواس ، فقد أخذ عنه وصف مجالس الأنس والشراب وألوان الحضارة الجديدة ، فإذا كانت الخمر عند أبى نواس صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها إن مسها حجر مسته سراء ، فهى عند أبى ماضى كلون الضحى ينفى بها أهل الكروب كروبهم ، وإذا كانت الخمر عند أبى نواس .

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها ... من الفتاة الكريمة النسب

فقد تجلت ورق جوهرها ... حتى تبددت فى منظر عجب

فهى بغير المزاج من شرر ... وهى لدى المزج سائل الذهب

فهى عند أبى ماضى :

بنت كرم لم يهم فيها سوى ... كل صب هام فيه الكرم

حبست فى دنها من قدم ... مالها ذنب ولكن ظلموا

انها سر فشا بين الورى ... وإذا السر فشا لم يكتم !

وربما تأثر الشاعر أبو ماضى كذلك أبى العلاء فى حريته حيال الحياة والموت فقال أبو العلاء :

أما اليقين فلا يقين وإنما ... اقصى إجتهادى أن ظن وأحدسا

وقال كذلك :

أما القيامة فالتنازع شائع ... فيها وما لخبيثها أصحار

وقال أيضاً :

هفت الحنيفة والنصارى ما أهتدى ... ويهود حارت والمجوس مضلله

أثنان أهل الأرض ذو عقل بلا ... دين وآخر دين لا عقل له

فارق بين ماضى والمعرى :

فجاء أبو ماضى ونحا منحى أبى العلاء المعرى فى الشك فى الحقيقة ، والبعث والنشور ، وما إلى ذلك ، غير أنه كان كأبى العلاء لا يلبث أن يرتد إلى إيمانه أو يرتد إيمانه إليه ، فينظم الشعر زاخراً بالإيمان ، وإذا الله حق ، وإذا ابن آدم

جاهل ، من شأنه التفريط والتكذيب كما يقول أبو العلاء المعرى ، وإذا أردت أن تتبين حيرة أبى ماضى ، وتردده بين الشك والإيمان وبين الإرتياب واليقين ، فاقرأ شعره ، وتمعن فى قراءته فإنك لا بد واجد على ذلك ألف دليل ودليل :

يقول أبو ماضى فى الطلاسم :

كلما أيقنت أنى قــد أمطت الستر عنى
وبلغت السر سرى ضحكت نفسى منى
قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدنى
فهل الجهل نعيم أم جحيم ؟

لست أدرى !

يقول كذلك :

أننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أنا لغز وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل ذا الحجا من قال أنى . .

لست أدرى !

* * *

رأى ونقيض :

ويقول أبو ماضى فى الموت والبعث فى نفس هذه القصيدة ، « الطلاسم » متسائلا عن الله الأكبر الذى يكمن وراء الموت ، والذى أعجز جبابرة العقول استكناه أمره ، والإحاطة بعلمه والوصول إلى خفاياه :

أن يك الموت هجوعا يملأ النفس سلاما
وانعتاقا لا اعتقالا وابتداء لا ختاما
فلماذا أعشق النوم ولا أهوى الحماما
ولماذا تجزع الأرواح منه . . .

لست أدرى

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
لحياة لخلود أم فناء ودثور
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور
أصحيح أن بعض الناس يدرى ؟
لست أدرى !

ثم يقول فى قصيدة « الدمعة الخرساء » مناقضاً رأيه فى الطلاسم :

لا تجزعى فالموت ليس يضيرنا فلنا إياب بعده ونشور
أنا سنبقى بعد أن يمضى الورى ويزول هـذا العالم المنظور

* * *

وهكذا كان أبو ماضى فى حيرته أشبه بأبى العلاء المعرى يجنح جهة اليمين مرة ، وينزع جهة اليسار مرة ، غير أنه لم يكن مثله شديد التشاؤم ، قاتم النظرات ، إنما كان مشرق الأمل ، متفتح الأمانى فى كثير من الأحيان ، يبتسم للحياة ، ويضحك للأحياء ، ويطرح خلفه الأحزان والأشجان ، ويدعو الناس إلى نسيانها فالعمر قصير ، والحياة موجزة ، وشبح الموت يقف على الأبواب ، لا يلبث أن ينزع الناس من هذا العالم البهيج ، إلى عالم لا تعرف عنه العقول ولا الأذهان شيئاً :

قال الليالى جرعتنى علقما قلت أبتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك أن رآك مرنما طرح الكآبة جانباً وترنما
أتراك تغنم بالتبرم درهما أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما
ياصاح لا خطر على شفتيك أن تتكلمـــا والوجـــه أن يتحطما
فاضحك فإن الشهب تضحك والدجى متلاطم ولذا نحب الأنجما
قال البشاشة ليس تسعد كائناً يأتى إلى الدنيا ويذهب مرغما
قلت ابتسم ما دام بينك والردى شبر فإنك بعد لن تتبسما

* * *

وقال كذلك فى نفس المعنى :

إذا أنا لم أجد حقلا مريعا خلقت الحقول فى روحى وذهنى
فكادت تملأ الأثمار كفى ويعبق بالشذا الفواح ردنى

* * *

العلاقة بين الشعر والأخلاق :

ورسم لنا إيليا أبو ماضى فى بعض قصائده صورة واضحة للفضيلة، وما ينبغى أن يتحلى المرء به حتى يعيش سعيداً وحتى يكون محبوباً ، وقد زعم بعض النقاد العرب أن الشعر بعيد عن الأخلاق ، وأن الفضيلة لا ينبغى أن تكون موضوعا للشعر غير أن إيليا أبا ماضى استطاع فى شعره أن يدحض هذا القول وأن يعطى لنا نماذج حية من الشعر العذب الجميل الذى يعرض للمذاهب الأخلاقية دون أن ينتقص ذلك من جماله ، أو يغض هذا من قيمته .

وقال فى قصيدة « كن بلسما » :

كن بلسما أن صار دهرك أرقما	وحلاوة أن صار غيرك علقما
أن الحياة حبتك كل كنوزها	لا تبخلن على الحياة ببعض ما
أحسن وان لم تجز حتى بالثنا	أى الجزاء الغيث يبغى إن هما
من ذا يكافىء زهرة فواحة	أو من يثيب البلبل المترنما
ياصاح خذ علم المحبة عنهما	أنى وجدت الحب علما قيما
لو لم تفح هذى وهذا ما شدا	عاشت مذممة وعاش مذمما
فاعمل لإسعاد السوى وهنائهم	أن شئت تسعد فى الحياة وتنعما

وفى قصيدته (أنا) رسم لنا ايليا أبو ماضى صورة لنفسه ورغم أن هذه الصورة تعتبر صورة نموذجية أو صورة للمثل الأعلى للرجل الفاضل وغير ممكنة التحقيق فإنه أضفاها على نفسه . ولعل هذا يكون على سبيل الفخر. ولكن الصورة على أيه حال سواء كانت ممكنة الحدوث فى شخصه أم غير ممكنة ، صورة قوية أخاذة ينبغى أن يجعلها الرجل الفاضل دائماً نصب عينيه حتى ينسج على منوالها ويحذو حذو فعالها .

حر ومذهب كل حر مذهبي
ما كنت بالغاوى ولا المتعصب
إنى لأغضب للكريم ينوشه
من دونه وألوم من لم يغضب

وأحب كل مهذب ولو أنه
خصمى وأرحم كل غير مهذب
يأبى فؤادى أن يميل إلى الأذى
حب الأذية من طباع العقرب
لى أن أرد مساءة بمساءة
لو أننى أرضى ببرق خلب
حسب المسىء شعوره ومقاله
فى سره ! يا ليتنى لم أذنب

* * *

على المذهب الرومانسى :

وقد جارى أبو ماضى المدرسة الرومانسية الحالمة فى تصويرها للجمال وتشبعها بافانين السحر الحلال ، فاذا الشاعر يسكب روحه فى الطبيعة وإذا هى تناجيه ويناجيها ، وتناديه ويناديها ، وإذ هى جزء من إحساسه ، وقبسة من أنفاسه .

كالموج ضحكى كالضياء ترنحى   كالفجر زهوى كالخضم غرامى

وإذا كان الرومانتيكيون يهيمون فى مجال الطبيعة ، ويعتبرونها جزءا من ذوات نفوسهم فان إيليا أبا ماضى استطاع أن يحيا فى أكنافها ، ويعيش بين رحابها كأنه خميلة معطارة أو زهرة عبقة ، أو طير مغرد على الأفنان ، أو كما قال :

ومشى الخيال على الحياة بسحره   فاذا الهوى فى الماء والأنسام
وإذا الرمال أزاهر فواحة   والشط هيكل شاعر رسام
وإذا العباب ملاعب ومراقص   وإذا أنا من صبوة لغرام
أتاقف اللذات غير محاذر   وأعب من اللذات والآثام

* * *

وكان أبو ماضى يسأم أحياناً سلطان العقل ، ويحن إلى سلطان القلب ، يمتثل لأوامره ، ويخضع لأحكامه ، شأنه فى ذلك شأن سائر الشعراء الرومانتيكيين الذين يجعلون القلب رائدهم والحب دليلهم فى الحياة ، وفى ذلك يقول الشاعر الفرنسى أندريه شينية :

« إن الفن لا ينسج إلا كلاما موزوناً وما الشاعر إلا القلب » ، كما يقول الشاعر الفرد دى موسيه :

« إن الرومانتيكيين ما فتئوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم لأنها مصدر العبقرية .

ويقول أبو ماضى بعد ذلك فى نفس المعنى :

سيرت فى فجر الحياة سفينتى وأخترت قلبى أن يكون أمامى

وعشق أبو ماضى الريف كما كان يعشقه الشعراء الرومانتيكيون ، رغم أنه عاش بين ضجيج الآلات الحديثة والمخترعات الجديدة ، فهام بالقرى ، وتعلق بالمروج الخضراء ، وعشق السندس النضير ، والأشجار الوارفة التى تضرب فى عنان السماء ، والخمائل الملتفة التى تغرد على افنانها الاطيار ، والجداول الجارية التى تنساب بين الحقول ... والرطب الجنى الذى يتساقط من النخيل ... والسوائم التى تحرث الأرض وتجوس خلال المزارع وما إلى ذلك ، فقال فى إحدى مقطوعاته .

لله ما أشهى القرى وأحبها لفتى بعيد مطارح الأفكار
إن شئت تعرى من قيودك كلها فانظر إلى صدر السماء العارى
وأمش على ضوء الصباح فإن خبا فامش على ضوء الهلال السارى
عش فى الخلاء تعش خليا هانئا كالطير حراً كالغدير الجارى
عش فى الخلاء كما تعيش طيوره الحر يأبى العيش تحت ستار

وقد برع ايليا أبو ماضى براعة فائقة فى وصف مجالى الطبيعة والتغنى بمفاتنها وسحرها . ومزج بين الحب والطبيعة . إذ أن الطبيعة الجميلة توحى بالوجه الجميل. والوجه الجميل يدعو إلى الحب ويبعث على الهيام ، وقـــد قال أبو ماضى فى قصيدة المساء :

السحب تركض فى الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين

لكنما عيناك باهتتان فى الأفق البعيـــد
سلمى ! بماذا تفكرين
سلمى بماذا تحلمين ؟

فأصغى إلى صوت الجداول جاريات فى السفوح
واستنشق الأزهار فى الجنات ما دامت تفوح
وتمتعى بالشهب فى الأفلاك ما دامت تلوح
من قبل أن يأتى زمان كالضباب أو كالدخان

لا تبصرين به الغدير
ولا يلذ لك الخرير

لتكن حياتك كلها أملا جميلا طيبا
ولتملأ الأحلام نفسك فى الكهولة والصبا
مثل الكواكب فى السماء وكالأزاهر فى الربى
ليكن بأمر الحب قلبك عالماً فى ذاته

أزهاره لا تذبل
ونجومه لا تأفل

مات النهار إبن الصباح فلا تقولى كيف مات؟
إن التأمل فى الحياة يزيد آلام الحياة ؟
فدعى الكآبة والأسى واسترجعى مرح الفتاة
قد كان وجهك فى الضحى مثل الضحى متهللا

فيـه البشاشة والبهاء
ليكن كذلك فى المساء.

فنى هذه الأبيات نجد أبا ماضى ينزع نزعة تفاؤليه صريحة . ويدعو إلى البهجة والإنشراح ، وترك الأشجان والأتراح . وقد ظهرت هذه النزعة بوضوح وجلاء فى كثير من قصائده مثل (كن جميلا . . ترى الوجود جميلا) وقصيدته (عش للجمال) التى جاء فيها .

عش للجمال تراه العين مؤتلقا ... فى أنجم الليل أو زهر البساتين
وفى الربى نصبت كف الأصيل بها ... سرادقا من نضار للرياحين

وفى الجبال إذا طاف المساء بها ... ولفها بسرابيل الرهابين
وفى السواقى لها كالطفل ثرثرة ... وفى البروق لها ضحك المجانين
وفى ابتسامات (أيار) وروعتها ... فإن تولى فنى أجفان « تشرين »

وهذه النزعة البهيجة التى تكتنف شعر أبى ماضى نراها مرة أخرى تميل إلى العبوس وتتجه إلى التقطيب ، وتتحول إلى نزعة حزينة حائرة فى خضم الحياة كلها ظلمة ، وكلها تشاؤم ، وكلها تساؤل وحيرة ، ولكنها لا تستطيع أن تظفر بجواب شاف يملؤها بالنور والإشراق والأمل .

وقد تجلت هذه النزعة الحزينة فى فلسفة الموت حينما يتعرض لها فى قصيدة الطلاسم .

☆ ☆ ☆

غزليات أبى ماضى :

ونظم أبو ماضى بعض شعره فى الغزل غير أن شعره فى هذا الباب مزجه بما يحسه من ألم وبما قاساه من ضنى فى سبيل الهجرة ، وبما يكابده من عناء فى سبيل العيش ، والمرأة فى شعره تتسم بالجمال المطلق ، فنظراتها تحيي وتميت ، ولثماتها تروى وتشمل ، وعبيرها ريح حنون ، أو ماء عذب لزهرة قلبه ، وغرسة روحه ، والحب صوت ، فهو أنة نائح طوراً ، ورنة شاد طوراً ، آخر :

آه من الحب كلـــه عـــبر ... عندى منـــه الدموع والسهر
ويح صرعى الغرام أنهم ... موتى وما كفنوا ولا قبروا !

ويعتقد أبو ماضى أن المرأة لم تخلق إلا للمنزل ، لا لتخوض غمار الحياة . وفى هذا يقول :

سجـــل العار علينا معشر ... سحلوا المرأة بين الهمـل
فى سبيل المـال أو عشاقه ... تـكدح المرأة كـدح الأبـل
جشموها كل أمر معضل ... وهى لم تخـلق لغير المـنزل

☆ ☆ ☆

وربما أتخذ ايليا أبو ماضى هذا الرأى نحو المرأة لأنه كان يعتقد أنهـا مخلوق جميل توحى بالشعر ، وتثير الالهام ، وتملأ الدنيا بهجة وأنسا ، فهو يربأ بهـا عن الخوض فى الحياة حتى لا تذبل فتنتها أو يتهدل سحرها .

واستطاع الشاعر ايليا أبو ماضي أن يستخدم القصة استخداما جميلا جذابا فى شعره ، وإن من يطلع على دواوين الخمائل أو الجداول ، أو غيرهما يجد الدليل واضحاً جليا ، فقصائد الشاعر ، والشاعر والأمة ، والشاعر والسلطان الجائر ، وبائعة الورود والفردوس المفقود من أصدق الأمثلة على ذلك ، فللشاعر قدرة عجيبة على تناول هذه الموضوعات بصورة جذابة حتى أنه يحيل بعض الموضوعات الغنائية أو الليركية الخالصة إلى قصص عذب جذاب ، ويستخدم فى ذلك وسائل التشويق والإثارة والحبكة ، والخاتمة والتعبير الدرامى القوى ، أو ما إلى ذلك من وسائل لا بد أن يستخدمها القصاص الفنان حتى يصل إلى غرضه المنشود .

وقد صور ايليا أبو ماضى فى قصيدة « الشاعر والأمة » قصة قوم كانوا منعمين فى ظل سلطان عادل ، ينشر العدل بين الرعية ، ويحكم بين الناس بالعدل حتى فاضت روحه إلى بارئها وأتى بعده ملك متغطرس جبار سام رعيته الخسف ، وأذاقهم كئوس الذل دهاقا ، فمر بهم شاعر وهم يبكون على قبر مليكهم السابق ويمطرون شآبيب الرحمة على جدثه ، ويشكون مما يلاقونه من الوان العسف ، وصنوف الهوان ، فدعاهم إلى تحطيم أصفاد الاستكانة . والخنوع والثورة على أحكامه الجائرة . وإستخدم ايليا أبو ماضى فى تصوير هذه القصة كل ما حاباه الله من أدوات فنية فى سرد القصة والتأثير فى نفوس السامعين ، فقال مصوراً حزن الرعية على الملك الراحل :

مر يوما فرأى أشياخها   جلسوا يبكون عند المقبرة
قال مالكم ؟ وما خطبكم   أى كنز فى الثرى أو جوهرة
قال شيخ منهم محدودب   ودموع اليأس تغشى بصره
أن من نبكيه لو أبصره   قيصر أبصر فيه قيصره !
هو ملك كان فينا ومضى   فمضت أيامنا المزدهرة

* * *

واختتم قصيدته موبخا قومه على الخضوع والخنوع فى وجه المعتدى الاثيم مستخلصا العبرة من هذ الوجود :

ما استحال الهرليثا إنما   أسد الآجام صارت هررة

وإذا الليث وهت أظفاره   أنشب السنور فيه ظفره !

* * *

وهذه القصيدة من الأمثلة التى تبين جنوحه إلى القصة فى شعره ، وتوفيقه فى استخدامها إلا أنه يستخدم إلى جانب القصة الاسطورة إستخداما يثير الإحساس الشعرى من ناحية ويتناول المسائل الإجتماعية والفلسفية من ناحية أخرى مثل قصائد « التينة الحمقاء » و « ابن الليل » « والضفادع والنجوم » .

التفرقة العنصرية :

وقد أثرت الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نفس ايليا أبو ماضى ومكن من معرفة بعض المشاكل التى تعترض الحياة الأمريكية مثل مشكلة البيض والسود أو مشكلة الزنوج والعنصر الأبيض هناك . ولم يشأ أبو ماضى أن يحتقر العنصر الأسود لأنه شاعر يحس بآلام البشرية ويدرك خبايا النفس الإنسانية فألف بعض أغانى الزنوج كقوله .

فوق الجميزة سنجاب   والأرنب تمرح فى الحقل
وأنا صياد وثاب   لكن الصيد على مثلى
محذور إذ أنى عبد
والديك الأبيض فى القن   يختال كيوسف فى الحسن
وأنا أتمنى لو أنى   اصطاد الديك ولكنى
لا أقدر إذ أنى عبد
وفتاتى فى تلك الدار   سوداء الطلعة كالقار
سيجىء ويأخذها جارى   يا ويحى من هذا العار
أفلا يكفى أنى عبد

ولم يحفل الشاعر أبو ماضى بأوزانه كثيراً كما ترخص فى استخدام بعض ألفاظه مما حدا بعض النقاد إلى إثارة المطاعن ضده ، ولكن الواقع الذى لا مرية فيه ولا محيص عنه ، ولا جحود فيه ، ولا نكران له ، أنه مهما كانت لايليا أبى ماضى من هنات شعرية ، وحيرة فكرية ، زعزعت إيمان كثير من النقاد ولا سيما بعد نظمه لقصيدة الطلاسم فإنه إحتل مكاناً ساميا فى الأدب قلما يحظى به غيره من الشعراء . ورغم أن أبا ماضى لم يمكث فى مصر إلا فترة ضئيلة من

عمره ولم يلبث بعد ذلك أن ظعن إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وانغمس فى غمار الحياة هناك فإنه كان يحمل لمصر من المحبة والمودة الشيء الكثير ، وكان يعتقد أنها قبلة الشرق جميعا ، وصوت الشرق جميعاً ، وفى ذلك يقول . فى إحدى روائعه الشعرية .

الشرق تاج ومصر منه درته — والشرق جيش ومصر حامل العلم
هيهات تطرف فيها عين زائرها — بغير ذى أدب أو غير ذى شمم
أحنى على الحر من أم على ولد — فالحر فى مصر كالورقاء فى الحرم

* * *

بعض ألحان الموج :

ولتوضيح مكانة ايليا أبى ماضى فى الأدب العالمى نحب أن نقارن قصيدة من قصائده بقصائد أخرى مشابهة إذا ما ازدادت حرارة الصيف وأشتدت حركة القيظ فنزح الناس من المدائن الصاخبة اللاغبة إلى ضفاف البحار يملأون صدورهم من نسيم البحر الناعم ، الرخى الوادع ، ويملأون عيونهم من هذا البحر الضخم الأزرق الذى يتجلى أمام العيان كأنه مرآة مجلوة تراءت فيها قبة السماء الزرقاء .

البحر ! بزرقته وعمقه وسكونه وضجته وهدأته وثورته ورماله وكثبانه وغيده وحسانه وأطيافه وأحلامه كم ألهم الشعراء وكم فجر ينابيع الفن من قلوب الفنانين ...

وسنحاول هنا أن نتحدث عن ثلاثة من ألحان الموج دبجتها يراعة ثلاثة شعراء ربتهم بيئات مختلفة ، وجمعتهم بحار مختلفة ، وألهمتهم شطئان مختلفة . اللحن الأول ترنم به شاعرنا العربى أبو ماضى واللحن الثانى ترنم به شاعر إنجليزى واللحن الأخير ترنم به شاعر فرنسى .

قال أبو ماضى :

قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحر منكا
أصحيح ما رواه بعضهم عنى وعنك
أم ترى ما زعموا زوراً وبهتانا وأفكا
ضحكت أمواجــــه منى وقالت

لست أدرى

أيها البحر ! أتدرى كم مضت ألف عليكا
وهل الشاطىء يدرى أنه جاث لديكا
وهل الأنهار تدرى أنها منكا إليكا
ما الذى الأمواج قالت حين ثارت

لست أدرى

فإيليا أبو ماضى فى هذه الأبيات يقف حيال البحر عقدت لسانه الدهشة وتملكت نفسه الحيرة . هل الماء أصل الأشياء كما كان يعتقد بعض فلاسفة الإغريق القدماء كطاليس الذى كان يرى أن المادة الأولى هى الماء أم كان هذا وهما من من الأوهام ، وظناً من الظنون لم يلبث أن تلاشى حينما بزغت شمس المعرفة . لقد زعم كطاليس أن النبات والحيوان يولدان فى الرطوبة إذ أن الجراثم الحية رطبة وتتغذى بالرطوبة ومبدأ الرطوبة الماء ، ولكن هرقليطس نفى هذا القول وقال إنك لا تنزل البحر مرتين أى أن الأشياء فى تغير مستمر ، وصيرورة دائمة ، وكان البابليون والأشوريون يرون أنه قبل أن تخلق الأرض كان المحيط وكان البحر وكانت مياههما مختلطة ففرقتهما الآلهة إلى أعلى وإلى أسفل .

فكل هذه الخواطر بل أكثر من هذه الخواطر تتوارد عندما تقرأ أبيات ايليا هذه ، ولكن ايليا قد صاغها فى أسلوب رقيق ، ونغم حلو وديع ، ينضح رقة وجمالا ويبعث سحراً حلالا :

ترسل السحب فتسقى أرضنا والشجرا
قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا
أصواب ما زعمنا أم ضلال

لست أدرى

قد سألت السحب فى الآفاق هل تذكر رملك
وسألت الشجر المورق هل تعرف فضلك
وسألت الدر فى الأعناق هل يذكر جميلك
وكأنى خلتها قالت جميعاً

لست أدرى

وايليا أبو ماضى فى هذه الأبيات أيضاً يبحث أصل البحر فكثير من الخير مردة إليه ، وكثير من النعمة منبعها منه ، فقطراته هى التى تتبخر فى الأجواء حتى يرسل الله من السماء ماء يحي بها الأرض بعد موتها ، فالبحر هو أصل المطر ، وأصل الثمر . وهذه النزعة الفلسفية عند ايليا قد بحث فيها كثير من فلاسفة الغرب وفلاسفة المسلمين ، ودبجوا فيها فصولا طوالا ، وقد رأى الفيلسوف الإغريقى انكسمانس أن الهواء تحدث عنه الموجودات بالتكاثف والتخلخل ، فإن تخلخل صار ناراً وأن تكاثف صار ريحاً وسحاباً ومطر .

كم فتاة مثل ليلى وكم فتى كابن الملوح
أنفقا ساعات على الشاطىء تشكو وهو يشرح
كلما حدث اصغت وإذا قالت ترنح
أحديث الموج سر ضيعاه
لست أدرى

فيك مثلى أيها الجبار أصداف ورمل
إنما أنت بلا ظل ولى فى الأرض ظل
إنما أنت بلا عقل ولى يا بحر عقل
فلماء يا ترى أمضى وتبقى
لست أدرى

يا كتاب الدهر قل لى أله قبل وبعد
أنا كالزورق فيه وهو بحر لا يحد
ليس لى قصد فهل للدهر قصد
حبذا العلم ولكن كيف أدرى
لست أدرى

إننى يا بحر بحر شاطئاه شاطئاكا
الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا يا بحر قطرة فى ذا وذاكا
لا تسلنى ما غد وما أمس إنى
لست أدرى

ونرى ايليا فى هذه الأبيات روعة منظر الطبيعه وتلهمه الجوانب الروماتيكية فى المنظر فيصور فتاة وفتى خاليين فى حمى شاطئه الجميل يتجاذبان أطراف الهوى ويتطارحان ألحان الغرام ، ولكنه لايلبث أن يعود إلى فلسفته وتعود فلسفته إليه فيتكلم عن السماع ، وأصله وسره ، وقد أخبرنا الرازى والسمرقندى والكاتبى إن الفلاسفة المسلمين يقولون أن لا بد للسمع من وصول الهواء الحامل للصوت إلى الصماخ وإلا فإن الصوت لايسمع ، وكان النظام يرى أن الكلام جسم لطيف منبعث من المتكلم يقرع أجزاء الهواء فيمتزج الهواء بحركته ويتشكل بشكله . وهكذا يشير ايليا إلى السماع إشارة عابرة تطوى بين أكنافها فكرة حائرة ، وايليا يتحدث عن البقاء والموت كما كان يتحدث نيتشة وشوبنهور ويعرض للجبر والأختيار فى الحياة ، ويعرج على نظرية المعرفة ويحاول أن يستشف الغيب ويعلم مايحمله الغد ولكنه لا يستطيع من ذلك شيئاً ولا يجد إلى ذلك سبيلا فيسأل صاحبه أن يدعه فى طلاسمه ومن قال لا أدرى فقد أفتى .

أما اللحن الآخر من ألحان الموج فهو لحن شكسبير الشاعر الخالد معبود الإنجليز ، وقد ألهمتهم شطئان فينسيا فى إحدى مسرحياته بقطعة أدبية رائعة قد جمعت إطراف الجمال والفتون

ما أحلى القمر الجميل وهو هاجع فوق هذه الضفة
فلنجلس ها هنا ولندع أنغام الموسيقى الساحرة
تنساب فى اسماعنا فالهدوء والليل
يخلقان روح الأنسجام الجميل . . .
اجلسى يا حبيبتى وانظرى كيف أن أرض السماء
موشاة بأطباق من ذهب مصفى
إننا لا نرى الأفلاك فى مداراتها
ولكن حركاتها تنتهى إلينا كنغمات ملاك يترنم
فيبعث النشوة فى أرواحنا الخالدة . . .
ولكن عندما ينحل هذا الجسد المخلوق من طين . . .
ينتهى ذياك الصوت ولا نسمع بعد ذلك شيئاً أبداً

فى هذه القصيدة الرائعة جمع شكسبير الناحية الأدبية الطبيعية وصور شعر

الطبيعة الذى يتمثل على حد تعبير الناقد الإنجليزى « وليم هزلت » فى خرير الموج وعبير الزهر فأتت قصيدة شكسبير ألحاناً تتابع ، وأنغاماً تتهادى ، وأحلاماً تتراءى ، كما أنها نجوى حبيب مدله إلى حبيبته ، وصلوات شاعر عاشق إلى معشوقته . قصيدة شكسبير هذه تصور تجربة إنسانية هى تجربة الحب التى عدها لاسل ابركرومبي أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة لندن أرقى التجارب الشعرية عند الشعراء .

وقد صاغ شكسبير ذلكم الشاعر الذى لا توازيه مستعمرة من المستعمرات الإنجليزية على تعبير أحد النقاد الإنجليز هـذه القطعة فى أسلوب سمح جميل ولفظ حلو رشيق ، يردده السمع ، فكأنما هو اصداء الملائكة فى السماء أو همسات الموج فى حنين وحنان . أما اللحن الأخير فلفيكتور هوجو الشاعر الفرنسى الرومانسى الرقيق فقد وقف أمام البحر فلم يرعه جماله ولم تسحره طلاسمه مثلما راعه عنفه وجبروته ، ورهبته الآخاذة بمجامع القلوب ، وثورته الطاغية الدافعة إلى الأعماق .

آه كم من بحارين وكم من قواد
خرجوا فرحين فى رحلات بعيدة
فلم يلبثوا أن اختفوا فى هذا الأفق الحزين
كثيرون ماتوا فيك يا له من حظ قاس أسيف !
فى بحر ليس له قرار وفى ليلة ليست فيها أقمار
تحت المحيط الغاشم الذى يوارى دائماً بين أطوائه
كم من رؤساء ماتوا هم وبحارتهم
فى عاصفة هوجاء أخذت كل صفحات حياتهم
وبصفير واحد كانوا جميعاً منثورين فوق الثبج
فلا أحد يعرف نهايتهم فى هوة المحيط
فكل موجة تحمل وهى سائرة مثونتها
إحداها تأخذ قلعا والأخرى تأخذ بحاراً . . .

ففيكتور هوجو فى هذه القطعة يستهويه عمق البحر كما يستهويه جبروته وعظمته وابتلاعه للسفائن والناس فى جوفه العميق ، وكانت قطعته نموذجا حيا من أدبه « الليركى » الرقيق إلى جانب أنه أبدع الاستعارة وأبدع التشبيه ، فى قطعته فحق بذلك أعجاب النقاد الفرنسيين كجورج دوفال وفرنسوا كوبيه الشاعر المشهور .

وإن من يقرأ هذه القصيدة فى نصها الفرنسى يزداد أعجاباً بأسلوبها وبألفاظها التى شغلت أميل فاجيه وغيره من نقاد الأدب الفرنسى فترة طويلة من الزمان .

وهكذا يتضح الفرق بين الشعراء الثلاثة والألحان الثلاثة . اللحن الأول لحن أبى ماضى هو لحن الحياة والموت والبقاء والفناء على خرير الموج ، واللحن الثانى لحن شكسبير فهو لحن الحب والطبيعة والبقاء والخلود ، أما اللحن الاخير لحن فيكتور هوجو فهو لحن الألم والحسرة واللوعة والدموع .

* * *

ولعل خير ما نختم به هذا البحث عن الشاعر ايليا أبى ماضى أن نردد ما قاله جبران خليل جبران عن هذا الشاعر الكبير يصعد إلى الملأ الأعلى ولكن على سلم أبقى وأقوى من الجبال ، يصعد بعزم الروح ويتمسك بحبال غير منظورة ، ولكنها أمتن من سلاسل الحديد ، فيتمسك بحبال الفكر ، ويملأ كاسه من رحيق أرق من ندى الفجر ، يملأمن خمرة الخيال ، والخيال هو الحادى الذى يسير أمام مواكب الحياة نحو الحق والروح . . . إن ايليا أبا ماضى شاعر ، وفى ديوانه سلالم بين المنظور وغير المنظور . . . وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكئوس مملوءة بتلك الخمرة التى إن ترشفها تظل ظمآنا حتى تمل الآلهة البشر فتغمره ثانية بالطوفان . . . » .

وقد أثبت جبران هذا الرأى فى مقدمة الجزء الثانى من ديوان أبى ماضى طبعة نيويورك ، وآثرنا أن ننقلها هنا حرصاً على الفائدة ، وبعد هذا الديوان عن متناول الأيدى .

بشارة الخوري

بين ربا لبنان الحبيب ، ورياضه الفسيحة الناضرة . وأرباضه الجميلة الساحرة ولد الأخطل الصغير أو الشاعر بشارة الخوري ، وتفتحت عيناه للحياة ، واستقبل أول نسمة من نسمات الوجود عام ۱۸۸۳ م ، وكان لبنان فى هذه الفترة ينفض عنـــه أغلال الجمود ، ويسعى فى طريق النهوض ، وشرع اللبنانيون يشيدون المدارس ، ويؤسسون المطابع ، ويرسلون البعوث إلى أوربا ، وينشرون المخطوطات ، وينشئون الصحف والمجلات ، وكان رائد الحركة الفكرية فى هذا العصر الشيخ إبراهيم اليازجى بن الشيخ نصيف اليازجى ، العالم اللغوى الكبير ، والأديب المطلع الضليع ، حرر جريدة الضياء ، وساهم مع الأديب « بشارة زلزل » فى إصدار مجلة « البيان » ونشر بعض الأمالى اللغوية ، والعقد وهو مجموعة من أشعاره ، وكتاب « نجعة الوارد فى المترادف والمتوارد » .

وتتلمذ بشارة الخورى على الشيخ اليازجى كبقية أدباء عصره ، كما اتصل بالشيخ سليم العاذار سيد السادات الحرية الفكرية على حد تعبير المفكر الكبير أمين الريحانى ، وكان من أفراد حلقته ، وكان سليم يوجهه إلى منابع الأدب ، ويرشده إلى الذخائر الدفينة فى الأدب العربى .

وعكف بشارة الخورى على التزود من معين الثقافة الأوربية ، وكانت المدرسة الرومانتيكية فى فرنسا وبعض أعلامها فيكتور هوجو ، ولامارتين ، والفريد دى موسيه ، تستهوى أغلب الشعراء اللبانيين فى هذه الفترة ، ومنهم بشارة الخورى ، وأقدم بشارة على ترجمة بعض الأشعار الرومانتيكية إلى الشعر العربى ، كما ضم ديوانه « الهوى والشباب » بعض القصائد من الشـــاعر « سوللى برودم » و « لويس بويه » وغيرهما .

وأطلق بشارة الخورى على نفسه « الأخطل الصغير » أما الأخطل الكبير فهو غياث بن الصلت بن طارقة ، وهو شاعر نصرانى ، ولد فى حدود عام ٦٤٠ م بالحيرة أو فى الصحراء الشامية غير البعيدة من الرصافة حيث كانت عشيرته ، وينسب إلى عشيرة بنى جشم بن بكر التغلبية ، وهى من أشهر قبائل العرب .

والأخطل من الخطل ، وهو استرخاء الأذن أو سلاطة اللسان ، وقال ابن قتيبة فى أدب الكاتب : « وسمى الأخطل من الخطل ، وهو استرخاء الأذنين » وقال شارحه : « لا أعلم أن أحدا ذكر أن الأخطل كان طويل الأذنين مسترخيهما ، والمعروف أنه لقب بالأخطل لبذاءته وسلاطة لسانه ، وقال ابن دريد فى كتابه « الإشتقاق » : « إنما سمى بالأخطل لسفهه واضطراب شعره » ، والخطل هو العوج فى الحديث ، وفى ذلك يقول الأصمعى اللغوى : « الخطل هو الالتواء فى الكلام ، يقال : رمح خطل إذا كان شديد الإهتزاز ، وشاة خطلاء طويلة الأذنين » .

ويروى فى سبب تسمية الأخطل الكبير بهذا الاسم أن كعب بن جعيل كان شاعر تغلب ، وكان لا يزور معهم قوماً إلا أكرموه ، وضربوا له قبة حتى كان تمد له حبال بين وتدين فتملأ له غنما ، فأتى فى مالك بن جشم ففعلوا ذلك به ، فجاء الأخطل وهو غلام فعاد وأخرجها ، وكعب بن جعيل ينظر إليه فقال : أن غلامكم هذا الأخطل . فغلب عليه هذا الاسم ، ولج الهجاء بينهما .

أما الأخطل الصغير فيقول : أنه تسمى بهذا الاسم عقب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٦ م ، وفى ظروف سياسية عصيبة ، إذ كانت الفكرة السائدة أن الحلفاء سيبعثون الإمبراطورية العربية ، وكانت الحاجة ماسة إلى إثارة الخواطر فى البلاد تعجيلا ليوم الخلاص ، وكان موقفه وقت ذاك وهو يدعو للدولة العربية أشبه بموقف الأخطل من دولة بنى مروان ، فكان يمهر قصائده بالأخطل الصغير ، حتى لا يعلم أحد من أنصار الطغيان فى بلاده حقيقته .

والمعروف أن أكثر الأنصار كانوا لا يرون رأى معاوية فى الخلافة ، فأغرى يزيد بن معاوية الأخطل الكبير بهجائهم ، فطفق ينظم لهم أشد ألوان الأهاجى ، فشكوه إلى معاوية ، غير أن معاوية طالبهم بالبينة ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، ولم يجد الأخطل الكبير مفراً من اللجوء إلى يزيد ليحتمى به . ومنذ ذلك الوقت صار شاعر بنى أمية ، والمكافح عن دولتهم طيلة حياته . وقل مثل ذلك عن الأخطل الصغير ، إذ كان شاعر القومية العربية والمدافع عنها والناطق بلسانها ، وقد آلمه أشد الألم ما اجتاح بنى وطنه من ظلم واستبداد سياسى ، فطفق ينظم بعض القصائد لإثارة الهمم وإشعال الحماسة فى النفوس وحدث فى أكتوبر عام ١٩١٨ م

أن أعلن شكرى الأيوبى قيام السيادة العربية بلبنان باسم الأمير فيصل ، وقام برفع العلم العربى فى بيروت ، وذلك قبل دخول الحلفاء لبنان بأيام ، فاستاء الفرنسيون استياءاً شديداً من هذا العمل ، واحتجوا عليه وحملوا الجنرال «اللنبى» على أن يأمر بإنزال العلم العربى . فثارت ثائرة الوطنيين وعبر بشارة الخورى عن ثورته بما نظم من شعر ، وكتب من مقالات فى هذه الفترة .

وهكذا خاض كل من الأخطلين السياسة ، ونزل إلى معركتها ، وكان له فيها صولات وجولات ، غير أن السياسة ليست كل ما يربط بين الشاعرين ، فهنالك وجوه أخرى من الشبه ، وهنالك وجوه أخرى من الإختلاف نرجو أن نتعرض إلى بعضها فى هذا البحث . ولكن الشىء الذى لاشك فيه أن شخصية الأخطل الكبير استهوت بشارة الخورى منذ نعومة أظفاره ، ولعله فتن بجودة شعره ورصافة أسلوبه ، وحرصه على التراث القديم لجاراه بعض الشىء فى هذا المنهج وعب من تراث الأقدمين ، حتى كان ذلك مدعاة إلى ثورة بعض النقاد عليه فى لبنان ، ولقبوه « بحفار القبور » وشنوا على شعره حملة كبيرة فى صحيفة « الجمهور » اللبنانية عام ١٩٣٠ .

ويقول بشارة الخورى : أنه يعجبه من الأخطل خفة روحه ، وأبداعه فى أصطياد المعانى يقودها ذليلة إلى فسيح معانيه . وفوق ذلك كان الشاعر المسيحى الفذ الذى تتفتح له أبواب الخلفاء يملؤها لذة وطربا وإدلالا .

كان الأخطل الكبير يغشى مجالس الخلفاء والأمراء دون كلفة ودون حرج ، ومدح عبد الملك بن مروان حتى أطلق عليه الخليفة « شاعر الدولة الأموية » ومدح أقرباء الخليفة عبد الملك — عمر بن عبد العزيز وأبنيه الوليد وسليمان ، وأشاد بذكر عثمان ، أما الأخطل الصغير فإنه مدح الملك عبد العزيز آل سعود والأمير عبد الله الفيصل وغيرهما من ملوك العرب وأمرائهم ، ونال الحظوة عند كثير منهم .

* * *

نظم بشارة الخورى الشعر منذ صباه فى كثير من أغراضه ، وعندما انتقل والده إلى الرفيق الأعلى رثاه فقال :

وقفت حيال القبر ما أنا نابس ‏ ‏ بشعر ولكن مقلتى تنبس الشعرا
وهل كنت عند القبر غير قصيدة ‏ ‏ بوا كى قوافيها ترى دون أن تقرا
فتى دامع العينين مضطرب الحشى ‏ ‏ يكفكف باليمنى ويسند باليسرى
وفى عينه ما يعجز الوصف بعضه ‏ ‏ وفى صدره ما بعضه يحرج الصدرا

وشابه الأخطل الصغير الأخطل الكبير فى نصرانيته إلا أن الأخطل الكبير أشد تعصباً وأعمق تمسكا فيما يبدو من آراء الرواة أو بما ترك من شعر ، إذا كان يسمى بذى الصليب لأنه كان يعلق صليباً على صدره ، ويحفظ وصايا كنيسته . . وقال أبو ملك : رأيته بالجزيرة وقد شكا إلى القس وقد أخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يصيء كما يصيء الفرخ ، فقلت له : أين هذا مما كنت بالكوفة ؟ فقال ياابن أخى إذا جاء الدين ذللنا !

أما الأخطل الصغير فليس فى شعره ما يفيد تعصبه للنصرانية، وليس فىشعره ذكر القديس سرجون والصليب ، والرهبان والدعوات النصرانية فالأخطل الكبير بل على العكس من ذلك نجد فى شعر بشارة الخورى بعض آثار الثقافة الإسلامية التى حرص عليها فى شعره حرصاً ، تاما ولا سيما عندما كان يمدح ملوك العربالمسلمين . وقد حاول الأخطل الكبير أن يتناسى نصرانيته فى شعره فلم يستطيع ذلك فى جميع شعره ، أما الأخطل الصغير فقد ساعدته شاعريته الغنائية وشطحاته فى دنيا الخيال . . . وإمعانه فى شعر الحب والجمال على ألا يرى ديناً له غير دين الحب . . . وشرعة له غير شرعة الجمال . . . .

خلق الله للهوى قبلة الرو ‏ ‏ ح وراء الخدود والأجياد
أنا أدرى بالطير حين تغنى ‏ ‏ كم جراح سألت على الأعواد
أنا ناى الهوى الذى أخترع الله ‏ ‏ وأنت الفريد من انشادى

وقال كذلك :

الصبا والجمال ملك يديك ‏ ‏ أى تاج أعز من تاجيك
نصب الحسن عرشه فسألنا ‏ ‏ من تراها له فدل عليك
رفعوا منك للجمال مثالا ‏ ‏ وانحنوا خشعا على قدميك

وقال فى موضع آخر :

رب ، أن الكون مهما عظما هو فى عينك لا يحسب شىء
قدرة ذلت لديها العظما كلهم فان وسبحانك حى

* * *

وأخلق الإنسان خلقاً راقياً واقتل البغض به والكبرياء
وأجعل الحب إلهاً ثانياً ! واسحق المال ولا تبق الرياء !
وليكن كل امتياز « لا غيا » يخرج الناس على حد سواء

وشابه الأخطل الصغير الأخطل الكبير كذلك فى نظم الشعر فى الخمر ومعاقرة بنت الدنان لدرجة أصبحت مقومة لشخصية الشاعرين . وقيل : أن الأخطل الكبير دخل على الخليفة عبد الملك بن مروان فأستنشده ، فقال : قد يبس حلق ! من يسقينى ؟ فقال : أسقوه لبناً ، فقال : عن اللبن فطمت ! فقال : فاسقوه عسلا ، فقال : شراب المريض ! فقال : فأشربوه ماء ، فقال شراب الحمير : فقال الخليفة : تريد ماذا ؟ فقال : خمراً فقال الخليفة : أو عهدتنى أسق الخمر ؟ لا أم لك ؟ لولا موقعك عندنا لفعلت بك ما أريد . وخرج الأخطل من عند الخليفة وهو يردد بعض الأبيات فى الخمر .

ونظم «أخطلنا الصغير» بعض القصائد فى الخمر ، نشر بعضها فى ديوانه « الهوى والشباب » ، كما نشر بعضها الآخر فى مجلة « البرق » التى كان يصدرها بنفسه وفى « مجلة الزهور » التى كان يصدرها المرحوم أنطون الجميل والاستاذ أمين تقى الدين ، ومن شعره فى هذا الباب قوله :

تبسم وشعشع لى السلافة فى الكأس فثغرك فى ليل الحوادث نبراسى
ولا تلمس الكأس التى قد رشفتها أخاف على كفيك من حر أنفاسى
يقول لى الأسى فؤادك موجع فمن أنبأ الآسى بفعلك ياقاسى ؟
وينصحنى الأخوان بالخمر أنها على زعمهم تشفى من الألم الراسى
فها أنا استشفى بها كل ليلة ألم ترنى أستتبع الكأس بالكاس ؟
وأعجب من نفسى ودائى بمهجتى أعالجه بالخمر ترقى إلى رأسى !

* * *

وقد نظم الأخطل الصغير بشارة الخورى بعض القصائد الوطنية التى ضمنها أمانى البلاد العربية نحو الحرية والاستقلال ، والتخلص من نير الذل والاستعباد والسير فى طريق الرفعة والنهوض ، فقال فى عيد الجهاد :

قم نقبل ثغر الجهاد وجيده   أشرق الكون يوم جدد عيده
نحن والموت صاحبان على الدهـ   ـر حشدنا أرواحنا وبنوده
نحن لا نحب الحياة حياة   أو نفدى أوطاننا المعبوده
هكذا تحتفى البطولة بالعيـ   ـد وتسقى أبناءها عنقوده
قل لمن حدد القيود رويدا   يعرف الحق أن يفك قيوده
لن نراها — أن لم نمت فى هواها   — أمة حرة ودنيا جديدة !

* * *

وقال فى ثورة فلسطين عام ١٩٣٥ م حين هب العرب جميعا يساعدون الثوار الاحرار فى ثورتهم ويمدونهم بالسلاح والاموال : —

ياجهاداً صفق المجد له   لبس الغار غليه الأرجوانا
شرف باهت فلسطين به   وبناء للمعالى لا يدانى
أن جرحا سال من جبهتها   لثمته بخشوع شفتانا
وأنينا باحت النجوى به   عربيا رشفتة مقلتانا !

* * *

وهكذا كان بشارة الخورى ينظم بعض روائعه فى العروبة والجهاد ، غير أن منزلته الأدبية لا تعزى إلى قصائده فى هذا الباب ، إنما تعزى إلى ما نظم من شعر غنائى رقيق فى الحب والغزل يحكى تباريح الهوى وشجون النفس ، ولواعج الفؤاد : تأمله وهو يقول فى قصيدة « الهوى والشباب » التى سمى بها الديوان :

الهوى والشباب والأمل المنـ   ـشود توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنـ   ـشود ضاعت جميعها من يديا
يشرب الكأس ذو الحجا ويبقى   لغد فى قرارة الكأس شيا

لم يكن لى غد فأفرغت كأسى ثم حطمتها على شفتيا
أيها الخافق المعذب ياقلـ ـبى نزحت الدموع من مقلتيا
أختم على أرسال دمعى كلما لاح بارق فى محيا
يا حبيبى لأجل عينيك ما ألـ ـقى وما أول الوشاة عليا
أأنا العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيا
اسقنى من لماك أشهى من الخمـ ـر ونم ساعة على راحتيا
أنا ماض غدا مع الفجر فاسكب نغمات الحنان فى أذنيا

* * *

فى هذه القصيدة نلمح الأمل الذاهب والحب الضائع . والشباب وهو يدبر ، وفى هذه القصيدة نرى النفس التى عذبها الأمس ، واحرقها اليوم ، ونقمت على الغد ، فأنتهبت اللذات سراعا ، وشربت الكئوس دهاقا ، قبل أن ينقضى العمر ، وتمضى الأيام .

وقد زخر شعر بشارة الخورى برنات الألم ، ونغمات الحزن حتى أننا نحس فى كل بيت مزقة من روحه ، وشطرا من نفسه ، فيما يجود به من أبيات وأشطار . أسمعه يقول :

أنصف الليل والانام كلهم كلهم نيام
وأنا شهد الغرام بعت للسهد ناظرين
غاليـين
أبدا ساهر كئيب لا صديق ولاحبيب
ومع الليل لى نحيب كنحيب الحامتين
بعد بين
ولقد خيم السكون ونجوم السماء عيون
فتمنيت أن نكون فى سما الحب نجمتين
جارتـين
يالأحلامى العذاب ذابلات مع الشباب
فكأن المنى ضباب يتلاشى بنفختين
اثنتين

لم يعد فى السراج زيت وكما ينطفى انطفيت
فأنا الآن مثل ميت ماله غير ساعتين
لو ترين

* * *

واستخدم بشارة الخورى كثيراً من الصور الجميلة المستحدثة فى شعره التى كسبها من عكوفه على قراءة أدب الغربيين ، وشعر الرومانتيكين والرمزيين: فقال :

رضيت وقد ذهب الجفا وكذا الهوى لين وشده
وتبسمت فعلمت أن رجعت لنا تلك الموده
ورمى الهوى بى فارتميـ ـت وصدرها كان المخده
فأنا بصدر حبيبتى كفراشة فى قلب وردة

* * *

ومن أروع شعره قصيدته « هند وأمها » التى تعتبر من أبدع ما نظم شاعر فى العصر الحديث لما فيها من صور جميلة وخيال بديع ، ونغم رقيق ، وأسلوب عذب رخيم وقصة طريفة مشوقة تذكرنا بادب « الميثولوجيا » الرفيع الذى ندر فى الشعر العربى .

قال :

أتت هنـد تشكو إلى أمها فسبحان من جميع النيرين !
فقالت لها إن هذا الضحى أتانى وقبلنى قبلتين
وفر فلما رآنى الدجى حبانى من شعره خصلتين
وما خاف ياأم بل ضمنى وألقى على مبسمى نجمتين
وذوب من لونه سائلا وكحلنى منه فى المقلتين

* * *

رجعت إلى الروض عند الصباح لأحجب نفسى عن كل عين
فنادانى الروض يا روضتى وهم ليفعـــل كالأولين
فخبأت وجهى ولـكنه إلى الصـدر يا أم مد اليدين
ويا دهشتى حين فتحت عينى وشاهدت فى الصدر رمانتين

وما زال بى الغصن حتى أنحنى   على قدمى ساجداً سجدتين
وكان على رأسه وردتان   فقدم لى تينك الوردتين
وخفت من الغصن إذ تمتمت   بأذنى أوراقـه كلمتين
فرحت إلى البحر « للابتراد »   فحملنى ويحه موجتين
فما سرت إلا وقد ثارتا   بجسمى كالبحر رجراجتين
هو البحر يا أم كم من فتى   غريق وكم من فتى بين بين
فها أنا أشكو إليك الجميع   فبالله يا أم ماذا ترين ؟
فقالت وقد ضحكت أمها .   وقامت من العجب فى بردتين
عرفتهم واحداً واحداً   وذقت الذى ذقته مرتين !

* * *

ولم ينظم بشارة الخورى قصة « هند وأمها » فحسب ، إنما نظم طائفة أخرى من القصص الشعرى مثل « عروة وعفراء » ، التى استمدها من سيرة الشاعر الإسلامى عروة بن حزام الذى تدله بحب عفراء ولكنه لم يتزوجها ، ولم يلبث الموت أن أطاح بحياتها ، فطارت نفس الشاعر شعاعاً من أجلها ومثل قصة « عمر ونعم » التى استقاها من الأدب العربى كذلك ، وتناول فيها قصة الشاعر عمر بن أبى ربيعة مع صاحبته « نعم » عندما سعى إلى زيارتها فى حيها . وقصة « سلفين وجيروم » التى استمدها من بعض قراءاته فى الأدب الغربى ، ونظم إلى جانب ذلك بعض مآسى الحروب فى شعر تذوى منه الأكباد ، ويمزق نياط القلوب .

وامتاز شعر بشارة الخورى كذلك فى بعض الأحيان ، بالخروج على النظام الواحد للقصيدة العربية واللجوء إلى المخمسات والمربعات ، والموشحات وما إلى ذلك من أوزان الشعر فى الأندلس كقوله :

مأبى أنت وأمى أسقنيها   لا لتجلو الهم عنى أنت همى !
أملأ الكأس ابتساماً   وغراما
فلقد نام الندامى   والخزامى
زحم الصبح الظلاما   فإلاما
قم تنهنه شفتينا وتذوب مهجتينا رضى الحب علينا
يا حبيبى

بأبي أنت وأمي أسقنيها ‏ ‏ لا لتجلو الهم عني أنت همي !
غنني وأسكب غناك ‏ ‏ ولماك
في فمي فديت فاك ‏ ‏ هل أراك
وعلى قلبي يداك ‏ ‏ ورضاك
هكذا أهل الغزل ، كلما خافوا الملل ، أنعشوه بالقبل
ياحبيبي
بأبي أنت وأمي أسقنيها ‏ ‏ لا لتجلو الهم عني أنت همي !
ياحبيبي

ويقول في مقطوعته « من رأى الشاعر تاب » منوعاً بين الأوزان والقوافي متخيراً الألفاظ العذبة ، مثيراً « الخيال الصوتي» على حد تعبير «ت . س اليوت» الذي يبعث الإيحاء الموسيقي في النفس :

أنا طيف من خيالات الليالي
من صدى الوادي ومن همس الدوالي
كم على الصحراء وشي من خيالي
وعلى البحـــر يتسابق الغوالي
منهما صغت جلاك ومني النفس رضاك ‏ ‏ أنا والشـــعر فداك يا سليمى
كذب الواشي وخاب ‏ ‏ من رأى الشاعر تاب
عمره فجر من الحب وليل من شراب !

وهكذا امتاز بشارة الخوري بموسيقاه إلى جانب معانيه العذبة وألفاظه الرفيعة وأسلوبه الرشيق .

ولقد كان شعر الأخطل الكبير جزلا رصينا ، وأقرب إلى العصر الجاهلي منه إلى العصر الأموي ، وكان شعره في الهجاء مقذعاً حتى قال الأصمعي حين ذكر جريراً :

« إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً واحداً ومنهم من كان ينفخه فيرمي به ، وثبت له الفرزدق والأخطل » .

وكان شعره في الخمريات لا يضارعه فيه أحد أما في المدح فقدسمت به شاعريته

إلى مرتبة لم يصل اليها أضرابه . ولم ينظم الاخطل فى الرثاء إلا أربعة أبيات رثى بها يزيد بن معاوية ، ولـكن كثيراً من الأدباء أجمعوا على تفوقه ، وفضلوا شعره على جرير والفرزدق وكان أبو عبيدة يقول : شعراء الإسلام الاخطل ثم جرير ، وكان أبو عمرو يفضل الاخطل ، ويشبهه بالنابغة لصحة شعره ويقول : لو أدركت الاخطل يوما واحدا فى الجاهلية ما فضلت عليه أحداً .

أما الاخطل الصغير فقد تآلفت فيه ثقافة العرب وثقافة الغرب واتحدت فيه صور الشعر العربى القديم والشعر الغربى الحديث ، حتى غدا أسلوبه عذبا رقيقاً ، والفاظه سهلة رشيقة ليس فيها غموض ولا أبهام أو تقعر يسمو على مستوى الأفهام ، ولم يهبط فى شعره إلى مهاوى الهجاء أو مساقط البذاء ، ولـكنه كان فى مدحه أقرب إلى القديم منه إلى الحديث ، وإلى إنتهاب معانى الشعراء الاقدمين ، وكان فى رثائه إلا من ربطته به صلة أو أوثقته به قرابة .

والحق يقال : أن بشارة الخورى لم يبدع ناشىء قدرا إبداعه فى شعره الوجدانى الذى يعبر به عن صبابته وهواه وحرقته وجواه وفى شعر الطبيعة التى صادقا لا يرى شاركها فى أفراحها وأتراحها .

كـفانى ياقلب ما أحمل ... أفى كل يوم هـوى أول ؟
عذرتك ياقلب من للهوى ؟ ... أنـتركه بعـدنا يذبـل ؟
سكـتنا فـما غرد العندليب ... وتبنا فـما صفق لجدول !

* * *

أن بشارة الخورى شاعر الهوى والشباب . ومن الهوى والشباب استمد أغانيه ، وفى محرابهما أرسل نفثاته ، وسكب عبراته .

جرت فى الموت والحياة عليا ... ومحوت الضياء من ناظريا
كنت أنشودة الخلود عـلى ثغـ ... ـرى وهمس السماء فى أذنيا
كـنت وثبات فاضمحلت وحلماً ... من شـعاع الصبا حين حياً
ياخيال الحبيب لم تبق منى ... غير حزنى وغير دمعى حياً
أمسح العبرة بالجفون وفاء ... لغرامى وإن أساء اليا
أ إذا رمت قبلة من حبيبى ... عثرت قبل لمسها شفتيا
ضحك الحظ مرة لى فى الحلـ ... ـم فلما انتبهت لم أر شيا

* * *

إلياس فرحات

كان له ولا يزال له دور كبير فى نهضة الشعر العربى، وقد جمع إلياس فرحات بين كفاحين، كفاح فى سبيل الحياة، ومن أجل لقمة الخبز حتى استطاع أن يقف على قدميه أمام نوب الدهر، وصروف الزمان ويحيا حياة أقل ما يقال فيها أنها كريمة أبعدته عن ذل السؤال، وهوان المسغبة، وكفاح فى سبيل المجد حتى تبوأ مكانة رفيعة فى ميدان الأدب، ومضمار الشعر واستطاع أن يكون لنفسه إسما طائر الصيت، مرفوع الذكر لا فى المهاجر الشمالية والجنوبية فحسب بل فى شتى البلاد الناطقة بالضاد، وأخرج ديوانه عام ١٩٢١ فى سان باولو بالبرازيل، كما نشره مرة أخرى عام ١٩٣٢ ونشر كذلك دواوين الربيع والخريف والشتاء والصيف وأحلام الراعى عام ١٩٥٢.

ولد إلياس فرحات فى بلدة «كفر شيما» بلبنان وهذه البلدة التى أنجبته هى التى أنجبت اليازجى وتقلا وشميل وغيرهم من أقطاب الأدب والصحافة وكانت ولادته عام ١٨٩٣ من أبوين لم يكن لهما حظ من غنى أو نصيب من ثروة، والتحق وهو صبى بمدرسة «الشويفات» حيث مكث بها بضعة أيام، ثم انتقل إلى مدرسة فى وادى شحرور بيد أنه لم يستطع أن يواصل تعليمه، فخرج وهو فتى إلى غمار الحياة.. ومعترك الكفاح.. وشرع يقوم بتقشيش الكراسى، وتنضيد الحروف والزخارف، ولكنه لم يستطع أن يواصل العمل فى هذا الميدان، وأغرته تلك المجالات الفسيحة التى وجدها أترابه الذين هاجروا إلى المهاجر الأمريكية، فأزمع الرحيل إلى هناك يحدوه الأمل ويحييه الرجاء وفى عام ١٩١٠ خرج إلياس فرحات من وطنه مهاجراً، وهو لا يزال فتى يافعاً فى السابعة عشرة من عمره، وقاسى فى ترحاله صنوفا شتى من المتاعب، وضروبا مختلفة من المشقات بيد أنه لم تلن له قناة، ولم يعجم له عود، بل واصل السير لتحقيق مآربه.

حياة مشقات :

ويقص علينا إلياس فرحات فى قصيدته « حياة مشقات » ألواناً من هذه المتاعب فيصور أنه ركب عربة يقودها جوادان ، أحدهما بحمر هزيل والآخر أترب ، وكانت خيمتها تدعو إلى السخرية والإستهزاء ، وجلس بجوار الحوذى ، ومن خلفه الصناديق التى كان يحملها ، وفيها ما يسر وما يعجب ،وتضم شتى صنوف السلع والبضائع ، وطفقت العربة تعلو به حينا وتهبط به حينا آخر كأنها الموج الذى يتحرك على صفحة الماء ثم دخلت العربة الغاب عند ما انبثق نور الصباح ، فحسب أن الليل البهيم يطويه طيا ، ويلفه بأرديته السوداء لفا ، وطفقت العربة تهتز فوق الناتئات من الحصى فتملكه الرعب وأدركه الهول والفزع ، ثم مر على أكواخ خالية خاوية على عروشها ليس فيها بشر وينعق بها البوم وهى مفككة الجدران ، وسقوفها يطل عليها النجم ويأفل ، ويهب الهواءفتدركه سنة من النوم، ولكن قسوة البرد لا تلبث أن تذهب هذا الكرى عن الأجفان فيشتهى النوم اشتهاء ويرجوه رجاء ، بيد أن جمر السهاد يقلقه ويؤرقه ، ويشرع إلياس فرحات يشرب مما تشرب الخيل مرة ، ويشرب مما تعافه الخيل أن تشربه مرة أخرى . .

وقد يصادف فى سيرة جميلة من الجميلات ، فتهتز نفسه ، ويرتاح قلبه، ويمتع بصره ، وقلبه بمنظر الغيد الملاح ، والكواعب الحسان ، ولا يلبث الحب أن يلج قلبه ، ويتغلغل فى سويدائه ، ولا يستطيع منه خلاصاً ، ولا عنه مصرفا ، ويأخذ يضرب فى فجاج الأرض الرحيبة ، ويعاشر صنوفا من الخلائق ، وألواناً متباينة من العباد ، وأناساً لو عاش القرد معهم لما تعب داروين فى تطبيق نظرية النشوء والإرتقاء ، ويضطر إلى الانصات إلى كل أبله ، كأنما هو معجب بأسرار البلاغة، ويضطر إلى أن يبدل من كراهية الأشياء حباً ، ومن حب الأشياء كراهية ، ويخاف قطاع الطريق ويحاول أن يرهبهم ويرفع سلاحه فى وجوههم .

وهكذا يمضى فى قصيدته « حياة مشقات » يصور رحلته ولكنه يضفى على ذلك كله ثوبا من تجاربه وحكمته وفلسفته فيقول :

أنا من يرى أن الرياء معرة   وأن خبيث القول فى الصدق أطيب
وما أنا إلا كالزمان وأهله   أعاف وأستحلى وأرضى وأغضب

فعز الفتى الطاوى الفيافى مسدس　　كما أن عز الليث ناب ومخلب

بين البؤس والنحس :

وقد صور إلياس فرحات مدى البؤس الذى كان يلاقيه والنحس الذى كان يلازمه ، والضنى الذى كان يصاحبه فى تلك الأبيات التى تنضح لوعة وحزناً ، وتنطق يأساً وبؤساً :

أغرب خلف الرزق وهو مشرق　　وأقسم لو شرقت كان يغرب
وأنفر من واد الطود كأننى　　وقد بوق الداعون للصيد ربرب
لئن غردت للشاعرين بلابل　　فإن غراب الشؤم حولى ينعب
وإن كان علماً ثابتاً قول بعضهم　　لكل إمرىء نجم فنجمى المذنب!

كفاح فى البرازيل :

وصل إلياس فرحات إلى البرازيل وحط رحاله واشترك مع توفيق ضعون عام ١٩١٩ فى إصدار مجلة « الجديد » حتى انفرد توفيق صنعون بإصدار مجلة « الدليل » ، فى أول أبريل عام ١٩٢٨ ولم تكن حياة إلياس فرحات فى هذه الفترة رغدة أو هانئة ، إنما كان لا يزال يكابد أثقال الفاقة والفقر ، وكان لا يمتلك رداء مناسباً يرتديه أمام الناس لأنه كان مندوب « الدليل » فاستحصل على « بدلة » بألف وخمسمائة قرش يدفع ثمنها على أقساط شهرية حتى يحافظ على مظهره كمندوب للجريدة ، ولكن شرارة من النار أدركت كمه فى سفر من الأسفار من مدخنة قطار ، فأحرقته فحزن أشد الحزن وأدركه الأسى ، وسجل آلامه فى نفثة من نفثات شعره :

كأن الهواء مع النـــار لما　　رآنى لبست الجديد اتفق
فجاء بها من دخان القطار　　ونثرها فوقه فاحترق
فقلت أعاتب ربى مشيراً　　إلى الحرق وهو كباب النفق
ولو كنت غصناً لجددته　　حتى ما بشير الربيع انطلق
ولكن أرى دون تجديده　　شتاء الأسى وسيول العرق

خصلة شعر :

وقد ظل إلياس فرحات طيلة إقامته فى المهجر الجنوبى يحن إلى وطنه الأول حنينا عظيما ، ويصوغ قلائد الشعر فى مناجاته ، والتغنى برياضه وأرباضه ، والترنم بمفاتنه وبجالية ، وقد حدث أن أهدت إليه صاحبته قبل الرحيل خصلة من شعرها . فظل محافظاً على هذه الخصلة ، ومضى ينظم قصيدة من أغوار فؤاده ، وأعماق قلبه يناجيها ويصور حبه القديم ، وذكريات هواه ، بين مغانى لبنان :

خصلة الشعر التى أعطيتنيها　　عند ما البين دعانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها　　وسأتلوها إلى اليوم الأخير
راجعى سيرة حبى راجعيها　　فهى نور ساطع للمستنير
وإذا مرت بك الريح سليها　　إنها تعرف من أمرى الكثير

وقال فى نفس القصيدة « خصلة الشعر » فى لوعة تعصر فؤاده ، وأسى يهصر عوده :

كلما أذكر أيام صبـــانا　　ولياليها اللذيذات العذاب
تصهر الأحزان فى قلبى الجنانا　　وأقاسى كل أنواع العذاب

لم يتعلم الياس فرحات تعليما منظما فى المدارس والجامعات ، إنما تعلم من مدرسة الحياة شأنه فى ذلك شأن إيليا أبى ماضى ، ورشيد سليم الخورى الشاعر القروى وغيرهما من عمالقة شعراء المهجرين الشمالى والجنوبى ، ومن يمعن النظر فى قراءة شعره يلاحظ أقباساً من الثقافة العربية القـــديمة . ومشابه بينه وبين أبى الطيب المتنبى فى اللجوء إلى الحكمة ، ومحاولة استخدام الفلسفة فى الشعر وتخريج المعانى الجديدة ، وتصوير التجارب الدنيوية ، واستخلاص الحكم من صروف الزمان ، فهو يقول :

ومن سد مجرى النهر يوما ولم يكن　　أعد له مجرى جديداً تندما

ويقول :

فرب قلب كالحمامة أبيض　　للخير يخفق تحت جلد أسود

ويقول :

والخد يعلم ما فى الدمع من حرق ... وليس تعلم ما فيه المناديل

بين المتنبي والياس :

فهذه الأبيات وغيرها مما صاغه إلياس فرحات تشبه إلى حد بعيد شعر أبي الطيب المتنبي الذى أغرم بهذا اللون من الشعر ، وكانت هذة المعانى تتلألأ فى شعره كالدرارى فى وسط العقد النضيد، بل إنه تعلم كالمتنبي فى مدرسة الحياة، وأكثر من ملازمة الوراقين ، وكان عليه من دفاترهم ، وفى ذلك يقول الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد : « وطلب الأدب وعلم العربية ، ونظر فى أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ فيه الغاية التى فاق (فيها) أهل عصره، وعلا شعراء وقته » .

وقد اتجه إلياس فرحات إلى توخي الحكمة فى شعره وهو لا يزال شاباًغض الإهاب ، فى عنفوان الحب وزهرته ، والغريب أنه صاغ فى هذه الفترة بعض القصائد التى كأنما صاغها شيخ مسن قد عركته السنون ، وتهالكت عليه التجارب ، فقال :

وبنو الزمان إذا بحثت ... وجدتهم أهل المآثم
يشكون من ظلم الزمان ... وكلهم للكل ظالم
فإذا أتيت فبالسلام ... وإذا مضيت فبالشتائم
عشق الخداع لسانهم ... وفؤادهم عشق الدراهم

وقد قتل أبو الطيب هذا المعنى فى شعره من قبل وشكا الناس وأخلاقهم ، فهم فى نظره ظالمون بطبعهم ، مخادعون لأفضل لهم ولا خير ، بل إنهم ليسوا أهلا للرحمة . . قال أبو الطيب المتنبي :

إذا ما الناس جربهم لبيب ... فإنى قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا ... ولم أر دينهم إلا نفاقا

وقال أيضاً :

ولما صار ود الناس خباً ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه ... لعلمى أنه بعض الأنام

وقال كذلك :

ومن عرف الأيام معرفتى بها ... وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

ثقافة الشاعر :

وصور إلياس فرحات ثقافته فى إحدى قصائده ، ومنها نستطيع أن نضع أيدينا على المنابع التى استقى منها فن الشعر ، وهذه المنابع هى الطبيعة بمفاتنها ومحاسنها ، والكون « جامعة الجامعات » والدهر « أستاذها المعتبر » والقصيدة حلوة المعنى رقيقة الوزن . .

يقول إلياس فرحات :

يقولون عمن أخذت القريض ... وممن تعلمت نظم الدرر
وأين درست العروض وكيف ... تلقنت هذا البيان الأغر
وما كنت يوماً بطالب علم ... فإنا عرفناك منذ الصغر
فقلت أخذت القريض صبياً ... عن الطير وهى تغنى السحر
وعن خطرات عليل النسيم ... يمر فيشفى عليل البشر
وعن زفرات المحب الأديب ... يزاحمه الموسر المحتقر
وعن نظرات الحسان اللواتى ... يكدن يغلغلنها فى الحجر
وعن عبرات الحزانى الضعاف ... فنى عبرات الحزانى عبر
كذلك تعلمت نظم اللآلى ... لفرط الغرام وطول السهر
فهذه القصائد منها السماك ... ومنها الثريا ومنها القمر

ولا يلبث إلياس فرحات بعد ذلك أن يخبر سائليه عن مدرسة أخرى تعلم فيها واتقن فنون التعليم ، وهى مدرسة الكون التى لا يعلى عليها . . فيقول :

لئن كنت أدخل المدرسات ... صغيراً ولا بعد هذا الكبر
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر أستاذها المعتبر
فنى المبكيات بيان جليل ... وفى المضحكات معان غرر

هوى الأوطانه والشباب المولى :

وقد ظل إلياس فرحات يحس بلواعج الشوق ، وتباريح الحنين إلى مسقط رأسه ووطنه العزيز حتى زاره منذ أيام ، وبين أحضانه الحبيبة وقف يترنم بأعذب القصائد ، ويردد لحنه القديم :

وطنى حببتك سيدا ومسودا وحببت أهلك عوجا وورودا
أبغى لهم رتب العلا ولو أنهم تخذوا على جسدى الطريق صعودا

فهنا يبلغ الحب أوجه ، ويبلغ هوى الأوطان منتهاه ، فبلاده وإن جارت عليه عزيزة وأهله وإن ضنوا عليه كرام ، على حد تعبير الشاعر القديم وهو يكن له الولاء سواء كان عزيزاً أم ذليلا ، ويتمنى لأهله الرفعة والعلاء ولو أنهم صعدوا مراقى المجد فوق جسده ، ومدارج العز فوق ظهره !

ومنذ سنوات وقف إلياس فرحات يئن ويشكو ، وينشر آهة حزينة من آهاته على الملأ جاء فيها :

فر عصفور شبابى من يديا فعصافير الهوى تبكى عليا
لم أمت بعد ولكن ليس من أصبحت تنفر منه الغيد حيا
كان إن أطلقته فى جنة يلثم الزهر ويرتد إليا !

والواقع أن عصفور شبابه لم يهرب ، ولم ينطلق فى الأجواء من غير رجعة إنما إنطلق ليهيم فى الآفاق ، ويسبح فى السموات ، ويتغنى بأفانين الجمال . وعصافير الهوى لم تبك عليه لأنه ما زال يغرد ، وما برح يرسل أعذب الألحان ، ويسكب فى الأسماع أشجى الأنغام ، ولم تنفر الحسان منه . . . فقصائده ملء صدور الحور !! .

رشيد سليم الخورى

من الأنباء الطيبة التى سرت كالشذى العطر والنسيم الفواح ، والتى كان لها أجمل الأثر فى جميع الأوساط الأدبية والثقافية ، نبأ هذا الوسام السامى الكريم الذى علقه السيد الرئيس جمال عبد الناصر على صدر الشاعر القروى المعروف رشيد سليم الخورى ذات يوم فهو نبأ طيب تقبله الجمهور المثقف بفرحة كبرى لا تقل فى درجتها وحرارتها عن تلك الفرحة التى قبل بها نبأ تكريم توفيق الحكيم فالقومية العربية لا تعرف حدوداً ولا سدوداً ولا تفضل إقليما على إقليم ، إنما تمجد أبناءها فى شتى الأقطار والأمصار .

ومما يثلج الصدر كذلك ، أن السيد كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية تبنى طبع ديوان الشاعر الذى يربو عدد صفحاته على ألف صفحة بالكمال والتمام . . بل يقال إن الديوان يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة صفحة فى حجمه الجديد ! وأطلق الشاعر على ديوانه « ديوان القروى » لأنه ولد فى قرية من قرى لبنان بين المروج الخضر والأشجار الملتفة والأغصان المتعانقة والجداول السارية والغدران الصامتة وانطلق مع الطير يغنى أهازيج الحب وأناشيد الغرام . .

وكان يحتضن عوده بين صدره كما يفعل المنشدون فى العصور الوسطى فى أوربا . وقد درس رشيد فى القرية فالتحق بأحد الكتاتيب ثم دخل مدرسة الفنون فى صيدا فالكلية السورية الانجيلية ببيروت ، ولما تخرج فى المدرسة عمل مدرساً فى إحدى المدارس المحلية وسارت حياته على هذه الوتيرة هادئة هانئة إلى أن فاضت روح والده إلى بارئها ، وهنا تراكمت على الشاعر الهموم من كل جانب ولا سيما أن والده كان مغرقا بالديون فألح الدائنون عليه بطلب أموالهم وكان شاعرنا لا يملك من متاع الدنيا شيئاً فاسودت الحياة أمامه وضاقت فى عينيه سبل العيش .

وهنا أضاءت فى خاطره فكرة نيرة وهى أن يهاجر إلى المهاجر الأمريكية فى الشمال أو الجنوب بيد أنه شعر أنه فى حاجة إلى اقتفاء أثر الشاعر الياس فرحات الذى هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٠ فلم تمض ثلاث سنوات على هجرة فرحات حتى سافر رشيد سليم خورى فى أثره — وكله أمل وكله تفاؤل بالمستقبل السعيد فى أرض البرازيل الفسيحة الشاسعة .

وحمل رشيد الخورى على ظهره صندوقاً من الزنك يبيع فيه السلع فى وقدة الحر وتحت وابل الغيث الهتون دون ضجر ودون تبرم وطفق يشترى بما يبيعه من سلع لقمه يسد بها رمقه ويمسك بهـا أوده وتعينه على شق الطريق الطويل . وكان إذا وجد فراغا من الوقت حمل عوده بين أحضانه ومضى يعزف أشجى الأنغام ويردد أحلى الألحان ويعطى دروساً لمن شاء من أهل الفن وهواة العود وعشاق القيثار !

وبهذه الطريقه أخذ الشاعر القروى يشق طريقه فى الحياة من غير تردد ولا ولا إحجام ويحصل على طعامه من هذه الجوارب والمناديل التى يبيعها تارة ومن دروس العود التى يلقنها وتارة أخرى ارتفع صيته فى البرازيل وتردد شعره على كل لسان ، ونشر ديوانه لأول مرة فى مدينة سان باولو بالبرازيل فتهافت القراء عليه تهافتاً شديداً حتى نفدت طبعاته ومضى الناس يبحثون عنه فى كل مكان دون جدى . .

ولم تهدأ قريحة الشاعر القروى بل مضى يجود بالشعر العذب كما تجود الصخرة بالمـاء الزلال حتى زاد عدد ما نظمه من قصائد على الآلاف !

الإنسانية فى شعر القروى :

ومن أخص ما يمتاز به الشاعر القروى أنه شاعر « إنسانى » بأدق معانى هذه الكلمة وأوسع مدلولات هذا اللفظ ، لا يعرف التعصب إلى نفسه سبيلا ولا يجب التحزب إلى قلبه طريقاً ، لا تحس فى شعره نعره الطائفية أو المذهبية ولا تلمس فى إنتاجه المصانعة أو المداهنة أو النفاق ، فهو لا يعبر إلا عن نفسيته دون تزويق ودون تنميق . ومن أجل ذلك نجده لا يحرص على شىء قدر حرصه على التمسك بأهداب العروبة والتعلق بمبادئها والدعوة إلى الأخذ بناصرها فيقول :

لم يعن هذا الشعب أنى شاعر حر يحب بـــلاده متفانى
بل كل ما يعنيه هل أنا مسلم ؟ لله أم أنا لم أزل نصرانى ؟
أنى عـلى دين العروبة واقف قـلبى عـلى سبحاتها ولسانى
إنجيـلى الحب المـقيم لأهلهـا والذود عن حرماتهـا فرقانى
يا مسلمون ويانصارى دينـكم دين العروبة واحد لا أثنان !

فما أكرم هذه النفس الـكريمة وهـذه الرروح الشريفة التى لا يعكرها غل ولا حقد، ولا يرنق صفوها تعصب ولا تحزب ، فإذا هى ناصعة كشعاع الشمس بيضاء من غير سوء . ولقد حمل الشاعر الياس فرحات مع رشيد الخورى ألوية العروبة فى المهجر البعيد دون عصبية دينية حمقاء فقال فرحات فى نفس المعنى :

قم ولا تحسب الفوارق فى الأديا ن تبنى الحدود للأوطان

الصوفى المعذب :

وكان إذا ضاقت به الدنيا رفع إبتهالاته إلى الله تعالى يسأله الصفح والغفران فى حرارة الصوفى المعذب الذى يتوق إلى مصدر الجمال الربانى وينظر حوله إلى البحر الخضم الرحيب فيجد القدرة الربانية تسيطر على أمواجه وتحرك عبابه ، فإذا بالمحيط الهادر يهدأ بعد ثورة ويسكن بعـد فورة فلا يملك الشاعر ألا الخضوع والخنوع والصبر على أساه وبلواه ! :

يارب إنك صاحب الأمر وأنا إليـك موكل أمرى
من لى سواك إذا الهموم طمت وتلاعبت بسفينة العمر !
مرها تطعك ! فطالما سـكنت طوعا لأمرك لجـة البحر !
أكـذا أظـل الدهر مرتطما أبحـر من صخر إلى صخر
خمس مضت واليوم سادسه من غربتى فى أثرها تجرى
لم ألق فى أثنائهـا سـنه إلا وأهون ما بهـا فقرى ؟

ومن أطرف القصائد التى نظمها الشاعر القروى وتمثل إنسانيته حق تمثيل كما تصور البيئة البحرية التى عاش فيها الشاعر العربى والتى لم تتوافر لشاعر عربى من قبل تلك القصيدة المسماة : « السمكة الشاكرة » ، وقص لنا فيها حكاية سمـكة أمسكت بها شبكة الصياد وكادت تنزع منها الروح لولا أن رق قلبه عليها فأطلق سراحها فأنطلقت سابحة فى الخضم الرحيب .

برزت إلى سطح المياه ولو درت بشراً لغاصت للقرار الأعمق
فتسابق الغلمان يصطادونها رميا بأنياب الشصوص البرق
تلتقف « الديدان » جائعة وقد غفلت بها عن كل شر محدق
علقت بشص فاعتلت وترجحت كترجح المستشهد المتعلق !
فتزاحموا وسط السفينة حولها يتضاحكون لدمعها المترقرق !
البحر منها قيد باع وهى فى غمرات بحر بالمدينة مطبق ؟
ردوا الحياة إلى البرئية واحبسوا أنفاسكم عن صدرها المتمزق
وطرحتها فى البحر فانسرحت كما أطلقت طيراً فى الهواء المطلق

ويشرع الشاعر القروى بعد ذلك يخاطب السمكة أو « ربيبه الأمواج » فى أسلوب ساحر ساخر . ويعقد المقارنات بين العالم المائى الذى تعيش فيه ، والعالم الترابى الذى نعيش نحن فيه ويدعوها إلى تجنب الأرض وآثامها والبشر وشرورهم والقصيدة لون ظريف من الشعر تأتى طرافته من جدة الموضوع كما تأتى من تشويق الأسلوب وحبكة القصة الشعريه وانطلاقها فى آفاق جديدة قلما يخوضها الشعر العربى .

ولم تكن أسماك البحر وحيا له فحسب إنما كتب فى طيور البحر وتعرض فى شعره للطيور والطائرات التى تتنافس فى أجواء السماء .

وهذه النغمة التى يصبها الشاعر القروى على البشر فى قصيدة « السمكة الشاكرة » وعلى المدينة فى قصيدة (طيور البحر) نحسها كذلك فى قصيدة « الدوحة الساقطة »! التى صور فيها شجرة شاهقة ساقطة على الأرض بين ألفاف غابة من غابات البرازيل فى إحدى ولايات « بارانا » ، حين أعمل الإنسان منشاره فيها فألقاها فى الحضيض . فليس بين الأشجار سيد ولا مسود ، وليس بين الأشجار كبير ولا صغير ، وليس بين الأشجار غنى ولا فقير ، إنما هناك عدالة إجتماعية لا تدانيها عدالة البشر ! :

نحن النبات جميعنا راض بما قسم القدير
نحيا سواء ليس يمتاز الكبير عن الصغير
لا من ينام على الحرير ومن ينام على الحصير
هذا التراب طعامنا وشرابنا هذى البحور

يخشى الانام من الثرى ونعده المهد الوثير
يتصورون قبورهم فيه فيخشون القبور
نعم القبور بفضلها نحيا على دهر الدهور

بين البشر والبقر :

وهكذا كان الشاعر القروى يجد فى العوالم الأخرى سعادة لا تعادلها تلك الموجودة فى الأرض بل إنه وجد فى دنيا الحيوان ميزات غير متوفرة فى دنيا الإنسان وعبر عما يعن له من أفكار فى هذه الناحية فى قصيدته المسماة « بين البشر والبقر » واستهلها بهذا البيت :

طوباك سارحة فى القفر طوباك إن كنت أحسد مخلوقاً فاياك

ويمضى الشاعر القروى مقارنا بين حياة البشر والبقر فيقول :

تشكين فصل الشتاء البارد القاسى ماذا أقول أنا فى عشرة الناس ؟
نامى على الثلج نامى ليس من باس فالثلج غير فؤاد دون أحساس
وإن تكن عاطلات الغيب تغشاك طوباك فالقطر غير الدمع طوباك

معان مبتكرة :

ولابد لدارس الشعر الحديث أن يسجل فى معرض حديثه عن الشاعر القروى تلك المعانى الابكار كالعذارى التى جاء بها مجلوة ساحرة تختلب القلوب إختلابا وإخترعها إختراعاً فاستوت على قدميها ناضجة تزخر بالحياة والجمال :

تأمل قوله في وصف الطيف

إن جهلتم فسائلوا الطيف عنى فلكم طيفكم بجفنى ألما
كلما سال مدمعى فى هواكم غشى الطيف مقلتى واستحما

وتأمل قوله فى الحلم والحقد :

يزل الغيظ عن صدرى كغيث تحدر عن جبال شاهقات
وكم تلق صدوراً سافلات جمعن الحقد كالمستنقعات !!

وتأمل وصف شاعريته في مقطوعة (الفوتوغرافية) :

لا أنشد الشعر إلا حين يجرحني سيف الزمان ويدمي قلبي الترح
مثل الفوتوغراف يبكي ساكتاً أبداً وليس ينشد إلا حين ينجرح

وتأمل معناه في مقطوعة « غسل القلب » :

رب كن لي مرشداً وأسهر على وأسكب الحق ندى من شفتى
وامتحن قلبي وذكرني به كلما أغسل وجهي ويدى

العصبة الأندلسية :

فهذه المعانى طريفة ما فى هذا شك وتشبه إلى حد بعيد معانى الشعر الأندلسى المبتكرة ولا غرو فى ذلك فقد كان الشاعر القروى رئيساً لجماعة أدبية أطلقت على نفسها « العصبية الأندلسية » وأسسها المرحوم ميشيل معلوف عام ١٩٣٥ وصار رئيسا لها ثم تلاه فى رياستها شاعرنا القروى رشيد الخورى . وقد حاولت هذه العصبة انعاش حال الشعر القروى فى المهجر الجنوبى كما اقتفى بعض شعرائها آثار الشعراء الأندلسيين فى الخيال والأسلوب وفاضوا عليها بوحى عبقريتهم وفنهم .

ونظم الشاعر القروى ديواناً وطنياً رائعاً أطلق عليه « أعاصير » وقف إلى جانب شعره الغنائى العاطفى ، يشهد بعلو كعبه وقدرته الشعرية وأهداه إلى شهداء الوطنية ، وصدره بكلمة تنضح بالوطنية الصادقة وتدعو إلى تماسك العرب حتى يقفوا فى وجه أعدائهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ولم يسم ديوانه « أعاصير » إلا لما كانت تزخر به جوانحه عند نظم هذه المجموعة الشعرية من العواطف الزاخرة بالحماسة والغضب والألم والتنهدات والدموع .

وقال فى صدر ديوانه أعاصير : « هذه الأعاصير مختارات من شعرى الوطنى نحيتها عن سائر أشعارى لتعيش فى جو وحدها ، إنها خواطر جامحة وأفكار ثائرة بلوت من صراعها فى صدرى مع أخواتها الوادعات ماأشفقت معه أن أجمع بينهن فى كتاب ، يسمنه من تنابذهن وحراشهن ماسمنى من عذاب » .

فلا غرو إذن أن يكون الشاعر القروى حديث المجتمع الأدبى فى العصر الحديث ولا غرو أن يزين صدره بوسام رفيع يشهد بوطنيته وأصالة فنه الشعرى . .

عمر أبو ريشة

شاعر بارع انحدر من أرض سورية الطيبة ومن شعبها الكريم ونشر شعاعه الوهاج فى أطراف شتى من المعمورة ، وكان له فى البرازيل والهند والجمهورية العربية المتحدة جولات وصولات شعرية .

وكانت ولادة شاعرنا فى مدينة عكا عام ١٩١٠ ، ومسقط رأسه هذه مدينة ذات شهرة تاريخية كبيرة ، ومرت بها إحن ومحن شتى وظلت رابضة كالأسد الهصور أمام حوادث الأيام وصروف الزمن وحاول نابليون بونابرت أن يقتحم أسوارها ويهدم حصونها بيد أنها ردته على أعقابه خاسراً كما حبتها الطبيعة برياض مونقة ، وحقول خصبة وجبال شامخة تضرب فى عنان السماء ، ولذلك كانت مهبطاً للشعر ومسبحا من مسابح الخيال ، ومرتعا من مراتع الفكر ، وقد قضى عمر أبو ريشة فترة صباه بين ربوعها فأطلقت خياله من عقاله ونمت فيه مواهبه الفنية مما كان له أبعد الأثر فى إنتاجه الأدبى فيما بعد .

وسافر عمر أبو ريشة عندما بلغ الشباب إلى بيروت حيث التحق بالجامعة الأمريكية ومكنته دراسته فى الجامعة من الأطلاع على روائع الآداب العالمية والتمكن من اللغات الحية ، وقد ظهرت مع الأيام كفاءته وخبرته فعين بعد ذلك بأعوام مديراً لدار الكتب فى حلب وهـــذا المنصب من المناصب المرموقة فى سورية ، ولا يعين فيه إلا كل أديب ضليع متمكن ، فوجد عمر أبو ريشة فى منصبه الجديد ضالته المنشودة وكان يختلس من وقته الذى كان يصرفه كله فى العمل والإدارة بعض ساعات يرجع فيها إلى روائع الكتب ودواوين الشعراء وذخائر المخطوطات النفيسة فانعكس أثر ذلك على أدبه وإنتاجه .

ذكريات لبنان الحبيب :

وقد ظل أبو ريشة يحمل للبنان الحبيب أعذب الذكريات وأحلى الأطياف وإليه مضى يشدو ويترنم :

يا مغاني لبنان هل هجع السـ مار وانفض عقدهم يا مغاني؟
أين ناد لنا سهرت عليه والليالي مطروقة الأجفان
غمرته المنى فليس لنا ما نتمنى في ظله الجذلان
كل أرجائه من المتع البيض ثغور تصيح يا من يراني !

وبين وهاد لبنان حاول عمر أبو ريشة أن ينسى حبه ويلتمس سلواه ، بيد أن خيالات الحب ظلت تلاحقه أينما ولى وجهه ، واتخذ طريقه ، وبينما كان واقفا على صخرة في جبل لبنان يستعرض ذكريات خلابة تلفت ذاهلا كأنه يريد أن يكلم من ظنها أنها قريبة منه :

ليلى ! أنا وحدى أقلب في الربى طرفاً يروح به الجمال ويرجع
أسهو على ذكراك حتى أنثنى متطلعاً لهفى لمن أتطلع
بيني وبينك عالم لم يدنه شوق ولم يبلغ حماه تضرع
أقتات بعدك بالخيال وقلما دنق الظلام وما احتوانا مضجع
ليلى ! يكاد هواك يجرح زهوتى فتبوح بالألم الدفين الأدمع

وهذه الأبيات تشبه إلى حد بعيد تلك الضراعة التي كان يسوقها قيس بن الملوح إلى صاحبته ليلى بنت عامر ، ففيها الحيرة التامة والقلق الشديد وفيها اللهفة العارمة والنظرة الساهمة ، وفيها اللوعة التي تحطم النفس وتهشم الفؤاد ، وفيها الدموع السخينة والعبرات الحزينة . . ولكن قيس بن الملوح كان يناجي صاحبته في البيد والقفار أما عمر أبو ريشة فإنه يناجي صاحبه بين الربى والوهاد في جبل لبنان ، بيد أن كليهما يجرح الهوى كبرياءه ويذهب بروائه ويتركه إلى الألم والدموع والحرمان .

السلك الدبلوماسي :

قضى عمر أبو ريشة فترة جميلة من شبابه في لبنان وظل يتردد على الجبل بين الفينة والفينة كلما سنحت له الظروف وسمحت له شواغل العمل ، ولم يلبث أن ترك وظيفته في مكتبة حلب وعين ملحقاً ثقافياً لسوريا في الجامعة العربية وتولى إدارة مكتبة حلب الأديب السوري المعروف الأستاذ سامى الكيالى صاحب مجلة « الحديث » ، فاتصل عمر أبو ريشة بالهيئات الثقافية في الإقليم الجنوبي وعاش فترة من حياته بين أحضان النيل الحبيب فبعث في نفسه ذكريات هوى قديم

وسافر إلى إنجلترا واتصل بالمحافل الأدبية هناك، وعين عام ١٩٤٩ مندوباً بمؤتمر اليونسكو فشرف بلاده فى وفادته ثم عين سفيراً لسوريا فى البرازيل عام ١٩٥٠ وساهم فى الحركة الأدبية فى المهجر الجنوبى، ثم عين عقب ذلك سفيراً للجمهورية العربية المتحدة فى الهند وظل فى منصبه حتى انتهت مدة سفارته.

وقد ظل أبو ريشة يحمل لهذه البلاد التى زارها أعذب الذكريات، وسجل خواطره فى مذكرات وأشعار لا يزال يحتفظ بها معتزا بها بين أوراقه الخاصة فهى ذكريات عذبة عن وقائع حلوة وأوقات معسولة هيهات أن تدركها يد النسيان!

أثر الثقافة العربية:

هذا وقد تمثلت فى شعر أبى ريشة ثقافته العربية التليدة التى يحرص عليها ويفخر بها فهو شاعر متعلق بحكمة أبى الطيب المتنبى وقوة أسره ورصانة ديباجته، وهو شاعر متعلق بفلسفة أبى العلاء المعرى، ويحرص على أن يعرف آراءه فى الأحياء والأشياء فى العصر الحديث. وهو قارىء للجاحظ متبحر فيه مأخوذ به، يستمد بعض قصائده من آرائه فى الحيوان وغير الحيوان. وهو يعارض «ديك الجن» الشاعر ما استطاع إلى ذلك سبيلا. إذ يروى أن ديك الجن الحمصى قتل جاريته الحسناء حباً بها، وغيرة عليها وجعل من بقايا جثتها المحروقة كأسه، وكان ينشد بين شربه وبكائه أبياتاً من الشعر جاء فيها:

أجريت سيفى فى مجال خناقها ... ومدامعى تجرى على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتى من شفتيها

فقال أبو ريشة

دعها! فهذى الكأس ما ... مرت على شفتى نديم
لى وقفة معها أمام ... الله فى ظل الجحيم!

مع أبى العلاء:

ومن الأبيات التى نظمها أبو ريشة وتوضح مذهب أبو العلاء المعرى فى

الحياة، وإعتكافه عن الناس وتواريه عن الخلق، واستيائه من أفعال العباد قوله .

هذه الدار كم سئمت بها العيش وكم ذقت مرها ألواناً !
سرحت فى ضلوعها شبح النسل فنزت ضلوعها أدرانا
فتواريت عن عيون مراض خلت ألحاظها عليك سنانا
فطويت الأيام فى عزلة الر هبان لم تحتسب له حسبانا
قد تجف الحياة إلا وريداً ويضيق الوجود إلا مكانا !

وهـــذه المعانى تعتبر قبسة من « لزوميات » أبى العلاء المعرى التى ضمنها آراءه الفلسفية فى الشرائع والعادات ونظم الحياة .

الروضة الجائعة :

وللشاعر عمر أبى ريشة ولع شديد بالجمال الذاوى والحسن المتصوح والفتنة الذابلة ، وهو محق فى هذا فليس الجمال كما يقول الفيلسوف « جاريت » وقفاً على السماء الزرقاء والنجوم التى تلتمع فى السماء وضوء القمر الجميل الذى ينسكب فى سحر وفتنة على الأكوان إنما يتمثل الجمال كذلك فى الزهرة الذابلة والروضة الذوابة والعاصفة الهوجاء وإمارات الكبر وتجاعيد الشيخوخة .

ولذلك نظم الشاعر أبو ريشة قصيدة من عيون قصائده فى «الروضة الجائعة» التى تصوحت أزهارها ، وتبعثرت أوراقها ، وفرت أطيارها فقال :

أفى هذه الليلة المقمرة أهيم بأرجائك المقفرة؟
عرفت الذهول الذى قادنى إليك فأحببت أن أنكره
لك الخير! يا روضتى لم أجد سواك مواسية خيرة
أتيت لأنسى فما لى أرى الـ ـهواجس كالسحب الممطرة
تلويت فوق زنود الخريف على وهج لذاته المفكرة
ولما تعريت لم تسمعى سوى ضحكة منه مستهترة
فأصبحت خلف جبين الحياة وأحلامها فكرة نيرة !

وفى قصيدة « طلل » مر أبو ريشة بصرح رومانى قديم لا يستطيع غير الظن

أن يتحدث عن ماضيه ، واسترعى انتباهه خلوه من الشوك ، وتألق ترابه النظيف فقال فى نفسه : إن الموت يقف أمام ضحيته مجروح الكبرياء لأنه لا يستطيع أن يفتك به أكثرمما فتك ! . . فالشوك موجود ، والبوم تنعب والعناكب مذعورة ، تريد الأفلات من الحبس وتعبت كف الدمار مما فعلت حتى أوشك الموت أن ينتحر من يأسه أن يفعل شيئاً فقال فى مستهل القصيدة :

قفى قدمى إن هذا المكان يغيب به المرء عن حسه
رمال وأنقاض صرح هوت أعاليه تبحث عن أسه
أقلب طرفى به ذا هلا وأسأل يومى عن أمسه

الأطلال فى الأدب الغربى :

وهكذا أتفق أبو ريشة مع الشعراء الجاهلين فى الوقوف على الأطلال بيد أنه كان يمتاز عن هؤلاء الشعراء بأسلوبه الحديث ، ولفظه العذب السلس الذى لا يعرف التقعر ولا الألتواء ، وهو فى وقفته أشبه بشعراء العصر السكونى الذين أغرموا بوصف الديار فى الأدب الإنجليزى ، وفى عام ١٤٦٧ ظهرت قصيدة كامله عن الأطلال لشاعر يدعى « فرنسسكو كولونا » وصور فيها صراع الحب فى حلم ، وتحدث عن عاشقين يجوسان بين الأطلال .

وقد ظل حب الأطلال يسيطر على كثير من الأدباء والفنانين فترة طويلة مثل روزا وكلود وبوسان وغيرهم، بل إن حب الأطلال سيطر على كتاب مسرحية فكتب وبستر إحدى مسرحياته وجعل بطلها أنطونيو يصف لدليو الأطلال وصفاً مثيراً . وامتلأت أشعار جون دير وجرونجر هيل بوصف الأطلال والأحزان واللذات كما امتلأت أشعارهم بوصف الكهوف والأشباح والخفافيش والأفاعى وما إليها من مستلزمات الأطلال .

وقد صور شاعرنا عمر أبو ريشة فى قصيدته « طلل » تلك الحياة التى أخذ بها الشعراء الغربيون . كما أخذ بها الفنانون فى التصوير والعمارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . مثل سلفاتور روزا وبوسان وجادى وغيرهم. فملأ نفوسنا بشعور غريب ، وأحساس رهيب لا يحسه إلا ذلك الذى يجوس فى وحدة خلال الأطلال .

العاطفة فى « عاصفة » :

وفى قصيدة « عاصفة » التى نظمها عمر أبو ريشة نحس بدمدمة الريح وزئيرها العاصف المجنون ونرى الشاعر يشرع فى قتل حبيبته لأنها لم تلب نداء قلبه وتاقت إلى سواه وأخذت تعب كئوس الراح معه دهاقا :

إشربى إشربى بقايا خمور   أسأرتها يد الأسى فى إنائى
إن هذه العروق فى جسمك البغى   أنابيب شهوة لا دماء !

ولا يلبث بعد ذلك أن يخور جسمه ، وتضعف يداه ، ولا يستطيع أن يحقق مأربه .. وتعتريه الرعشة وتدركه الرعدة .. ويرجع يجرر أذيال الفشل والخيبة ..

ما لكفى ترجفان وما للدمع   يهمس بالرغم من مقلتيا ؟
انهضى انهضى فلست أطيق الحسن   تذوى أزهاره فى يديا
أنت أولى بالعيش منى فسيرى   واتركينى أطوى الحياة شقياً !

وهكذا تخمد الرغبة فى نفسه وتهمد الشهوة إلى الدماء ، ويقهر الحب قلبه ، ويقلم أظافر هذا الأسد المصور الذى يزأر بين جوانحه ويحيله حملا وادعاً لا يملك حولا ولا قوة .

« اليتيم » :

وهذه العاطفة التى تلين كالماء السلسال نجدها تتدفق لوعة وأسى ، وتنفجر حرقة وجوى ، فى قصيدة « اليتيم » ، فإذا بالشاعر يحرك نياط القلوب ويستدر مذارف الدموع :

كما يرنو إلى جمال زمانه   وجراح الآلام فى أجفانه
ما دعته الحياة إلا كئيباً   ساحباً فوقها خطى أحزانه
ساهم واجم كأن الأمانى   أنفت أن تمر فوق لسانه

ولا يبرح بعد ذلك أن يلتمس لهذا اليتيم المعذرة ويسكب عبرات صادقة على بلواه ويشاركه ما يشعر به من أسى وحرمان :

اهملوا شأنه ولو شاء وا لبثوا به نباهة شانه
رب سجن لم يلعب النور فيه كان أحنى عليه من سجانه
وقيود كانت أخف عضاضا من عضاض المختال فى طيلسانه
خلقة الله أبدعتها يداه واستحقت بها يداً إنسانه

وهنا يبلغ العطف أوجه ويدرك قمته وذورته ، فيهيب الشاعر بالأخيار من الناس أن يمسحوا عليه بيد الرحمة لأنها على حد تعبير المنفلوطى « تمسح الشقاء من هذا العالم كما يمحو نور الصبح مداد الظلام » :

يا اكف الحنان كم من كسيح كنت عوناً له على جريانه
كفكفى الدمعة البريئة وامحى أزغب الريش من رياح زمانه
أنت من رحمة الألوهة ينبو ع يعب العطاش من فيضانه

مصرع فنان

وفى قصيدة مصرع فنان نلاحظ نفس هذا الشعور حيال الفنان الذى يحرق عصارة ذهنه دون جدوى فيضطر إن أن يلتمس السم فى الدسم ، فيترع كئوس الراح دهاقا ، ويعب الدخان عباً حتى تستحيل رئتاه إلى مجامر من لهب وينتهب اللذات غداقا ابتغاء النسيان حتى يسلمه ذلك كله إلى الموت ويدق الناقوس ينعاه .. ويموج المصلى بالأحبار والعلماء ورؤوس الرجال مطرقة حزينة والمناديل فى اكف الغوانى اللاتى ينهلن من الدموع ، ثم يحمل نعش الفنان الأبيض ويسير كتائه فى القفار . . بينما الألحان الحزينة تودعه إلى مقره الأخير . . .

وفى موته تتردد عبرة خالدة هى « إن البلاد أهملت شأنه . . وصمت أذنيها عن دمدمات فؤاده . . . » .

مسرحيات أخرى

ذلك هو الفنان فى نظر عمر أبو ريشه ، ومن أجل ذلك نجده يحرص على إسعاده ونعمته . . . وجعله بطلا من ابطال قصائده الشعرية وتمثلياته القصيرة ،

مثل تمثيليه « غداً » التى يتقاسم البطوله فيها « جميل » المصور و « نزار » رفيق الصغر ، و « سعاد » الملهمة .

ونظم عمر أبو ريشة فضلا عن ذلك مسرحيات أخرى شعرية مثل « ذوقار » و « الحسين بن على » وسميراميس ومحكمة الشعراء ونظم ملاحم تصور البطولة فى أجلى معانيها وأروع صورها كملحمة « محمــــد » وملحمة « خالد » « الفتى الأرجوانى وبطل اليرموك ، ولا تزال دور النشر تنتظر من إنتاجه الشىء الكثير . . .

محمود حسن اسماعيل

يعد الشاعر محمود حسن اسماعيل من أبرع شعراء العربية فى العصر الحديث ، ومن الشعراء الذين حملوا راية التجديد فى الشعر العربى . وقد أتيح لى أن أقضى معه فترة طويلة فى هذا الاسبوع عندما أهدانى كتابه الاخير (نار وأصفاد) لا كتب عنه ، بيد أننى لم أشأ أن أفضل هذا الانتاج الاخير عن انتاجه الاول ، بل أردت أن أنظر فى شعره كعمل فنى متكامل ، فرجعت إلى دواوينه التى أخرجها وهى (أغانى الكوخ) و (هكذا أغنى) و (أين المفر) و (نار وأصفاد) وغيرها من آثاره الشعرية .

ولعل أول ما يسترعى النظر فى هذا الشاعر ، أنه شاعر مصرى بأدق معانى هذه الكلمة وأوسع مدلولات هذا اللفظ فهو قد نشأ فى الريف ثم شاءت الظروف أن يرحل إلى القاهرة لطلب العلم ويلتحق بكلية دار العلوم ، بيد أنه ظل حريصاً على هذا الحب متعلقا بهذا الود ، يعشق الريف ولا يستطيع منه خلاصا ولا عنه انصرافا ، ويجد فى مروجه الخضر وجداوله الهامسة وعصافيره وقماريه جمالا لا يعدله جمال ، وفتنة لا تعدلها فتنة ، ولكنه ليس بشاعر وصاف فحسب يحسن الوصف ويبدع التشابيه والتراكيب ويستخدم الاستعارات والمجازات استخداما طوع بيانه ورهن اشارته انما هو شاعر يفنى فى الطبيعة . . تصفر القبرة فكأنما تسلسل روحه فى صفيرها . وتنوح الساقية فترجع له أصداء الآلام الانسانية ، ويرى فى ذلك الثور المستعبد الذى يلهبه الفلاح بسوطه وهو صادح خلفه بأغانيه الوديعة معنى خفياً ترمز به الطبيعة إلى قوة القدر التى تسخر الانسان وتسوقه إلى المخابىء البعيدة عن إدراكه وحسبانه .

ويعد ديوان « أغانى الكوخ » أول لبنة يضعها شاعر فى خدمة الريف والمطالبة باصلاح القرية ، كما يعد الديوان أول ثورة فى الشعر العربى على الاستعباد والاقطاع فى وقت لم يستطع أحد أن يعبر عن هـذا الظلم المبين الذى يكابده الفلاح المسكين ، فأولى الشاعر عناية كبيرة إلى ذلك الفلاح

الذى يراه العابر من أقصى الوادى لأدناه منحنى القامة فى قيص أزرق مكبا على الأرض يغرس فيها الحب ويرعى النبت الغض الوليد ، ويحصد اليابس الذى استوى على سوقه وأدى ثمره لغارسه ، فلم ينل منه إلا كسرة معفرة سوداء يأكلها وهو بين زوجه وأولاده فى كوخه الضيق الذى ينكش فيه مع البهائم والحشرات . يقول فى قصيدة زهرة القطن كنز الذهب الأبيض .

ذاك تاج النيل ! فاندب عنده — أمل الفلاح والجهد المضاع
وأرث للمسكين عيشاً أسودا — ران فى كوخ حقير متداع
نامت النعمة عنه ! وجفت — معدماً لم يرعه فى مصر راع
عفرت ريح الاسى كسرته — وطوت نعماءه دنيا الصراع
رقص القصر على اكتافه — وهو جاث . . بين ذل وإقتناع
وسطا البؤس عليه ، فغدا — زورقا فى اليم محطوم الشراع

وديوان أغانى الكوخ حافل بحب القرية منبع الخير والبركة للمدينة الصاخبة اللاغبة ومورد الثراء للقصور الفخمة الضخمة . فنظم قصيدة « حاملة الجرة » يتغنى فيها بالفلاحة التى تسير إلى الجدول كما يدب الكرى فى مقلة العشاق حتى تصل إلى الشاطىء فتملأ جرتها منه فيصفق الموج على ساقيها كأنما أخذ بفتنتها وسحر جمالها وأشتعل قلبه حبا وولها من أجلها . كما نظم قصيدة الساقية أو القيثارة الحزينة ووجد فى صوتها بكاء يفتت القلب ، وعذوبة اللحن ورخامة الصوت وعطر الزهر وترنيم المزمار ، وصور القرية الهاجعة فى ظلال القمر وقد لفها الليل فاستراحت من الضنى على حضنه الرفيق الهنيء ، فقال مخاطباً قريته .

إيه يا قريتى ! أصيخى لشاد — سكب اللحن فى رنين شجى
شاعر هزه هواك فغنى — لك انشودة الجمال البهى
مد أوتاره أشعة بدر — غارقات فى صمتك السرمدى
ساحرات النهى برعشة أطيا — ف تراقصن فى الفضاء الوضى
ذاهلات كأنها حلم صب — تاه فى سكرة الهوى العذرى

وقد أحدث ظهور هذا الديوان « أغانى الكوخ » ثورة كبرى فى الشعر العربى حتى أقيم إحتفال كبير لتكريم ناظمه اشترك فيه بعض أقطاب الفكر العربى ، وخطب فيه المرحوم الدكتور زكى مبارك فقال : لم يجرؤ شاعر مثل صاحب هذا

الديوان أن يمجد الفلاح مثل هذا الشاعر ، فلا غرو إذا إعتبرناه أساساً لصرح فنى كبير اقامه محمود حسن إسماعيل فى دنيا الشعر ، بل أنه استهوى كثيراً من الأدباء فى الغرب والشرق فترجم الديوان برمته إلى اللغة الجورجية فى أوكرانيا ونشرت عنه الصحف الروسية مقالات ضافية فى صفحتها الأولى منذ أعوام عند زيارة السيد الرئيس للاتحاد السوفيتى .

أما ديوان « هكذا أغنى » الذى صـــدر للشاعر عام ١٩٣٨ بعد ثلاث سنوات من ظهور أغانى الكوخ فيعد امتداداً لشعور الشاعر نحو القرية المصرية كما أنه حافل بالقصائد التى تدور على المحور الاجتماعى وتنقد مساوىء المجتمع ، ومن قصائده « وطن الفأس » وهى القصيدة التى أنشدها فى حفل تكريمه يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٥ بمناسبة ظهور ديوانه الأول ، وقصيدة الشادوف وراهب النخيل كما أنه يثور على بعض الأوضاع الاجتماعية الظالمة ويتصور الدودة وقد تحدثت إليه فى ذلك . كما لا يخلو ديوانه من سياط على الرق الاجتماعى ، ونظم دموع إنسانية نحو المشردين عندما أنشأ قصيدة من أنين المشردين ، وأهداها إلى الأطفال الذين نبذتهم الحياة وشردتهم قسوة الإنسانية فراحوا يهيمون فى الظلام ولا يكفون حتى ينبعث للرحمة غراس فى قلوب البشر : .

نحن دمـع فى تراب الزمن ما بنـا يشعر سار فى الحيـاه
قـد تجـافتنا ظـلال الوطن وأجتوانا كل حى فى ثراه
كلـا نشـكو عـذاب المحن تهتف الشكوى على بؤس الشفاه
لو دعوتم ميتاً فى كـفن أو صرختم بين أجواز الفـلاه
ردد الميت نشيد الحزن ورمال البيد رقت للشـكاه ! !

وقد ألجأت ظروف الزمن الشاعر إلى العزلة والوحدة فنظم بعض قصائد تنضح بالاسى وتفصح عن ألمه الدفين وحزنه العميق وضـيقه بالحياة وتبرمه بالأحياء مثل « آهة شق » التى يقول فيها :

ضاق عيشى وضاقت الأرض حولى وانحنت من شقاء عمرى الاهله
ونشدت المنى فولت هبـاء رب ما هذه الحياة المملة ؟ !

ومقطوعة « العزلة » التى يشبه فيها الشاعر لامارتين عنـدما أراد أن يتجنب

الناس وينأى عن الخلق فنظم مقطوعة من أروع شعره فى الوحدة . قال محمود حسن إسماعيل .

أتركونى وعزلتى يا بنى الطيـ ـبين فانى على حماكم غريب
أنا فى صمتها صلاة .. فخفوا فاهجروا أرضها فانتم ذنوب
وأتركونى بظلها أتغنى فغنائى لما جرحتم طبيب
أنتم الهم فى دمى وهى الفر حة والصفو والمنى والحبيب

أما ديوان الشاعر الثالث « أين المفر » الذى ظهر عام ١٩٤٧ وصدره بتلك الحكمة « وكلما ناء قيد جاء قيد .. ربى أين المفر ؟ » فيعالج الرق الإنسانى بصفة عامة ، وقد ثار فيه الشاعر على هؤلاء الذين يدعون التجديد وتطعيم الشعر العربى الجامد بلقاح الفن الأوروبى وترميم هياكله وموميائه بطرائق الأدب الحديث على حد تعبيرهم دون أن يفهموا جوهر الشعر العربى ولا الشعر الأوربى ، كما ثار على هؤلاء الذين أغرموا بطلاسم اللفظية وعملوا على ترويج هذه البضاعة الذهنية الشائهة وهتك الحجاب عن هؤلاء الذين يدلسون فى إبهاء الشرق بأنهم أضافوا جديداً إلى أدبه الراكد العقيم فى النزعات والمذاهب والمدارس وكلها « مباخر مدخولة الفوح على الشعر العربى » على حد تعبير الشاعر ولذلك نراه يقول فى فاتحة ديوانه ومطلع ملحمته الرق مصوراً الرق بوجه عام واخضاع الانسان لآراء معينة وأفكار خاصة يجبر على اعتناقها إجباراً وأوضاع محتومة يرغم عليها إرغاما :

ألقيتنى بين شباك العذاب وقلت لى غن
وكل ما يشجى حنين الرباب ضيعته منى
هذا جناحى صارخ لا يجاب فى ظلمة السجن
ونشوتى صارت بقايا سراب فى حانة الجن

أواه يا فنى !

لو لم أعش كالناس فوق التراب

وجدد الشاعر محمود حسن إسماعيل فى الاوزان والموسيقى الشعرية فى هذا الديوان بصورة أكثر وضوحا وانطلاقا . وتعد قصائد « العزلة » و « الخريف » و « ليل وريح » و « حب » و « البعث » و « الزهرة اليتيمة » من القصائد التى تمتاز بحلاوة الموسيقى ورقة الجرس وجمال النغم وروعة الايقاع فضلا عن خيالها

الساج ووقعها العذب . ولعل قصيدة « النيل » للشاعر من أروع القصائد التى يضمها هـذا الديوان . فالنيل « مسافر زاده الخيال والشعر والعطر والظلال » بيد أنه ظمآن والخمر فى يديه والحب والفن والجمال . ولقد صور الشاعر فى هذه القصيدة ما الهمه به شطه الجميل وما انساب فوقه من زروق يحمل الشوق والحنين وعما يذكر أن ثلاثة شـعراء نظموا عام ١٩١٨ ثلاث قصائد عن النيل وهم شيللى وكيتس ولى هنت . وقصيدة محمود حسن إسماعيل تشبه إلى حد بعيد قصيدة كيتس رغم أن قصيدة لى هنت تصور ضحكات كليوباترا وأصداء سلطانها العظيم وسط خريره العذب ، لأن شيللى نظر إلى النيل نظرة المتفكر المتأمل فى رموز الخير والشر ، أما كيتس فنظر اليها نظرة الفنان الذى يرى فى كل شىء خصوبة وجمالا فهو ينشر قطر الندى على النبت الأخضر، وينعم بحلاوة الشروق وفيه جزر خضراء، ويسعى كغيره من الأنهار إلى البحر حثيثاً فى نشوة السعادة . ومحمود حسن إسماعيل يشبهه فى هـذا الإتجاه ويختلف عن لى هنت الذى وقف موقف المؤرخ لا موقف الفيلسوف كما فعل شيللى ولا موقف الفنان كما فعل كيتس فهو يرى مصر من خلال تاريخها كلوحة لها طول وعرض . أما عمقها فهو النيل .

أما ديوانه « نار وأصفاد » فيصور كفاح الأمة العربية من فجر الإسلام حتى عصر السد العالى .

وقد ظهر هذا الديوان عام ١٩٥٩ وهو حافل بالشعر الوطنى المكتوب بطريقه انسانية عميقة لا بطريقة سطحية ، ويصور ما لاقاه الشعب العربى من اضطهاد ومدى المقاومة ضد الإستعمار والاقطاع كما انتقد الحفلات الراقصة التى تقام باسم البر . وله قصيدة « خيمة البهتان » التى صور فيها اللاجئين المشردين ، وكانت من القصائد الأولى التى استشهد بها الأستاذ صالح الاشتر أستاذ الأدب العربى بجامعة دمشق فقال فى خير وخر :

رأيت مطوقة بالزهور … وبالخمر والليل راحت تدور
تنادى على الكأس : يا جرعة … من السحر تشفى ظلام الصدور
وتلك السواعـــد ماذا بهن … صوارى سنا أم مدارى عطور ؟!
يردن السبيل إلى المكرمات … ومنهن يهوى شقاء الخدور

ضمن الانامل حول الرحيق كما ضمت الفجر رؤيا لجور
هتكت بهن حياء الظلام ومزقت عنه الحجاب الطهور

وصور محمود حسن إسماعيل نهضة الشرق ووثبته الكبرى فى العصر الحديث فى هذه الأبيات ومعركة الحرية يتأجج أوارها فى سماء بور سعيد الخالدة وقد هب الشرق العربى كله مع مصر نضالها الخالدة لسحق الغزاة وسحق العدوان على لسان الشرق :

أنا المارد الجبار .. هبت قيامتى لتعصف بالاغلال فى كل بقعة
رفعت جبينى للسماء .. فأوشكت تمس مدار الشمس أنوار جبهتى
أنا البعث!! مهما قاوم الغرب ثورتى أنا النور .. مهما قاوم الليل يقظتى
أنا الحر .. يدرى كل حر مواقفى ويشهد لى التاريخ فى كل صفحة
أنا العزة الكبرى. أنا الشرق الفليعد إلى كيانى بعد طول التفتت !

وهكذا كان الشاعر محمود حسن إسماعيل رائداً من رواد الشعر فى العصر الحديث وشاعراً يغنى مشاعر القرويين والمدنيين بل المشاعر المصرية الصميمة والعروبة والإسلام ، ويتجاوب مع الأحداث الكبرى التى تلم بالوطن العربى الكبير ، وبالشرق المجيد العظيم ، رغم أن كتبه من روحه لروحه صلوات وتغنى كما قال فى ديوانه « هكذا أغنى » .

فهرست

الصفحة

طه حسين ٣

عباس محمود العقاد ١٥

أحمد حسن الزيات ٤٠

محمد حسين هيكل ٥٠

سلامة موسى ٥٧

عبد العزيز البشرى ٦٤

مصطفى لطفى المنفلوطى ٧٣

جميل صدقى الزهاوى ٨٠

ولى الدين يكن ٨٩

حفنى ناصف ٩٧

زكى مبارك ١٠٣

مصطفى صادق الرافعى ١١١

أمين الريحانى ١١٨

توفيق الحكيم ١٢٧

إبراهيم المازنى ١٤٣

محمود تيمور ١٥٠

يوسف السباعى ١٦١

نجيب محفوظ ١٧٦

محمود سامى البارودى ١٨٣

إسماعيل صبرى ١٩١

أحمد شوقى ١٩٩

حافظ إبراهيم ٢١٥

عباس محمود العقاد ٢٣١

خليل مطران ٢٣٧

على محمود طه ٢٤٣

إبراهيم ناجى ٢٥١

الصفحة

أحمد زكي أبو شادى ٢٥٩

أبو القاسم الشابى ٢٦٥

ايليا أبو ماضى ٢٧٠

بشارة الخورى ٢٨٨

إلياس فرحات ٢٩٩

رشيد سليم الخورى ٣٠٦

عمر أبو ريشة ٣١٢

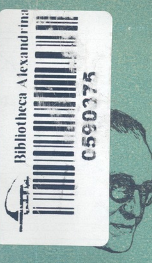
محمود حسن اسماعيل ٣٢٠

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحانى ت : ٤٧٤٨٦









هذا كتاب غزير المادة يحلو فى أسلوب رقيق وبيان مشرق رشيق . حياة وأدب مشاهير أعلام الأدب والشعر فى العصر الحديث ، وقد كتبه أحد الكتاب المعروفين فى النهضة الأدبية الحديثة وهو الدكتور جمال الدين الرمادى .

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة أقسام : قسم للكتاب وتناول فيه حياة وأدب طه حسين والعقاد والزيات وهيكل والرافعى والمنفلوطى وغيرهم من حملة اليراع الساحر والبيان الناصع .

وقسم للقصصيين وتحدث فيه عن توفيق الحكيم وإبراهيم المازنى ويوسف السباعى ونجيب محفوظ ومحمود تيمور وغيرهم من رواد القصة الحديثة .

وقسم عن الشعر وتناول فيه حياة وشعر البارودى وإسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه ومحمود حسن إسماعيل .

ولم ينس المؤلف الحديث عن جميل صدقى الزهاوى من العراق وبشاره الخورى من لبنان والياس فرحات ورشيد الخورى من المهجر وأبى القاسم الشابى من تونس وغيرهم من عمالقة الأدب والشعر فى جنبات الوطن العربى الكبير ؟